الوافي بالأدب العربــي
فى المغــرب الأقصــى

محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الاول

نشر وتوزيع



دار الثقافة

34.32 شارع فيكتور هيكو
الدار البيضاء
تليفون : 26.23.75

الطبعة الاولى 1402 هـ 1982 م

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

وبعد فهذه دراسة كانت نواتها الاولى قد القيت فى الاحاديث الاذاعية التى عهدت الى منذ فجر الاستقلال فكانت الاذاعة الوطنية توجهها الى المستمعين بالداخل طيلة خمس سنوات ، كما كانت توجه أخرى نحو الشرق الادنى فى نفس المدة ، وباختلاف بسيط عن الأولى .

واثر ذلك كاتبنى ، وأنا بمدينة بريطون Brighton أستاذ مصرى ، هو محمد عفيفى ، فى شأنها ، فوجهت اليه بمجموعتى الاحاديث ، التى استخلص منها كتاب « الادب المغربى » فكان بذلك شريكا فى التاليف ، الذى استقل فيه ، بالمقدمة ، والتمهيد ، واللمحة الجغرافية ، والتاريخية ، وما الى هذا حتى الفصل الاول من الكتاب (1) .

لقد كان عنوان تلك الأحاديث « تاريخ الادب المغربى » . وبهذا كان النهج فيها مسايرة الحقب التاريخية التى عاشها هذا الأدب منذ بزوغ فجره الى ظهره الذى يظلنا .

نعم ، كانت الأحاديث استعراضا لشريط الادب العربى فى هذه البلاد ، غالبا ، مع بعض الملاحظات والوقفات النقدية أو المقارنة أحيانا ، وانتهى ذلك الشريط عند نهاية القرن الثالث عشر الهجرى .

وتلت هذه الاحاديث محاضرات كنت ألقيها بكلية الآداب ، فى الرباط وفاس ، منذ بداية سنة 1960 ، مما استغرق أكثر من عشرين سنة . وانضاف اليه أحاديث اذاعية عدت الى القائها عندنا بعنوان « قصة الأدب العربى بالمغرب الاقصى » .

فكان النهج فى هذه هو النهج فى تلك السابقة ، مع بعض الاختلاف الذى فرضه الزمان الفاصل بينهما ، والمعلومات التى نتجت فيه والملاحظات التى تولدت منه ، فكان التغيير

(1) ومن المؤسف أن هذا الزميل قد ترك بعض الفقرات التى وردت فى تلك الاحاديث على ما هى عليه ، بعد ما حذف متعلقاتها من ذلك ما نجد فى الصفحة 206 من الطبعة الاولى هكذا :

« وقد أشرنا الى هذا من قبل ، وضربنا له أمثلة جميلة من أشعار المغاربة ، ولا سيما مالك بن المرحل منهم » .

فهذا كلام كان منا اشارة الى ما سبقه من أحاديث ، ولم يرد مضمونه فى هذا الكتاب ، كما جاء بعد فى نفس الصفحة :

« ونختم هذا الحديث بفقرات من رسالة طويلة لأبى القاسم العرفى . . . . »

فهو كلام فى هذا « الحديث » صارخ بهذا القبيل المذاع .

وكذلك نجد فى الصفحة 511 ما يلى :

« وفى الحديث الآتى سنتناول هذه المسألة »

فهذه أيضا احالة اداعية منى على « الحديث الآتى » الدى تحقق فيه دلك « المحال » عليه منى ، ولكنه لم يتحقق فى هذا الكتاب ... وغير هذا مما يطول ذكره ، ومنه التعليق (1) بالصفحه 496 حيث الاحالة على الفصل السادس ، بما لا ذكر فيه ، وهو من حديث لنا

والتهذيب والتشذيب أحيانا والزيادة أحيانا أخرى ولعل سائلا يسائل :

ان كان النهج واحدا ، فما الحامل على تبديل العنوان ؟

والجواب ، أن هذا التبديل ، كان من ضمن نتاج ذلك « الزمان » الذى جعلنا نطمئن الى صحة هذا العنوان اطمئنانا تاما ، ونفضله على ذلك الذى لم نطمئن اليه هذا الاطمئنان الكلى ...

فالقومية التى دعا اليها الداعون فى الشرق ، وكنا من تلاميذهم نتحمس لها مبدئيا ، لم نجد لها مرآة صافية صادقة فى ادبنا ، ولا فى آى ادب كان وما زال فى باقى البلاد العربية ، وهو أدب الفصحى ، التى تهيمن ـ بحمد الله ـ علينا جميعا .

بل اننا حتى فى لغتنا العامية ، نقول ، اننا نتكلم العربية ، نقول ذلك فى المغرب والمشرق ، ولا نقول ، نتكلم المغربية أو المصرية مثلا ، فما دام ذلك كذلك ، فلا يكون من الواضح أن نقول « الأدب المصرى » ـ كما قال بذلك أستاذنا الخولى يرحمه الله ـ وألف كتابا بهذا العنوان. لان الأدب الفصيح فى مصر ليس له من المعالم الخاصة المميزة له عن غيره شىء ذو بال .

وكذلك لا نقول « الادب المغربى » كما قلنا بذلك ، وكتبنا فيه ، باحدى المجلات ، تحت عنوان « ظهور الأدب القومى العربى » (1) . لان هذا الادب الفصيح ليس له من ميزات خاصة به ايضا .

فالأدب الذى يستحق هذه التسمية الخاصة هو ما كان لاولئك الذين ظهرت آدابهم القومية اخيرا ، بعد ما ظهرت لغتهم بذلك المستوى الذى مكنها من هذه الآداب (2) .

لقد كانت اللغة المستعملة فى اسبانيا أو الاندلس خاصة ، تدعى باللغة اللاتينية ، ولهذا وجدنا ابن حزم يسميها بذلك فى كتبه بالنسبة « اللاطينية » . وكانت العلوم والآداب فى باقى البلاد الأوربية ، قبل التاريخ الحديث ، تؤلف باللاتينية ، ولم تتخذ لغتها القومية فى علومها وآدابها ، الا بعد أن ارتفعت لغتها العامية الى ذروة من الكمال ، واصبحت قادرة على تأدية هذه المهمة قدرة تامة فانفصلت عن أمها وودعت حاضنتها الوداع الأخير ، وقد ردت هذه الى أرذل العمر وأشرفت على الفناء ، أو كادت ، فهى قابعة فى عقر دارها ، لا يلم بها الا أفراد لا يتعدون عدد الأنامل ، بخلاف العربية فهى تتمتع بريعان شبابها ، يتكلمها الناس ويتفاهمون فيما بينهم وتخاطبهم فى الصحافة اليومية والاذاعات المستمرة ، وهى كل يوم ترفد هذه العامية وتهذبها وترفع من أفكارها وتقوم على تربيتها خير قيام . ولهذا فان العامية فى حاجة ماسة الى هذه الأم الرؤوم والحاضنة الحنون . ومن قبل حاولت العامية فى مصر الانفصال عنها . فلم تقو على ذلك ، وباء الدعاة اليها بالفشل الذريع . فالحمد لله مرة أخرى على هذه الفصحى التى لاتنفصم عراها .

---

(1) كان ذلك سنة 1950 ونشر فى مجلة « القافلة » التى صدر العدد الاول منها بالبيضاء ، فكان الاول والآخر منها .
لقد كان الأستاذ أمين الخولى يدعو الى هذه القومية بكل حرارة وايمان ، وكانت محاضراته فى هذا الاتجاه تنقضى فى النقاش الذى يشارك فيه طلاب العالم العربى ، كما كان زملاؤه وعلى رأسهم المرحوم عبد الحميد العبادى يعارضونه فى كل لقاء ، حتى فى القطار الذى كان يحملهم من القاهرة الى الاسكندرية ، حيث جامعة فاروق الأول ، كل أسبوع .. وفى سبيل هذا خصص لنا أستاذا للفرعونية ، كان نفسه ومميدته الأستاذة عائشة بنت الشاطىء ، آنذاك ، يحضران معنا فى الصباح الباكر بكلية الأداب من جامعة فؤاد الاول .

(2) وفعلا فقد بدأت بوادر هذا فى أدبائنا الشباب الذين تخصصوا فى الأدب الحديث عندنا ، ومع ذلك فان منهم من طلب من موظف ـ كان ـ بالمركز الجامعى ، أن يبحث له عن قصة كنت ترجمتها عن التركيه وتحمل عنوان « أجر وصبر » فلم طلبها السيد « المحاضر » ؟ العلم عند الله .

منهاج الكتاب

لقد مهدنا بمقدمة فى المراكز الاولى للثقافة المغربية ، وفيما يلابسها من ظروف تاريخية وآجتماعية وجغرافية أحيانا ثم قسمنا الموضوع الى ابواب داخلها فصول ، حددناها بمراحل تاريخية ، وان لم يكن هذا التحديد حاتما فيما بينها : اذ كل مرحلة من مراحل التاريخ لا بد أن تكون موصولة بمـــا قبلها ، غير مفصولة عما بعدها · على أن كل ذلك انما هو بحسب الغالب، والا فان مرحلة من المراحل لا بد أن يشذ فيها ما نريد أن يكون منها ، فيأبى الا أن يكون سابقا عنها أو لاحقا بها .

ومهما يكن ، فقد جعلنا لهذا الادب ابوابا تضمنت فصولا ، يكون أولها ما قبل المرابطين ، وثانيها عصر المرابطين ، وثالثها عصر الموحدين ، ورابعها عصر المرينيين ، وخامسها عصر الوطاسيين ، وسادسها عصر السعديين ، وسابعها العهد العلوى الحالى .

فهى اذن مراحل تاريخية ، مرتبطة بالامارات والدول ، على سبيل التقريب ، لا على سبيل التحديد ، ولا ضير فى ذلك ما دام الغرض قـــد استبان ، والسبيل قد انضح لمن يريد ان يساير ادبنا العربى فيقطع معه الاشواط الزمنية التى قطعها فى الف أو يزيد ، بالاضافة الى كون اغلب الآثار الادبية صادرة عن رجال كانوا من رجال الدولة او على اتصال بهـــا وبرجالهـــا ·

ان المنهج الناريخى ، فى جل الدراسات ، خصوصا النظرية منها ، سليم قويم ، دعا اليه جمهرة من الفلاسفة فى الحديث والقديم ، واستعملوه فى دراساتهم الفلسفية ، فأتى بالنتيجة المطلوبة الصحيحة التى لا تحتمل الجدال والتشكك فيها ، لانها مبنية على مقدمات .

كذا قال المناطقة فى اقيستهم ، وكذا نقول فى دراساتنا لادبنا ، وهى دراسة صاعدة فى سلم النشوء والارتقاء لهذا الادب الذى نعتبر مراحله الاولى مقدمات له ، صغرى فكبرى ، تتطلعان كلتاهما الى النتيجة التـــى

نعمل لها ويعمل الجيل الصاعد كذلك ، فى غير فتور وفى غير لغوب منه ·

ومهما صادفنا من عثرات فى ذلك السبيل ، ومهما توقفت بنا القافلة، أو انبهمت علينا الطريق ، فان ذلك لا يعنى الانتكاس حتما ، وان تسرعنا أو تشاءمنا فوسمنا بعض الخطوات بذلك ، فالعقل البشرى والخيال الانسانى ، كلاهما يستنيم فى مدة من حياته ولكنه لا يموت ، موتا حقيقيا ، بل تاخذه السنة أو النوم ، الى أن يستيقظ ، وهو متحفز للعمل مستعد للاستمرار فى سيره ، والتسنم للارتقاء فى مراقى عليائه · نعم ان المراحل قد يعترضها ما ينحرف بها عن السبيل ، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون انحرافا يعتريها كما يعترى الانسان النامى انحراف فى صحته ، ثم تعاوده السلامة ، ان قدر له الاستمرار فى مراحل الحياة الدنيا .

اذن فلننتظر من ادبنا الخطوات الصاعدة ، وان تخللتها عثرات كما سنرى ، والحلقات المتداخلة ، وان ضاق بعضها بعد الانساع ، فذاك كله من قبيل الاسترواح ، ليس غير ، وسنكثر من الاتيان بالنصوص فى غير الاختيار ، فى المراحل الاولى لقلة العثور عليها ، كما لن يكون منا اختيار فى مرحلة من المراحل القصيرة لنفس السبب او لكونها لا تدع لنا اختيارا فى نتاجها ·

المقدمة

من المفروغ منه أن الادب بالمغرب كان من الناحية التاريخية ، آخر ما تنفست به العربية فى أقطارها المفتوحة ، فقد عرفت الاقطار الاسلامية على الاطلاق ، شرقا وغربا أدبا عربيا نشأ فيها أو نزح اليها ، قبل أن يعرف ذلك المغرب الاقصى ، بالخصوص فى هذا التحديد الذى يخرج من نطاقه امارة تاهرت الرستمية المتأخمة .

وهذا التأخير كان لاسباب جغرافية وحضارية واجتماعية وسياسية ، عملت فيها الفتن والحروب ، وعملت فيها أكثر من ذلك كله فتوحات الاندلس التى تسرب بها العنصر العربى من البلاد (1) بل تسرب منها عناصر مغربية كان يرجى منها أن ياتى بأكلها فى بلادها ، فأتت بذلك الاكل فى البـــلاد التى نزحت أو آباؤها اليها ، وفى مقدمة هؤلاء أبناء موسى وطارق وأحفادهما كما فى جمهرة الانساب لابن حزم .

ففتح الاندلس سد على بواكير الادب العربى الابواب وعاق سيرها فى طريقها المستقيم نحو النشوء والارتقاء فى هذه البلاد المغربية ، ثم كـــان قاطعا لخطوط الهجرة العربية فيما بعد ، فما أمها عبد الرحمن بن معاوية ، وأقام برهة من الزمان بين أخواله نفزة بالريف حتى غادر مقامه وركب البحر من المزمة الى المنكب من الاندلس ، وهناك كان القرار النهائى ، وهناك كانت الدعوة الى آل بيته والتابعين الى الاندلس التى استمرت فيها الاموية تلوح للعربية ورجالها فتاتيهم حبوا حتى من العراق خصيمها ، فكان هؤلاء لا يقتربون من تخوم البلاد حتى يتنكبون عنها الى الاندلس ، وفيهم القالى ومن أتى بعده وفيهم صاعد البغدادى ، وكلهم كانوا يشعرون

---

(1) ذكر منهم ابن الكردبوس حنش بن عبد الله الصنعانى وابا عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد البجلى ، وعبد الرحمن بن شماسة المصرى وابا النضر حيان بن ابى حبلة مولى عبد الدار ، ويقال مولى بن حبل بن حسنة ، فى عشرين رجلا منهم (اى التابعين) ويقول عبد الملك بن حبيب السليمى « ودخل الاندلس من التابعين ، سوى من لا يعرف ، نحو مـــن عشرين رجلا » ، وبعضهم يذكر عبد الرحمن الحبلى . . وكان فيهم الشاعر القائد ، مغيث الرومى ، مولى الوليد بن عبد الملك ، وهو معروف جدا فى التاريخ ، ومذكور فى كتب الادب ، كنفح الطيب ، كما كان موسى قد أرسل مع طارق ، من رجالات العرب ، عبد الملك بن أبى عامر المعافرى ، وعلقمة اللخمى .

وهم يقتربون منا ، شعور المتنبى وهو فى شعب بوان ، كما افصح عن ذلك القالى نفسه ».

لهذا كله تأخر ظهور الادب العربى عندنا ، فكانت اول بادرة له فى هذه البلاد أوائل القرن الثالث أو أواخر الثانى ، ان تحقق ما نسب للمولى ادريس الاصغر ، أما الخطبة المنسوبة لطارق فنكاد نجزم بكونها غير صادرة عنه ، وهو من مغاربة جيله المبكر وشاهد الانتحال فيها اختلاف نصها ، كما فى الامامة والسياسة ، وعدم ذكرها بتاتا ، كما فى الاكتفا لابن الكردبوس (1) .

والنتيجة ان الاندلس تعربت قبل المغرب ، ظهر بها الادب قويا قبل ما ظهر كذلك بالمغرب ، الذى سكت به صوت العروبة والادب الى حين اتى عليه ، ان كان قد نطق به اصحابه ، قبل هجرتهم الى الاندلس . وهذا لا نستغربه ، فهو — ان كان — ما حصل مثله حتى بالجزيرة العربية نفسها موطن العربية والادب الرفيع والشعر الصادح . فمنذ أن عرفت هذه الجزيرة الاقطار الاخرى ، انتقل صوت الادب الجهورى منها الى تلك الاقطار . وما مضى عليها زهاء قرن من الزمان حتى خفت ذلك الصوت ان لم يكن سكت نهائيا بها ، ترددت اصداؤه المدوية فى جنبات بلاده خارج تلك الجزيرة . ولهذا لا نستغرب أيضا ان قرانا فى التاريخ ان المولى ادريس الأصغر فرح بالمهاجرة العرب لانه كان وحيدا فريدا بين البربر .

حقا لقد نعم المغرب بالاستقرار على عهد هذا الملك ، استقرارا نسبيا ، ولكن سرعان ما قامت على موته فتن مبيرة بين ابنائه واحفاده ، وقضت أو كادت على الاخضر واليابس ، وان كان قد نشأ من ذلك الانقسام شبيه ما نشأ من انقسام الامارات فى الشرق من تنشيط محلى ، الا أن هناك فرقا كبيرا ، بين الانقسام فى المغرب والانقسام فى المشرق ، فهذا كان حديث عهد بالعربية . وما نعم بهذا الاستقرار الذى كان الشرق قد نعم به . حتى ان الفتن والحروب قد تكون من بواعث تنشيط الادب ، وهو ما وجدناه فى الشعر العربى القديم ووجدناه فى الحرب العالمية الاخيرة ، ولكن هذا ان كان ، فانما يكون فى الامم التى عرق فيها ذلك الادب وتلك اللغة ، أما

(1) فيه انه قال « قاتلوا حتى تموتوا » .

المغرب فكانت العربية وافدة عليه ، طارئة عليه فى قومه ، فكانت تنتظر منهم التعرف عليها والاصاخة الى ندائها ، ولا بد فى هذا كله من هـدوء بال واطمئنان حال . وما كان هدوء وما كان اطمئنان ، ففتن الخـوارج وغيرهم والثورات المندلعة فى كل جانب ، ثم بعد ادريس الثانى ، كما تقدم كانت تلك الفتن الداخلية والحروب بين الادارسة أنفسهم وبينهم وبين أغيارهم . ومن ورائهم العبيديون النازحون اليه والمستنزفون للبقية الباقية، ان كانت هناك ما زالت بقية ، نزحوا بها الى المشرق ، حيث لا عودة لها ، كانت ، الا بالرماح تتقصف والنصال تتكسر على نصال اخرى امتدت الى المغرب من الاندلس . فكان المغرب لاولئك وهؤلاء الميدان الخارجى ، الذى عرف فى أيامنا ميدانا لاصحاب الحرب العالمية .

وعلى كل حال فبالاستقراء والاستئناس نجد أن مراكز الثقافة الاولى، كان جلها واقعا على السواحل الشمالية للمغرب ، مثل مليلية ، والنكور ، وسبتة ، وطنجة واصيلا ، والبصرة التى كانت تحاذى البحر او تقاربه ، يضاف الى هذه المراكز الساحلية العاصمة الخطيرة فاس ، بعد العاصمة الخارجيـة سجلماسـة .

لقد كانت هذه المراكز حضارية ، فى غالبها ، قبل الفتح الاسلامى ، احتفظت بنفسها او اقام الاسلام على أنقاضها مدنا وعواصم ، فمدينة مليلية فنيقية كانت تدعى « روسادير » ولما نزلها مليل البربرى احد قواد ادريس بن صالح الآتى ذكره ، اتخذها مقاما له ولقومه اليفرنيين . واستقل بحكمها ونسبت اليه ، وتوجه اليها أنظار العلماء والادباء مـن الاندلس فأسسوا بها لمن بعدهم بنيان العلم والادب . على حين كانت مدينة النكور القريبة من المزمة او هى هى ، كما يقول البكرى ، تقام على موقع أو معسكر عتيق فى تلك الجهات . وقد ادعى مؤسسوها أنهم عرب يمنيون ، وان كان أهل بلدهم يفندون هذه النسبة ويقولون انهم نفزيون بربر . ولا تعنينا صحة هذه النسبة ، بقدر ما يعنينا ادعاء أصحابها العروبة التى عملوا علـى تثبيتها وتدعيمها برجال العلم والادب من أندلسيين ومغاربة وهم ضمنهم فقد نشر فى هذه الجهات رئيس القوم صالح بن منصور التعاليم الاسلامية ، وخلفه ابنه المعتصم ثم شقيقه ادريس المؤسس الحق ، فاختط المدينة ، ثم اتمها ابنه سعيد ، فبنى مسجدها على غرار مسجد الاسكندرية . وهذا له

مدلوله فى التعلق بالشرق العربى ونشر العلم به وكذلك سبتة الفنيقية أسس بها امارتها الاسلامية بنو عصام الغماريون ، الذين كانوا يدينون بالطاعة للادارسة ، فقد خلف عليها عصام اباه الذى كان يدعى الرجل الصالح ، كما كان جد النكوريين يدعى بالعبد الصالح (1) فعمرت المدينة وعاد اليها نشاطها من الاندلس ورجال الثقافة والفكر لا محالة ·

والامر فى طنجة انها كانت اعرق حضارة من هذه البلاد جميعا ، اتخذها الفنيقيون مركزا هاما تجاريا على الزقاق ، واتخذها الرومان مركزا استراتيجيا ، واطلقوا اسمها على اقليم شاسع كان يتسع كل القطر المغربى أحيانا ، وبه عرف عند الفاتحين الاول ، وبها كان مركز الحكم والقيادة لطارق ابن زياد ، ثم كانت موطنا اساسيا لفرق الخوارج والمعتزلة ، الى ان جاء المولى ادريس .

وكانت روافد الاندلس القريبة منها بنحو سبعة عشر ميلا ، تمدها بالثقافة الاسلامية، بعد ما نزح القراء (2) عنها فى الفتح الاندلسى ولا شك أنها كانت المركز الاول للعربية فى المغرب وانها كانت ستزدهر ازدهارا عظيما مبكرا لولا الفتح الاندلسى كان فى مقدمته اولئك القراء كما كانوا باليمامة وتليها اصيلا الضاربة فى القدم فكان منها رجال خلدوها فى سجل العلم والادب ، خصوصا بعد ما صارت احدى العواصم الادريسية وهذه المدن جميعها ، ما عدا النكور ، أصبحت أوائل القرن الرابع ، تابعة للحكم الاموى ، فازدادت الحركة الثقافية أصالة بها ، اما النكور فقد تعرضت للغزو الفاطمى ، ثم عادت الى اصحابها الذين عادوا اليها من مهجرهم بالاندلس ، ولكن الفاطميين اعادوا الكرة فأخربوها . واما البصرة ، فقد اختلف فى موقعها ، فمنهم من يجعلها القصر الكبير ، الذى ما زالت به معالم للرومان ، ومنهم من يجعلها مولاى بوسلهام ومنهم من يجعلها سوق الاربعاء، وهذا لا يخالف ما قبله ، فربما كان اقليم هذه العاصمة للامير الادريسى يمتد الى الساحل ، ومنهم من يجعلها حيث حد الكرت ، وهذه ايضا لا تخالف ما تقدمها . فقد أجمع الذين ذكروها من الجغرافيين القدامى أنها كانت

(1) وكان فى البرغواطيين صالح ابن طريف وصالح بن عيسى .

(2) فى ابن خلدون كانوا سبعة عشر ولكن ابن الرفيق يجعلهم سبعة وعشرين انزلهم ابن نصر بطنجة . وهم الذين وجههم الى المغرب عمر بن عبد العزيز ، ولا شك ان معظمهم صحب طارقا فى فتحه للاندلس ، ليقوموا على راس الجيش .

لعهدهم فى منتهى السعة ، كما قال البكرى « مدينة كبيرة واسعة وهى أوسع تلك النواحى مرعى » على ان البكرى وسابقيه يجعلونها غير تلك المدن ، كالاصطخرى وابن حوقل والمقدسى .

قصدها الشعراء من الشمال الافريقى ومن الاندلس ، بل حتى من الجزيرة العربية ، كما سنرى .

وقد صارت من الشهرة بحيث الف فيها وفى رجالها بالقرن الرابع ابن الوراق ، وكان منهم اعلام ذكروا فى طبقات المالكية ومشاهير اعلامها . وما كانت سجلماسة بدعا فى هذه العواصم ، فقد كانت مركزا هاما للطرق الصحراوية وغيرها ، قبل الاسلام ، ثم اتخذها عاصمة لهم الخوارج الصفرية ونعمت بالاستقرار فى حكم بنى مدرار وسرعان ما ارتبطت بامارة الرستميين ، التى تاسست بعدها فى أواسط القرن الثانى ، فكان لهذا الارتباط بالمصاهرة وغيرها ، عامله فى نطاق التعريب ، كما كان للاتصال مع الاندلس عامله ايضا ، وظهر رجال منها ذكروا بمعاجم الاندلسيين وغيرها، والف فيها كما الف فى البصرة وتوابعها (1) .

واخيرا نتصل بأم البلاد والعاصمة الكبرى التى حملت راية العربية وعلومها أزيد من الف سنة ، لم تضعها من يدها ولم تكل ولم تن فى حملها ، مهما اشتدت الكوارث العصبية عليها ، انها عاصمة ادريس فاس العريقة فى القدم ، والجامعة لجاليتين عربيتين نزحت احداهما اليها من الاندلس والاخرى من القيروان ، فكانت العدوتان ، عدوة الاندلس وعدوة القرويين ، وكانت جامعة هذه من أقدم جوامع العالم الاسلامى وفى هذه العاصمة رجال مبكرون من هذه الجالية عرفوا بأسمائهم ومناصبهم ، وظهر فيها أدب تنفس به ادريس الاصغر فبنوه واحفاده ، كما سجلت ذلك كتب التراجم والتواريخ وحتى كتب الجغرافية ، كما سنرى .

وبقدر ما أصيبت سجلماسة من كوارث الفاطميين ، نعمت فاس بعد تعرضها لخطرهم بالفتح الاموى واستقرار الحضارة الاندلسية بها طيلة القرن الرابع تقريبا ، وان تخلل هذه المدة هجمات فاطمية ، فكان جامع

---

(1) انظر مقالنا «نشأة دول الخوارج بالمغرب» نشر بمجلة البحث العلمى العددين 4 و 5 السنة 1965

القرويين يعج برجال العلم والادب لذلك العهد (1) .

وفيما يتصل بهذه المدن من رجال العلم والأدب ، فاننا نكتفى ببعضهم فيما يلـــى :

من مدينة مليلية ، كان خلف بن مسعود الجراوى المليلى ، وقاضيها احمد بن فتح المليلى ، الذى كان فى علمه وادبه نظير بكـــر بـــن حمـــاد التاهرتى معـــاصره .

ومن مدينة النكور ، كان الشاعر ابراهيم بن ايوب النكورى ، والعالم المتفنن موسى بن ياسين ، مولى صالح النكورى ، وحسين بن فتح النكورى، كما كان من مهاجرة الاندلسيين اليها شاعر الامارة الاحمس التطلى او الطليطلى ، كما فى جغرافية البكرى .

ومن مدينة سبتة كان خلف بن على بن ناصر البلوى والشيخ محمد بن على الاموى وعتيق بن عمران الرفعى الفزارى ، قاضيها الفقيه المحدث وابراهيم بن ابى العباس القيسى ويوسف بن حماد بن خلف الصدفى ، وعبد الرحمن بن سليمان البلوى الشاعر وعبد الله ابن غالب الهمدانى ، ثـــم محمد بن يعلى المعافرى ، فابن غازى الخطيب وابن عطاء الكاتب وابـــن مرانة الفرضى . وهؤلاء الثلاثة مشهور ما قاله المعتمد ابن عباد فى حقهم وذكره ياقوت ، فى معجمه الجغرافى . وقد عرف للاولين شعر سياتى ذكره ، وعرف للاخير منظومة فى الكوائن والحوادث ، اشار اليها المقرى فى أزهار الرياض، وفيه كذلك نقل عن مقدمة ابن خلدون ابياتا من زجل الكفيف الزرهونى تشيـــر اليـــه (2) .

ومن مدينة طنجة كان عبد المنعم بن عبد الله بن علوش المخزومى واحمد بن سليمان بن احمد المكناسى وعلى بن هرون القاضى بها وسليمان ابن يحيى بن سرواس الجمحى المحدث روى عنه ابو القاسم بن بشكوال بمسند الموطأ وغير هؤلاء كثيرون بتراجم الاندلسيين .

---

(1) انظر بحثنا المنشور فى مجلة تموذة Tamuda سنة 1956 تحت عنوان « بـــزوغ الثقافة العربية بالمغرب » .

(2) منهـــا قولـــه :

والجفـــر فـــى كتيبـــاتـــا ... وفـــى تاريـــخ كاتبـــا وكيوانا
تذكـــر فى صفحهـــا وابيـــاتـــا ... شـــق وسطيـــح وابـــن مرانـــا

ومن اصيلا كان احمد بن عبد الله بن موسى الكتامى الآخذ عن ابن مسرة الاندلسى الشهير ، كما كان بها اسر عريقة توارثت العلم والادب مثل اسرة الفقيه محمد الاصيلى والد الشاعر ابراهيم وجد عبد الله الحافظ والمتكلم الاصولى النظار الشهير بتاليفه فى المشرق والمغرب وهو والد الفقيه محمد الشهير بالاندلس .

ومن مدينة البصرة كان العالم يحيى بن خلف الصدفى الذى كانت له رحلة الى المشرق ثم عاد بعلم وافر تلقاه عنه الاندلس والمغرب وتوفى بسبتة ، ومنهم الفقيه الضليع أبو هرون عمران العمرى ، نسبة الى عمر ابن الخطاب ذكر ذلك الحكم الاموى ، واطلع عليه القاضى عياض واثبته فى ترتيب مداركه ، وله رحلة الى المشرق كذلك ، وكان يعاصره عالمان آخران من البصرة ، هما احمد بن حذافة وبشار بن بركانة ، ولهما رحلة الى المشرق معه (1) .

ومن سجلماسة ، كان عيسى بن سعادة العالم الزاهد ، له روايات بالاندلس ورحلة الى المشرق صحب فيها القابسى وابا محمد الاصيلى المذكور واخذ عنه محمد بن أبى زيد الفقيه القيروانى ، ومن رجالها يحيى بن زكريا المعروف بابن الرباطى ، وجساس الفقيه الزاهد الرحالة اخذ عنه كتاب الزهد ليمن بن رزق بمدينة مجريط (مدريد) توجه الى المشرق فاخذ عن رجاله ، وسمع منه من الاندلسيين عبد الرحمن بن خلف .

---

(1) انظر بحثنا فى مجلة تموذة ، وترتيب المدارك لعياض ، وكتب التراجم الاندلسية ، مثل : معجم ابن الابار ، والتكملة له ، وكتاب الصلة لابن بشكوال ، وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى ، والفهرسة لابى بكر بن خير الاشبيلى وبغية الملتمس للضبى ، وجذوة المقتبس للحميدى ، وصلة الصلة لابن الزبير يضاف الى هذه الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى

البـــاب الاول

فيما قبل العهد المرابطي

لقد شاهد المغرب قبل قيام دولة المرابطين احداثا جساما بدات بالثورة على الخلافة الاسلامية بالشرق فكانت خوارج وشيعة ومعتزلة تضرب فى أصقاع البلاد ثم انتهى هذا كله بقيام الدولة الادريسية (1) وان كان بسيط تامسنا قد بقى على خروجه ونحلته المتطرفة ، كما بقى اقليم سجلماسة على استقلاله خارجيا صفريا غالبا ومالكيا فى غير الغالب .

ثم كانت الفاطمية تعصف بالبلاد وتهدد دولة الامويين خارج البحار مما دفع هذه الى ان تعبر نحونا فتحتل الساحل الشمالى كله ما عدا النكور التى وقعت صريعة الفاطميين ويتقدم هذا الاحتلال الاموى نحو الداخـــل فيتمكن من احتلال العاصمة الادريسية فاس .

ويكون لكل من الجبهتين الفاطمية والاموية رجال وزعماء يعمـــون لحساب كل منهما بل يكون من هؤلاء من يعمل حينا لحساب الفاطميـــين وحينا آخر لحساب الامويين ومنهم بعض الامراء الادارسة والزعيم الخطير ابن ابى العافية المكناسى .

وما تهدا العاصفة بعض الشيء حتى تتوزع البقعة المغربية الـــى امارات فيها مغراوة وبنو يفرن وغيرهما من زعماء البربر وفيها امارة بنى حمود التى مدت سلطانها على سبتة وطنجة واصيلا وعلى بعض الاقاليم الغمارية والريفية ، الى ان يرث سلطانها هذا من مواليهم المقربين اليهـــم مولاهم سقوط البرغواطى وابنه . فكان المغرب يحكمه جمهرة من الامراء والزعماء يشبهون على عهدهم ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون البلاد الاندلسية بعد سقوط الخلافة الاموية بها . ولم يوضع حد لهذا التمزق والفوضى الا فى النصف الثانى من القرن الخامس كما سنرى .

---

(1) انظر مقالنا « كيف اسس المولى ادريس مملكته » فى العدد 137 من مجلة « رسالـــة المغـــرب » السنـــة 1952 .

وفى معظم هذه الاحداث كان للادب بعض الاصداء الخافتة اغلبها أصداء الشعر ودونها أصداء النثر . فمن الشعر نجد أبياتا للمولى ادريس يتصل بعضها بسياسة الدولة وبعضها بعواطفه الخاصة . فمن الاشعار السياسية ما كتب الى البهلول عبد الواحد المدغرى المنحاز عنه الى ابراهيم بن الاغلب وهى معروفة فى كتب التواريخ المتداولة :

أبهول قد شممت نفسك خطة ... تبدلت منها ضلة برشاد
اضلك ابراهيم من بعد داره ... فأصبحت منقادا بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن اغلب ... غدا آخذا بالسيف كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليا ... ومناك ابراهيم شوك قتاد (1)

هذه أبيات لا يهمنا أن كانت حقيقة لادريس أم نظما على لسانه اذ المهم صدورها أوائل القرن الثالث أو أواخر الثانى ، ويتصل بهذا بيتان قالهما عن ارتجال ـ كما قيل ـ وهو اثر معركة خاضها :

اليس ابونا هاشم شد أزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا ... ولا نشتكى مما يؤول الى النصب(2)

ومن الاشعار المتصلة بعواطفه الخاصة هذه التى قالها متشوقا الى أهل بيته كما فى الحلة السيراء لابن الابار :

لو مد صبرى بصبر الناس كلهم ... لكل فى روعتى او ضل فى جزعى
وما اريع الى يأس ليسلمنى ... الا تحول بى يأس الى طمعى
وكيف يصبر مطوى هضائمه ... على وساوس هم غير منقطع
اذا الهموم توافت بعد هجعته ... كرت عليه بكاس مرة الجرع
بان الاحبة واستبدلت بعدهم ... هما مقيما وشملا غير مجتمع
كاننى حين يجرى الهم ذكرهم ... على ضميرى مخبول من الفزع
تأوى همومى اذا حركت ذكرهم ... الى جوانح جسم دائم الهلع

وينسب لابنه القاسم اشعار كذلك ، وتابعهما فى هذا ابناؤهما واحفادهما .

---

(1) روض القرطاس لابن ابى زرع .
(2) البكرى وروض القرطاس كذلك واعمال الاعلام .

ومهما يكن ، فان أمراء أدارسة قالوا شعرا ، فكانوا كبني امية في الاندلس ، مبكرين بالحركة الادبية ، وهكذا كان ادريس والقاسم ثم ابناؤهما أو احفادهما ، مثل ابراهيم بن الحسن ، الذى وفد على الخليفة الاموى المستنصر عام ثلاثة وستين وثلاث مائة ومعه ولده محمد ، فاقاما بالاندلس الى ان غدر ابن ابى عامر بالحسن بن جنون ، فقال ابراهيم يهجوه بهذه الابيات :

فيما ارى عجبا لمن يتعجب	جلت مصيبتنا وضاق المذهب
انى لاكذب مقلتى فيما ارى	حتى اقول غلطت فيما احسب
ايكون حيا من أمية واحد	ويسوس هذا الملك هذا الاحدب
تمشى عساكرهم حوالى هودج	أعواده فيهن قرد اشهب
ابنى أمية اين اقمار الدجى	منكم وما لوجوهها تتغيب (1)

ومن الأوائل سعيد بن هشام المصمودى القائل ، كما في المغرب للبكرى والبيان المعرب لابن عذارى والعبر لابن خلدون ، مندداً بالبرغواطيين وما نالهم بموقعة بهت ، التى خاضها أبو غفير في قتال الادارسة او مع ادريس خاصة في أوائل القرن الثالث وتوفى عام 320 :

قفى قبل التفرق فاخبرينا	وقولى واخبرى خبرا يقينا
هموم برابر خسروا وضلوا	وخابوا لا سقوا ماء معينا
يقولون النبى ابو غفير	فاخزى الله ام الكاذبينا
الم تسمع ولم تر يوم بهت	على آثار خيلهم رنينا
رنين الباكيات بهم ثكالى	وعارية ومسقطة جنينا
سيعلم قوم تامسنا اذا ما	اتوا يوم النشور مهيمنينا
هنالك يونس وبنو ابيه	يوالون البوار مهطعينا
اذا وريا ورى رمت عليهم	جهنم قائد المستكبرينا (2)
فليس اليوم ردتكم ولكن	ليالى كنتم متميسرينا (3)

---

(1) البيان المغرب لابن عذارى

(2) ورد هذا البيت في نسخة من العبر هكذا وفي نسخة اخرى يختلف عنه ولا يستقيم وزن مصراعه الثانى .

(3) يعنى بمتميسرين الانتساب الى ميسرة الحقير الصفرى الثائر عام 122 والمصمودى لعله من مصمودة القصر الصغير .

ولابراهيم بن ايوب النكورى ابيات حفظت له فى مدح الامراء الادارسة — كما يبدو — وهى (1) :

أيا أملى الذى ابغى وسولى ودنياى التى ارجو ودينى
الحرم من يمينك رى نفسى ورزق الخلق من تلك اليمين
ويحجب عن جبينك طرف لحظى ونور الارض من ذاك الجبين
وقد جبت المهامه من نكور اليك بكل ناجية امون

وفى أواخر هذا القرن وأوائل الرابع وقد تحرك الفاطميون وصاروا يكتسحون البلاد جرت بين شعرائهم وشعراء النكور نقائض ، تسجلها لهم التواريخ ، كما فى البيان المعرب والمغرب للبكرى والعبر كذلك فقد كان عبيد الله كتب الى أهل المغرب عامة يدعوهم الى الدخول فى طاعته ، وكان من جملة من كتب اليهم سعيد بن صالح الذى وصل اليه الكتاب مذيلا بهذين البيتين :

فان تستقيموا استقم لصلاحكم وان تعدلوا عنى ارى قتلكم عدلا
وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم وادخلها عنوا واملأها قتلا

فأمر سعيد الاحمس التطيلى شاعره بنقض البيتين فقال ، وكتب بهذه الأبيات اليه :

كذبت ورب البيت لا تعرف العدلا ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت الا كافر ومنافق تميل مع الجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى

ولما سقطت نكور وخر صريعا صاحبها الامير سعيد ، قال شاعر العبيديين (2) :

لما طغى الارذل وابن الارذل فى عصبة من الطغام الجهل
قال نكور دون ربى معقلى اتاه محتوم القضاء الفيصل

---

(1) البكرى وغيره .

(2) الارجوزة لاحمد بن المروذى كما فى البكرى والغالب انه لم يكن مغربيا ويذكر بانه شاعر العبيديين او يهمل ذكره بتاتا .

مـن الالـه المتعـالى الاعـدل فحـل ارضا طالمـا لـم تحلـل
حطم إهـل كفـرهـا بالكلكـل وجـاء راس راسهـا المبـدل
على القنـا من الربـاح الذبـل ذا لمـة شعثـاء لـم تفتـل
ولحيـة غبـراء لـم تـرجـل

وفى اواسط هذا القرن تنبأ رجل من غمارة يدعى حاميم ، فقال فيه شاعر من طنجة ، منددا به وبأصحابه (1) :

وقالوا افتـراء ان حاميم مرسل اليهم بديـن واضح الحـق باهر
فقلت كذبتم بـدد اللـه شملكـم فمـا هـو الا عاهر وابن عاهـر
فان كـان حاميـم رسولا فانني بمـرسـل حاميـم لاول كافـر
روى عـن عجوز ذات افك كهينة تجـاوز فى أسحارها كل ساحـر
احاديث افك حـاك ابليس نسجها يسرونهـا والله مبـدى السرائر

ومن شعر ابراهيم الاصيلى قصيدة قالها فى بنى زياد من هوارة الذين كانوا يقطنون بجوار اصيلا ، ذكر منها ابن عذارى هذين البيتين :

سقـى غربـى أرض بنـى زيـاد سحـائب مـا يجف لهـا غروب
ولا زال النعيـم يعـم قـومـا ازاؤهـم مـن الشـرق الكثيـب

وقوله فى فاس كما عند البكرى وياقوت باختلاف بسيط :

دخلت فاسا ولى شوق الى فاس والجبـن ياخـذ بالعينين والراس
فلست ادخـل فاسا ما حييت ولو اعطيت فاسا بما فيها من الناس

ولابن بياع السبتى فى ناقتـه :

وردت بها التنوفـة وهـى بـدر فلـم اصـدر بهـا الا هلالا (2)

وللكاتب ابى بكر بن عطاء كاتب صاحب سبتة الحاجب بهاء الدولة وكاتب ابيه قبلـه (3) :

سأمنع قلبى ان يكون لكم مثـوى واستدفع البلوى واستصرف اللهوا

(1) البكرى وابن عذارى وهو كما فى البكرى عبد الله بن محمد المكفوف الطنجـى .
(2) الدخيرة لابن بسـام .
(3) المطـرب لابـن دحيـة .

وما سرنى بعد الرضا اذ غدرتكم ... وغادرتكم بين الحشى هضبتى رضوى
وصيرتم العتبى عتابا فكلما ... ابثكم شجوى تزيدوننى شجوا
قضى الله أن اقصى واصفيكم الهوى ... وغيرى يستدنى وان كان لا يهوى
وما كان ظنى قبل ذا ان حاسدى ... بمنهلكم يروى وانى لا أروى
وما جلت البلوى علي وانما ... شماتة اعدائى اجل من البلوى

ولابن غازى الخطيب احمد بن سعيد فى ناقة :

حرف كمثل الصاد الا انها ... بعد السرى جاءت كحرف النون
كالبدر قدره الاله منازلا ... فى الافق حتى عاد كالعرجون

ولعله اخذ هذا من قول المعرى :

ولاح هلال مثل نون اجادها ... بجارى النضار الكاتب ابن هلال

مع قوله :

وحرف كنون تحت راء ولم يكن ... بدال يؤم الرسم غيره النقط

والعرب تشبه النون بالاهلة والرائى هو الراكب الذى يضرب رئتها والدال هو السفين . فاستغل ابن غازى هذا كله كما يبدو لنا . والبيت الثانى فيه توارد مع ابن بياع . (1) .

ولابن القابلة السبتى عبد الله (2) :

الشيب فى مفرقى حلا ... وعقد عهد الملاح حلا
وكان كالابنوس راسى ... فاحتله عاجه فحلا
وحرمت وصلى الغوانى ... وقلن قتل العميد حلا

ولا شك انه قصد فى هذه المتشابه بكلمة « حل » :

وله :

---

(1) أما البيتان الواردان فى كتابنا « الادب المغربى » منسوبين لابن مرانة المذكور آنفا ، فليسا له وانما هما للمنصفى أبى الحجاج نمنى بهما :
انظر الى بهجة بليونش ... وحسن ذاك المنظر اللامع
تحكى الثريا عندما أسرجت ... بليلة الختمة فى الجامع
وهما مذكوران فى « أزهار الرياض » كما ذكر له ميه ستة أبيات فى الموضوع .
(2) كذلك وأصله من الذخيرة التى عقد فيها فصل لذكره .

يارافيا قطع كل ثوب ويا رشا حبه اعتمادى
عسى بخيط الوصال ترفو ما قطع الهجر من فؤادى

وله (1) :

ووجه حبيب رق حسن أديمه يرى الصب فيه وجهه حين ينظر
تعرض لى عند اللقاء به رشا تكاد الحميا من محياه تقطر
ولم يتعرض كى أراه وانما أراد يرينى ان وجهى اصفر (2)

وفى النفح عن الذخيرة ، أن ابن بسام اجتمع مع ابن عبادة وابن القابلة السبتى بالمرية ، فنظر الى وسيم يسبح فى البحر ، وقد تعلق بسكان بعض المراكب ، فقال ابن عبادة ، اجز :

انظر الى البدر الذى لاح لك

فقال ابن القابلة : فى وسط اللجة تحت الحلك

قد جعل الماء سماء له واتخذ الفلك مكان الفلك

وأنشد له ابن بسام كذلك يصف القتلى :

تركتهم نهب الفلاة ووحشها شعورهم شعث وأوجههم غبر
تظل سباع الطير عاكفة بهم على جثث قد سل انفسها الذعر
وقد عوضتهم من قبور حواصلا فيا من راى ميتا يطير به قبر

ومن شعر يحيى ابن الزيتونى الفاسى قوله فى استنجاز الوعد من المعتضد بن عباد : (3)

سفينة الوعد فى بحر الرجا وقفت فامنن بريح من الانجاز يجريها

ومن شعر أبى بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى السبتى فى صفة متجن : (4)

(1) شرح المقامات للشريشى . والابيات فى الذخيرة : ووجه محبى ...
(2) كذلك وعنوان المرقصات لابن سعيد .
(3) الذخيرة لابن بسام .
(4) طوق الحمامة لابن حزم وفيه يصفه بانه كان شاعرا مفلقا .

سريــع الى ظهــر الطريق وانـــه الى نقض اسبـــاب المـــودة اسرع
يطــول علينـــا أن نرقـــع وده اذا كـــان فى ترقيعـــه يتقطـــع

وهكذا قد رأينا فيما تقدم أن الشعر المغربى ، تدخــل فى الحوادث السياسية والصراعات العقدية ، ومعنى هذا أن الجو المغربى كان قابلا للاستفادة من هذه الصرخات أو الدعايات الشعرية ، وأن الدول والافراد استعملت هذا السلاح ، كما كان يستعمل تماما عند العرب انفسهم فى جاهليتهم واسلامهم ، وهى ظاهرة يستبشر بها ، ولا شك أنها كانت قـــد تحققت أهدافها وتراءت أبعادها .

وان كنا قد لاحظنا بساطة فى تلك النماذج ، وبعض التعبيرات التى تتكرر فيها ، مثلا وجدنا :

فقلت كذبتــم بـــدد الله شملكـــم فمـــا هو الا عاهر وابن عاهـــر

لعبـــد الله الكفيف الطنجـــى .

وفى نفس التاريخ أو قريب منه ، وجدنا :

كذبت ورب البيت لا تعرف العدلا ومـــا أنت الا كافـــر ومنـــافـــق

لشاعر الامير سعيد بن صالح ، ثم وجدنا :

لمـــا طغـــى الارذل وابن الارذل فى عصبـــة مـــن الطغاة الجهـــل

لشاعر العبيديين بعد ما قضوا على الامارة .

فهذه طريقة عامية ، متبعة فى سباب الفوغاء ، ومع هذا فان الشعراء كانوا يسلكونها للتأثير على الشعب الذى كان يتأثر بها ولا بد ومهما يكن ، فتلك أصداء كانت تتردد فى تلك الظروف ، منبعثة عن المعارك الطاحنـــة والتيارات المتصادمة .

وقد تقدم ما نسب للمولى ادريس بن اشعار ، ويذكر الاصفهانى فى مقاتل الطالبيين أنه كان فارسا شجاعا جوادا شاعرا وكذا ابـــو الفدا أما نثـــره فمنـــه الخطبـــة التـــى خطبهـــا اثر بيعته كما نجد فى روض القرطاس وغيره .

ومن النماذج النثرية فى هذه الحقبة الزمنية ما صدر عن ابن أبى العافية من رسائل موجهة الى عبد الرحمن الناصر وهى مثبتة فى الجزء الخامس من المقتبس مخطوطة الخزانة الملكية .

وبعد فقد أشرنا خلال ما تقدم الى العلائق الادبية التى كانت بين تلك الامارات وغيرها من البلاد الاندلسية والافريقية وغيرهما . وفى هذا الصدد نثبت ما قيل فى بعضها من أشعار وافدة أو قارة بها فمن ذلك قول بكر بن حماد التاهرى وهو فى طريقه الى البصرة مخاطبا أميرها أحمد بن القاسم ابـــن ادريس :

ان السماحة والمــروءة والندى	جمعت لاحمد من بنين القاسم(1)
واذا تفاخرت القبائــل وانتمت	فافخر بفضل محمــد وبفــاطم
وبجعفر الطيار فى درج العلــى	وعلى العضب الحسام الصارم
انـــى لمشتـــاق اليــك وانمــا	يسمو العقاب اذا سما بقوادم
فابعث الى بمركب أسمو بـــه	على أكـــون عليك أول قـــادم
واعلم بأنك لـــن تنـــال محبـــة	الا ببعض مـــلابس ودراهـــم

فبعث اليه كما يقول ابن عذارى ببغلة سنية وصلة جزلة ، وكان له فيه أمداح كثيرة ، وهو الذى استجلب هذا الشاعر ، كما قال البكرى فى « المسالك والممالك » وفيه أن له علما وقدرا بالمغرب وكان يعرف بالكرتى نسبة الى « الكرت » ، حيث كانت البصرة ، كما يقول بعضهم ويبدو انه صار شاعر الامارة فقال فى بعض أحداثها كما نجد فى قوله لابى العيش فى وقائعـــه :

سائل زواغة عن طعان سيوفـــه	ورماحـــه فى العـــارض المتهلـــل
وديار نفـــزة كيف داس حريمهـــا	والخيـــل تمرغ فى الوشيج الذبل
غشى مغيلـــة بالسيـــوف مذلـــة	وسقـــى جراوة من نقيـــع الحنظل

وكانت لابى العيش ـــ كما فى البيان المعرب ـــ مدينة تلمسان ومـــا والاها يسكنها مثل زواغة ونفزة .

---

(1) أحذ هذا الافتتاح من قول حمزة بن بيض الحنفى فى رثاء محمد بن القاسم :

ان السمـــاحـــة والمـــروءة والندى	لمحمـــد بـــن القـــاســـم بـــن محمـــد

ومن تاهرت أيضا اتى قاضيها أحمد بن فتح فمدح عيسى بن ابراهيم ابن القاسم بشعر قال فيه :

ما حاز كل الحسن الا قينة ... بصرية فى حمرة وبياض
الخمر فى لحظاتها والورد فى ... وجناتها هيفاء غير مفاض
فى شكل مرجى ونسك مهاجر ... وعفاف سنى وسمت اباض
تاهرت انت خلية وبرية ... عوضت منك ببصرة فاعتاضى
لا عذر للحمراء فى كلفى بها ... أو تستفيض بأبحر وحياض
ما عذرها والبحر عيسى ربها ... ملك الملوك ورايض الرواض

ويبدو ان هذا الشاعر كان يطوف بالمغرب ويتردد على عواصمه ، ولهذا نجد له أبياتا أخرى فى هجو فاس ، كما اثبتها البكرى فى المسالك والممالك ثم ياقوت فى معجمه .

وعلى الجملة فان الشعر فى هذه الجهات كانت له أصداء قوية ، ويذكر ان شاعرا اتى فسكن فى حصن كان مقاما على وادى ورغة فحن الى موطنه وقال :

الا هل اتى أهل المدينة اننى ... بورغة بين الاعجمين غريب
اذا قلت شيئا قيل ماذا تريده ... لهم بين أحرار الوجوه قطوب

فالشاعر كما يبدو اتى الى المغرب من المدينة المنورة ، فهو من أولئك الوافدين عليه من خارج افريقيا والاندلس . وشعره هذا يذكرنا بما قاله المتنبى فى شعب بوان ، وهو على كل حال ينبىء بما كان للادب والشعر خاصة من نفاد فى هذه الجهات وشيوع بها فمن الاندلسيين محمد بن اسحق المعروف بالبجلى صاحب البيتين فى مدح عدوة القرويين وهما :

يا عدوة القرويين التى كرمت ... لا زال جانبك المحبوب ممطورا
ولا سرى الله عنك ثوب نعمته ... أرض تجنبت الآثام والزورا

وهذا الشاعر كان قد هجا الامير جنون القاسم بن ابراهيم المعروف بالرهونى ابن محمد بن القاسم بن ادريس باهاج كثيرة كما يذكر البكرى وياتى ببعض ابيات منها .

وكان بيت ابراهيم الادريسي بيت علم وأدب وكان ابنه احمد — كما يقول البكرى — عالما فكان يحفظ السير والتواريخ نسابة عاقلا حليما مبجلا وكان يعرف بأحمد الفاضل كما كان أحمد الاكبر بن القاسم له علم كذلك وكان يشهد مجلس يحيى بن ادريس بن عمر بن آدريس العلماء والشعراء وكان من جلسائه ابو أحمد الشافعي الذى قصده من المشرق لا محالة وكان ممن يتكلم عنده فى العلم وكان له عديد من النساخ والوراقين ينسخون لـه كما كان ينتجعه الناس من الاندلس وغيرها فيحسن الى جميعهم وينصرفون عنه أكرم منصرف ، كما يقول البكرى الذى ذكر أن هذا الامير كان أهل فاس قد بايعوه فأقام بها مدة الى أن قدم مصالة بن حبوس فتقدم الى مدينة الزيتون وكانت قاعدته قبل دخول فاس فخرج اليه وبعد حرب طاحنة انهزم وحمل الى المهدية حيث هلك بها سنة 334 .

ولما استولى عبد الرحمن الناصر على سبتة قال الخالدى معاصر ابن عبد ربه :

بسيفك دانت عنوة وأقرت	بصائر كانت برهة قد تولت
وما قربت أهواؤها اذ تقربت	ولا حليت بالزى لما تحلت
ولكن ازالت راسيات عقودها	عزائم لو ترمى بها العصم زلت
ودولة منصور اللواء مؤيد	تدال بحمد الله من شر دولة
فهذا أوان النصر منها وهذه	بشائره تروى الانام بسبتة (1)

وفيما بعد هذا القرن وجدنا ابن دراج يقصد بنى حمود فينشد فى المناسبات وفى غيرها اشعاره فيهم مثل لاميته الفائقة التى أشاد بها ابن بسام فى ذخيرته ومطلعها :

لعلك يا شمس عند الاصيل	شجيت لشجو الغريب الذليل
فكونى شفيعى لدى ابن الشفيع	وكونى رسولى لدى ابن الرسول

(1) هذا من ناحية الاندلسيين فى ذلك الصراع مع الفاطميين أما بجانب هؤلاء فان ابن هانىء شاعرهم تناول كثيرا من مواقفهم فى المغرب كما نجد ذلك فى ديوان شعره خصوصا بعد اتصاله بجوهر الصقلى .
وفى جمهرة الانساب لابن حزم اشارة الى بعض الاتصالات الاندلسية بتلك الامارات وأن عمر بن حفصون كان يخطب لابراهيم صاحب البصرة وقد نشرنا سنة 1962 بمجلة تطوان جوانب من العلاقات الاموية الادريسية .

ومثل رائيته التى قالها بمناسبة مولود لهم ومطلعها :

هلال بنورٍ السعد والحق مقمر　　　　اهل على الاسلام الله اكبر

وبعده كان شاعر آخر من الاندلس يؤم هؤلاء الحموديين وينشدهم نونية طنت فى أرجاء المعمور وهو ابن مقانا الاشبونى القائل فيها :

وكأن الشمس لما اشرقت　　　　فانثنت منها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على　　　　ابن حمود أمير المومنين
ملك ذو هيبة لكنه　　　　خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابه　　　　ادخلوها بسلام آمنين
وينادى الجود فى آفاقه　　　　يمموا قصر أمير المومنين

أما الشعراء المغاربة الذين وضعنا يدنا على نزر من تراثهم فان ابن القابلة منهم يكون اشهرهم على الاطلاق وهو وحده الذى خصه بعنايته ابن بسام من بين المغاربة حيث جعل له فصلا — كما تقدم — وساق نبذا من شعره وأخباره على سبيل الاستحسان .

الباب الثاني :

العهد المرابطي

كان المغرب في القرن الخامس وأواسطه بالخصوص ينعم بشيء من الاستقرار والنظام ، وان لم يخل من بعض الفتن والحروب بين الاقاليم بل حتى في الاقليم الواحد .

لكنه بالرغم من هذا كله أصبح يضم بعض الامارات التي تتسم بسمات الدول ، مثل امارة مغراوة بفاس وامارة بني يفرن بسلا وامارة بني حمود في سبتة وطنجة واصيلا ثم امارة سقوط البرغواطي وابنه في سبتة وطنجة كذلك .

وكانت لهذه الامارات صلات فيما بينها يطبعها النظام في غالب الاحيان، فعرف المغرب امنا داخليا وسيادة لا ينازعه فيها منازع ، على العكس مما كانت عليه الاندلس آنذاك ، حيث كات الصلات بين ملوك طوائفها صلات العداء والحروب ، التي مهدت لها الفتنة المعروفة بالفتنة البربرية والتي اطاحت بالخلافة الاموية ، فوجدت النصرانية ثغرات في الكيان الاسلامي تسربت اليها ومكنت لها في عدة جهات وامارات منها ، فكان لهذا كله عامل قوي دفع الاندلسيين الى الهجرة وتطلعت أعين هؤلاء الى المغرب الذي نال نصيبا من حضارتهم وثقافتهم .

يضاف الى هذا هجرات القيروانيين الذين اكتسحت بلادهم موجات من الاعراب المخربين فقصد بعضهم المغرب ، وكان منهم الحصري الضرير وعاصرتها هجرات الصقليين الذين تعرضت جزيرتهم الى الغزو النورمندي، فكان منهم ابن حمديس الصقلي الذي لجأ الى المغرب واقام به برهة من الزمن عاد بعدها ، بخلاف الحصري الذي استقر به نهائيا وتوفي بطنجة .

واخيرا كانت أول دولة كبرى ينعم بها المغرب ، فتضم هذه الامارات وتجمع شتاتها وتمد في بقعة مملكتها التي خلصت المغرب من هذا التمزق كما خلصته من تلك الامارة المبتدعة الضالة التي كانت شوكة في جنب المغرب

الاسلامي عاني منها آلاما ممضة طيلة أربعة قرون وهى امارة البرغواطيين ولم تكتف هذه المملكة بضم شتات المغرب بل وجدناها فى الربع الاخير من هذا القرن تضم تحت جناح لها الاندلس وتخلصه من ذلك التمزق وتدفع عنه عادية النصرانية الفتاكة ·

تلك هى دولة المرابطين التى هرع اليها كتاب الاندلس وشعراؤه فنعم المغرب بعهده الزاهر وقطف ثمار الثقافة الاسلامية وهى يانعة الأزهار طيبة الثمار .

فى هذا القرن كان الحصرى يتردد على سبتة وطنجة وكان ينشد قصائده الطوال ، كما كان يتردد على مدن المغرب ابن حمديس الصقلى فينظم الاشعار مخاطبا ومادحا ، ويختم هذه الحلقة المفرغة المعتمد ابن عباد فينظم الاشعار كذلك ويتأوه فى بعضها ويرسل صيحاته فى ارجاء البلاد فتتردد أصداؤها فيها وتستمر تلك الاصداء حتى بعد وفاته فيما قال الشعراء فى محنته وانشدوه على قبره .

بعد ما كان الحصرى يقرىء بسبتة التى توفى له بها ابن كما توفى له آخر بدانية فقال فى مطلع قصيدة :

أستودع الله لى بدانية وسبتة فلذتين من كبدى

كما يقول فى مطلع اخرى :

ابنى مذ منحتك سبتة للعلا لم يرضها يحيى ولا ادريس (1)

وفى اقامته بطنجة قال فى مطلع قصيدة :

سئمت حياتى والمقام بطنجة كأن بلاد الله غير عراض

والمعروف أنه كان بها لما جاءها المعتمد فى طريقه الى منفاه وانه قصده بشعره مستجديا فقال المعتمد الابيات المعروفة :

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الاغراب ابعد مذهب

(1) يريد يحيى وادريس ابنى على بن حمود الذى كان سليمان الاموى — وهو المستعين — قد اقطعه سبتة وأخاه القاسم طنجة وأصيلة مع الجزيرة الخضراء .

سالــوا العسيـــر من الاسير وانه — بسؤالهم لاحــق فاعجب واعجب
لــولا الحيــاء وعــزة لخميـــــة — طــى الحشـــا ساواهم فى المطلب
قد كان ان سئل الندى يجزل وان — نادى الصريخ ببابه اركبيركب(1)

وكان الحصرى بطنجة منذ عام 483 الى وفاته . وغير هذه الابيات التى قالها المعتمد فى المغرب فهناك عشرات المقطوعات التى قالها فيه وفى عـــدة مناسبات تربو على الثلاثين قطعة وتقارب ثلاث مائة بيت وكان الشعـــراء يقصدونه من الاندلس وغيره أما ابن حمديس فقد تردد على عدة مدن مغربية مثل اغمات وسلا وسبتة ولازم المعتمد فى اغمات وكان قد مدحـــه ومـــدح المرابطين وبطولاتهم فى الاندلس . ومن الذين مدحهم بالمغرب قاضى سلا ابن القاسم بلامية فريدة يقول فيها :

لقد بهـــرت شهب الدرارى منيـــرة — مآثر منكم لا يكاثــرهـــا الرمـــل
ورثتم تراث المجد من كـــل سيـــد — على منكبيه مـــن حقوق العلا ثقل
فمن قمر يبقى على الافق بعـــده — هلالا ومن ليــث خليفتـــه شبـــل
وأصبح منكم فى سلا الجور أخرسا — وقام خطيبا بالـــذى فيكم العـــدل

كما قال فى المرابطين :

بنـــو الحرب غذتهم لبان ثديهـــا — وما استعذبوا منهن الا العلاقمـــا
يحثـــون للهيجـــاء جردا سلاهبـــا — وينضون فى البيدآء بزلا صلادمـــا
اذا طعنـــوا بالسمهريـــة خلتهـــم — ضراغم تفـــرى بالقلـــوب أراقمـــا
وان كـــر منهم ذو لثـــام مصمـــم — غدا لفم الهيجـــاء بالسيف لاثمـــا

وأشاد بيوسف بن تاشفين فى عدة قصائد له مدح بها المعتمد بن عباد .

كل هذا يعنينا من غير المغاربة اذ كانت أصداؤه تتجاوب ولا شك بينهم وتنعكس عليهم فيكون لها وقعها فى هذا المحيط الذى ينجلى فيه اديبان عظيمان كان احدهما قاضيا لطنجة وكان الآخر قاضيا لسبتة هما ابن زنباع وعياض والاول لا نعرف عنه الا ما ذكره ابن خاقان فى قلائده من ترجمـــة

---

(1) فيستفاد من هذه الابيات ، أن طنجة على أول عهد المرابطين بها كانت تضم شعراء ، قصدوا (كلهم) المعتمد ، وأن المغرب غيرها كان له شعراء أيضا ، قصد منهم من قصد المعتمد ، فى تلك الحادثة التى كانت عام 484 .

مركزة فى فقرها وأسجاعها ثم ما ذكره ابن القاضى عياض فى التعريف بأبيه وانه امتدت به حياته فكان ممن يقارضه الشعر عياض وهو قاضى سبتة فى أبيات عتاب ذكرها له ومعنى هذا انه عاش فى أواسط القرن السادس ولم يمت ، كما قال بعضهم ، عام ثلاثة وخمس مائة .

وعلى كل حال فالآثار الادبية التى بيدنا انما هى مما سجله له الفتح فى كتابه المذكور (1) ، وقد قال فيه ما يلى :

ملىء حياء وقنىء استحياء ، طود سكون ووقار ، وروضة نباهة يانعة الازهار ، وسمت صفحات المهارق غرره ، وانتظمت بلبات المغارب والمشارق درره . ان نطق رايت البيان منسربا من لسانه ، والاحسان منتسبا لاحسانه . حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى قصائدها وارجازها ، وعلم اطالتها وآيجازها . وهو فى الطب موفق العلاج ، واضح المنهاج وله نظم تزهى به نحور الكعاب ويستسهل الى سماعه سلوك الصعاب . وقد اثبت منه ما تجتليه ، فتستحليه ، وتمقله ، فتنقله ، فمن ذلك قوله : (فى الربيع) :

ابدت لنا الايام زهرة طيبها	وتسربلت بنضيرها وقشيبها
واهتز عطف الارض بعد خشوعها	وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت فى عنفوان شبابها	من بعد ما بلغت عتى مشيبها
وقفت عليها السحب وقفة راحم	فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للازهار كيف تضاحكت	ببكائها وتبشرت بقطوبها
وتسربلت حللا تجر ذيولها	من لدمها فيها وشق جيوبها
فلقد اجاد المزن فى انجادها	واجاد حر الشمس فى تربيبها
ما انصف الخيرى يمنع طيبه	لحضورها ويبيحه لمغيبها
وهى التى قامت عليه بدفئها	وتعاهدته بدرها وحليبها
فكأنه فرض عليه موقت	ووجوبه متعلق بوجوبها
وعلى سماء الياسمين كواكب	ابدت ذكاء العجز عن تغييبها

---

(1) وقد ورد ذكره فى الخريدة بابن بياع كما ورد كذلك فى التعريف لابن القاضى عياض فان لم يكن ذلك تحريفا فانه المذكور بالذخيرة التى جعلته سبتيا واثبت له البيت الذى لم يرد بالقلائد وسبق ذكره بالباب الاول .

زهر توقد ليلها ونهارها ... وتفوت شأو خسوفها وغروبها
فضلت على سير النجوم بأسرها ... وسروها في الخلفتين وطيبها
فتأرجت ارجاؤها بهبوبها ... وتعانقت ازهارها بنكوبها
وتصوبت فيها فروع جداول ... تتصاعد الابصار فى تصويبها
تطفو وترسب فى أصول ثمارها ... والحسن بين طفوها ورسوبها
فكأنما هى موجسات أساود ... تنساب من أنقابها للصوبها
فأدر كؤوس الانس فى حافاتها ... واجعل سديد القول من مشروبها
فحديث اخوان الصفاء لذاذة ... تجنى ويؤمن من جناية حوبها
واركض الى اللذات فى ميدانها ... واسبق لسد ثغورها ودروبها
أعريت خيلك صيفها وخريفها ... وشتاءها هذا أوان ركوبها
أو ما ترى الازهار ما من زهرة ... الا وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفقت على أفنانها ... تلقى فنون الشدو فى أسلوبها
تشدو وتهتز الغصون كأنما ... حركاتها رقص على تطريبها

ونلاحظ على هذه القصيدة أن أثر الاندلس قوى فيها وان بعض الاشياء التى اهتم بها الاندلسيون مذكورة فى تلك القصيدة مثل الخيرى الذى يتردد ذكره كثيرا فى شعر الاندلسيين . كما نجد ظاهرة اخرى ، وهى استغلال بعض المصطلحات العلمية التى برع شعراء الاندلس فى استغلالها بأشعارهم مثل ابن زيدون وابن دراج وابن هانىء وابن عبد ربه وغيرهم ولم يكن استغلالهم هذا مما يستثقل فى أشعارهم كما كان فى شعر غيرهم . (1)

واذا كان للقرآن الكريم أثره البالغ فى أدبنا ، منذ نشأته الى يومنا، بحكم كونه البداية الاولى فى تعليمنا ، فان هذه القصيدة الجميلة استعارت ابياتها الاولى صورا من القرآن ، من مثل قوله تعالى : « وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » وقوله « ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى احياها لمحيى الموتى » وقوله « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وآن كانوا من قبل

(1) ولاشك اننا لمسنا شيئا من ذلك فى النماذج الشعرية الواردة بالباب الاول.

أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى اثر رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى » كل ما هناك ، انه حول الاسناد مجازا فجعله للارض بدل العباد ، وانه اشتق « راحم » من اثر رحمـــة الله ، اشتقاقا مطابقا فى معناه ، فلم يات بالصفة المشبهة بل باسم الفاعل ، وانه جعل السحب تبكى ، بدل أن يخرج الودق من خلالها . (1)

سوى هذا فاننا نلاحظ على القصيدة ، أن الشاعر فيها عمد الى بث الانسانية فى وصفه لمظاهر الطبيعة ، فالايام قد تبدت وهى متسربلة بحللها ، والارض قد تملكتها البهجة ، فاهتز عطفها بعد خشوعها ، وبدت النعماء على محياها بعد شحوبها ، وتطلعت الى الحياة فعادت الى عنفوان الشباب، بعد ما كانت قد بلغت عتى المشيب ، وذلك بفضل هـــذه السحب التـــى ادركتها الشفقة عليها والرافة بها ، فوقفت عليها وقفة راحم ، باذل لرحمته منقذ للضعيف والعانى ، يحس بألمه ولوعته ، وبكت لها بعيونها وقلوبها ، وفى هذا التعبير ملاءمة ، بين السحاب كانسان وبينها كالسحاب فى آن ، فهى تبكى بالعيون شأن الانســـان وهى تبكى بالقلـــوب التى يخرج الودق مـــن خلالها ، ثم لا يكتفى بهذا الوصف الانسانى ، حتى يحشر نفسه فيه ، واذا به يتعجب لهذه الازهار ، كيف تضاحكت ببكاء تلك السحب ، وكيف تبشرت بقطوبها ، وكيف ظهرت بزينتها متسربلة حللها تجر ذيولها زهوا ، بما فعلت فيها تلك السحب من لدم وشق جيوبها ، وهنا ايضا يقترب الى الحقيقـــة فى تصويره الانسانى ، فهذه المزن التى جاءت بها السحب ، قد اجادت فى انجاد تلك الازهار ، كما اجاد حر الشمس فى تربيتها ، ومع هذا فمن الازهار، كالانسان عاق لامه ، ناكر لجميلها ، فهذا الخيرى ما انصف امه الشمس التى ربته ، فهو يمنع عنها طيبه ، اذا حضرت ، ويبيحه لغيرها اذا غابت، وبذلك يكون الشاعر ، قد اتصل بالاخلاق ومثلها ووقف موقف المستفظع لهذا الجحود من الخيرى العاق لامه ، التى قامت عليه ، وهو طفل رضيع ، بدفئها وتعهدته بدرها وحليبها ، وما اجمل تشبيه اشعة الشمس الصافية بالدر والحليب ، وتستغرب بعد هذا من ذلك المنع الذى له ميقات ، وكمواقيت

---

(1) وقد تجلى الاستغلال القرآنى فى الشعراء الاندلسيين السابقين كالاربعة المذكورين آنفا وقد سجلناه من اشعارهم فيما كتبناه بمناسبة الذكرى التى كانت ستقام بالمغرب للشاعر ابن زيدون وعنوناه « بنظرة على شعر ابن زيدون » .

الصلاة ، فكأنه مفروض على الخيرى المكلف ، لابد ان يقوم به ، فى وقت لــه موقوت ، يجب القيام به بمجرد وجوب تلك الشمس ، وبهــذا لا يكتفــى بالانسانية حتى يجعل لها دينا يوجب عليه صاحبها القيام بشعائره .

ثم جعل الياسمين كواكب فى سمائها ، الا أن هذه تخالف الكواكب الاخرى ، حيث ان الشمس فى طلوعها تعجز عن كسف نورها ، وبذلك فهى زهر تتوقد ليلها ونهارها ، ولا تتعرض للخسوف والغروب ، قد فضلت على النجوم بأسرها ، لظهورها ليل نهار وطيبها ثم نــراه ايضــا يلائــم بينها أيضا كانسان وبينها كأزهار ، فيجعل أرجاءها تتأرجح طيبا بهبــوب الرياح ، ويجعلها « تتعانق » بانصرافها عنها ثم يتصل بجداول المياه ، التى تتخللها ، فهى فى حركاتها تاخذ صوبها منحدرة ، بينما الابصــار تتصاعــد اليها فى انحدارها ، وهذه من المقابلات البديعية بين الاضداد ، وهى تطفو وترسب تتخلل الاشجار المثمرة ، وما أحسنه من منظر ينعقد بين طفوهــا ورسوبها ، ثم يجعلها فى جريانها هذا كالاساود تفر خائفة موجسة ، تنساب من انقابها الى مضايق الجبال الوعرة والوديان .

وبعد ما يفرغ من هــذا التصوير الذى جعلها كلهــا حركة ونشاطا ، زيادة على تلك الانسانية والتشخيص « البنورامى » أحيانا عاد الى نفسه يستحثها على التمتع بمباهج الحياة فى هذه المباهج من الطبيعة ، فخاطب صاحبه طالبا منه ان يدير عليه كؤوس الانس على حافات تلك الجداول ، وان يجعل سديد الحديث من مشروب تلك الكؤوس ، لان حديث اخوان الصفا لذاذة ما بعدها لذاذة ، لا يعتريها ما يكدرها اثما أو لغوا ، وكأنه هنا استعان بالآية الكريمة : يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تاثيم ، ثم يغرى صاحبه باللذات ، ولكنه يصوره فارسا عليه أن يقتحمها فى ميدانها ، وعليه أن يسد عليها المنافذ ، فلا يترك لها ثغرا أو دربا ولا شك أن هذه الصورة ، منتزعة من الظروف الزمنية التى كان الشاعر يحياها فاسنجابت لفنه فى هذا التصوير الذى يوغل فيه فيقول لصاحبه ، ان أفراسك التــى تركضها ، طالما اهملتها وتركتها غير مسرجة لركوبك ، فى فصول الصيف والخريف والشتاء ، أما الآن وقد حل الربيع ، فقد جاء أوان ركوبها ، وهذا تشخيص للمعانى بهذه الافراس وغيرها ، ويزيده اغراء ، بأن الطبيعــة الجميلة نفسهــا قــد خفت لما دعــاه اليــه ، فهــذه الازهــار نفسهــا

كلها فارس وكلها ممتط فقار تضيبه ، كما يمتطى الفرسان صهوات جيادهم.

وليس وحده يدعوه الى هذه الملذات ، بل الطيور كذلك تدعوه اليها، وهى تغرد على أفنانها ، تلقى فنون الشدو بأسلوبها فتسمعها الغصون وتطرب لشدوها وترقص على تطريبها (1) .

ومن امداح ابن زنباع قصيدة ضادية استهلها بقوله :

أرى بارقا بالابلـــق الفرد يومـــض ... يذهب جلبـــاب الدجـــى ويفضض
كأن سليمـــى مـــن أعاليه اشرفت ... تمـــد لنـــا كفا خضيبـــا وتقبض
اذا ما توالى ومضه نفض الدجى ... لـــه صبغه المسود أو كاد ينفـــض
أرقت لـــه والقلب يهفـــو هفـــوه ... علـــى أنـــه منـــه احـــد وأومض
وبت أدارى الشوق والشوق مقبل ... على وأدعو الصبر والصبر معرض
واستنجد الدمع الابى علـــى الاسى ... فتنجـــدنـــى منـــه جـــداول فيض
واعـــذل قلبا لا يزال يـــروعـــه ... سنى النار يستشرى أو البرق ينبض
تظنهمـــا ثغـــر الحبيب وخـــده ... فذا ضـــاحك منـــه وذا متعـــرض
اذا بلغت منك الخيالات مـــا أرى ... فأنت لمـــاذا بالشخوص معـــرض
الى أن تفرت عن سنا الصبح سدفة ... كما انشق عن صفح من الماء عرمض
وندت الى الغرب النجوم مروعـــة ... كما نفرت عير من السيل ركـــض
وادركها من فجأة الصبح بهتـــة ... فتحسبهـــا فيـــه عيونا تمـــرض
كـــأن الثريـــا والغـــروب يحثهـــا ... لجام على رأس الدجا وهو يركض
وما تمترى فى الهقعة العين انهـــا ... على عاتق الجوزاء قرط مفضض

فالابيات الاولى تتسم بالتقليد للقديم حتى فى ذكر البقاع بالابلق الفرد الذى تواجهنا به لامية السموال . ولولاها لما شهر هذا « الابلق الفرد » ثم بذكر الاسماء ، التى وان عاش معنا بعضها ولكنه بحكم التشبث بالقديم ، مثل «سليمى » فى البيت الثانى الذى حاول أن يتأنق فيه بهذا التشبيه الذى ركبه على المصراع الثانى من البيت الاول على سبيل اللف والنشر المرتب ، اذ التهذيب يناسبه الكف الخضيب عند البسط والتفضيض يناسبه عند القبض

---

(1) نجد شعراء المغرب قد اعجبوا بهذا التصوير فصاروا يرددونـــه فى اشعارهـــم خصوصا فى العصـــر العلـــوى .

لنصاعة البياض فى صاحبه واصل الصورة من قول امرىء القيس :

أصاح ترى برقـــا أريك وميضــــه   كلمـــع اليديـــن فى حبـــى مكلـــل

والبيت الرابع تنفس مـــن البيت :

تعـــدت لـــه وصحبتى بين ضارج   وبيـــن العذيب بعـــد مـــا متأمـــل

وأخيرا فى الابيات الاربعة ياتى ذكر النجوم وفيها الثريـــا المذكـــورة فى المعلقـــة :

اذا مـــا الثريـــا فى السماء تعرضت   تعـــرض أثنـــاء الوشاح المفصـــل
كأن الثريـــا علقـــت فى مصامهـــا   بأمـــراس كتـــان الى صم جنـــدل

ومعرفة مواقع النجوم وهيآتها كانت لازمة للاديب والعالم الدينى ، ففى القرآن « لا أقسم بمواقع النجوم » وفيه « وبالنجم هم يهتدون » فعلى المفسر أن يفهم هذه المواقع وان يدرك الاهتداء بالنجوم ، أما الادب والشعر منه خاصة ، فيكفى أن نطلع على كتاب العمدة لابن رشيق ، فنجد فيه بابا خصصه للنجوم ومنازل القمر (1) .

يذكر به أجزاء السنة ويتعرض للانواء وأسمائها والمنازل وما قيل فى ذلك من أوصاف وما اعتقد من اعتقادات وهذا ديوان الشاعر ابن مقبل وهو شاعر مخضرم ، نجد فيه فهرسا خاصا للنجوم الواردة فى شعره ، الـــذى تردد فيه الجوزاء والدبران والشعرى والمجرة وسهيل والسماكين .

---

(1) افتتحه بقوله « ولما رأيت العرب ، وهم أعلم الناس بهده المنازل وأنوائها ، لانها سقف بيوتهم وسبب معايشهم وانتجاعهم ، غلطوا فيها فقال أحدهم ، من الانجم العزل والرامحة ، وقال امـــرؤ القيـــس :

اذا مـــا الثريـــا فى السمـــاء تعرضـــت

فاتى بتعرض الجوزاء ، ورأيت كل من عنى بالنجوم من المحدثين ، واستوفى جميع المنازل مخطئا ، لا شك فى خلافه ، لانه انما يصف نجوم ليلة سهرها ، والنجوم كلهـــا لا تظهر فى ليلة واحدة ، ولذلك قلت أنا احتياطا فى الليل من نسيب قصيدة ، مدحت بها السيد أبا الحسن ، أدام الله عزه :

قـــد طـــال حـــتى حلتـــه   مـــن كـــل ناحيـــه وســـط
وتكـــررت فيـــه المنـــازل   منـــه لا منـــى الغلـــط

وجب أن اذكر هذه المنازل وأنواءها ، واختلاف الناس فيها ، وعولت فى ذلك على ما ذكره أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجى » .

وكذلك نجد ابن هانىء من شعرآء الاندلس ، يتعرض فى شعره لذكر النجوم ومواقعها ، ومن اجمل ذلكم قوله فى مطلع قصيدة :

بعيشك نبه كأسه وجفونه ... فقد نبه الابريق من بعد ما اغفى
وقد ولت الظلماء تقفو نجومها ... وقد قام جيش الفجر لليل واصطفا
وولت نجوم للثريا كأنها ... خواتيم تبدو فى بنان يد تخفى
ومر على آثارها دبرانها ... كصاحب ردء كمنت خيله خلفا
وأقبلت الشعرى العبور مكبة ... بمرزمها اليعبوب تجنبه طرفا
وقد بادرتها أختها من ورائها ... لتخرق من ثنيى مجرتها سجفا
تخاف زئير الليث يقدم نثرة ... وبربر فى الظلماء ينسفها نسفا
كأن السماكين اللذين تظاهرا ... على لبدتيه ضامنان له حتفا
فذا رامح يهوى اليه سنانه ... وذا أعزل قد عض انمله لهفا
كأن رقيب النجم اجدل مرقب ... يقلب تحت الليل فى ريشه طرفا
كأن بنى نعش ونعشا مطافل ... بوجرة قد أضللن فى مهمه خشفا
كأن سهيلا فى مطالع افقه ... مفارق الف لم يجد بعده الفا
كأن سهيلا عاشق بين عود ... فآونة يبدو وآونة يخفى
كأن معاى قطبها فارس له ... لواءان مركوزان قد كره الزحفا
كأن قدامى النسر والنسر واقع ... قصصن فلم تسم الخوافى به ضعفا
كأن اخاه حين دوم طائرا ... أتى دون نصف البدر فاختطف النصفا
كأن الهزيع الأبنوسى لونه ... سرى بالنسيج الخسروانى ملتفا
كأن ظلام الليل اذ مال ميلة ... صريع مدام بات يشربها صرفا
كأن عمود الفجر خاقان عسكر ... من الترك نادى بالنجاشى فاستخفا
كأن لواء الشمس غرة جعفر ... رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا(1)

وهكذا نجده يتخلص الى ممدوحه بعد ما افرغ تشبيهاته فى تلك النجوم وهيآتها ، وكذلك ابن زنباع كانت أبياته تلك فى مقدمة مديح له والمهم أن ظاهرة النجوم فى اشعار الجاهلية وما بعدها ظاهرة منتزعة من البيئة الصحراوية ، اما ما قيل منها فى غيرها فعلى التبعية .

يبقى بعد هذا كله صور التشبيه والاستعارة المتأنقة فى نحو « نفض

(1) وهذا الصنيع المركز على « كأن » للتشبيه فى النجوم ومواقعها أصله للمهلهل فى قصيدته « أليلتنا بذى حسم أنيرى » .

الدجى له صبغه المسود أو كاد ينفض » وفيها أشارة من بعيد الى « ظلمات بعضها فوق بعض آذا أخرج يده لم يكد يراها » .

وفى الابيات من غير هذا القبيل ، محسنات بديعية ، من نحو الطباق فى البيت الخامس منها ، ثم السادس فى الدمع الابى الذى انجده بجداول فيض ، بعدما كان منه فى البيت الرابع الذى نجد فيه القلب الحاد يهفو هفوه.

وفى الابيات من السابع الى آخرها ، يطغى هذا التأنــق فى القلب المرتاع من سنى النار والبرق ، لانه يذكره بثغر الحبيب فى نصاعة بياضه وبخده فى وهجه المتورد ، فذا ضاحك منه وهذا متعرض له ، ثم يأتى تمزق السدفة ، التى شبهها بنحو الجلباب ، على سبيل الاستعارة المكنية ، عن سنا الصبح ، كما ينشق الطحلب عن صفحة الماء النمير ، وقد هرعت النجوم مروعة نحو الغرب كأنها عير ركض نافرة من السيل ، على أن النجوم قد ادركتها بهتة من فجأة الصبح ، فهى تبدو وتختفى كأنها عيــون نعــالج بتمريضها ، وفى تلك النجوم ، كانت الثريا ، وقد اسنحثها الغروب ، كأنها لجام للدجى وهو يركض ، ففى هذا استعارة اخرى مكنية حيث شبه الدجى بفرس ادهم ، رشح له باللجام على الرأس وبالركض ، واخيرا اذا نظرت العين الى الهقعة ، فانها تجدها تماما كأنها قرط مفضض علــى عاتــق الجوزاء ، فهذه الهيأة لا يدركها الا الخبير بمواقع النجــوم والكــواكب ، وسنرى للقاضى عياض رسالة فى نحو هذا .

وعلى كل حال ، فقد وفق على اتباعه فهو يذكر انه يرى برقا يومض بهذا الجبل الشاهق ، وأن وميضه تعتوره الحمرة والبياض ، فهو بذلك يذهب جلباب الدجى ويفضضه ، فكأن لمعانه صادر عن حركة الكف الخضيب التى تمدها ـ لبمى وتقبضها ، وهى مشرفة من أعالى البرق فاذا ما توالى هذا الوميض ، فانه لا محالة يذهب بسواد الظلام ، وينفض الدجى بذلك صبغه المسود ، أو بكاد ينفضه . ولا شك انه فى هذه الجملة على ذكر من قوله تعالى : « يكاد سنى برقه يذهب بالابصار » وهى جملة تؤدى الواقع لهذا الوميض الذى يبدو ويختفى وكذلك الظلام يختفى ببدوه ويبدو باختفائه، ثم يذكر انه أرق لهذا المشهد ، وان قلبه وجف له ، وان كان احد من هذا

البرق وأومض (1) ، وأن شوقه الى محبوبته « سليمى » التى تمثلها مشرفة من أعالى البرق ، استبد به كل الاستبداد فصار يداريه ولكنه يغلبه بقوة أقباله عليه ، ولا يسعفه الصبر الذى يدعوه ، فيعرض عنه ، فلم يبق الا ان يستنجد دمعه العصى على أساه ، فينجده بغزارة الجداول الفيض وينحى على قلبه باللائمة لكونه لا يفتأ يرتاع لسنى النار كلما اندلعت والبرق كلما نبض ، لان النار المتوهجة تذكره بخد الحبيب المتعرض والبرق النابض يذكره بثغر الحبيب الضاحك وهنا يلتفت الى نفسه وجرد منها شخصا يعترض عليه فى كتمانه للواعجه وتعريضه بالشخوص ، مع أن الخيالات قد بلغت منه مبلغها واعبت به أهواؤها ، وعاد الى قصته من حيث لم يرم مكانه فقد طلع عليه الفجر وتقشعت عن ضوئه سدفة الظلام كما انشق عن صفحة الماء النمير ما كان يغمرها من طحالب ، ويسجل عند هذا الفجر منظر النجوم وهى تجنح الى الغروب مسرعة كأنها مرتاعة ارتياع الحمر من السيل الجارف ، فهى جادة فى ركوضها ، فهذه النجوم والصبح قد فاجأها بباهت ضوئه قد صارت تتخفى وتلتمع كأنها عيون تعرضت للتمريض (2) أما الثريا منها والغروب يستحثها ، فكأنها لجام على راس فرس الدجا وهو يركض ، وأما الهقعة منها فلا تشك العين وهى تنظر اليها أنها قرط مفضض على عاتق الجوزاء .

وفى نهاية القصيدة ، سنراه يجيد فى وصف الهيجاء ، وعوامل سيوفها ، وطعان رماحها ، ووقع سنابك جيادها ، فى الميدان الذى يتمدد ويتقلص بها ، وما يمتلى هذا الميدان من نقع مظلة كالسحاب ، الا أنها تمطر الصواعق ، ثم هذه الابطال التى لزمت القتال مدة سهكت فيها جسومها تحت الدروع ، الى آخر هذه الاوصاف التى نجدها فى هذه الابيات :

سل الحرب عنه والسيوف جداول	تدفق والارماح رقط تنضنض
وبالارض من وقع الجياد تمدد	ولكنه فيما تروم تقبض
وبالافق للنقع المثار سحائب	مواخض لكن بالصواعق تمخض

---

(1) لمحة الجرمى اليمنى — وابن زنباع ينتمى الى اليمن — ضادية يقول فيها :

أرقت وطال الليل للبارق الومض	حبيبا سرى مجتاب أرض الى ارض
وبات الحبى الجون ينهض مقدما	كنهض المدانى قيده الموعث النقض

(2) تقدم عن ابن خاقان أن ابن زنباع كان « فى الطب موفق العلاج » فيكون « التمريض » منبعثا من ذلك الطب .

وقد سهكت تحت الحديد من الصدا	جسوم بما علت من المسك ترحض
ومدت الى ورد الصدور عيـونها	صدور العوالى والعيـون تغمض
واشرفت آلبيض الرقاق الى الطلى	لتكرع فيهـا والرؤوس تخفـض
فلست ترى الا دمـاء مـراقـة	تخاض الي اكباد قـوم تخضخض

غير هذا فان حرف الضاد يتحاماه الشعراء ، او اغلبهم في قوافيهم ، فلا نجد في شعراء الجاهلية من استعمله الا امرأ القيس في قصيدة لا شك أن ابن زنباع نظر اليهـا أيضا ، ومطلعها :

أعنـى على بـرق أراه وميـض	يضيء حبيـا فى شماريـخ بيـض
ويهـدأ نـارات سنـاه وتـارة	ينـوء كتعتاب الكسيـر المهيـض
وتخـرج منـه لامعـات كأنهـا	أكف تلقـى الفوز عنـد المفيـض
قعـدت له وصحبتـى بين ضارج	وبـين تـلاع يثاث فالعـريـض

اما فى الاسلاميين ، فنجد منهم سبعا فى ديوان الحماسة لابى تمام وخمسا للبحتـرى زائدا آخـر هو أبو خـراش الهذلى الذى وجدنـاه مذكورا فى الاول ، وكلهم يمنيون اجادوا عموما وتعمد بعضهم يمنينه كقوله :

قولا لهـذا المرء ذو جـاء ساعيـا	هلـم فان المشرفـى الفرائـض

وكان عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ، يفوقهم بضاديته (1) .

عصر الشبيبـة ناضر غـض	فيـه ينـال الليـن والخفـض

وهى ثمانية وخمسون بيتا قلدت قافيتها . وقد انتهى هذا التقليد الى القيروان وصقلية والاندلس ، فكان بن القيروانيين الحصرى وخصوصا فى مراثيه التى تكثف قوافيها أما فى صقلية فأحسن ما نجد لها على هذا الحرف، قصيدة لابن حمديس ، لا تعادلها فى جمالها قصيدة اخرى على ما أعـرف وهـى فى نهـر :

ومرو صدى الروضات يسحب دائبا	على الارض منه جملـة تتبعـض
اذا مـا جرى واهتز للعين مزبدا	حسبت بـه فورا من النسر ينفض

(1) فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد وقال المبرد : هو فيها أشعر من أبيه وحده .
وفى القلائد نجد ضادية لأبى محمد بن القاسم مجيبا عن أخرى لابى العباس الوارد فى التعليـق ص 48 .

وتنساب منه حيـة غـير أنهـا — تطـول على قدر المساب وتعرض
وتحسبه ان حبكت متنـه الصبـا — عمـودا علاه النقش وهو مفضض
له رعـدة تعتـاده فى انحـداره — كما تبسط الكف العنـان وتقبض
كأن له فى الجسم روحا اذا جـرى — به نهضه والجسـم بالروح ينهض
وما هو الا دمـع عـين كأنهـا — لطـول بكـاء دهرهـا لا تغمض
اذا سرحت للسقى من كـل جانب — رأيت بقـاع الارض منهـا تروض
يقيم عليها الانس والصبح مقبـل — ويرحل عنها الوحش والليل معرض

وممن حاول فى المغرب هذا الحرف فى قوافيه ، الامير سليمان الموحد ، ولكن محاولته لم تتعد بيتين ثم نجد مالك بن المرحل يتكلفه ضمن غيره وفى الاندلس نجد لابن عبد ربه أبياتا اتى بها على سبيل التمثيل لثلاثة أبحر من العروض (« ألحرم منك الـرضى » « وفى الكلة الصفراء ريم أبيـض » و « وروضة ورد حف بالسوسن الغض ») ثم كان ابن دراج ينظم خمسـة أبيات ، باد عليها التكلف :

اذا سقيت أرض فقـد بشرت أرض — وعند عموم الكل ينتظـر البعـض

وجاء بعده ابن زيدون فنظم قصيدتين ، احداهما فى أربعين بيتا كتب بها الى ابـن عبـدوس :

اثـرت هزبـر الشرى اذ ربـض — ونبهتـه اذ هـدا فاغتمـض

والثانية فى سبعة وعشرين يخاطب بها المعتضد ابن عباد :

غمـرتنـى لك الايـادى البيـض — نشب وافـر وجـاه عـريـض

ثم كان ابن خفاجة ينظم قطعة ذات ثمانية أبيات يصف بها سرعـة ذهـاب الشبـاب :

الا مضى عصر الصبـا فانقضـى — وحبـذا عصـر شبـاب مضـى

ولعله نظر فيها الى مقصورة ابن دريد ، وخصوصا فى البيتـين الاخيريـن :

لاح فغـى عينـى نـور الهـدى — منـه وفى قلبـى نـار الغضـى
وأبيض مـن فـودى بـه اسود — كنت أرى الليـل بـه ابيضـا

وهى أبيات قلد فيها على غير عادته واستمر منهم هذا التصنع الذى ختم بابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك . وكذلك الامر فى الشرق اذ قلد فيه ابو تمام والبحترى والمعرى والحلى وسبط ابن التعاوذى وابن سناء الملك، استمروا فى تقليدهم حتى آخرهم شوقى فى انس الوجود (1) .

وهذه قصيدة اخرى له فى مدح وزير وقائد محنك كتب له الظفر فى بعض الفتوح :

كذا تصان السيوف فى الخلل — ويفخر الخط بالقنا الذبل
وتكرم الخيل فى مرابضها — بر الفتاة العروب بالرجل
ويعطف النبع كالحواجب أو — احنى وتمهى السهام كالمقل
ويؤثر الشرة الكمى اذا — خير بين الدروع والحلل
فتح انارت له البلاد كما — اشرقت المقربات بالنهل
هدت له الروم هدة ملأت — قلوب ابطالهم من الوجل
فما اطاقوا الولج فى نفق — ولا اطاقوا الصعود فى جبل
القوا بأيديهم ولا سبب — يفرق بين الفتاة والبطل
فمجرىء الاسد فى مرابضها — كمجرىء الغانيات فى الكلل
وربما لم تقم مناصلها — مقام تلك اللواحظ النجل
تغامسوا فى الدروع زاخرة — كى يسلموا من حرارة الاسل
فما افادتهم الدروع سوى النقـ — ـلة من خفة الى ثقل
كأنهم والرماح تحفزهم — جرى فصال سلكن فى الوحل
جاءوا بها سبغا مضاعفة — قد أخاصت بالحديد والعمل
مثل عيون الدبى فصيرها — دم وطعن كأعين الحجل
هناك سل بالوزير من شهد الحر — ب وان كنت شاهدا فقل
ولا تخف ان حكيت مغربة — عنه مقام المكذب الخطل
فانه الاوحد الذى ترك الدهـ — ـر بلا شبه ولا مثل
حدث بما شئت عنه من حسن — وعظم الامر ثم لا تسل
ففضله يبهر الاهلة فى — سعودها والشموس فى الحمل

---

(1) ايها المنتحى باسوان دارا — كالثريا تريد أن تنقضا
وفى هذه يحارى البحترى فى قصيدته :
ايها العاتب الذى ليس يرضى — نم هنيئا فلست أطعم غمضا

ويلاحظ على الشاعر أنه فى أمداحه ، ان ابتعد عن مجـــال الوصف والنسيب ، لا ياتى فيها بجديد ، ولهذا فهو فى هذه اللامية عموما متواضع .

وهذه القصيدة يظهر أن شاعرنا قد نظر فيها الى قصيدة ابن هانىء الاندلسى فى مدح المعز يفتتحها بقوله :

كدابك ابن نبـــى الله لـــم يـــزل قتـــل الملوك ونقل الملك والـــدول

ولا شك أن قصيدتنا التى نحن بصددها ، قد قيلت فى وقعة من الوقعات التى انتصر فيها المرابطون على النصارى بالاندلس ، وأن هذا الوزير كـــان قائدها أو من قوادها الافذاذ ، وقد بدأ ابن زنباع بالاشادة من أمرها فقال :

لمثلها تصان السيوف فى قرابها ويفخر قرى « الخط » بنسبة الرماح الذبل اليها ، ولمثلها تكرم الخيل فى مرابضها ، وتبر برور الفتاة المتحببة الى رجلها ، ولمثلها يعطف قضبان النبع لتتخذ القسى عطف الحواجب أو أحنى من ذلك ، وتحد السهام تحديد المقل المسددة الى القلوب سهام نظراتها ، وفى مصافها يؤثر البطل شرة القتال ، فيفضل لبس الدروع على لبس الحلـــل الفاخرة ، انه الفتح العظيم والنصر المبين ، الذى ابتهجت لـــه البـــلاد أو أشرقت ارجاؤها ، كما أشرقت تلك السيوف المقربة بنهلها من الدماء فلقـــد هدت الروم بذلك هدة امتلأت بها قلوب ابطالها خوفا وروعا ، فانهزمـــوا جادين فى فرارهم ، يتلمسون النجاة من هلاكهم ، ولكنهم والسيوف تلاحقهم ، لم يستطيعوا ولوج الانفاق ولا صعود شواهق الجبال فلم يكن لهم منـــاص من أن يستسلموا عن صغار وذلة ويستولى السبى عليهم وعلى ذريتهم فلا فرق فى مشهدهم بين الفتاة والبطل وهنا تنبعث حاسة الشاعر ، نحو هـــذه الجميلات ، فيقول ان من يجرىء الاسود ويبعثها من مرابضها كمجرئ الغوانى وهن فى كللها ، وأن لواحظ المقل ربما كانت أفتك فى دفاعهن من مناصل أولئك الابطال الاسود .

لقد تفامس جيش الروم فى دروعهم الزاخرة ، ليسلموا مـــن حرارة الرماح ، فما أفادتهم تلك الدروع الا التحول من الخفة الى الثقل فهاهـــم والرماح تتخطفهم كأنهم قطيع يخف مسرعا وكأنه يجرى فى وحل يعوقه ، لثقل تلك الدروع السابغة المضاعفة التى أخلصت بالحديد المحكم الصنعة ، فكانت فى دقة حلقاتها مثل عيون الجراد الصغار ، فصيرها الطعان النافذ

فيها كأنها عيون الحجل لاتساعها وتخضلها بالدماء .

وهذه قطعة له يفخر فيها بأصله الحميرى ، كما ادعى ذلك قبله بنو صالح ، وكما سيدعيه أبو عمر الاغماتى ، وكما هو القاضى عياض ، (وان لم نجد له افتخارا به) :

لهواك فى قلبى كريقك فى فمى ... غيرى يقول الحب مر المطعم
فأدر على بمقلتيك كؤوسه ... حتى يدب خماره فى أعظمى
ان التلدد فى هواك تلذذ ... لو كان اقتل من ذعاف الارقم
أحبب بحب لا بشبر ملامة ... ملئت بموليه عيون النوم
شغل النواظر والقلوب ولم يدع ... من لم يسمه من الانام بميسم
ومن العجائب شغل شىء واحد ... فى الحال امكنة ولم يتقسم
واقام أزمنة وليس بجوهر ... وجرى وليس بمائع مجرى الدم
يا أيها القمر الذى انسانه ... يرمى اناسا للعيون بأسهم
لم أبد حبك غير أن جوانحى ... فاضت به فيض الاناء المفعم
لا ذنب لى علم الذى أسررته ... نظرا ولم أرمز ولم أتكلم
وأمرت بالشكوى اليك وانما ... ينمى الى الانسان ما لم يعلم
ولربما لم تشكنى فأماتنى ... يأسى فذرنى تحت أمر مبهم
وتلافنى قبل التلاف (1) فاننى ... من حمير وسياخذونك فى دمى
الطاعنين بكل أسمر مدعس ... والضاربين بكل ابيض مخذم
والواردين الصادرين الى الوغى ... لفحت بجمرتها وجوه الحوم
ولعلهم تسمو بهم هماتهم ... أن يدركوا فى الظبى ثار الضيغم

اذن فالقصيدة يفخر فيها بكونه من اليمن ، ولعله يقصد أن يكون فى ذؤابة الشرف منها ، سليم التى كان لها شأن عظيم فى الجهاد والاستقرار بالشمال الافريقى ، خاصة ، وسنرى فيما بعد أن أبا حفص الاغماتى ، ينظم قصيدة غزلية رائعة ، ولكنه فى الواقع هدف بها الى ما هدف اليه ابن زنباع من الفخر بالاصل اليمنى ، وبسليم بالذات .

الا أن ابن زنباع لم يفصح بسليم ورمز له ، باستعمال يعرفه النحاة،

---

(1) يقول شاعر من شعراء « الزهرة » :
اذن فتلافنى من قبل يأس ... يولد ما يجل عن التلافى

وهو اجراؤهم القول مجرى الظن في العمل وان كان معناه الاعتقاد في هذا، ولا يشترطون في ذلك شرطا ، كما قال ابن مالك ، وهو ما صرح به سيبويه في الكتاب ، وسليم هذه قبيلة من جذام يمنية ،' أو هي بطن من شنوءة من القحطانية .

وهذا الاستعمال نجده في أول بيت من القصيدة :

غيري يقول الحب مر المطعم

فيقول بمعنى يعتقد ، وهو أبلغ وآنس بقوله :

لهواك في قلبي كريقك في فمي

وصنعة القصيدة انه يخاطب محبوبه بأن هواه في قلبه حلو لذيذ لذاذة رضابه في فمه ، فهو لا يعتقد مرارة الحب ، وهو المراد من غيري وبذلك يستزيد من هذا الحب بأن تدير مقلة المحبوب عليه كؤوسه فيسكر بذلك سكرا يدب خماره في عظامه ، فاللدادة في هواه لذة عنده حتى ولو كانت أقتل من سم الافاعي ،' فاحبب بهذا الحب الطاهر الذي لا يبعث الملام ، وتقر به الاعين فتنام على رضى صاحبه ، وقد شغل النواظر والقلوب ولم يترك من الناس الا من لامس بصره وبصيرته ، فكأنه بهذا يرمز الى الحب الالهي ، ويعجب من كونه ملأ حيزين وهو واحد بمكانه وهذا من المستحيلات الفلسفية ، التي كان يرددها علماء الكلام والتوحيد العقلي، كما أنه أقام أزمنة وهو غير جوهر ، ثم انه يجري مجرى الدم وليس بمائع، وبعد هذه التأملات يتوجه بالخطاب الى قمره الانساني الذي يرمي الاناسي بأسهم العيون فيعتذر بأنه لم يبح لسانه بحبه ولكن جوانحه فاضت به فيض الاناء المفعم وانه لا ذنب له في ذلك ، عام الذي اسره نظرا ، فلم يرمز ولم يتكلم ،' وانه قد أمر بالشكوى اليه ، وهل يشكى لمن هو عالم به مطلع عليه ؟ فلا ينبغي الى الانسان ويشكى الا ما غاب عنه علمه ، ومع هذا فانه لو شكا اليه ربما لا يشكيه فيقضي حسرة ويأسا ، فخير له ان يظل في أمر مبهم بين اليأس والرجاء .

ومن هنا ينتقل الى المقصود ، فيطلب من صاحبه أن يتلافى أمره قبل أن يتلف روحه ، فهو من حمير ، وهؤلاء سياخذون صاحبه بدمه ويطالبون بثأره ، وهم الابطال الطاعنون بالرماح الضاربون بالسيوف الواردون

الصادرون الى الحروب التى تلفح الوجوه بنيرانها ، فلعلهم نسمو هماتهم ، فيدركون فى الظبى ثأر الضيغم ، يعنى محبوبه ونفسه .

فهذا الفخر هو المقصود ، وما قبله انما كان مقدمة على طولها ، وهذا الصنيع كان معروفا ، فى الفخر والمديح خاصة ، فقد مدح ذو الرمة أحد ملوك بنى أمية بقصيدة طويلة ، افاض فى مقدمتها بذكر ناقته ووصفها ، واخيرا ذكر ممدوحه فى بيت ونصف ، فقال له الملك الاموى « ما مدحت الا ناقتك فخذ منها جائزتك » وكذلك وجدنا ابن زنباع يمدح وزيرا بقصيدته اللامية ، فلا يذكره الا فى البيت السادس عشر من القصيدة .

ويبدو من البيت الاول أنه يعنى بالخطاب « انسانا » سيكرره فيما بعد وقد تمثله حبيبا هام به، فتلذذ بالتلدد فى هواه ولكنه حب لا يثير لوما وانه متمكن من القلوب مالىء للعيون وهى فى سباتها كما فى الحديث «تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » ومن هنا تجدنا فى تريث من فهم هذا الحب ، وهو لم يترك انسانا الا « وسمه بميسم » ، أتراه يرمز الى الحب الالهى ، ولا يريد بالريق معناه اللغوى ؟ كما انه لا يريد بالمقلة الجارحة المعروفة ؟

هذا كان يمكن حمله على ذلك ، وينساق معه الكلام ، الى نهاية البيت السابع ، ولكن ثامن الابيات ، يضطرنا الى تاويل آخر فنرمز بالقمر للذات العلية ، ونحمل « الانسان » على « خلقها » مستانسين بالآيــة : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » ، وهذا ما يكون قد رمز بقوله « يرمى أناسا للعيون بأسهم » وتكون الابيات الثلاثة بعد هذا البيت ، لا غموض فيها ، وقد فسرنا قوله « وانما ينمى الى الانسان ما لم يعلم » بأن الشأن الا ينمى الى الانسان الا ما لا يعلمه ، فكيف ينمى الى الله السميع البصير ويشكى اليه ما هو به عليم خبير ، ويبقى الكلام بعد هذا منسجما ولكنه فيما يذكر بالبيت بقوله « وسياخذوك فى دمــى » يصطدم بهذا التفسير الصوفى الرمزى الا ان يتكلف فى تخريجه ، ويهرع الى ذلك « الانسان » الذى يستعير له « الظبى » فيما بعد ، ولو تمثيلا ، فانبنت عليه مقدمة القصيدة ، التى قصد بها الى الفخر بادىء ذى بدء .

ومن شعره قصيدة أعجب ببيت منها القلقشندى . أما القصيدة فيقول فيهــا :

نزاع ما أرى بك أم نزوع　　لقد شقيت به منك الضلوع
يروعك او يريعك كل داع　　اكل مشوب داع سميع
جهلت وقد علاك الشيب امرا　　يقوم بعلمه الطفل الرضيع
ولولا ذاك ما قدرت انى　　أنوء بحمل مالا استطيع
فحسبك ، أو فحسبى منك دهر　　يشت بصرفه الشمل الجميع
وشوق تقتضيه نوى شطون　　فتقضى عنها واجبها الدموع
حملت الحب مؤتمنا عليه　　فكيف يضيع ذلك أو يذيع
لقد جشمت نفسك متلفات　　بكل ثنية منها صريع
وحال الصب تخضبه دموع　　كحال القرن يخضبه نجيع
وقد تحمى الدروع من العوالى　　ولا تحمى من الحدق الدروع
ورب فتى تراع الاسد منه　　تقنص قلبه الرشا المروع

والبيت الذى اشرنا اليه هو ما قبل البيت الاخير الذى تفرع عنه فى المعنى وقد تفرع هذا من قول العباس بن الاحنف على لسان هارون الرشيد :

ملك الثلاث الآنسات عنانى　　وحللن من قلبى بكل مكان
ما لى تطاوعنى البرية كلها　　واطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك الا أن سلطان الهوى　　وبه قوين أعز من سلطانى

ثم قول سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الاموى:

عجبا يهاب الليث حد سنانى　　واهاب لحظ فواتر الاجفان
فاقارع الاهوال لا متهيبا　　منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى　　زهر الوجوه نواعم الابدان

ثم قول ابن حمديس على هذه الوتيرة وكرر فيها القول كما فعل ابن زنباع : وبعدهما قال فى ذلك سليمان الموحد ثم المنصور السعدى فابنه زيدان كما سياتى فى محله .

وابن زنباع كما فى البيت السالف الذكر كان ماخوذا بسحر العيون ، فقد تقدم له فى ذلك :

ويعطف النبع كالحواجب او　　احنى وتمهى السهام كالمقل
وربما لم تقم مناصلها　　مقام تلك اللواحظ النجل

وقولـــه :

فأدر على بمقلتيـك كـؤوسـه ... حتى يدب خماره فى أعظمى
يـا أيها القمـر الذى انسانـه ... يرمـى أناسا للعيون بأسهـم

وقد عنى فى هذه القصيدة ـ شأنه فى غيرها ـ بالمحسنات البديعية التى نجدها فى البيتين الاول والسابع منها وفيها توجيه الخطاب ـ كعادة الشعراء ـ الى نفسه . وهى قطعة غزلية رقيقة ، يدعى صاحبها صدورها عنه ، وقد جلل رأسه الشيب واحدقت به الشيخوخة وركبه الهرم وهـذا هو المقصود من الامر الذى يقوم بعلمه الرضيع ، على سبيل المبالغة منه ولكنه ما زال على صبوته واتباع غيه وجهله كما قال .

ومن اخوانياته قوله يخاطب الفتح ابن خاقان :

هوى منجد يلقى بها الليـل متهـم ... يصرح عنـه الدمـع وهو يجمجم
يبيت يدارى أو يدارىء مـا بـه ... ويغلبـه أمـر الهـوى فيسلـم
لاجفانـه مـن كـل شيء مـؤرق ... ومـن أيـن للمشتاق شيء ينـوم
وليس الهوى ما الراى عنه مزحزح ... ولكنه مـا الـراى فيـه مفخـم
واعذر اهـل الحب كـل مدلـه ... يـرى أن من يهدى له النصح الوم
واجاـد ابنـاء الـزمـان مـرزا ... يقـاسى خطوب الدهر وهو متيـم
ويصعب حمل الهم والهـم مفـرد ... فكيف تـرى فى حملـه وهو تـوام
ولـولا ابـو نصر ولذات انسـه ... تقضت حيـاتى كلهـا وهى علقم
فتـى فتـح الله المعـارف باسمه ... ومن دونهـا باب من الجهل مبهم
تأخـر فى لفـظ الزمـان وانـه ... بمعنـاه فى أعيـانـه متقـدم
أسـوا بالمعـانى وهى در منظـم ... وجـاء بهـا من افقهـا وهى انجم
وما يستوى فى الحكم راق وغائص ... لقـد نـال اسنى الرتبـة المتسنم
اليـك ابـا نصر بديهـة خاطـر ... توالى عليهـا الشغل وهو مقسم
اهبت بهـا للقـول وهو لمـا بـه ... فلبـى ولم يسعده نطق ولا فـم
وكـم مصقـع لا يرهب القول فعله ... ثنتـه خطوب ما انثت وهو مفحم
ولو لم يكـن الا وداعك وحـده ... لاش فـق منـه يذبـل ويلملـم
فمـا يصنع الانسان وهـو بفهمه ... يحس بأشتـات الامـور ويفهـم
وقد كنت تشكينى من الدهر دائبا ... فقد صرت أشكو منك ما انت تعلم

عليك سلام تسحب الريح ذيله — فيعبق منه كل ما يتسنم
وان لم يكن الا وداع وفرقة — فان فؤادى قبلك المتقدم

وجمال هذه القطعة يكمن فى مقدمتها ذات السبعة الابيات ، على ما بها من تصنع ولعب بالالفاظ ومقابلات فى البيتين الاولين ، وعلى فتور فى التعبير بالبيت الثالث ، وتبقى بعدها الابيات الاربعة خالية من كل مأخذ .

وبعد هذا كله لا شيء فى أبيات التنويه والاشادة ، التى صدرت عنه « بديهة خاطر » وهو فى حالة من القلق وتراكم الاشغال وتوزع الافكار ، تلك الخطوب التى تفت فى عضد المصاقع من البلغاء والفصحاء .

ويبدو أن هذه العواطف المبداة كانت على اثر وداع بين الاخوين الصديقين تلته فرقة مبرحة تصدع القلب بها كما تفهم الابيات الخمسة الاخيرة

والمهم من هذه الاخوانية انها تبرهن على الشيوع الادبى الذى كان الاخوان يتجاذبون اطرافه لذلك العهد ، كما نجد له مثالا آخر صدر عن ابن زنباع ،، قاله على الارتجال ، وقد زاره نفر من اخوانه ، وهو هكذا على تواضعه :

اهلا وسهلا بكم من سادة نجب — كالذبل السمر أو كالانجم الزهر
أجملتمو وتفضلتم بزورتكم — وليس ينكر فضل من ذوى حسب
أضاء منزلنا من نور وجهكم — وطاب من عيشنا ما كان لم يطب

ومن قبيل الاخوانيات القصيدة التى اجاب بها الوزير ابا محمد بن القاسم معزيا فى قريب له وهذا الوزير قد أقصى عن مكانته ، مما تشير اليه الابيات الآتية (1) :

---

(1) أبو محمد بن القاسم ، كان من وزراء على بن يوسف ، ثم « نفذ فى أمره ما نفذ ، وانفصل عن أمير المسلمين وانتبذ ، خيره فى بلاد المغرب فاختار سلا ، واعتقد انه يانس فيها ويسلى ، بمجاورة بنى القاسم الذين غدوا بدور سمائها ، وصدور أسمائها ، فلما حلها انقبض عنه أبو العباس انقباضا نعى عليه اقبح نعى ، ونسب فيه الى قلة الوفاء والرعى ،،، وكتب (الوزير أبو بكر بن عبد العزيز) الى الوزير أبى محمد بن القاسم كيف رأى مولاى فى عبد له وهو أنا يرى الوفاء دينا وملة ولا يعتقد فى حفظ الاخاء ملة ،،،، وكتب اليه مسليا عن نكبته « الوزير الفقيه أدام الله عزه وكفاه ما عره أعلم باحكام الزمان من ان يرفع اليها طرفا أو ينكر لها صرفا ،،، ولما نكب الوزير أبو محمد بن القاسم النكبة التى أنبأت بتعذر الاوطار ،،، خاطبه كل زعيم مسليا عن نكبته ،،، فكتب اليه (أبو عبد الله بن أبى الخصال) ،،، برقعة مستبدعة ، وهى ، مثلك ثبت الله فؤادك =

لعــا لــك من جواد قــد أجــادا ... ونــال الغايــة القصــوى وزادا
وبــشر بالتــى يسمــو اليهــا ... ســواك فــلا تبلغــه مــــرادا
فانــى قــد رأيت الدهــر طلقــا ... تنــزل عــن خــلائقــه وحــادا
ومنــذ بخست حظك وهو كبــر ... احــال على الورى سنــة جمادا
ولــن يرضى الزمــان وانت فيــه ... تدافــع عــن محلك أو تعــادى
ومثلــك وهــو أنت ولا مــزيــد ... شفــى وكفــى الملمــات الشدادا
ومن وقذتــه بالنــوب الليــالــى ... فكيف يطيــق عــدوا واشتــدادا
ولــولا مــا كففت بــه فــؤادى ... من الحكــم التــى تسلى تمــادى
ومن يطفــى بنــزر المــاء نــارا ... فليــس يزيــدهــا الا اتقــادا
جــزاك الله خيرا مــن صديــق ... أفــاد صديقــه ممــا استفــادا
ورد عليــه صبــرا ضــل عنــه ... وأقســم لا ينــال لــه قيــادا
وانجــده علــى خطب عــــراه ... وأدرك فيــه ثــأرا فاستقـــادا

هــذا ما يتصــل بالقاضى ابن زنبــاع أمــا القاضى عياض فقــد ولد عياض بن موسى اليحصبى الاصل السبتى النشأة عام ستة وسبعين (1) واربع مائة ، وتوفى عام أربعة واربعين وخمسمائة نشأ أبو الفضل فى بيت عفة وصيانة ونبل وثقافة ، فتلقى تعليمه ببلده سبتة ، على جلة من العلماء ذكروا بالتعريف لابنه محمد وبكتاب الاحاطة لابن الخطيب وغيره ، ولما كان سنه اثنتين وثلاثين سنة توجه الى الاندلس ـــ والغالب أنها لم تكن وجهته الاولى ـــ فأخذ بقرطبة ومرسية وغيرهما ، ثم عاد الى سبتة ، فأجلســه أهلها للمناظرة عليه فى المدونة ، ثم جلس للشورى بها ثم ولى قضاءها ، ثم نقل الى غرناطة فتقلد خطة قضائها ، ثم عاد الى سبتة التى ولى قضاءها لثانى مرة ، وصار رئيسها على قيام الدولة الموحدية ، التى بايعها لاول الامر،

= وخفف عن كاهل المكارم ما ادهى بك وآدك يلقى دهره غير مكترث .
انظر « قلائد العقيان » ومنه نقلت هده الفقرات .

جميع النصوص المذكورة لابن زنباع وردت فى « قلائد العقيان » وهو المصدر الاول فى هذا وجميع من تناولوه انما كان اعتمادهم على القلائد أساسا وعلى غيرها تبعا والحق ان الشاعر غير مقطوع بمغربيته بالرغم من دكر نسبه أما كونه قاضيا على طنجة فهــدا لا يثبت كونه منها ولكن الاصل الاصطحاب كما يقولون .
على أنه ان كان نفس الشاعر ابن بياع ، فقد سبب هذا ابن بسام الى سبتة ودكر له بيتا لم يرد فى القلائد ، كما أشرنا الــى دلك فيما سلف فان ثبــت ان ابــن زنباع حقا مغربى فانه بذلك يكون شاعر العهد المرابطى لا يضاهيه مغربى فى دلك ولا يدانيه .
(1) وليس عام ستة وتسعين كما ورد فى كتاب النبوغ بطبعته الاولى والثانيه .

ولكنه بدا له فى نشأتها ما جعله ينأى عنها ويتابعه أهل بلده فيخلعون ربقة الطاعة من عنقهم ، وبعد التغلب عليهم ، حمل قاضيهم الى عاصمة الدولة ، وابقى عليه فولى قضاء تادلة التى كانت عمالة كبرى ، فكان مقره بقرية داى وتوفى بعد سنة من نقله .

وعلى حين لا نجد من آثار ابن زنباع والتعريف به الا ما ذكره الفتح ابن خاقان ، والا أشارة اليه فى كتاب التعريف ، فان القاضى عياض قد طبق المغرب والمشرق واشتهر بأخباره وعلمه وأدبه ، وتآليفه فيهما ، حتى قيل « لولا عياض لما عرف المغرب » .

الحقيقة ان عياضا يعد أعجوبة عصره ، وموسوعة شاملة لما كان يحيط به من ثقافات واسعة واتجاهات فيها ، فهو ناظم ناثر ، منشىء ومؤلف ناقد، وهو حافظ واعية ، فقيه مجتهد ، كما يصفه بذلك ابن الخطيب فى احاطته ، وهو خطيب مصقع ، وصوفى متزن متمكن من طريقته .

واذا أردنا أن نجعل للمغرب أوليات ، فآثار القاضى فى مقدمتها ، لا يتقدمها غيرها البتة ، واذا أردنا أن نضع لرجاله مجلين ، فهو فى الصف الاول منها ، بل هو المقدم فيها ، على الاطلاق ، وهذه نماذج من آثاره ، تنبىء عن كونه بحرا لا ساحل له بل ان الايام ما زالت تطالعنا فى الفينة بعد الاخرى بكنوز من تلك الآثار ، وضروب وألوان من تلك المقومات .

نجد فى نظم عياض ، وهو أضيق ميادينه ، كما ذكر فى التعريف لابنـــه .

يقول ابنه : ان أبا الحسن بن زنباع (1) كان بينه وبينه فى الشبيبة ، اخاء كبير ، وفى الكبر ، الى أن ولى رضى الله عنه القضاء ، وهما علـــى تلك الحال ، فبعد وقع بينهما تقاطع ، فبلغ ابى رحمة الله عليه ، عنه كلام ساءه ، فكتب اليه الابيات القديمة :

الى كم وكم أشيـــاء منك تريبنـــى ... اغمض عنها لست عنها بذى عمى
أحاذر أن أكـــاف عنهـــا بمثلهـــا ... تكـــون لاسبـــاب القطيمـــة سلما
سأصبـــر حتـــى يبلغ الموت بى ولم ... اخنك ولـــو جرعتنـــى الدهر علقما

---

(1) كما فى النسخة المطبوعة ، أما الخطية ففيها « ابن بياع » ، وهو ما أشرنا اليه آنفا ويستفاد من هذه القصة أنه كان فى سن القاضى عياض تقريبا ، وبهذا لا يعقل ان تكون وفاته سنة 503 ، كما ورد فى النبوغ بطبعته الاولى ، وحســـب ما أرخ بـــه ميلاد عياض ، كما سلف ، فان وفاته تكون بعد ميلاد عياض بنحو سبع سنوات فقط وهو خطأ فى منتهى الفداحة والغفلـــة

وله بين يدى رسالة — كما فى التعريف وأزهار الرياض — :

قل للاماجد والحديث شجون ... ما ضر أن شاب الوقار مجون
ولئن غدوت من العلوم بموضع ... تومى اليه أصابع وعيون
فلدى للاداب عين (1) صبة ... فيها الى ملح الظروف ركون
كنا افترقنا عند دعوى خطة ... ساءت بها — فيما فهمت — ظنون
فأتيت بالبرهان فيها نيرا ... وعدت عواد بعد ذا وشؤون
وبعثت الان (2) بها ليعلم أننى ... عين الزمان وسره المكنون

وله متغزلا وقد ضمن حديثا فى الاخير :

أذات الخال كم ذا تنتضيها (3) ... على سيوف عينيك انتضاء
بمطلك لى مواعد أقتضيها ... من التوريد واللعس اقتضاء
فتقضى وعد مطلك وانجزيه ... « خيار الناس احسنهم قضاء »

وله — قال ولده : ما كتبته من خطه — :

يا راحلين وبالفؤاد تحملوا ... أيرى لكم قبل الممات قفول
اما الفؤاد فعندكم أنباؤه ... ولواعج تنتابه وغليل
أترى لكم علم بمنترح الكرى ... عن جفن صب ليله موصول
أودى بعزمة صبره وابائه (4) ... طرف أحم ومبسم مصقول
ما ضركم واضنكم (5) بتحية ... يحيى بها عند الوداع قتيل
ان البخيل بلحظة أو لفظة ... أو عطفة أو وقفة لبخيل

وله — كما فى التعريف أيضا — :

اذا الاخلاء لم تحمد غيوبهم ... وخان ميثاقهم فى البعد أوحالا
فلى بأغمات خل لا أذم له ... مدى الحياة وان شطت نوى حالا

وله فى خامات زرع بينها الشقائق :

---

(1) فى الازهار « نفس »
(2) فى الازهار « وبعثت حينئذ » وينبغى تسهيل همزة « الآن » للوزن .
(3) حذفت النون كما تحذف فى المسند لواو الجمع والف التثنية أحيانا تخفيفا لا لضرورة كما هنا .
(4) فى الازهار « ولبابه » .
(5) فى التعريف المطبوع « ما ضركم أو ضنكم »
وفى البيت الوارد أخيرا تصدير كقول أبى تمام :
واسق الاثافى من شئونى ريها ... « ان الضنين بدمعه لضنين »

انظـر الـى الـزرع وخامـاته ... تحكـى وقـد ماست امـام الرياح
كتيبـة خضـراء مهـزومـة ... شقائـق النعمـان فيهـا جـراح

وينسب اليه متغزلا البيتان الشهيران (1) :

رأت قمـر السمـاء فأذكـرتنـى ... ليـالـى وصلهـا بالرقمتيـن
كـلانـا ناظـر قمـرا ولكـن ... رأيـت بعينهـا ورأت بعينـى

وفى لزوم ما لا يلزم وفيه اغراض :

يا مـن تحمـل عنى غير مكترث ... لكنـه للضنـى والسقـم اوصى بى
تركتنى مستهـام القلب ذا حـرق ... أخا جوى وتبـاريـح واوصـابـى
أراقب النجم فى جنح الدجا سمـرا ... كأننـى راصد للنجـم اوصابـى

وفيـه كـذلك :

اذا مـا نشرت بساط انبسـاط ... فعنـه فديتك فاطـو المـزاحـا
فان المـزاح علـى مـا حكـى ... أولـو العلم قبلـى عن العلم زاحا

وايضـا :

الله يعلـم انـى منذ لـم أركم ... كطائـر خانـه ريش الجناحيـن
فلو قدرت ركبت البحـر نحـوكم ... لان بعـدكم عنـى جنـى حينـى

وقوله فى قرية « بليونش » :

بليـونـش جنـة ولكـن ... طريقهـا يقطـع النيـاطـا (2)
كجنـة الخلـد لا يـراهـا ... الا الـذى جـاوز الصـراطـا

وقوله عند ارتحاله عن قرطبة :

أقول وقد جد ارتحالى وغـردت ... حداتـى وزمت للفـراق ركائبى
وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتى ... وصارت هواء من فؤادى ترائبـى
ولم تبـق الا وقفـة يستحثهـا ... وداعـى للاحبـاب لا للحبائـب
رعـى الله جيرانا بقرطبـة العلا ... وسقـى رباها بالعهاد السواكب

---

(1) انظر النبوغ ، وفى « ديوان الصبابة » لابن أبى حجلة التلمسانى ، انهما للمستوفى الاربلى العراقى ، ولم يرد ذكر لهما فى التعريف لابن القاضى ، ولا فى الازهار للمقرى .
(2) نسبا له فى الازهار ونسبا لابن مجبر فى النفح .

وحيـى زمـانا بينهم قـد ألفته ... طليـق المحيـا مستلان الجوانب
الخوانـنـا بالله فيهـا تـذكـروا ... مـودة جـار أو مـودة صاحب
غـدوت بهم من برهم واحتفائهم ... كأنـى فى أهلـى وبين أقاربـى

ويقول مخاطبا بعض أصدقائه الذين ودعهم :

لك الخير عنـدى لذاك النـزاع ... فعقـل يهيـم وقلـب يـراع
يعـز علينـا تنائـى الديـار ... وذاك سـلامـك لـى والـوداع
لكم أمـل كـان لى فى اللقـا ... وأمنيـة قـد طواهـا الزمـاع
فلـم أجـن منهـا سوى حسرة ... فوجـد جميـع وأنـس شعـاع
لئـن حمـل القلب مـا لا يطاق ... فمـا كلف الجفـن لا يستطـاع

ويقول مخاطبا الوزير ابن القاسم كما يبدو (1) .

عسى تعرف العلياء ذنبى الى الدهر ... فأبدى لها جهد اعترافى أو عذرى
وقد حال ما بينـى وبين أحبـة ... ألفتهم ألـف الخمائـل للقطـر
همـوا أو دعوا قلبى تباريح لوعة ... فنأيهم أذكى وأنكـى مـن الجمر
على أن لـى سلوى بأن فراقهـم ... وان طال لم يمزج بصـد ولا هجر
سأفزع للريـح الشمال لعلنـى ... أحملهـا نجـوى تلجلج فى صدرى
تبلـغ منهـا للـوزيـر تحيـة ... معطـرة الارجـاء دائمـة البشر
تظللـه مـن حـر كـل هجيرة ... وتؤنسه فى وحشة البلـد القفـر
وتنبئـه أنـى أكـن صبـابـة ... لحسـن بدا فى غير شعر ولا شعر
أهز بهـا عطفـى من غير نشوة ... وأرخى بها ذيلا من التيه والكبـر
وانـى أشدو فى النوادى بذكـره ... كما شدت الورقاء فى الغصن النضر
أجل وعساها أن تبلـغ مهجتـى ... فأبلى بهـا عذرى وأقضى بها نذرى

وله مراجعا الفتح بن خاقان :

أبا النصر ان شدوا رحالك للنـوى ... فان جميل الصبر عنك بها شدوا
وان تتركوا قلبـى مقيما وترحلوا ... فماذا ترى فى مهجة معكم تغـدو

وله فى مدينة الرسول ، بعد نثر فى « الشفا » تقدمه فى ذلك :

يا دار خير المرسلين ومـن بـه ... هدى الانـام وخص بالآيـات

(1) والابيات مذكورة فى القلائد والازهار وفى هذا أنه قالها معتذرا لمرض عرض له .

عنــدى لاجلك لوعـــة وصبابـــة | وتشـــوق متوقـــد الجمـــرات
وعلـــى عهـــد ان ملات محاجـــرى | من تلكم الجـــدران والعرصـــات
لاعفـــرن مصون شيبـــى بينهـــا | مـــن كثـــرة التقبيـــل والرشفات
لـــولا العوادى والاعادى زرتهـــا | أبدا واو سحبا علـــى الوجنـــات
لكـــن ساهـــدى من جميل تحيـــة | لقطين تلـــك الـــدار والحجـــرات
اذكى مـــن المسك المفتـــق نفحـــة | تغشـــاه بالآصـــال والبكـــرات
وتخصـــه بزواكـــى الصلـــوات | ونوامـــى التسليـــم والبركـــات

وله فى زيارة المقام الشريف (1) :

قف بالركاب فهذا الربع والـــدار | لاحت علينـــا مـــن الاحباب أنوار
بشراك بشراك قد لاحت قبـــابهم | فانزل فقد نلت ما تهوى وتختـــار
هذا المحصب هذا الخيف خيف منى | هذى منازلهم هذى هـــى الـــدار
هذى قبـــاب قبـــى آثار وطئهـــم | وذا هو الجزع فابك ذا هو الغار
هذا النبى الحجازى الـــذى شهدت | لـــه بتقديمـــه رســـل واحبـــار
هـــذا الحبيب الذى أسرى لخالقه | ليلا وقد ضربت بالليل أستـــار
هذا الرسول الذى من أجله شهدت | لنـــا على غيرنـــا فضـــل وآثـــار
هذا الشريف الذى سادت به مضر | هذا الذى تربه كالمسك معطـــار
هذا ا شفيع الذى ترجى شفاعته | للمذنبين اذا مـــا اسودت النـــار
بادر وسلم علـــى أنـــوار روضته | قبل المـــات فلا تشغلك أعـــذار
ان لم تعايـــن ثراه العين يا أسفى | أو لم تـــزره فان الشـــوق زوار
يـــا اهـــل طيبـــة حل ربعكم قمر | بر عطوف لفعـــل الخـــير امـــار
ياخيرة الرسل يا أعلى الورى شرفا | قد اثقلت ظهـــرى آثـــام واوزار
واشغلتنـــى ذنـــوب عنك مؤلمـــة | أخـــاف تحرقنـــى من أجلها النار
فكن شفيعى لمـــا قدمت من زلل | ومن خطايـــا فان الـــرب غفـــار
صلى عليه الاه العرش ما سجعت | ورق وما نفحت فى الروض ازهار
وآله وعلـــى أصحابـــه السعـــدا | ما لاح نجم وما تنهل (2) أمطـــار

---

(1) القصيدة من مخطوطة بالخزانة العامة للرباط فى مجموع من ورقة 66 ا — 68 ا) رقم 774

(2) بالاصل « هطل » ولا يستقيم بها الوزن والغالب أن القصيدة لم تصدر عن عياض فهى متواضعة فى فنها عامية فى لهجتهـا .

وهذه أخرى فى التوسل (1) :

اليك مـــددت الكف أستمطر الفضلا وأستكشف البلوى واستعطف الطولا
دعوتك مضطرا فعجـــل اجابتـــى بتفريج كرب طالما واصـــل الهـــولا
عليك اعتمادى فى جميع مقاصدى اليك رفعت الامر والقول والفعلا
وانت ملاذى يا مرادى وسيـــدى فسامح مسيئا قد جنى الجد والهزلا
نداء من الاعماق يا فالق النـــوى وياسامع النجوى وما من هو الاعلى
يتيم من الطاعـــات عفوك يرتجـــى قـــه الفقر والافلاس والفقد والذلا
الك الشكوى ياربى بقوم تسربلـــوا رداء من البلوى أذاعوا به الويلا
بجـــاه رسول الله فارحم نضرعى ونفس همومى كلهـــا الفرع والاصلا
لجأت الى باب الكريم لفـــاقتـــى فليس لنـــا مغن سواه ولا مولـــى
كئيبا حـــزينا بافتقـــار وضيعـــة ذليـــلا حقيرا أهمل الفرض والنفلا
فانزل عليهم من علاك صـــواعقـــا تصير مـــدى الاعصار أخبارها مثلا
وصل على قطب الوجود محمـــد صلاة تعم الرسل والصحب والاهلا(2)

وهذه قصيدة يتوسل فيها أو يناجى بها المقام النبوى (3) :

يـــا عين هـــذا السيـــد الاكبـــر وهـــذه الروضـــة والمنـبـــــر
فشاهـــدى فى حـــرم المصطفـــى مـــن نوره الساطـــع مـــا يبهـــر
يا عـــــين ذا مـا كنـــت تبغينـــــه فمـــا لاجفـــانك لا تمـــطـــــر
هـــذا مقـــام المجتبـــى أحمـــــد فمثلـــــه الاعيـــن لا تنظـــــر
واى فهـــم فيـــــه لا ينجلـــــى واى كســـر فيـــــه لا يجـبـــــر
ودت نجـــوم الافـــق لـــو أنهـــا كـــانت قنـــاديـــل بـــه تـــزهـــر
مـــا كـــان أهنـــا مهجتى لو غدت مـــوطـــوءة فيـــه لمـــن يخطـــر
كـــل مقـــام قـــد سمـــا قـــــدره فـــى هـــذه الحضـــرة مستصغر
تجمـــع الفضـــل بهـــا والنــــدى والجـــود والسودد والمتجــــر
الى ثراهـــا الزعفـــران انتهـــى ومـــن شداهـــا المسك والعنبـــر

(1) من مخطوط بالخزانة فى مجموع من 239 ب ــ 260 ب رقم 1625) .

(2) وهذه القصيدة بعيدة أن تصدر عنه فهى عامية فى عمومها وحذفنا أربعة أبيات منها لشدة تصحيفهـــا .

(3) والقصيدة باسوائها نجعلنا نطمئن الى صحة نسبها ، وتقع فى المخطوطة التى ذكرت أولا بالرقـــم 774 .

قـد حسدتهـا سـدرة المنتهـى لمـا حـوت والفلـك الانـور
والكعبـة الغـراء والمنحنـى والحجـر والاسـتـار والمشعـر
فاستبشرى يـا مقلتـى باللقـا فمـن راى الاحبـاب يستبشـر
قـد ذهـب الهـم وزال العنـا وكـل مـا يخشى ومـا يحـذر

وله ــ وانشده ابنه ــ كما فى التعريف له :

اليـك بـؤت بذنبـى فاغفـر خطايـاى ربـى
وامنـن علـى بلطـف تجبـر به صـدع قلبـى
فقـد ركبت ذنـوبـا سـودت منهـن كتبـى
وطـال تقصيـر سعيـى فى كـل فـرض ونـدب
وقـد أسـأت فأحسـن فلـم تـزل محسنا بـى
وجئـت أطلـب تـوبـا اذ ضـاق بالذنب رحبى
فاقبـل بفضلـك توبـى واغفـر برحمـاك ذنبى
وعافنـى واعف عنـى فأنت يـا رب حسبـى

وله ــ كما قال ولده عند توجهه لحضرة سيدنا أمير المومنين (ثم قال ــ غير أنه ضاع لى منها بيت ــ) :

اقمريـة الادواح باللـه طارحـى اخـا شجـن بالنـوح أو بغنـاء
فقـد أرقتنـى من هديلك رنـة تهيج مـن برحى ومـن برحـاء
لعلك مثلـى يا حمـام فاننـى غريـب بـداى قـد بليت بـداء
فكـم مـن فلاة بين داى وسبتـة وخـرق بعيـد الخافقين قـواء
تصفـق فيهـا للريـاح لواقـح كمـا صعصعتنـى زفرة الصعداء
يذكرنـى سـح الميـاه بأرضهـا دمـوعا أريقت يـوم بنت ورائـى
ويعجبنـى فى سهلهـا وحزونهـا خمـائـل اشجـار تـرف رواء
(لعل الـذى كان التفرق حكمـه سيجمع منا الشمل بعد تناء) (1)

ومن نظمه ــ كما بالازهار ــ (2) :

لاتيـان مـال مـال كل مؤمـل ولكنهـا سبـل صعـاب المسالك

---

(1) هذا هو البيت الضائع منه والمثبت فى الازهار ج 4 ص 268 .
(2) الجزء الرابع وكذا الابيات الواردة بعد جلها من الجزء الرابع .

كـذاك جنـات النعيـم ودونهـا صراط وكـم نـاج هنـاك وهالك

ومن نظمه هذه القطع الطليقة . ففى الاعتبار وشكوى الزمان والخلان يقـول :

أترانـى وما عسـى أن ترانـى آخـذا مـرة أمـان الـزمـان
سلبتنـى صروفـه كـل علـق مـن شبـاب وصاحب وامـان
كلمـا حـزت بغيتـى بفـلان علقت كفـه بـذاك الفـلانـى
عمـرك الله هـل سمعت بحـى لـم ترعهـم روائـع الحـدثان
كـل يـوم طايعـة لفـراق ومـن العجب أن تـرى للتـدانى
فاسأل الشعريين عنهـا وحسبـى شاهـدا مـا تقولـه الشعريان
ودع الفـرقديـن ان جهـلاهـا فستدهـى بأمرهـا الفرقـدان

ولـه أيضا متغـزلا :

يـا خليلـى فاحمـلا بعض قولى للتـى غادرت فـؤادى عليـلا
بلغـا عنـى الثريـا سـلامـا واذكرانـى لهـا وقـولا جميـلا
خلت انـى ملكتهـا واذا بـى فى يـديهـا تخيـلا مستحيـلا
لست أنسى وكيف لـى أن أنسـى حيـن ألقى الدجى عليها السدولا
هـل الى نظـرة سبيـل فانـى لست أبغـى الا اليهـا سبيـلا

وقال أيضا فى عرس مرابطى :

ليهن العلى أن زفت الشمس للبدر وحلى جيد الملك بالانجـم الزهـر
وقرت عيـون المجـد ايـة قـرة بيوم تعالى أن يكون مـن الدهـر
لدن ساعة افضت الى كل بغيـة كما اعتلق الغواص بالدرة البكـر
قران كلا السعدين فيـه تلاقيـا كما يلتقى فى المقلة الشفر بالشفر
لتجر المنـى فى حلبتيـه مغـذة فحـق لها فى مثـل ذلك أن تجرى
بسعد أمـير المومنيـن تطلعـت اساريـره تنـدى بمائيـة البشر
تهنـاه نجـل الملك حظا ممتعـا بعزالى عز ، وقـدر الى قـدر
تمـن بهـا الايـام ثـم تردهـا على بدئهـا مـا فيه من كرم البر

وقال أيضا فى مثله :

سمـح الـزمـان بليلـة غـراء جـامعـة السـرور

أجنــــت أكــف جنــانهـــا ... قطــف الامــانــى والحبـــور
مـــا فــض طيـــن ختــامهـــا ... فيمـــا تقـــدم مـــن دهـــور
دارت عــاى فلـــك السعـــو ... د بمثــل أشـــبـــاه البـــدور
مـــن كــل مـــا مــلأت مهـــا ... بتـــه العيـــون أو الصـــدور
مـــا إن تـــرى الا أميـــ ... ــرا حـــاز ارثــا عــن أميـــر
تخــذوا القلـــوب اســـرة ... وثـــووا بهـــا عـــوض السريـــر
فعليهـــم وقـــف العـــلا ... ء وان تـــدوولـــت الامــــور

وخاطب السلفى الاصبهانى بقوله (1) :

أبا طاهر خذها على البعد والنوى ... تحية مشتاق ، لذكــراك شيــق
تلـوى لك مـــا بين الضلوع مودة ... تشف صفـــاء كالـــزلال المـــروق
يناجيك بالذكـــرى فيشفى غليله ... ويخلص بالـــود الصحيـــح ويلتقى
انمت عمـــود الدين والاثـــر الذى ... سناه هـــدى للحـــق كل موفـــق
وطـــار إك الصيت البعيـــد فأرخت ... مآثـــره مـــا بين غـــرب ومشرق
فمـــا مـــن ثـــرى الا بذكراك عاطر ... ولا أفـــق الا بنـــورك مشـــرق
بقيت لاسنـــاد الحديث نقيمـــه ... وللعاـــم تملـــى منـــه كـــل محقق
ولا زلت تحوى كل فضل وسؤدد ... وتسمـــو بمعراج الجلال وترتقى

وقال أبو الحسن بن شاكر الشقورى : أنشدنى القاضى عياض لنفسه :

ولـــه قـــوم كلمـــا جئـــت زائـــرا ... وجدت نفـــوسا كلهـــا ملئت حلما
اذا اجتمعـــوا جاءوا بكـــل فضيلة ... ويزداد بعض القوم من بعضهم علما
أولئك مثل الطيب ، كل له شذى ... ومجموعه يزداد ريحا اذا شما (2)

ومما اشتهر من كلامه على طريق النروية — يصف غداة باردة :

كان كانـــون أهـــدى من ملابســـه ... لشهـــر تمـــوز أنواعا مـــن الحلل

---

(1) وجواب الاصفهانى عنها فى التعريف لابنـــه (103 — 104) .
(2) قال المقرى : قلت : كذا ذكر غير واحد عن الشقورى ، وفى دلك — عندى — نظر ، يتبين بما تراه الآن وذلك أن ابن خاتمة ، ذكر فى مزية المريه فى ترجمة أبى القاسم بن ورد ما نصه : وحكى أبو عمر بن عات قال : رايت أن ابا بكر بن العربى ، حدث أبا القاسم ابن ورد ، أن أبا حامد ، كان ينشد فى آخر مجلسه :
اذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلـــة ... ويزداد بعض القوم من بعضهم علما
فوصله أبو القاسم بن ورد ببيتين ، أحدهما قبله ، وهما المدكوران

أو الغزالة من طول المدى خرفت ... فما تفرق بين الجدى والحمل (1)

ومن وصاياه قوله :

يا طالب العلم استمع قول امرىء ... محض النصيحة للمريد الراغب
العلم فى أصلين لا يعدوهما ... الا المضل عن الطريق اللاحب
علم الكتاب وعلم الاثار التى ... قد أسندت عن تابع عن صاحب
جاءت بها الاثبات منهم واعتنت ... بمسانـد ومراسل وغرائب

وهذا نظم للقاضى عياض ــ رحمه الله يشبه ما سبقه فى الجفاف (2) :

تقعد عن الاسفار ان كنت طالبا ... نجاة ففى الاسفار سبع عوائق
تشوق اخوان وفقد أحبة ... واعظمها يا صاح سكنى الفنادق
وكثرة ايحاش وقلة مؤنس ... وتبذير أموال وخيفة سارق
فان قيل فى الاسفار كسب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة وامق
فقل كان ذا دهرا تقادم عهده ... واعقبه دهر شديد المضايق
فهذا مقالى والسلام كما بدا ... وجرب ففى التجريب علم الحقائق

ومن قبيل نظمه قوله كما فى التعريف والازهار :

اعوذ بربى من شر ما ... يخاف من الانس والجنة
واسأله رحمة تقتضى ... عوارف توصل بالجنة
فما للخلائق من ناره ... سوى فضل رحماه بن جنة

فهذه أبيات تعليمية على نحو مثلث قطرب تعد من النظم ولا تعد من الشعر فى روحه وجوهره ولعياض فى مكانة أهل العلم وعلى رأسهم مالك ابن أنس :

يا سائلا عن حميد الهدى والسنن ... اطلب هديت علوم الفقه والسنن
وعقد قلبك فاشدده على ثلج ... لا تطوبنه على شك ولا دخن
واسلك سبيل الالى حازوا نهى وتقى ... كانوا فبانوا حسان السر والعلن
هم الايمة والاقطاب ما انخدعوا ... ولا شروا دينهم بالبخس والغبن

---

(1) وجاء فى ترجمة محمد بن محمد الطيب المالكى التافلانى سلك الدرر للمرادى بيتان على غرار السابقين وهما :

كان كانون أهدى من منازله ... لشهر نسيان أصنافا من التحف
او المزالة تاهت فى تنقلها ... لم تعرف الحدى والثور من الخرف

(2) « السعادة الابدية » لابن الموقت .

اصحاب خير الورى أخيار ملته ... خير القرون نجوم الدهر والزمن
من اهتدى بهداهم مهتد وهم ... نجاة من بعدهم من غمرة الفتن
وتابعوهم على الهدى القويم هم ... أهل النهى والتقى والعلم والفطن
واختر لدينك ذا علم تقلده ... مشهر الذكر فى شام وفى يمن
حوى اصولهم ثم اقتفى اثرا ... نهجا الى كل معنى رائق حسن
ومالك المرتضى لا شك افضلهم ... امام دار الهدى والوحى والسنن
وعنه خذ علمهم ان كنت متبعا ... ودع زخارف كالاحلام فى الوسن
فهو المقلد فى فقه وفى نظر ... والمقتدى بالهدى فى ذلك الزمن
وعالم الارض طرا بالذى حكمت ... شهادة المصطفى ذى الفضل والمنن
ومن اليه بأقطار البلاد غدت ... تنضى المطايا وتنضى بدن البدن
من اشرب الخلق طرا حبه وجرى ... طى القلوب كمجرى الماء فى الغصن
وطال كل لسان فى فضائله ... قولا وان قصروا فى الوصف عن لسن
عليه من ربه اصفى عواطفه ... ومن رضاه كصوب العارض الهقن
وجاد ملحده وطفاء هاطلة ... تسقى برحماه متوى ذلك اليفن (1)

فهذه قصيدة الغالب أنها كانت من بواكير منظومه ، فهى من الكلام المغسول من زينة الشعر ، وان حوت نصائح وأوصافا كريمة لاهل العلم والتقى ، وخصوصا امام دار الهجرة ، مالك بن أنس ، ومن فقر التعبير فيها الشطران :

وعالم الارض طرا بالذى حكمت ... من أشرب الخلق طرا حبه وجرى

فهذا التأكيد المكرر دليل على كون صاحبه كان على عتبة الانتاج الادبى المبكر ، ويصح أن توضع القصائد بين منظوماته فى الحكم والنصائح ، كما تقدم ذكر بعضها .

وكذلك نجد من مشهور نظم القاضى عياض هذه القصيدة التعليمية التى نظمها على نسق سور القرآن ، وضمنها مدح النبى صلى الله عليه وسلم وآله والعشرة المبشرين وهى :

فى كل « فاتحة » للقول معتبره ... حق الثناء على المبعوث « بالبقرة »
فى « آل عمران » قدما شاع مبعثه ... رجالهم «والنساء» استوضحوا خبره

(1) اليفن الشيخ الكبير وبالاصل « الجفن » ولا معنى له هنا فأصلحناه بما يقرب منه فى الحروف والقصيدة واردة فى « ترتيب المدارك »

قد مد للناس من نعماه « مائدة » ... عمت فليست على الانعام مقتصره
« اعراف » رحماه ما حل الرجاء بها ... الا « وانفال » ذاك الجود مبتدره
به توسل آذ نادى « بتـــوبتـــه » ... فى البحر « يونس » والظلماء معتكره
«هود» «ويوسف» كم خوف به أمنا ... ولن يروع صوت « الرعد » من ذكره
مضمون دعوة « ابراهيم » كان وفى ... بيت الاله وفى «الحجر» التمس أثره
ذوامة كدوى « النحل » ذكرهـــم ... فى كل قطر « فسبحان » الذى فطره
« بكهف » رحماه قد لاذ الورى وبه ... بشرى ابن«مريم»فى الانجيل مشتهره
سماه «طه» وحض «الانبياء» على ... «حج» المكان آلذى من أجله عمره
«قدافلح»الناس «بالنور»الذىشهدو ... من نور «فرقانه» لما جلا غـــرره
اكابر «الشعراء» اللسن قد خرسوا ... كالنمل اذ سمعت آذانهم سوره
وحسبه «قصص» «العنكبوت» أتى ... اذ حاك نسجا بباب الغار قد ستره
فى « الروم » قد شاع قدما أمره وبه ... « لقمان » وفق للدر الذى نثره
كم«سجدة»فىطلى«الاحزاب»قدسجلت ... سيـــوفه فأراهم ربـــه عبــــره
«سبا» هم «فاطر» السبع العلىكرما ... لمن «بياسين» بين الرسل قد شهره
فى الحرب قد «صفت» الاملاك تنصره ... «فصاد» جمع الاعادىهازما «زمره»
«لغافر» الذنب فى تفضيله ســـور ... قد «فصلت» لمعان غـــير منحصره
«شوراه» أن تهجر الدنيا «فزخرفها» ... مثل «الدخان» فيعشى عين من نظره
عزت «شريعته» البيضاء حين أتى ... «أحقاف» بدر وجند الله قد حضره
فجاء بعد «القتال» «الفتح» متصلا ... واصبحت «حجرات» الدين منتصره
«بقاف» «والذاريات» الله اقسم فى ... ان الذى قالــه حق كمـــا ذكـــره
فى «الطور» ابصر موسى نجم سؤدده ... والافق قد شق اجلالا له « قمره »
«اسرى» فنال من «الرحمن» واقعة ... فى القرب ثبت فيهـــا ربـــه بصره
أراه أشياء لا يقوى «الحديد» لها ... وفى « مجادلة » الكفار قـــد نصره
فى«الحشر»يومامتحان الخلق يقبل فى ... « صف » من الرسل كل تابع أثره
كف «يسبح لله» الحصاة بهـــا ... فاقبل «اذا جاءك» الحق الذى قدره
قد ابصرت عنده الدنيا « تغابنها » ... نالت « طلاقا » ولم يصرف اها نظره
« تحريمه » الحب للدنيا ورغبتـــه ... عن زهرة «الملك» حق عندما ذكره
فى «نون» قد «حقت» الامداح فيه بما ... أثنى به الله اذ أبدى لنـــا سيـــره
بجاهه «سال» «نوح» فى سفينته ... حسن النجاة وموج البحر قد غمره

وقالت «الجن» جاء الحق فاتبعوا … « مزملا » تابعا للحق لن يــذره

«مدثرا» شافعا يوم «القيامة» «هل … أتى» نبيء له هذا العلــى ذخــره

فى «المرسلات» من الكتب انجلا «نبأ» … عن بعثه سائر الاخبار قد سطره

الطافه «النازعات» الضيم حسبك فى … يوم به « عبس » العاصى لما ذعره

اذ «كورت» شمس ذلك اليوم و « انفطرت » … سماؤه ودعت « ويل » به الفجره

وللسماء «انشقاق» «والبروج» خلت … من«طارق»الشهب والاملاك منتشره

«فسبح اسم»الذى فى الخلق شفعه … و «هل أتاك حديث»الحوض اذ نهره

«كالفجر» فى «البلد» المحروس غرته … «والشمس» من نوره الوضاح مختره

«والليل»مثل«الضحى»اذ لاح فيه«الم … نشرح لك» القول فى أخباره العطره

ولو دعا «التين والزيتون» لابتدرا … اليه فى الحين «واقرأ» تستبن خبره

فى «ليلة القدر» كم حاز من شرف … فى الفجر «لم يكن» الانسان قد قدره

كم «زلزلت» بالجياد «العاديات» له … أرض « بقارعة » التخويف منتشره

له « تكاثر » آيات قد اشتهرت … فى كل «عصر» «فويل» للذى كفره

«الم تر» الشمس تصديقا له حبست … على « قريش » وجاء الروح اذ أمره

« أرأيت » ان اله العرش كرمه … « بكوثر » مرسل فى حوضه نهره

«والكافرون»«اذا جاء»الورى طردوا … عن حوضه فلقد «تبت يدا» الكفره

«اخلاص» امداحه شغلى فكم «فلق» … للصبح أسمعت فيه «الناس»مفتخره

أزكى صلاتى على الهادى وعترته … وصحبه وخصوصا منهـم عشـره

صديقهم عمر الفـاروق أحـزمهـم … عثمان ثم علـى مهلـك الكفـره

سعد سعيد زبيـر طلحــة وأبــو … عبيدة وابن عــوف عاشر العشره

وحمــزة ثــم عبــاس وآلهمــا … وجعفر وعقيـل سـادة خيـره

أولئك الناس آل المصطفى وكفى … وصحبه المقتدون السادة البـرره

وفى خديجة والزهـرا وما وادت … أزكى مديحى سأهدى دائما درره

عن كل أزواجه أرضى وأوثر مـن … أضحت براعتهـا فى الذكر مشتهره

اقسمت لا زلت أهديهم شذا مدحى … كالروض ينثـر من أكمامـه زهره

أثبتنا هذه المنظومة التعليمية ، من كتاب أزهار الرياض ، حرصا منا على ذكر ما للقاضى من نظم مجرد ، لا انها شعر بمعناه وسواها وان كان بعضه مما يدخل فى عمود الشعر ، الا أنه ليس بالدرجة التى عليها أشعار زميله قاضى طنجة ابن زنباع وابن القاضى فى تعريفه يشير الى كون والده

لم يكن يقول من الشعر الا مجاراة لاصحابه ، لا فطرة منه فطر فيها على الشعر وفنه وكذا القول فى تلك الالوان البديعية التى هدف اليها فى بعض قطع من اشعاره ، جاء فيها بعض الجمال ، ولكن اصبع التصنع أو التعليم تشير الينا من خلالها ، بكون ذلك الجمال لم يكن المقصود ولا الداعى الى نظمها ، والفن الذى لا يقصد اليه لا يعد من حسنات صاحبه ، ولو لمحت فيه لمحة من الجمال ، لان الفن صنع الانسان ، لا بد فيه من تحرى الابداع، والا فهو رمية من غير رام لا فضيلة لصاحبها فيها ، ولو اصابت هدفها المطلوب منها وغير المقصود من صاحبها .

وصدق الحديث (انما الاعمال بالنيات) تطبق القاعدة على كل شىء ، وفيه الكلام الجميل فى نفسه الصادر عن الاطفال ونحوهم أما نثره فأجمله الرسائل الاخوانية التى اختارها له الفتح فى القلائد ، ويمكن أن يعمم هذا حتى فى شعره المختار فمن تلك الرسائل أو من فصولها قوله مخاطبا الفتح ابن خاقان ، محملا اياه تحية للرئيس ابى عبد الرحمن بن طاهر .

عمادى ابا نصر ، مثنى الوزارة ووحيد العصر ، هل لك فى منة تفوت الحصر ، تخف محملا، وتبلغ املا، وتشكر قولا، وعملا ، تترنم شكرا به الحداة ثقيلا ورملا ، اذا بلغت الحضرة العلية مستلما ولقيت الطاهر بن طاهر فخر الوزارة مسلما ، وحللت من فنائه الارحب حرما ، ولمست بمصافحته ركن المجد يندى كرما ، فقف شوقى بعرفات تلك المعارف ، وانسك شكرى بمشاعر تلك العوارف ، واطف اكبارى بكعبة ذاك الجلال سبعا ، وبوىء لودادى فى مقر ذلك الكمال ربعا ، وابلغ عنى تلك الفضائل سلاما ، يلتثم بصريح الحب التثاما ، ويحسن عنى بظهر الغيب مقاما ، ويسير بارج الحمد انجادا واتهاما .

فنلاحظ على صنيعه ، بالاضافة الى السجع محسنات مختلفة ، من قبيل المعنوى هذا الطباق ، فى « مثنى ووحيد » و « انجادا واتهاما » ومن قبيل اللفظى ، هذا الجناس فى « مستلما ومسلما » و « حرما وكرما » و « المعارف والعوارف » .

وفى هذا الفصل من التضمين ، قوله « ويحسن عنى بظهر الغيب مقاما » فهو من قوله تعالى « حسنت مستقرا ومقاما » وفى صدره تحليل

قول الشـاعر ، فى نفس الموضوع ، وهو تحميل التحية للمحبين .

يا صاحبى فدت نفسى نفـوسكمـا	وحيثمـا كنتمـا لقيتمـا رشــدا
ان تحملا حاجة لى خف محملهـا	تستوجبا منة عنـدى بهـا ويدا
أن تقـرآن علـى أسماء ويحكما	منى السلام وآن لا تشعـرا احدا

وفيه من قبيل الاصطلاح النحوى « المثنى » المقابل بالوحيد ومن الموسيقى « الثقيل والرمل » والفقهى ما انتزع من شعائر الحج فى الاستلام ، والحرم ولمس الركن والوقوف بعرفات وانساك المشاعر والطواف بالكعبة سبعا ، وبهذا يطغى عليه الطابع العلمى ، وان صاغه صياغة أدبية .

لنترك هذه الرسالة ولنتعرض الى رسالة اخرى كتبهـا الى نفس الصديق . يقول فيها : فى علمك سدد الله على حكمك ، ما جمعه فلان من جلائل تشذ عن الحصر ، وفضائل يعترف بها نبهاء العصر ، يقول فيختلس العقول ، ويعن ، فيذهل الالباب ويجن ، ان نظم فعبيد أو لبيد ، أو نثر فعبد الحميد أو ابن الحميد ، أو صال فأبو نعامة ، أو انال فكعب بن مامة ، أو فاخر فشجرة سيادة ، اصلها ثابت وفرعها فى السماء ، أو ذاكر فبحر معارف لا تكدره الدلاء ، الى همة تصفع هامة الثريا ، وعزة تمتهن الفضل ابن يحيى ، ولهجة تخرس العجاج ، وبهجة تزرى بنصر بن حجاج ، ولو كنت بن أبى هالة ، لما بلغت المنتهى له ، على انى لم انبه لشانه ذا جهالة ، لكنه الكلام يطرد ، والبداية حسب ما ترد ، واللسان ينطق ملء فيه ، والجنان يرشـح بمـا فيـه .

فهذا الفصل المتأنق فى نسجه ، المتنمق فى سجعاته ، قد حوى توريات وتضمينات ، فمن شخصياته المتراقصة ، الشاعران عبيد ولبيد ، والكاتبان عبد الحميد وابن العميد ، والفارسان الجوادان ، ابو نعامة وكعب بن مامة ، والاول اسلامى ، وهو قطرى بن الفجاءة الخارجى ، والثانى جاهلى ، وهو المكنى بأبى داوود ، من الفرسان الذين يضرب بهم المثل فى حسـن الجـوار .

ثم يستمر فيذكر الفضل بن يحيى البرمكى ، والعجاج الرجاز المشهور باغرابه ، ونصر بن حجاج الذى شهر بجماله فى خلافة عمر الذى سمـع منشـدة تقـول :

هل من سبيـــل الى خمر فأشربها   أم مـــن سبيـــل الى نصر بن حجاج

فنفاه من المدينة ، اتقاء الفتنة من جماله .

واستمر فى التلميح بهذه الشخصيات ، فذكر ابن أبى هالة ، وهو هند بن أبى هالة بن النباشى بن زرارة ، زوج خديجة أم المومنين فابنه هذا ربيب النبى عليه السلام ، من الصحابة ، كان يتحلى بأخلاق نبيلة ، رباه عليها من كان على خلق عظيم .

وكما تقدم لعياض فى شعره كثير من المتشابهات ، فاننا نجده كذلك فى هذا الفصل ، يستعمل منها « هالة » من قوله « المنتهى له » فتكررت « هالة » بنهاية كلمة المنتهى ثم الجر والمجرور « له » وأخيرا تاتـــى فى « جهالة » فبحذف جيمها ، تبقى « هالة » وكذلك يفعل بكلمة « فيه » فى قوله ملء « فيه » فيعقد به التشابه مع قوله بعد يرشح بما فيه فتكررت كلمة فيه مع اختلافها ومن التضمين القرآنى فى هذا الفصل ، قوله « فشجرة سيادة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » ولا يكاد يخلو له فصل من هـــذا التضمـــين .

وهذه رسالة لا تختلف فى صلبها عن العمود الاول الذى وصفناه ، وكلتاهما تتخذ طريقة ابن العميد مسلكا . الا أن الاقتباس فى هذه لم يكن من نوع تلك ، وانما هى اقتباسات أديب من معارفه التى لا تعدو نطاق الأدب بذكر شعراء وكتاب وأشخاص عرفوا فى التاريخ الاسلامى من عهد عمر بن الخطاب الى عهد المامون ابن الرشيد وكلها شخصيات شرقيـــة لا ذكر لغيرها من بينها ، ولا لمعاصر كان يعيش على ذلك العهد فهى طريقة تقليدية عرفها الشرقيون خصوصا فى القرن الرابع . على أن هناك رسالة أخرى لا نجد فيها أثرا لهذا الاقتباس الا فى فقرة واحدة وهى :

وصلت لمعظمى قرب الجلال ، وزهيت به رتب الكمال ، وحامت على مشرع مجده العذب طيور الآمال ، وغصت افنية جنابه الرحب بوفـــود الاقبال ، لا غرو أعزك الله ان من لاحظ من آثار فضلك الرائقة لحظة ، او حظى من سماع محاسنك الرائعة بلفظة ، أن تسير به همته فى لقائك واحدا ، وتعتسف الطرق الى ورد جلالك وافدا ، حتى يشاهد الكمال لم يحوج الى نقص ، وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم فى شخص .

فهذه الفقرة الاخيرة هى وحدها المقتبسة من البيت المعروف لابى نواس:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

ونحو هذا فصل من رسالة اخرى هكذا :

لا بد اعزك الله لكل حين ، من بنين ، يحلون عاطله ، ويجلون فضائله، ولكل مجال ، من رجال ، يقومون بأعبائه ، ويهيمون فى كل واد بأنبائه ، ولئن كانت جمرة الادب خامدة ، وجذوته هامدة ، ولسانه حصيرا ، وانسانه حسيرا ، فلن يخليه الله من هلال يطلع ، فيشرق بدرا وزلال ينبع ، فيغدق بفضائه بحرا ، وشبل يشدو ، فيزار من غابه ليثا ، وطل يبدو ، فيمطر من ربابه غيثا .

ففى هذا اقتباس واحد من قوله تعالى « الم تر انهم فى كل واد يهيمون » .

ومما صدر عنه عفو الخاطر ، ولم يحتفل به احتفال ما قبله ، ما راجع ابن خاقان ، فى الغفارة التى تأخر صرفها عليه ، ادام الله ياوليى جلالك ، وابقى حليا فى جيد الدهر خلالك ، الغفارة عند من ينظر فيها ، وقد بلغت غير مضيع تلافيها ، ويرجى تمامها قبل الصلاة وادراكها ، وتصل مع رسولى وكأنما قد شراكها ، وان عاق عايق ، فليس مع صحة الود مضايق ، والعوض رايق لايق ، وهو واصل ، وانت بقبوله مواصل ، والسلام عليك ما ذر شارق ، وومض بارق .

ومع هذه العفوية فانها لم تخل من تأنقات فى مثل جلالك مع خلالك وفيها مع تلافيها وادراكها مع شراكها وعايق مع مضايق ورايق لايق وواصل مع مواصل .

ومن رسائله العجيبة التى تنم عن باع له فى هيئة النجوم ، ما كتب به الى الوزير أبى محمد ابن القاسم ، وهى :

قد وقفت أعزكما الله على بدائعكما (1) الغريبة ، ومنازعكما البعيدة

---

(1) يعنى الفتح ابن خاقان معه ، وكان قد كتب الى ابن القاسم مودعا ، برسالة وصف النجوم، فراجعه ابن القاسم بمثيلها ، واشتهر أمر الرسالتين وتبورى فيه .

القريبة ، ورايت ترقيكما من الزهر الى الزهر ، وتنقاكما الى الدرارى بعد الدر ، فأبحتما حمى النجوم ، وقذفتماها من ثواقب افهامكما بالرجوم ، وتركتماها بعد الطلاقة ذات وجوم ، فحللتما بسيطها غارة شعواء ، لهـا مـا عـوت اكلب العـواء .

هناك افنرست الفوارس ، ولم تغن عن السماك الداعس ، وغودرت النثرة نثارا ، واغشى لالاؤها نقعا مثارا ، كأن لكما قبلها ثاراً ، واشعرت الشعريان ذعرا ، قطعت له احداهما أواصر الاخرى ، فأخذت بالحزم منها العبور ، وبدرت خيلكما وسيلكما بالعبور ، وحذرت اللحاق عن أن تعوق ، عن منحى العيوق ، فخلفت اختها تندب عهد الوفاء ، وتجهد جهدها فى الاختفاء ، وكأن الثريا حين ثرتم بقطينها اتقتكم بيمينها ، فجذذتم بنانها ، وبذلتم للخصيب أمانها ، فعندها استسهل سهيل الفرار ، فأبعد بينـه القرار ، وولى الدبران اثره مدبرا ، وذكر البعاد فوقف متحيرا ، وعادت العوائد بشامها ، والقت الجوزاء للامانى بنطاقها ونظامها ، فمهلا اعزكما الله سكنا الدهماء ، فقد ذعرتما حتى نجوم السماء ، ففادرتماها بين برق وفرق ، وغرق أو حرق ، فنزحزحا فى مجدكما قليلا ، واجعلا بعدكما الناس سبيلا ، فقد اخذتما بآفاق المعالى والبدائع لكما قمراها والنجوم الطوالع فهذه ايضا كغيرها يسودها السجع ، وتتضمن تلميحات واشارات ، كما فى قوله « وبذلتم للخصيب امانها » فلعله يشير الى بيت ابى نواس :

نفـس الخصيب جميعـه كـذب　　　وحديثـه لجليسـه كـرب

كما نجد اشارة الى قول الشاعر ، فى غير هذا ، وهو :

ايهـا المنكـح الثريـا سهيـلا　　　عمـرك اللـه كيـف يلتقيـان
هـى شاميـة اذا مـا استقلت　　　وسهيـل اذا استقـل يمـان

ويشير فى غير ذلك كله الى ما عبر عنه آخر بقوله :

اذا دبـران منـك يـوما لقيتـه　　　أؤمـل أن القـاك يـوما بأسعد

وفيها من الاقتباس نحو « واجعل بعدكما للناس سبيلا » فهو من الآية « ولن يجعل الله للكافرين على المومنين سبيلا » ونحوه من القرآن ، فهو تعبير قرآنى على كل حال .

وهذه رسالة الى زملائه الذين تباروا فى الحاق سطور تتخلل رسالة لابى القاسم ابن الجد وهى التى قد قدم بين يديها القطعة المذكورة فى شعره وهى : فارقت السادة الجلة ، أدام الله عزهم ، بثبات قدم عميدهم ، وأبقى عليهم ظله ، عند مجاراتنا الحاق الكتاب ، فكأنها كانت منى دعوى ، توجب الارتياب ، وكان الفقيه أبو فلان صديقنا أعرف بالقصد الى الزيادة ، فى رسالة الوزير أبى القاسم بن الجد ، على ايجاز الفاظها واندماج اغراضها ، وجلالة قائلها ، واعتدال أواخرها وأوائلها ، فلم اقدم تلك العشية شيئا على تسويدها وتذييل برودها ، وان كان المتحكك لذلك الطود العظيم ، كموقع الوشى بالاديم ، ولكن بحكم الاضطرار ، وقصد الاختيار للاختبار ، وطرقتنى لصاحبها من الحادث الكارث ما شغل عن صقل وجوهها، واذهل عن توجيهها ، وحين وجدت الآن فجوة ، وانست العشية وان لم تكن سلوة ، وجهت بها بشريطة رفع الدعوى ، وامتحان البلوى ، وصرف عين الانتقاد ، وتحسين الظن والاعتقاد ، وقد أعلمت على الزيادة بالحمرة ، لتكون فصلا بين الكلامين وعبرة ، ولم يمكنى مفارقة المنزل ، مراعاة لحق من يقصد وينزل ، وحذرا أن ينتقد ، من لا يجد ، فليكن الكل عندكم بالامانة حتى نجتمع والسلام عليكم يطول اعظاما لجلالكم ويتسع ، ورحمة الله تعالى وبركاته (1) .

وبهذه الرسالة نكون قد اتصلنا بنموذج آخر من نثر القاضى عياض ، وهى رسالة متعمدة كانت على سبيل المباراة بين الانداد ، كما اشار الى ذلك ابنه بقوله ، تذاكر رحمة الله عليه مع جلة زعماء ، وقادة علماء ، وسادة أدباء ، تعاطوا بينهم كأس الادب ، حتى ذهبت بهم فى التغلغل فيه كل مذهب ، فتسابقوا فى ميدانه ، وجرى كل ملء عنانه ، الى أن قصدوا التعجيز ، وسدوا باب المسامحة والتجويز ، وقالوا : الغاية القصوى ، المعربة عن كل مدع فى الادب دعوى ، أن نكتب رسالة معربة المعانى رائقة ، ذات اصول ثابتة وفروع سامقة، فيلحق بين كل سطر منها زيادة توافق معانيها، ولا تخل من مبانيها ، فتطاول لها ، رحمة الله عليه ، وازهار آدابه تنم ، وقال : انا لها ولكل أمر مهم ، وعينت له الرسالة ، وكتب ما تقف عليه .

---

(1) الرسالة المشار اليها بالزيادة فيها مثبتة بالتعريف الصفحة 91 وما بعدها . اما أبيات التقديم فسبقت بنهاية الصفحة 50 وبداية 51 من هذا الكتاب .

ومن فصول رسائله الاخوانية الواردة بكتاب التعريف قوله :

ليت شعرى أأعتب أم أعتب ، وأعترف بالذنب أم أذنب ، لا جرم لـو علمت لنفسى جرما ، لجعلت عليها برد الشراب حراما ، ولسلبتها لذيـذ المنام عزما ، حتى يفيء اليها ، من وجد عليها ، ويرضى عنها ، المتظلم منها ، بعلائكما ما هذا الجفاء ، وأين ما تدعيانه من الوفاء ، أحين جدت بنا الحال وشدت للنوى الرحال ، ودعا بنا داعى الزماع ، وخلجت يد وعين للوداع ، اتخذتمانى ظهريا ، وصرت عندكما نسيا منسيا ، لا أعلم لكما علما ، ولا القاكما الا حلما ، كأن شملنا لم يزل متصدعا ، وكأنا « لطول افتراق لم نبت ليلة معا » ماذا يريب الغريب ، من اغباب الاحباب ، أمجالسة السلطان ومؤانسة الاوطان ، أبى المجد من ذلك وأبيت ، ولنا يابيت بالعلياء بيت ، أم صدود وملال ، ينافيه ذلك الجلال ، أم قلة احتمال ، لما تشاهدانه من غلظ تلك الخلال ، وقيتما من الذى يعطى الكمال أم ثم ذنب يوجب الصدود ، ويودى بود الودود ، أسمعاه لارجع الى المتاب ، عن العتاب ، وأبادر بنفسى عوض الكتاب ، فأعذر ولا أعذل ، وأنصف من نفسى وأعدل ، والسلام .

فهذه رسالة لا تختلف عن غيرها ، وفيها من التضمين ، شطر بيت لمتمم ابن نويرة ، وهو فى قوله :

فلمـا تفرقنـا كأنـى ومـالكـا   لطـول افتـراق لم نبت ليلة معا

كما أن من القرآن فيه « اتخذتموه وراءكم ظهريا » « وكنت نسيا منسيـا » .

وهذا فصل آخر من ذلك القبيل :

مالى ولك أيها الماجد ، وقاك الله شر كل حاسد ، تسح على سحب بيانك ، وتجرى قبلى طلقا ملء عنانك ، وتكلفنى من مباراتك ما ليس فى وسعى ، وتحملنى من مجاراتك ما يعجز عنه قلمى وطبعى فمهلا قليلا ، لعلى اشفى من مراجعتك غليلا ، وأعمل فى محاورتك ذهنا كليلا ، والا فاطو فى ذلك بساط العتاب ، واقنع منى بما يرفع حرج الكتاب ، واكتف بأطال الله بقاءك ، ووصل علاءك ، ووقفت على كتبك ، وما تضمنه من آدابـك ،

وانا شديد الشوق اليك ، والسلام الجزيل عليك (1) والا فمتى تخطيت الى اكثر من ذلك ، لم تجدنى هنالك ، لا زالت التحيات متوالية لديك ، مترادفة بالامانى عليك ، والسلام الاحفل عليك ورحمة الله .

نكتفى بهذه النماذج من رسائله ، وهى على مستوى عال ، بحكم ذلك العصر الذى كان يحرص كل الحرص على تلك الزينة التى تبدت بها ، وهى على تفاوت فيما بينها من جمال ، يختلف النقاد — ولا شك — فى المفاضلة فيها ، وانا افضل الرسالة الثالثة لما فيها من هذه الصور المتلاحقة المتراصة ، بوصول قرب الجلال ، وزهو رتب الكمال ، وحوم طيور الآمال على مشرع مجده العذب ، وكون جنابه الرحب يغص بوفود الاقبال ، الى آخر الرسالة المتخففة من زينتها ، الا ما كان من السجع الذى اصبح لازما والا اقتباسا واحدا ، اشرنا اليه فيما سلف .

أما خطبه ، فهى فى وزنها بين الخطب تختلف كذلك ، واقلها واخفها فى الميزان ، ما صدر عنه على سبيل التعليم كما يأتى . وما دامت تلك الخطب تلقى على جمهرة العوام من المصلين ، فلا ننتظر منها أن تكون على مستوى يروقنا ويبهجنا ، كما وجدنا فى رسائله التى توجه بها الى العلية من طبقات الكتاب والوزراء فى الدولة المرابطة ، وكلهم كانوا من الاندلسيين الذين شغلوا مناصبهم هذه بالاندلس نفسها أولا ، ثم استدعاهم يوسف فابنه الى الحضرة ، فكانوا زينتها ومفخرها ، بما فاقت به حاضرة بغداد ، كما فى المعجب .

ومهما يكن فهذه خطبة من خطبه ، يستهلها بقوله :

الحمد لله الذى سبق كل شىء قدما ، ووسع كل شىء رحمة وعلما ونعما ، وهدى أولياءه طريقا نهجا أمماو « انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما ، لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المومنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا » احمده على مواهبه وهو احق من حمد ، وأساله ان يجعلنا اجمع ممن حظى برضاه وسعد ، واستعينه على طاعته وهو اعز من استعين واستنجد ، واستهديه توفيقا فان « من

---

(1) يكنى بهذا عن بسيط الاساليب فى الرسائل الاخوانية .

يهدى الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » الى أن يقول :

أيها السامع ، قد ايقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته ، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته ، فتأمل حدوده وتدبر محكم آياته « واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا » أين الذين عتوا على الله وتعظموا ، واستطالوا على عباده وتحكموا ، وظنوا ان لن يقدر عليهم حتى اصطلموا « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكم موعدا » غرهم الامل وكواذب الظنون ، وذهلوا عن طوارق الغير وريب المنون « وظنوا انهم الينا لا يرجعون » « حتى اذا راوا ما يوعدون فسيعلمون من اضعف ناصرا واقل عددا » (1) .

ففى هذه الفقرات ، لا يسير على وتيرة واحدة من السجعات ، بل أنه يخللها بآيات ، لا تجمع بينها سجعة منها وفيها من التضمين فى الاسلوب ، قوله « وظنوا أن لن يقدر عليهم » فهو من قوله تعالى « فظن أن لن نقدر عليه » . وصار يذكر بأهوال القبر ومواقف القيامة ، وما تنتهى اليه من جنة ، ذات بهجة وحدائق ، او نار ذات لهب وصواعق ، وضمن ذلك آية واحدة فقط .

وقد اقتصر ابنه فى التعريف على الخطبتين اللتين سقنا منهما هذه الفقر ، وذكر ان خطبه مجموعة فى كتاب .

وهذه خطبة له فى الحض على التوكل تكاد فى صوغها لا تختلف عما قبلها :

عباد الله ، سلموا الامور الى من بيده أزمة مقاديرها تنجحوا ، واشتروا قلوبكم باخلاص التوكل على الله تربحوا ، واعلموا أن الحرص لا يزيد المرء على ما قسم له ، وتصاريف الدهر تقطع لكل آمل أمله ، وانما يدرك الانسان بسعيه ما كتب له لا ما طلب ، ويبلغ بكده ما قسم له لا ما أمل واحتسب ، فاجملوا رحمكم الله فى الطلب توفقوا ، وتوكلوا على الله حق توكله ترزقوا ، واريحوا انفسكم من النصب فى طلب الدنيا والكد فانه لا مانع لما أعطى الله ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، الا وان التوكل على الله والثقة به احد أبواب الايمان ، ومن افضل درجات العدل والاحسان ، وهو حقيقة العبودية والتوحيد ، وموجب الرضى والتسليم للرقيب الشهيد ، فقد جرى

---

(1) وردت كذلك بالاحاطة كما ورد بها كثير من اشعاره السالفة .

القلم بما كان ويكون ، ونفذ قضاء الله بكل خير وشر وحركة وسكون ، وانقطعت الاطماع عن تأميل غير ما تقدم من مشيئاته ، (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته) ، ففيم التعب والطلب وقد سبق لك فى الكتاب ما سبق ، وعلى م اللهف والاسف على أمر قد فرغ منه قبل أن تخلق ، الم يضمن لك ربك رزقك وما وعد فى سمائه ، الم يعلمك انه لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، فعامل ربك أيها العبد بالتوكل والتسليم ، تفز بالعيش الهنى والثواب الجسيم .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال ، كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما ، فقال يا غلام ، انى أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، جفت الاقلام وطويت الصحف ، ان احسن الحديث وابلغ المواعظ كلام الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) جعلنى الله واياكم ممن توكل عليه فى كل حالاته ، واتقاه سبحانه حق تقاته ، وغفر لى ولكم ولجميع المسلمين .

وهناك خطب اخرى اتى بها المقرى فى أزهار الرياض منها خطبة فى سور القرآن على نحو القصيدة السالفة فيها ، وشك المقرى فى نسبتها اليه لنزول أسلوبها عن أساليب عياض ، ولا معنى لهذا الشك فى تلك الخطبة التعليمية والا لكانت القصيدة بذلك الشك . وعلى كل حال فاننا لا نلتمس لعياض مزية فى تلك الخطب الملقاة على العوام ، والخطبة التى أريد بهـــا تسجيل الصور القرآنية وانما نلتمس له بعض المزية — لا كلها — فى الخطب التى افتتح بها كتبه ، فمنها خطبته لترتيب المدارك هكذا :

« الحمد لله الذى أسبغ على عباده بفضله نعما لا تحصى ، وقدر على من شاء بعدله أن يطاع ويعصى ، وعين أهل الجنة والنار بقبضة القضاء ، وميز فى ظهر آدم بين طائفتى السعادة والشقاء ، ثم انتقى منهم ليتم عدله خواص واصفياء ، وجعل فيهم رسلا وأنبياء ليوضح بهم لمن أراد هدايتـــه منهاجه ، ويقيم على من صد عنه وصدف عن آياته حجاجه ، فبذلوا فى ذات

الله جدهم ، ونصحوا العباد جهدهم ، الى أن اختار الله لهم ما عنده ، وقضى كل واحد منهم ما كتب له من أثر ومدة ، عليهم من صلوات الله ما لا يحيط به حصر ولا عدة ، ثم تمم الله على المومنين فضله ، وختم أنبياءه ورسله بأرجحهم ميزانا ، وأرفعهم مكانا ، وأكرمهم أخلاقا ، وأطيبهم أعراقا وأطولهم فى الفضائل باعا ، وأكثرهم أمة وأتباعا ، أبى القاسم سيد ولد آدم ، صلى الله عليه وسلم ، كما شرف وكرم ، فجاهد فى الله حق جهاده ، وزايل الجلائل الصعبة فى ارشاد عباده ، حتى أقامهم على سواء محجته ، وأخذهم طوعا وكرها ببالغ حجته ، وساقهم فى السلاسل الى جنته ، ودخلوا فى دين الله أفواجا بدعوته ، فأنجز الله بـه وعده ، وعبد الله تعالى وحده ... الى آخر المقدمة .

ومثلها خطبة كتاب « الشفاء » هكذا :

الحمد لله المنفرد باسمه الاسمى ، المختص بالملك الاعز الاحمى ، الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، الظاهر يقينا لا تخيلا ووهما ، الباطن تقدسا لا عدما ، وسع كل شيء رحمة وعلما ، وأسبغ على أوليائه نعما عما ، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم عربا وعجما ، وأزكاهم محتدا ومنمى ، وارجحهم عفة وحلما ، وأوفرهم علما وأقواهم يقينا وعزما ، وأشدهم رأفة ورحما ، زكاه روحا وجسما ، وحاشاه عيبا ووصما ، وآتاه حكمة وحكما ، وفتح به أعينا عميا ، وقلوبا غلفا وآذانا صما ، فآمن به وعزره ونصره من جعل الله تعالى له فى مغنم السعادة قسما ، وكذب به وصدف عن آياته من من كتب عليه الشقاء حتما ، « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى » ، صلى الله عليه وسلم صلاة تنمو وتنمى ، وعلى آله وسلم تسليما .

اما بعد أشرق الله قلبى وقلبك بأنوار اليقين ، ولطف لى ولك بما لطف بأوليائه ، الذين شرفهم بنزل قدسه ، وأوحشهم من الخليقة بأنسه ، وخصهم من معرفة ومشاهدة عجائب ملكوته وآثار قدرته بما ملأ قلوبهم حبرة ، ووله قلوبهم فى عظمته حيرة ، فجعلوا همهم به واحدا ، ولم يروا فى الدارين غيره مشاهدا ، فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون ، وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يترددون ، وبالانقطاع عليه والتوكل عليه يتعززون ....

الى آخر المقدمة التى فيها نفحة صوفية نبوية ، تمتاز بها عن الاولى

اما من الناحية الفنية ، فالمقدمتان ، تلتزمان السجع — على العادة — وهذا يكلفهما أحيانا بعض الكلف ، خصوصا فى الاخيرة ، مثل « أنفسهم عربا وعجما » وتستعملان محسنات ، كالجناس فى « تحصى ويعصى » و « باعا واتباعاء » و « محجته وحجته » و « نعما عمـا » و « انفسهم وأنفسهم » و « حكمة وحكما » و « تنمو وتنمى » و « وصد وصدف » و « الاسمى والاحمى » و « جبرة وحيرة » و كالطباق فى « يطاع ويعصى » و « الجنة والنار » و « السعادة والشقاء » و « طوعا وكرها » و « الظاهر والباطن » و « عربا وعجما » و « روحا وجسما » و « فآمن به وعزره وكذب به وصدف عن آياته » و « السعادة والشقاء » (فى المقدمة الثانية ايضا) و « أوحشهم » و « ملأ قلوبهم ووله عقولهم »

وكالاقتباس فى « والظاهر والباطن » و « جاهد فى الله حق جهاده » و « دخلوا فى دين الله أفواجا » و « و « وسع كل شيء رحمة وعلما »

و « بعث فيهم رسولا من أنفسهم » و « آتاه حكمة وحكما » و « فآمن به وعزره ونصره » و « صدف عن آياته » فهذا من قوله تعالى : (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) وقبله (وعزروه ونصروه) وقبل هذه (وآتاه الله الملك والحكمة) وجاء الى جانب هذا الاقتباس بتضمين نص الآى ، مثل « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الاخرة أعمى » « وقل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » ثم هناك اقتباس من الحديث « عجب الله من قوم يدخلون الجنة فى السلاسل » .

وهى خطبة تذكر بالاتعاظ من صروف الدهر وزواجره ، وتحث على تهذيب السرائر بالتقوى والاخلاص الى الله والشكر لنعمه ، والحذر من نقمه ، وفى هذا الصدد يأتى بالآيات القرءانية العديدة ، يختم الخطبة منهما بهذه « ربنا ءاتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

وهذه خطبة اخرى يفتتحها بالحمد لله مبدى الحقائق ، ومبدىء الخلائق ، ومبدع السبع الطرائق ، ومزينها بالكواكب الشواهق واستمر على هذه الوتيرة التى تتخللها الاسجاع القافية ثم يتوجه الى المستمعين ويحضهم على سلوك جادة الطريق وترك ما عداها « ولا تغرنكم الدنيا

بكواذب المخارق ، فانها كثيرة البوائق ،،، ناركة لمن هام بها مفارق ، تدير دوائرها بكل صامت وناطق ، كم أهلكت قبلكم من الخلائق ، وطوت من الفراعين والعمالق ، وطوحت من القياصر والبطارق ، وطرحت العصم من أعلى الشواهق ، واسقطت من الجو كل خرق الجناح خافق ، وكم ذى بشطة ومنظر فائق ، بعيد الصيت فى جميع الخوارق ، قد شيد الحصون فى كل حالق ، وأوصد الابواب والمغالق ، وأرصد الجيوش والفيالق ، مغترا بمساعدة دنياه واثق ، فما راعه وهو فى بلهنية من عيشه الرائق ، حتى رمته بثالثة الأثافى وحالقة الحوالق ... »

وهكذا استمر فى سوق هذه الاسجاع ، التى عرفت بها العربية فى خطبها بالجاهلية والاسلام ، كما عرفت بتلك المواقف الاعتبارية فى العصور الخالية ، وملوكها الجبابرة ، منذ خطبة ابن ساعدة الايادى .

زيادة على هذه الجناسات المتأنقة فى « مبدى الحقائق ومبدئ الخلائق » « وطوت وطوحت وطرحت » وغير هذه مما نجده فى باقى الخطبة

وقد ضمن هذه الخطبة شيئا من القرآن ا كقوله : قطينا لذلك الحفر الى « يوم تبلى السرائر » وتعرض الخلائق .

ومن تتبع قراءة كتبه التى بأيدينا فلا يعدم أن يجد بها نماذج طيبة من النثر ، مثل قوله فى الشفاء ، قبل الابيات الواردة فى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام :

وجدير لمواطن عمرت بالوحى والتنزيل ، وتردد بها جبريل وميكائل ؛ وعرجت منها الملائكة والروح ، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح ؛ واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما انتشر ؛ مدارس آيات ، ومساجد وطوات ، ومشاهد الفضائل والخيرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ؛ ومناسك الدين ، ومشاعر المسلمين ، ومواقف سيد المرسلين ، ومنبوأ خاتم النبيئين ؛ حيث انفجرت النبوة واين فاض عبابها ، ومواطن طويت فيها الرسالة ، وأول أرض مس جلد المصطفى — طى الله عليه وسلم — ترابها (1) ؛ — ان تعظم

(1) أخذ هذا من قول الشاعر :

بلاد بها نيطت على تمائمى ... واول أرض مس جلدى ترابها

عرصاتها ، وتتنسم نفحاتها ، وتقبل ربوعها وجدراتها .

وللقاضى عياض وقفات نقدية تنعكس على آثاره الادبية التى قدمنا ، وهو جانب هام فى كتابه « بغية الرائد » وهذا الجانب الذى يهمنا من الكتاب ، فى النقد الأدبى ، يعد من أقدم ما لدينا للمغاربة فيه ، ولا غرو فى هذا فالقاضى عياض بآثاره العديدة ، اقدم شخصية علمية فى التاريخ المغربى على الاطلاق ، وما زالت الايام تطالعنا او تطلعنا على كنوزه الخفية ومنها هذا النقد الادبى ، الذى لم يعرف للمغاربة منه الا القليل جدا ، وفى لمحات خاطفة كذلك ، كما نجد للشريف السبتى والسجلماسى وابن البنا . واستمر النقد هكذا ، حتى كان فى القرنين الحادى والثانى عشر ، أحمد بن يعقوب الولالى المكناسى ، ينبعث به فى شرحه للتلخيص « مواهب الفتاح » ففى هذا الشرح نجد له كثيرا من المواقف النقدية الهامة (1) .

وصنيع عياض فى كتابه فريد ، وهو وليد له ، كما قال « مما لم يتقدم فيه كلام بلغه علمى وانتهى اليه ذكرى » هكذا قال ، وان كان فى مواقفه النقدية الأدبية يفصح باعتماده على علماء النقد والبلاغة ، كالرمانى والباقلانى والحاتمى والثعالبى والبستى والآمدى والخفاجى والأخفش والمعرى .

ويستشهد بما يستشهدون به أشعارا غالبها من ديوان الحماسة لأبى تمام ، ولم يذكر من شواهد مغربية الا واحدا له فى المتشابه وهو (2) :

اذا ما بسطت بساط انبساط	فمنه فديتك فاطو المزاحا
فان المزاح كما قد رآه	أولو العلم قبل عن العلم زاحا

والنماذج التى يستجيدها كثيرا ما نجده فيها يصف الكلام ، بكثرة فصوله وقلة فضوله ، مختار الكلمات واضح السمات ، قد قدرت الفاظه قيس معانيه ، وقررت قواعده وشيدت مبانيه ، ووصف آخر ، بصدق تشبيهه ، وصقالة وجوهه ، قد جمع من حسن الكلام انواعا ، وكشف

(1) أشرنا الى بعضها ، فى تناولنا لتاريخ البلاغة العربية الذى جعلناه كمقدمة على كتاب « دلائل الاعجاز » الذى علقنا عليه ولم نكن آنذاك قد اطلعنا على هده « البغية » والا لجعلنا ما فيها تاجا على مفرق النقد الادبى للمغاربة ، كما اننا لم نكن قد اطلعنا على « منهاج البلغاء وسراج الادباء » لحازم القرطجنى ، والا لكنا قد توجنا به حركة النقد الادبى عند الاندلسيين .

(2) هكذا ورد البيتان ، والمعروف لنا فيهما « فمنه فديتك » ثم « كما قد روى » وهو أظهر وأليق بالتركيب والاصطلاح .

عن محيا البلاغة قناعا ، وقارن بين جزالة الالفاظ وحلاوة البديـــع ...

ووصف كلاما غيره ، بتطارده وأخذه حقه من الموالفة والمناسبة فى الالفاظ ، التى هى رأس الفصاحة وزمام البلاغة ..

ثم يصف آخر بأن فيه من البديع ما يسمى الترصيع ، وقد يسمـــى بالموازنة وبالتبسيط وبالتضفير وبالتسجيع ...

وفى طيه باب رابع من البديع ، وهو مجانسة جمل بجبل (مثلا) ان لم يجانسه فى كل حروفه ، فقد جانسه فى أكثرها ،، وقد اختلف أرباب البلاغة والنقد فى هذا النوع ، اذا لم يكن مشتقا من أصل واحد فسماها بعضهم مجانسة ، أو مضارعة ،،، والحقيقى أن يكون فى الكلام لفظتان احداهما مشتقة من الاخرى ،،، أو تكون لفظتان على صيغة واحدة ، مختلفة المعانى ،، وكان البستى يسمى ما كان على صيغة بيت الأفوه :

واقطـــع الهوجـــل مستانســـا بهوجـــل عيرانـــة عنتـــــريس

بالمتشابه ، كقوله ، فهل لمنهاجى من هاجى ، فدعنى فان يقينى يقينى .

وقد أطال عياض فى هذه الدراسات البلاغة ، وخصوصا البديع منها ، وفيما تقدم لاحظنا على شعره ونثره ولعهما بهذا المتشابه الذى سماه بذلك البستى ومثل له بما رأينا .

وكذلك نجد فى مواقف القاضى النقدية أنه لا يرتكن فى بعض منها على أقوال النحاة ، بل يحتكم الى الذوق ، ولهذا يقول فيها :

« لم أر ذلك من جهة النحاة (1) ، وتقديم الالفاظ ، ولكن من جهة المعنى وتصحيح الاغراض ، وترتيب الكلام ونظامه ، ورد أعجازه لصدوره وتفصيل أقسامـــه .

---

(1) فهو بهذا يخالف عبد القاهر الجرجانى الذى يرى للنحو مزيته التـــى يكاد يفرد بهـــا فى تحميل صور البلاغة ، وخصوصا ما يتصل بالمعانى منها ، فيركز على « توخى معانـــى النحو » ولا شك أن النحو الذى عناه هو ما كان يمعن فيه جهابذته وفى مقدمتهم سيبويه فى « الكتاب » حيث نجد قضايا بلاغية أخضعها لنظيرات نحوية (أنظر مقدمتنا فى تاريخ البلاغة) • على أنه يتفق معه فى الاحتكام الى المعانى ، لا الى الالفاظ ، كما نرى أثره .

وطبق بعض نظراته على ما ورد فى أحاديث النسوة ، فقال فى قول احداها « زوجى لحم جمل غث ، على رأس جبل وعر أو وعث » :

ان هذه المراة أودعت أول كلامها تشبيه شيئين بشيئين ... فشبهت باللحم الغث بخله وقلة عرفه ، وبالجبل الوعث شراسة خلقه وشموخ أنفه ... ففصلت الكلام وقسمته ، وأبانت الوجه الذى به علقت التشبيه وشرحته ،،، فقالت ، لا الجبل سهل ، فلا يشق ارتقاؤه ، لأخذ اللحم الغث المزهود فيه ، لان الشىء المزهود فيه ربما اخذ اذا جاء عفوا ... ثم قالت ولا اللحم سمين فيحتمل فى طلبه ... مشقة صعود الجبل ومعاناة وعورته ... فقطع الكلام عند تمام التشبيه والتمثيل ، وابتداؤه بحكم التفسير والتفصيل ، أليق بنظم الكلام ، وأحسن من نفى التبرية وسرد الصفة فى نمط البيان ، وأجلى فى رد الاعجاز على صدور هذه الاقسام .

ثم أتى بنظائر لهذا التقسيم المفصل من القرءان الكريم ، فقال فى ذلك : وحيث وردت المنفيات فيه لصفات أشياء ، أو لشيئين يختص كل واحد منها بوصف ، وقصد كل شيء منها بنفى عيب ، ابتدأ الكلام حينئذ مستأنفا فقال : « بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ،،، ولا هم عنها ينزفون » فقوله « لا فيها غول » من صفات المشروب وقوله « ولا هم عنها ينزفون » من صفات الشاربين ، وهذا من الترتيب البديع والتناسب العجيب ... ومثله :

قلبى وطرفى منك هذا فى حمى قيظ وهذا فى رياض ربيع

فانه حمل « حمى القيظ » ،،، على القلب ... وحمل « رياض الربيع » ،،،، على الطرف ... فتناسب النظم على نسقه ، وتطارد الترتيب ،،،، وفى الفصل الذى عقده أخيرا للبيان ، تعرض — كما قال — لفنون البلاغة ، والابواب الملقبة بالديع ،،،، من لفظ رائق ، ومعنى فائق ونظم متناسب ، وتأليف متعاضد متناسق ... من الكلام الفصيح الالفاظ ، الصحيح الاغراض ،،، البديع العبارة ، البديع الكناية والاشارة ... فكرر ما سلف له مختصرا ، فى كون جمال الكلام من حيث الانسجام واحسان النظم فيه ، مع مراعاة فصاحة الفاظه وصحة معانيه ، وتلوين العبارة بصور البيان والبديع ، من نحو الكناية والاستعارة والتشبيه ، كما جاء ذكره بعد قوله السالف .

ويقول فى مهمة التشبيه ، انه « أحد انواع البلاغة ، وابدع أفانين هذه الصناعة ، وهو موضوع للجلاء والكشف ، والمبالغة فى البيان والوصف ، والعبارة عن الخفى بالجلى ، والمتوهم بالمحسوس ، والحقير بالخطير ، والشيء بما هو أعظم منه واحسن ، أو أخس وأدون ، وعن القليل الوجود بالمعهود المالوف »، وكل هذا لتأكيد البيان ، والمبالغة فى الايضاح ، ثم صار يمثل بآى من القرءان الكريم لذلك ثم قال ، وقد يقع تشبيه الشيء بالشيء تشبيها مجردا ، ليس فى شيء من الابواب المتقدمة ، كقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

لكنه يلحق بنوع التوليد والتخريج ، الذى بلاغته الفطنة لادراك التشبيه ، لا غير »، وصدقه فيه ، وان كان لبعضهم فى هذا البيت مقال لا ارتضيه .

ومن قبل هذا مثل للتخريج والتوليد لغريب الشبه ومخيلة المثال ، وهو وجه بلاغته ، بقول المعرى فى كف الثريا :

كأن يمينها سرقت شيئا ومقطوع على السرق البنان

وعلى كل فقد شرط فى التشبيه أن يكون صادقا من الوجه الذى وقع به التشبيه ، والا اختل به الكلام ، كما قال :

اما بيت امرىء القيس الذى نظر الى معناه الآن ، فقد سبق له أن نظر الى رصفه ، وأعجب به من حيث التناسب فى الاتيان بالعناب للقلوب الرطبة وبالحشف لليابس منها ، على الترتيب والتنسيق فى الذكر ، الاول للاول والثانى للثانى ، كما قال بعضهم :

سل عنه وانطق به وانظر اليه تجد ملء المسامع والافهام والمقل

وفى الترصيع قال ، وقد يسمى بالموازنة وبالتسميط وبالتفصير وبالتسجيع ، وهو أن تتضمن الفقر أو بيت الشعر مقاطع اخرى بقوافى متماثلة ، غير فقر السجع وقوافى الشعر اللازمة ، فيتوشح بها القول ، ويتفصل بها نظم اللفظ ، كما اتت بجمل فى وسط الفقرة الاولى وجبل فى وسط الفقرة الاخرى ، فيما به التمثيل آنفا ، وجعل منه « فأثرن به نقعا

فوسطن به جمعا » ففيه مقابلة . وبعد ما تكلم عن المجانسة ، قال : واختلف أرباب البلاغة والنقد فى هذا النوع (من البديع) اذا لم يكن مشتقا من أصل واحد ، فسماها بعضهم مجانسة تغليبا للاكثر ، وأما أبو الفرج قدامة ، فسمى هذا النوع مضارعة ، ومثل له بسرى مع شرى ، وفساح مع فياح ، وعجز مع بجر وتعشيش مع تغشيش ، ولكنه قال : وأما التجنيس الحقيقى فهو أن يكون فى الكلام لفظتان ، احداهما مشتقة من الاخرى ، مثل « انصرفوا صرف الله قلوبهم » ومثل « الربا ويربى » أو بمنزلة المشتق نحو « تتقلب فيه القلوب » ونحو « وأسلمت مع سليمان » وكله من القرءان الكريم أو تكون لفظتان على صيغة واحدة مختلفتى المعانى ، نحو « الظلم ظلمات » وقريب منه « ناضرة الى ربها ناظرة » .

وكان أبو الفتح البستى يسمى ما كان على قول الأفوه « ملقى عظام لو علمت عظام » متشابها ، قال عياض ،: واخترع قوم من المتأخرين أنواعا غريبة سموها تجنيس التركيب ، كقول المعرى :

مقاليتا مقاليتا ومطايا مطايا

وهو — كما قال — نوع متكلف من غير حدود البلاغة ، اذن فشرط البلاغة عنده خلوها من التكلف ، وهى قولة قيمة رددها غير ما مرة ولكنه مع هذه القاعدة ، استثنى فقال ،: ربما يندر منه المستحسن ، كقول الميكالى :

تمـــت محاسنه فمـــا يزرى بهـــا	مـــع فضلـــه وسخائـــه وكمالـــه
الا قصـــور وجـــوده عـــن جوده	لا عـــون للرجـــل الكريم كمالـــه

وقال البستى « فهل لمنهاجى من هاجى » « فدعنى فان يقينى يقينى » وقول الآخر « أرى قدمى اراق دمى » .

والحقوا به تجنيس التصحيف ، وهو مشاركة صورة الحرف فى الخط دون اللفظ ، وهذا — كما قال — لا يدخل فى باب البلاغة المستجادة ولا المتكلفة أصلا ، ولا فى شىء من حدود الكلام ، ولا صناعته ،: اذ لا يقرع السمع منه لهجة ، ولا يقوم له فى النطق حجة ، وقد رأيت ابا منصـــور الثعالبى ، قد عد هذا الباب فى باب التجنيس ،، وذكر فيه قوله تعالى « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » واشباها لهذا من الكلام ، وليس عندى من

هذا الباب ، وهو من الباب الاول الذى سماه قدامة بالمضارعة ، وهـو التجنيس فى اكثر الكلمة أو بعضها ، وذكر فى هذا الباب قول بعضهم «النار فى الفتيلة كالتعادى للقبيلة ، والصب مع الصب ... وشبه هذا فلم يحسن هذا ، ولم يقل شيئا لاجل صورة الحروف ، اذ لاحظ لهذا ، كما قلنا ،» فى الفصاحة ، ولاحظ له من التجنيس .

وفى كلامه على المطابقة قال ، هو مقابلة الشيء بضده ، ومثل له بالوعر مع السهل ، والغث مع السمين ، وهو مما يحسن الكلام بمقابلته ، ويروق بمناسبته ... واختلفوا فى تلقيبه ، فكان قدامة يسمى هذا بالمتكافىء ، وخالفه فى هذا الجميع ، ولا يكون هذا النوع عنده ، متكافئا الا اذا كانت الكلمة وضدها الحقيقى ، مثل السمن والهزال والسهولة والوعورة ، والسواد والبياض ، والنطق والسكوت ، أما البياض مع الحمرة ، والسواد مع الضوء ، فبعضهم يجعله طباقا ،» ويجعل آخرون طباقا غير محض أو مخالفا ، والاول مطابقا .

اما نحو اسد وفهد ، فهو مقابلة ، ولا يسمى طباقا ، ثم مثل للمقابلة ايضا بقول المرأة « لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى » عند أهل النقد مقابلة ، كما قال ،» فحملت (المرأة) اللفظ على اللفظ ، وردت المقدم الى المقدم ، والمؤخر الى المؤخر ، فتقابلت معانى كلماتها ، وترتبت الفاظها ، كما تقدم لها وفى الآية بعد ذلك .

ثم تكلم عن لزوم ما لا يلزم قال ، وبعضهم يجعله أحد انواع الترصيع،فى « فيرتقى وينتقى » التزام القاف والتاء قبل القافية الالف المقصورة وكذلك التزام القاف فى « ينتقل ويتوقل » قال ، وهذا نوع زيادة فى تحسين الكلام وتماثله ، واغراق فى جودة تشابهه وتناسبه ... وأولع به المتأخرون ، فمن مجيد ومن مقصر ، وبالجملة ، فلا يحسن منه ، ومن جميع ما مخضنا القول عنه ، الا ما ساقه الطبع ، وقذف به الخاطر ،» دون تكلف ولا مقاساة ،» ووجد لفظه تابعا لمعناه ، منقادا له ، موضوعا عليه ،» غير مرغم فيه ، ولا منافر لـه .

فهو يكرر هنا شرط عدم التكلف والاكراه ، ويجعل الزينة اللفظية خادمة للمعانى ، وبذلك وبالنظم سلفا ، يكون كعبد القاهر الجرجانى وكالذين

قالوا ان المعانى أرواح والالفاظ أشباح »، وقال بذلك الجاحظ نفسه ، مع تقديره للالفاظ فى الشعر ، كما قال به ابن شرف القيروانى .

نكتفى بهذه اللمحات والالماعات ، كما سماها عياض ، وهى تدل على ما كان عليه الرجل من اطلاع ونفوذ نظر ووضوح بصر بالنقد وقد اشرفنا على العهد الموحدى ، نريد أن نلقى نظرة على هذا العهد المرابطى الذى سنودعه ومعه القاضى عياض لقد كان الادب لهذا العهد ادبا يطبعه الطابع الاندلسى فى شكله وموضوعه ، ينجلى ذلك فى ابن زنباع وعياض اللذين اتصل ادبهما بشخصيات كانت من جهابذة الادباء الاندلسيين، ومن رجال الدولة التى كانت عاصمتها تزخر بهم (1) كما كان المعتمد ابن عباد ، حيا وميتا ، بالمغرب ، عاملا من عوامل هذا الطبع الاندلسى فى أدبنا ، فلقد كان الشعراء وعلى رأسهم ابن اللبانة وابن حمديس الصقلى ، الذى لم يكن شعره كذلك يختلف فى شىء عن الشعر الاندلسى »، يترددون على هذا الملك الاندلسى أو يلازمونه ، فيطارحونه الشعر ، ويكون لذلك اصداؤه عند غيرهم ، كما كانت أصداء المرثية ، التى انشدها ابن اللبانة على قبره تفعل فى الناس فعلها الصاخب ، الذى يصوره كتاب القلائد ، وكأنى بالقوم عامة كانوا مستعدين لهضم ما كان يلقى من ادب غض شهى على مائدتهم الحافلة ، فابن عباد يجد من يداخله فى ميوله ، حتى فى أولئك الفاسيين الذين كانوا يشاركونه ظلام السجن ويسامرونه فى أهواله ، ولهذا نجده يحزن كل الحزن ، حينما يفارقونه مودعين وقد أطلق سراحهم »، ويصور ذلك الحزن لفراقهم فى شعر شجى صدر عنه ، ضمن أشعاره الشجية .

---

(1) اذ نرى انه بالرغم من سيطرة الفقهاء على يوسف بن تاشفين فان المراكشى يقول « وانقطع الى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم (عهد الرشيد والمامون) واجتمع له — ولابنه من بعده — اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار وممن كتب لامير المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله ابوبكر المعروف بابن القصيرة احد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق فى البلاغة » . ثم كتب له ولابنه بعد ابى بكر الوزير ابو محمد عبد المجيد بن عبدون . ويذكر أيضا فى كتابه المعجب ان على بن يوسف كان يمد هذه الحركة بكثير من رجال الاندلس فيقول : ولم يزل امير المسلمين اول امارته يستدعى اعيان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبى القاسم بن الجد المعروف بالاحدب احد رجال البلاغة وابى بكر محمد المعروف بابن القبطرنة وابى عبد الله محمد بن ابى الخصال وابى مروان بن ابى الخصال وابى محمد ابن عبدون عبد المجيد بن عبدون .

حقيقة ان أولئك الذين أعولوا فى أغمات ، وصادقوا فى جنبات السجن ، لم يكن ذلك كله منهم ، للادب بقدر ما كان منهم لذلك العز الذى ذل ، وذلك العرش الذى زلزل ، ولكن مع ذلك لا ننسى عامل الادب فيه ، مهما كانت الظروف .

لقد كانت قصيدة ابن زنباع الربيعية ، قصيدة لو رأى مثيلها صاحب « البديع » لالحقها بأشعار الاندلسيين فى « الربيع » كما كانت أبيات عياض وهو بقرية داى ، أندلسية فى روحها وتنفساتها ، وكانت قصيدة ابن زنباع ، وهو يشكر الوزير ابن القاسم على تعزيته فى فقد عزيز له ، اندلسية فى جوهرها وعرضها ، وكانت قصيدة عياض ، التى وجهها الى وزير ... الغالب أنه كان ابن القاسم ؛ ورسالته التى الحقها برسالة أبى القاسم ابن الجد ، مفعمتين كلتاهما بالجو الأندلسى الخالص .

واذا توجهنا الى الاغراض ، فهى فى الادبين ، تتضمن مديح الكبراء ، ومخاطبة الاخوان من الوزراء ، والاشادة بأعمالهم وأخلاقهم وتتضمن وصف المشاهد ، من القاضيين معا .

كان هذا منهما لا يتعدى المحيط المهذب ، فليس لهما هجو ، وان لم يخلوا من عتاب أخوى ، وهذا أندلسى فى مظهره العام ، لأن شعراء الاندلس ، كانوا قليلا ما يلمون بالهجو ، كما حصل من ابن عبد ربه ومنافسه القلقاط ، وكما حصل بعدهما من اليكى مثلا ، كما أن الرثاء لم يكن منهم مثلما كان بالشرق وعند العرب قديما ، بل كان منهم مواقف اتعاظية وامعانيات فى سر الحياة والموت ونطاقهما الذى لا يفلت منه الجبابرة وطغاة الدهور الغابرة ، مما نجده فى مرثية ابن عبدون لبنى الافطس ، وأخيرا فى مرثية صالح الرندى للاندلس الاسلامى .

والرثاء كالهجاء ، لم نجد لهما حسا فيما تقدم من شعر المغاربة ، وما قيل فى تلك المواقع والمواقف الحاسمة ، لا يعد من قبيل الهجاء بمعناه العاطفى ، بقدر ما يعد داخلا فى السياسة وخطوطها العريضة التى كانت مع الاندلس فى نحو ما قال الخالدى عند فتح سبتة وما قاله غيره فى الادارسة وعاصمتهم ، مما نجده فى البكرى مثلا ونادرا ما عثرنا على الهجو فى عصرنا كما حصل من ابراهيم بن الحسن الادريسى وعبد المومن السجلماسى

الشيء الوحيد الذى وجدناه فى الاندلس ولم نجده فى المغرب لذلــك العهد ، هو الخمريات ، وان كان لها حسيس عند ابن زنباع الذى ذكر الكؤوس والشراب وما يفعله فى النفوس على سبيل التشبيه فى ذلك وليس على سبيل الحدوث من صاحبه .

وكانت الرحلة الى المشرق ، سواء فى ذلك أدناه وأوسطه ، فى العهد المرابطى على أشد ما تكون رحلات المغاربة اليه لأن الدولة نفسها كانت متعلقة بالشرق تعلقا كليا ، لدرجة أنها كانت تعتبر خايفة بغداد ، هو الخليفة الشرعى للبلاد ، فتتخذ العملة باسمه ، وتذكره فى الخطبة وتتخذ شعاره الأسود فى أعلامها وغيرها ، وهذا مما زاد ولا شك فى اتجاه المغاربة ورجال العلم منهم خاصة نحو المشرق ، ونظرة الى كتب التراجم المشرقية ، تجعلنا نشاهد من هؤلاء مثل ، أبى هرون موسى بن عبد الله بن ابراهيم الاغماتى ، الشاعر العالم النظار الذى قصد مصر والحجاز والجبال (ما بين أصفهان الى زنجان) وخراسان وأقام بنيسابور وبخارى متفقها بهما كما يقول ياقوت الذى ذكر فى معجم الأدباء عند ترجمة عمر النسفى انه الف كتابا فيه سماه « عجالة النخشبى لضيفه المغربى » ، ومثل على بن يقظــان السبتى ، الذى ورد على مصر ومضى منها الى اليمن ، وزار العراق ودار فى الآفاق بشعره ، ومثل أبى محمد عبد الله بن تويت اللمتونى ، الذى قدم المشرق للحج وطلب العلم فأقام به طويلا ، كما قدم اليه أخوه الفقيه أبو يعقوب ينتان المتوفى بزبيد من اليمن ، ومثل عمران موسى بن محمد بن خطاب الكندى السبتى الذى توجه الى المشرق وانشد به شعرا كثيرا للمغاربة ، كما انشد لنفسه . وهؤلاء الثلاثة ذكرهم السلفى فى معجم السفر ، أما الاول فقد ذكره العماد فى خريدة القصر . وقد نشأ من هذا النشاط لون جديد فى أدبنا كما سنرى . ولاول مرة نجد المصادر الشرقية تعتنى برجال المغرب وعلمائه . والملاحظ من هذه المصادر ، أن أماكن كثيرة أخرى صارت تتنفس بالأدب ، مثل مدينة اغمات ، ومراكش التى ذكر منها العماد عبد الله بن حماد المراكشى ، بعد سجلماسة التى ذكر منها عبد المومن بن يحيى السجلماسى ، ومثل مكناسة التى ذكر منها محمدا المعروف بينطلق ، كما ذكر العماد من فاس حماد بن الرفا الفاسى .

ومن شعر عبد الله بن حماد المراكشي قوله :

بت ليلى انافر النوم حتى … لاح لى الصبح لا اغمض عينا
وكأنى لما وعدت ضرير … اجذم قد اتاك يطلب دينا

ومن شعر عبد المومن السجلماسي قوله فى هجو قاض :

ايا عرة فى جميع القضاة … واجور قاض قضى واحتكم
امثلك يصلح فى قطرنا … يلى الحكم فى الشرع بين الامم

ومن شعر ينطلق قوله فى الفراق :

ان يوم الفراق يوم عسير … يتوقى وقوعه المهجور
كم اديلت للشوق فيه دموع … واستحرت للبين فيه صدور
واغتدى العاقل الصبور جزوعا … للنوى والنوى عليه أمير
اى عقل يبقى واى اصطبار … لمحب فؤاده مستطير
اذ أحباؤه اشاعوا ارتحالا … بينهم غدوة وقالوا المسير
ومطاياهم تشد ولم يب … ق سوى أن يقال للركب سيروا
لو ترانى يوم ارتحال المطايا … وبنان الحبيب نحوى يشير
لرايت امرا اجن من الشو … ق فأضحى كأنه مسحور
ليس يسطيع أن يودع حيا … دونه كاشح له وغيور
لم يزل يتبع الحبيب بطرف … دمعه للفراق دمع غزير
وينادى والشوق يضرم فى الاحـ … ـشاء نارا لها لديه سعير
بالاهى قرب مزار حبيبى … ولانت القدير نعم النصير

ومن شعر حماد بن الرفا الفاسى قوله من قصيدة فى الاستعطاف :

دع العتب وارجع لى حنانيك للعتبى … وواصل الى الكتب واغتفر الذنبا
وكن كالذى ما زال فى الناس محسنا … وان هم اتوا ذنبا وهاجوا به كربا
وللعفو عن ذنب المسىء عبادة … تطيب بها ذكرا وترضى بها الربا
وتحرز فى اثنائها خير مكسب … يكون جمالا فى الحياة وفى العقبى
فان اعترافى اننى لك مذنب … يجدد لى عهدا ويثمر لى قربا
لعل الليالى تستجد لقاءنا … فاشكو بعادا زادنى فيكم حبا
لقد طال هذا البعد حتى اذاقنى … عذابا ولقانى به خطبه خطبا

الى ان يقول :

اذا الريح هبت من سماوة أرضكـم … ذهلت فلم أملك فؤادا ولا لبـا
واستخبر الركبـان عنكم لعلنـي … بذاك أقضى مـن سلام لكم نحبـا
فـلا مبلـغ عنكـم الـى رسالـة … ولا قائل خـيرا ولا دافع كتبـا
فأرجـع مكلـوم الفؤاد معذبـا … تشب به نار الصبابة لى شبـا
لعـل الـذى أفضى بنـا لمفـرق … يسـنـى لنا لقيا ويسنـى لنا قربا

ومن شعر ابن يقظان المذكور قوله :

صبـا الفؤاد لريـم رمته فابـى … وكان من شأنه التبريز فاجتجبـا
عاطيته الكأس فاستحيت مدامتها … من ذلك الشنب المعسـول اذ عذبا
حـتى اذا غازلت أجفانه سنـة … وصيرته يـد الصهبـاء مقتربـا
ظلنا به طربـا من حسن نغمتـه … فى عوده نجتنى التأنيس والطربـا

وله أبيات :

اخواننا ما حلت عن كرم العهـد … فيا ليت شعرى هل تغيرتم بعدى
وكم من كؤوس قد أدرت بودكـم … فهل لى كأس بينكـم دار فى ودى
أحـن الـى مصر حنين متيـم … بها مستهام القلب محترق الكبـد

ومنهـا :

أراهم بلحظ الشوق فى كل بلـدة … كأنهم بالقـرب منـى او عنـدى
ولو ان طعم الصاب جرعت فيهم … لفضلته للحب فيهم على الشهـد

وتخلص فقال فيها :

فكم قد قطعنا من مفاوز بعدهـم … وخضنا بها الصعب المرام من الوهد
الى أن وصلنا الموصل الآن فانتهت … بنا لجمـال الديـن راحلة القصد

ومن شعر ابن شقرق قوله فى سفينة :

تخذت جناحا مثل قلبـى خافقـا … وحوت قوادم كل طيـر مسـرع
تسرى وتزجيها الريـاح اذا سرت … وتمر مـر العـارض المتقشـع
تستعذب الملح الأجاج لدى الظما … مهما العطاش وردن عذب المشرع

وقوله فى مولود ولد عند موت أخيه :

اللـــه اكبـــر بـــدر تـــم اطلعـــا	فى اثـــر بـــدر بالافـــول تقنعـــا
وبكى الغمـــام لـــذاك منتحبا كمـــا	ضحك الزمـــان لذا غداة تطلعـــا
فعجبت مـــن قمريـــن ذلك آفـــل	بادى السرار وذا تبلـــج مطلعـــا
وعجبت مـــن غصنين ذلـــك ذابل	بادى النحـــول وذا رطيب اينعـــا
وعجبت من عين بـــذا قرت وقـــد	سخنت بمصرع ذاك فى حال معـــا
يا من راى من سر حالة حزنـــه	ورأى الهناء مع العزاء تجمعا (1)

ومن شعر الأغماتى قوله وهو بنيسابور :

لعمر الهوى انى وان شطت النوى	لذو كبد حرى وذو مدمع سكـــب
فان كنت فى اقصى خراسان نازحـــا	فجسمى فى شرق وقلبى فى غرب (2)

وقبل أن نودع العهد المرابطى نرى أن أديبه الشاعر هو ابن زنباع ، ان صحت مغربيته ، وأن أديبه الناثر هو القاضى عياض على الاطـــلاق والاستغراق .

(1) تمامها فى الحريدة مع ابيات اخرى له كثيرة تركناها كما تركنا غيرها من شعر ابن يقظان المذكـــور .

(2) وأنظر سلوة الانفاس .

البـــاب الثالـــث

العهد الموحدي

يعتبر هذه العهد تجسيدا للقمة التى انتهى اليها الأدب المغربى فى شتى الوانه وفى مختلف انشطته ، فكان بحق يمثل الاستمرار النمائى لتلك الحركة التى باركها العهد المرابطى وقام بدورها الكامل القاضى عياض ، الذى اسلم شعلتها المتأججة الى عهدنا هذا .

لقد ادى الدور الاول فى هذا العهد رجال برزوا فى العهد السالف ، وكان سيكون منهم عياض نفسه لولا أن المنية لم تمهله الا قليلا ، فقضى نحبه وانتظر منهم شعراء كان فى مقدمتهم ابن حبوس الفاسى ، وكتاب ، كان فى طليعتهم ابو جعفر ابن عطية وأخوه أبو عقيل .

اما ابن حبوس ، فهـــو :

أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس ، مولى بنى ابى العافية ، وصفه ابن الابار فى كتابه « التكملة على الصلة » بانه كان عالما محققا وشاعرا مفلقا يتقدم بذلك اهل زمانه ويوقف على جودة شعره فى ديوانه ، وكذلك يقول فيه ابن عبد الملك فى كتابه « الذيل والتكملة » اذ يصفه بأنه شاعر مفلق من جلة فحول الشعراء مثقف فى معارف سوى ذلك من كلام ونحو ولغة وغيرها . ويهمنا منه ناحية خاصة هى الناحية الادبية بل تهمنـــا من هـــذه الناحية ، اخـــص منها (هى) ناحيته الشعريـــة . فابن حبوس الفاسى اشتهر كشاعر اكثر مما اشتهر بشىء آخر دونه ، وشعره هو الذى استطعنا ان نجد فيه بعض آثاره الادبية العديدة ، اما غيره فاننا لا نجد له الا قطعة نثرية جميلة نقلها عن مذكرته عبد الواحد فى كتابه « المعجب » وهى :

دخلت مدينة « شلب » من بلاد الاندلس ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم اطعم فيها شيئا ، فسألت عمن يقصد اليه فيها ، فدلنى بعض اهلها على رجل ، يعرف بابن الملح ، فعمدت الى بعض الوراقين ، فسألته سحاءة

ودواة فأعطانيهما ، فكتبت أبياتا أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فاذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليه فرحب بى ورد عاي أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء ، وقال : احسبك غريبا ؟ قلت نعم ، فقال لي من اى طبقات الناس انت ؟ فأخبرته انى من أهل الأدب ، من الشعراء ، ثم انشدته الابيات التى قلت ، فوقعت منه احسن موقع ، فأدخلنى الى منزله ، وقدم الي الطعام ، وجعل يحدثنى ، فما رايت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ، ومعه عبدان يحملان صندوقا ، حتى وضعه بين يدى ، ففتحه فأخرج منه سبع مائة دينار مرابطية ، فدفعها الي وقال هذه لك ، ثم دفع الى صرة فيها أربعون مثقالا ، وقال هذه من عندى ، فتعجبت من كلامه واشكل علي جدا ، وسألته من أين كانت هذه لي ؟ فقال لى سأحدثك ، انى أوقفت ارضا من جملة مالي للشعراء ، غلتها فى كل سنة مائة دينار ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد ، فاجتمع هذا المال حتى سيق اليك ، وأما هذه فمن حر مالى » . يعنى الاربعين دينارا ، فدخلت عليه جائعا فقيرا ، وخرجت عنه شبعان غنيا .

ولاشك أن هذه الحادثة وقعت له حينما فر من المرابطين الذين كان شاعرهم ، فبلغتهم عنه — كما يقول صاحب المعجب — حماقات ، خاف مغبتها ففر الى الاندلـــس ، ونزل باقليم الغرب منه حيـــث مدينة شلب البرتغالية على ساحله الجنوبى .

لقد كان فى هذه القصة ماهرا فى سردها وتصوير تنسيقها بتفاصيلها العجيبة . وفيها يذكر انه وجد الرجل الذى قصده بدهليزه وان هذا لما رد عليه السلام احسن رد ورحب به سأله عن هويته ، فكان ذكيا فى الاجابة « من اهل الأدب ، من الشعراء » وانه لما وقعت منه القصيدة أحسن موقع ، ادخله الى منزله وقدم له الطعام ، وجعل يحدثه ثم انصرف ، وعـــاد « ومعه عبدان يحملان صندوقا ... ، ففتحه ، فاخرج منه سبع مائة دينار » فدفعها اليه ثم دفع الصرة وفيها اربعون مثقالا ، وقال ما قال مما عجب له الشاعر ، فسأله عن السر الذى قص عليه قصته الغريبة واخيرا علق على الحادثة بتلك الالتفاتة التى تشد المستمع الى الوراء وتجعله بعد ذلك يتأثر ويعجب فيصطرع فى نفسه هذا التأثر والتعجب ، ثم ينحسس نفسية القاص وهو يلتمس ويتساءل ويستهدى فيهدى الى رجل لا يعرفه مطلقا ولكنه

يقتلع خطواته فيتجه بها الى هذا الوراق الذى يسأله سحاءة من الورق فيسلمها اليه ، ثم يعصر قريحته ويمسح جبينه بعد ما تستجيب اليهشاعريته الجائعة . ها هو ذا قد انتهى الى الرجل الذى استقبله فى الدهليز ، استقبالا حسنا ، فسأله بعد ما علم انه غريب : من أى الطبقات انت ؟ هنا يجيب فى لباقة « أنى من اهل الأدب » ولم يقل من الشعراء لاول وهلة، فالشعر والشعراء يحيط بهما هالة لابد من أخرى تحافظ عليها فتحفظها من مفاهيم الناس الذين لم يكونوا قد عرفوها بأعيان أصحابها المحقين ، ثم يتبعها بقوله من الشعراء وسرعان ما يدفع عنه تهمة الادعاء فينشد الابيات التى برهنت عن شاعريته المثلى وجدارته فوقعت من صاحبه أحسن موقع واذا به يأخذ بيده ، فيدخله الى منزله ،، بعدما كان يحادثه فى الدهليز ، وقدم اليه الطعام .

ولا شك ان الماضى الذى مر بقساوته وضراوته يجعلنا ندرك ما تحت هذه الجملة الاخيرة ، وكيف تنفس بها صاحبها وكيف تحركت لهواته فيها ، ثم هذه الابهة والرفاهية مع هذا الاحترام الذى ناله منهما « عاد ومعه عبدان يحملان صندوقا حتى وضعه (صاحب المنزل بنفسه ، بين يدى وفتحه فاخرج منه (كذا) فدفعه الى وقال الى آخر القصة التى ختمها بهـــذه « العقدة » العجيبة « فدخلت عليه جائعا فقيرا وخرجت عنه شبعـــان غنيـــا » ! !

أما شعره الذى اشتهر به فحسب الترتيب الزمنى مايلى :

من قصيدة فى بجاية عام 547 ، مخاطبا أولا الخليفة عبد المومن عند حصاره لهـــا :

عصفت بدعوتـــك الرياح الهـــوج	وسطا بأمـــرك ذابـــل ووشيـــج
وتقدمتـــك الـــى العـــدو مهابـــة	يشقى بها فى ســـده ما جوج (1)

ثم مخاطبا صاحبهـــا :

شدت اليك عـــلى الريـــاح سروج	ايـــن الفـــرار بأهلكـــم ياجـــوج

(1) البيان من زاد المسافر ، والذى يليهما من المن بالامامة ، وجعله أولا وانه لما أنشده « قال الخليفة يكفيه البيت وامر له بجائزة » .

ولما تم افتتاحها قال :

من القوم بالغرب تصغى الى — حديثهم اذن المشرق
جروا والمنايا الى غاية — فلم يسبقوها ولم تسبق
بأيديهم النار مشبوبة — فمهما تصب باطلا تحرق
يقودهم ملك أروع — تفرد بالسودد المطلق
تخيره الله من آدم — فما زال منحدرا يرتقى
الى الناصرية سرنا معا — ولما تفتنا ولم تاحق
الى برزة فى ذرى أرعن — تجل عن السور والخندق
يعوذون منا بمولاهم — ومولاهم عاذ بالزورق
وأكسبه خوفه خفة — فلو خاض فى البحر لم يغرق

ولعله قال فى هذه المناسبة مادحا الخليفة (1) :

أمير المومنين لقد أضاء الز — مان بنور عدلك واستنارا
لكم شرقا البلاد ومغرباها — وأمركم مع الفلك استدارا
يسير اليكم من ناء عنكم — يدور اليكم من حيث دارا
فمن قد فر عنكم من عدو — فنحوكم اذا يبغى الفرارا
ولو خوفتم أعلام رضوى — لما سكنت ولا وجدت قرارا

وله بمناسبة احتفال الخليفة بالمصحف العثمانى الذى اتى به عام 552 قصيدتان ، احداهما هكذا :

فعل امرىء دل على عقله — والفرع منسوب الى أصله
ان الذى يكرم فى جنسه — هو الذى يكرم فى فصله
والمرء لا يشكر عن نفسه — وانما يشكر من فضله
والخير والشر لهذا وذا — اهل فرج الخير من اهله
لا يترك اللازم ملزومه — والشخص لا ينفك عن ظله
وكل مفطوم على شيمة — لابد ان تظهر فى فعله
لا يدرك الطرف على شده — ما يدرك الطرف على رسله
والناس أشتات وفى الطبع ما — قد يعطف الشكل الى شكله
اضافة السفل الى علوه — اضافة العلو الى سفله

(1) زاد المسافر

ما غاية العالم فى علمه ... كفاية الجاهل فى جهله
ولا الذى يشكر عن بذله ... مثل الذى يشكر عن بخله
عمرى لقد حمل أمر الورى ... مضطلع بالعبء من حمله
من لم تزل انوار افكاره ... تهمى على المحل فى محله
ذاك سراج الكل بل شمسه ... بل عقله الفعال فى عقله
تضىء انوار النهى حوله ... فى عقده المبرم او حله
زوى (1) الفضل الى وقته ... ليقدم (2) المثل على مثله
هذا كتاب الله جل اسمه ... بخط عثمان وفى دخله
خير امام آخر جاءه ... خير امام كان من قبله
اليه يهمى كل (ما) مصحف ... تأنق العالم فى نقله
اجرى ابن عفان الى نصره ... وخصلكم زاد على خصله
انيسه فى وحشة الدار اذ ... تواطا القتل الى قتله
رمى به الخابط فى غيه ... وضمه الحاطب فى حبله
وصار من أوكد شغل امرىء ... فى تركه الاعراب عن شغله
صيانة الشيخ له أوجبت ... لجاجة الباغين فى بذله
حتى اتى الأمة من نبهت ... شهادة الرسل على عدله
فأيقظ الاجفان من نومة ... صحا بها المخبول من خبله
عرف ما يجهل من حقه ... وضم ما فرق من شمله
ومال فى تعظيمه ميلة ... اعادت الفرع الى اصله
البسه من رائق الحلى ما ... يعجز جيد الدهر عن حمله
وزاد ما ابطن من بره ... على الذى أظهر من حفله
نشز يضىء النجم فى علوه ... ونبرات الشهب فى سفله
فمن حصى الياقوت حصباؤه ... وتبره يغنيه عن رمله
كأنما الأصباغ فيه وقد ... تألف الشكل الى شكله
زخارف النوار فى روضه ... هراق فيها الليل من طله
فاض أتى الحسن فى كله ... فكله يعجب من كله
لم تر عين قط شبها له ... ولم تصخ اذن الى مثله

(1) فى الاصل هذه الكلمة غير واضحه ولعل الصواب ما اثبتناه من زوى الشىء جمعه وتبضه وطواه ونحاه .
(2) كان بالاصل « فيقدم »

اذاعت الحكمة سر النهى … فيه ومات الخبط فى جهله
تقيد اللحظ به فهو لا … يصرفه الناظر عن نبله
وذاك من فضل امام الهدى … وكلنا نعزى الى فضله
كانما العمال آلاته … تفعل ما يصدر عن فعله
جهابذ الآفاق قد بلدوا … فى فصل ما يفصل او وصله
وكلهم برز فى سبقه … واحرز الخصل على مهله
ما خطو من يعدو به سابح … كخطو من يعدو على رجله
وليس من يعرف من نهره … مثل الذى يعرف من سجله
ولا الذى يمرح مرخى له … مثل الذى يمرح فى شكله
ولا حسام نال منه الصدا … مثل الذى بولغ فى صقله
التمر معزو الى نخله … والشهد منسوب الى نحله
والقدس محفوظ على اهله … وانتم تالله من اهله
عجائب العالم مختصة … بأولياء الله او رسله

ومن الثانية هذا المطلع لها :

سيشكر المصحف اكبابكم … عليه اذ اوجده الفقد
اذكرتم الايام ما اغفلت … من بره اذ قدم العهد
مصحف ذى النورين عثمان ما … كان لكم عن صونه بد
ما اختار شيئا مؤنسا غيره … حين أتى واقترب الوعد
أوسعتم الدنيا اطراحا وما … كان لكم الا به وجد
يحنو عليه العطف منكم ولا … يغبه الاشفاق والود
احببتم المولى فأحببتم … ما خطه من وحيه العبد
البستموه حلية لم يكن … يسمح للكف بها الزند
لم تدرك الاعراب ما كنهها … ولا ادعت ادراكها السغد
لا أسفرت سفرتكم هذه … عن واضحات نجحها نقد
تكفل السعد بمقصودكم … وبانت الوجهة والقصد
عناية الله بكم جمة … له عليها الشكر والحمد

أما قصيدته الاولى فسار بها على نمط قول المتنبى فى هجو كافور :

انوك من عبد ومن عرسه … من حكم العبد على نفسه
ما من يرى انك فى وعده … كمن يرى انك فى حبسه

وانمـــا يظهـــر تحكيمـــه ليحكـم الانســـان فى حبســه
العبـــد لا تفضـــل أخلاقـــه عـــن فرجـه المنتن أو ضرسـه
لا ينجـــز الميعـــاد فى يومـــه ولا يعـــى ما قـــال فى امســه
فلا ترجـــى الخير عنـــد امـــرىء مـــرت يـــد النخـــاس فى راسـه
وان عـــراك الشـــك فى نفســه بحالـــه فانظـــر الى جنســه
فقلمـــا يـاـــؤم فى ثوبـــه الا الـــذى يلـــؤم فى غـــرسـه
من وجـــد المذهـــب عـــن قـــدره لـــم يجـــد المذهـــب من قنسـه

وشعر ابن حبوس هذا وان كان ابن عبد الملك المراكشى ، قد أثنى على صنيعه فى كتابه الذيل والتكملة الا أننا ازاءه نراه اشبه ما يكون بالنظم . . لقد قال أولا : وهى عندى من غرر قصائده ، ثم قال بعد اتيانه بالقصيدة : اثبت هذه القصيدة الفريدة بأسرها استجادة لها واستغرابا لما حوته من (انواع الحكم والامثال السائرة) .

نعم انه فى تأملاته ، وحكمه التى سردها بطريقة ، خططها المنطق الصورى الارسطى ، لعاى اهمية للمتمعن فيها ، ولعل ذلك ما دفع ابن عبد الملك الى حكمه المشار اليه .

ثم ان هذه الأبيات ، تشبه الى حد ما منظومات أبى العناهيـة فى زهدياته ، ببساطتها وتقليب صورها راسا على عقب ، أو طردا وعكسا كما يقول الميقاتيـــون .

اضافـــة السفـــل الـــى علـــوه اضافـــة العلـــو آلـــى سفلـــه
مـا غايـــة العالـــم فى علمـــه كفايـــة الجاهـــل فى جهلـه

ومع هذا فان فيه بعض الصور االشعرية ، مثل قوله :

نشر يضـــىء النجـــم فـــى علـــوه ونيـــرات الشهـــب فى سفلـــه
كانمـــا الاصبـــاغ فيـــه وقـــد تألـــف الشكـــل الـــى شكلـــه
زخـــارف النـــوار فى روضـــه هـــراق فيهـــا الليل مـــن طلـــه
فـــاض اتـــى الحســـن فى كلـــه فكلـــه يعجـــب مـــن كلـــه
لـــم تـــر عين قـــط شبهـــا لـــه ولـــم تصـــخ اذن الـــى مثلـــه
اذاعـــت الحكمـــة ســـر النهـــى فيـــه ومـــات الخبـــط فى جهلـــه
تقيـــد اللحـــظ بـــه فهـــو لا يصرفـــه الناظر عـــن نبلـــه

لا شك ان البيت الاخير اسعفه بيت لامرىء القيس فى معلقتــه ، واصفا سرعة الفرس ، بقيد الاوابد ، وان كانت الصورة غير الصورة هناك والمنزع فيها غير المنزع هناك ايضا . وفى الدالية مسحة من التفكيـــر ويبدو عليها بعض الاستعمال المنطقى وهذا ما كان عليه الشاعر من ثقافة عقليــة .

سوى هذا ففى النموذجين معا ، اهمية تاريخية ، يستفيد منها الدارسون كثيرا ، فقد عرف عن الدولة مبادئها الشيعية (بل الشيعية الاسماعيلية بصفة خاصة ، كما سنرى فيما بعد ، ومع هذا فيبدو ان القوم لم يكونوا دقيقين أو متجردين لمذهب بعينه ، ولهذا نجد المؤرخين ، يسمون دعوتهم بانها قد اختلطت فيها مذاهب ثلاثة ، الشيعية والخارجية والاعتزال ومع هذا فيبدو انهم لم يكونوا متحمسين لها تماما .

وقد سمعت من مفكر كبير وعالم جليل ، ان دعوة محمد بن تاومرت حتى الآن لما تعط حقها من عناية الدارسين المتعمقين فى الدرس فهى دعوة لا تشبهها فى عقدها المحكمة دعوة للدعاة فيما مضى .

ومهما يكن ، فالشيعى كالخارجى لا يسمح بالاشادة بعثمان ، ولا يصيخ الى هذه الابيات بارتياح :

مصحــف ذى النورين عثمان مـــا	كـــان لكـــم عـــن صونـــه بـــــد
ما اختـــار شيئـــا مؤنســـا غـــيره	حـــين أتـــى واقتـــرب الوعـــــد
هـــذا كتـــاب الله جـــل اسمـــه	بخـــــط عثمـــــان وفى دخلـــــه
خيـــــر امـــام آخـــــر جـــــاءه	خـــير امـــام كـــان مـــن قبلـــه

اما الموضوع فقالوا ان هذا المصحف كان رابع اربعة انتهى الى بنى اميــة ، ونقل اليهم بالاندلس ، فظل عندهم الى ان صار الى عبد المومن ، وبعد الموحدين صار الى بنى عبد الواد ، ثم الى المرينيين ، الذين كانوا يتنقلون به ، كما فعل الموحدون قبلهم ، فغرق أيام ابى الحسن ، ضمن ما غرق له من رجال ومتاع ، وهو بالمياه التونسية فاتحا .

لقد كان اهتمام الموحدين ، وأولهم عبد المومن ، عظيما بهذا المصحف ، وكان مبعثا عظيما للشعراء خاصة ، كما كان مبعثا لغيرهم فى وصفه والتنويه به ، ومن أوائل الواصفين له عبد الواحد المراكشى ، الذى يقول فى كتابه

المذكور ، متحدثا عن أبى يعقوب :

بلغنى انه اتصلت اليه منه (اى من ملك صقلية الذى صالحه) ذخائر لم يكن عند الملك مثلها ، مما اشتهر منها حجر ياقوت يسمى الحافر ، جعلوه فيما كللوا به المصحف .... على قدر استدارة حافر الفرس ، هو فى المصحف الى اليوم مع احجار نفيسة .

وهذا المصحف الذى ذكرناه (يقول) وقع اليهم من نسخ عثمان ، رضى الله عنه ، من خزائن بنى أمية ، يحملونه بين ايديهم انى توجهوا ، على ناقة حمراء ، عليها من الحلى النفيس ، وثياب الديباج الفاخرة ، ما يعدل أموالا طائلة ، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الاخضر ، يجعلونه عليها ، وعن يمينه ويساره عصيان ، عليهما لواءان اخضران ، وموضع الاسنة منهما ذهب شبه تفاحتين ، وخلف الناقة بغل محلى أيضا ، عليه مصحف آخر ، يقال انه بخط ابن تومرت ، دون مصحف عثمان فى الجرم ، محلى بفضة مموهة بالذهب ، هذا كله بين يدى الخليفة منهم .

وبعد فلا ندرى لم اختار ابن حبوس قصيدة المتنبى ، لينظم على نمطها فى مدح الخليفة عبد المومن ، وهى فى منتهى السخرية والاقذاع الذى نال به كافورا ، ولم ينل بمثله احدا من مهجويه ، على أن قصيدة المتنبى نفسها ناظرة الى أخرى فهى على نسق قول محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله التميمى القرشى :

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب الى مثله
من ذم شيئا وأتى مثله فانما يزرى على عقله

ونلاحظ عليه انه لا يبدو فى شعره قصد للالفاظ الا نادرا ، ومن هذا ما تقدم فى البيت :

فاض اتى الحسن فى كله فكله يعجب من كله

كما سياتى له :

رمت أن ترقى سريعا فترديت صريعا

فهذا جناس قليلا ما يصادفنا فى شعره ، أما الطباق وهو من المعانى ،

فيصادفنا أكثر من هذا ، وقد وجدناه فى البيت الأخير الذى فيه الجناس ، بين « سريعـا » و « صريعـا » اذ فيه طبـاق ايضـا فى « ترقـى » مع « ترديـت »

وفيما عدا هذه الحلية الخفيفة فابن حبوس شاعر معان أكثر منـه شاعر ألفـاظ ويصح أن نعده من مدرسة المتنبـى الذى يقلده كثيـرا فالمزية الحقيقية فى شعره ليست الالفاظ الخداعة ، ولكنها فى المعانى التى تبرهن عن قيمتها وتعلن عن نفسها بواقعها .

وبهذا سنرى له من الاوصاف ، ما ضربت الرقم القياسى فى مبالغاتها المهولة ، ولكنها فى الفاظها معتادة للناس .

لقد كان شاعرنا ، يعرض ما يحلو فى عين ممدوحيه ، ولهذا قـال المستحيل فى مديحه اياهم ، ولم يكن يتورع فى حرفته هذه شأنه فيها شأن ابن دراج الاندلسى ، الذى كان يدور مع اطماعه كيف دارت ، ويمدح من ترجح كفته ، فاذا خفت هذه الكفة ورجحت كفة غيره عليها ، قلب ظهـر المجن ، وانقلب مدح السابق ذما وهجاء ، وكذا الامر واقع مطرد فى كل ممدوح ، ولهذا وجدنا ابن حبوس يمدح الوزير ابا جعفر ابن عطية ، لما كانت كفته راجحة ، فلما خفت ووقع فى المحنة ، نحا عليه بالذم والهجو ، ارضاء لسيده الموحدى لقد مدحه بقوله فيما مضى فقال :

الا زار مـن أم الخشيـف خيالهـا	ومن دونهـا البيداء يخفـق آلهـا
لقد أوقدت فى القلـب منى جمـرة	بدا فى سواد العارضين اشتعالهـا
ثكلت الليالى عند غيـرى سلمهـا	وروقة دنياهـا وعندى قتالهـا
أتحسدننـى فى أن أعيـش كأنمـا	اذا فسدت حالى ستصلح حالهـا
أما تتقـى أن يشرئـب لنصرتـى	قـوى اذا رام السمـاء ينالهـا
وماذا الـذى ينأى عليـه وانـه	لذو قـدم أم النجـوم نعالهـا
وزير العلى عندى من القول فضلة	رويتها فى مدحكـم وارتجالهـا
وما كنت أخشى مدة الدهر ان أرى	تميد بـى الدنيـا وانتم جبالهـا

فلما قتل هو واخوه ابو عقيل ، كما سيأتى ، ذلك عام 553 ، قال متشفيا فيه ، وبايعاز من الخليفة لا محالة شعرا هاجيا كما سنرى .

ولا غرابة فى هذا فالشاعر كان من أولئك الشعراء الذين يعرضون

شعرهم على واجهات الراغبين يصورون فيها ما يريدون وينطقون بما لهم يحمدون فهم مرتزقة الفنون وهم « فى كل واد يهيمون » كما قال الله فيهم وعلى كل حال ففى هذه الأبيات الاولى التى مهد لها بالشكوى من الزمان وعثراته فيه ، كما يفعل ابن دراج قبله ، والمتنبى قبل هذا ، نراه يبالغ فى وصف الوزير بأوصاف ، قد تناكب تلك التى سنجده يصف بها الخليفة الموحدى ، فهذا الوزير اذا رام السماء نالها ، وكيف لا يكون كذلك ، وهو لا ينأى عنه مطلوب ، والنجوم صارت كبراها نعالا لقدميه .

فيا وزير العلى ، عندى فى مدحك اقوال لا تفنى ، ارتجل فيها قصائدى آنا واروى فيها آنا أخرى ، فأنت ملاذى لا أخشى بك ما يصيب الناس من دنياهم ، فكيف تميد بى الدنيا ، وانتم جبالها الراسية بها ، ولا شك انه استفاد هذه الصورة من الآية « والقى فى الارض رواسى أن تميد بكم » او الآية « وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم » .

وابن حبوس نادرا ما يقتبس من القرآن ، كما يفعل عياض ، ولكنه مع هذا يستفيد من بعيد بعض المعانى من القرآن ومهما يكن فهذا مدح للوزير وهو فى ذروة المجد يتسنم المكانة الرفيعة فى الدولة الناشئة فلما حلت به النكبة قال فيه هاجيا :

أندلسى ليس من بربر	يختلس الملك من البربر
لا تسلم البربر ما شيدت	بالملك القيسى من مفخر

وهذه نغمة تطفح بالعصبية البربرية، لم نعهدها فى غيره من ادبائنا (1) كما انها تحاول أن تنفى عن ذلك البساط من المجد ، هذا الوزير المنكود الحظ ، لأن أصله أندلسى ، وان ولد وعاش فى المغرب ، وهى دنية تضاف الى خلقه الدنى الذى ظهر به فى هذا الموقف .

ومن شعره ما قاله فى فتح المهدية عام 555 أو 554 مخاطبا الخليفة عبد المومن :

بطالع الاسد اختط البناء بها	لكنك الاسد الدامى الاظافير
باب حديد وابراج ثمانية	تسخر العقل فيها اى تسخير

(1) وان جعلها تشيد مفخرها بالملك العربى القيسى يريد عبد المومن الذى كان ينتمى الى هذا الاصل العربى

ثم كان ينشد الخليفة بجبل طارق عام 556 :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا ... وتعلمت أيامه ان تعدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا ... وجد الهداية صورة فتشكلا

الى ان يقول :

فلأنتم الحق الذى لا يمترى ... فيه وليس بجائز أن يجهلا
ولأنتم سر الاله وامركم ... ملأ العوالم مجملا ومفصلا
عزلت ولاة الحس عن ادراكه ... فهو المنزه حسبه أن يعقلا
كاثرتم زهر النجوم أسنة ... وأدرتم فلكا عليها القسطلا
ومنعتم الريح الهبوب لأنكم ... ارسيتم الحق المضاعف أجبلا
صدت تمشى القهقرى ولو انها ... خاضت رماحكم لعادت منخلا

ومنها فى صفة الرياض :

ان رنت الريح الخفوق ازاءها ... ترك القضيب قوامه وتميلا
شرب النشاط سلافة حتى انثنى ... ولو انها حرمت عليه تأولا (1)

ومن أمداحه له ـــ كما فى نظم الجمان ـــ قوله :

بخليفة المهدى سيدنا اغتدى ... نهج العلوم معبدا ومذللا
وتفجرت عين النباهة بعدما ... قد كان خاطرها اكل واجبلا
قد صير المعقول قلبا ماثلا ... فمتى رميناه اصبنا المقتلا
ورعى جميع العلم فى اوطانه ... من كان يبدى الضعف أن يتنقلا
وافيت حضرته المقدس تربها ... فاذا الذى أبصرت لن يتخيلا
ووقفت وسط سماطه فوجدته ... سوقا تقام على المعارف والعلا
لم الق الا عالما وازاءه ... متعلما متكثرا متقللا
ومدارسا تسع الرياضة لو راى ... سقراط سيرتها لذم الهيكلا
وسمعت كل مذاهب الحق التى ... ما ان ترى عن مقتضاها معدلا
وبصرت بالطوسى يفهق حوله ... وابى المعالى مجملا ومفصلا
لم الف الا مصقعا أو مفلقا ... ومجادلا عن دينه ومرسلا
والكل فى علم الامام مقصر ... حسب المبرز منهم ان ليلا

---

(1) الابيات فى « زاد المسافر » وقد اقتصر فى « المعجب » على الاولين منها وقال فى صاحبها انه كان يقلد ابن هانى فى « قصد الالفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وايثار التقعير » وهو حكم جائر فى حقه .

فاترك عكاظا والوفود بسوقها حذقا وسحبان الخطيب ودغفلا
يعشو لها الأعشى بنار محلق ويضم علقمة اليها جرولا
والحق بحضرته السنية واستمع للقول واحذر ويك أن تتقولا
فيها كمال الدين والدنيا معا وسعادة الأرواح فى أن تكملا

ففى هذه الابيات ، نجد الشاعر لم يحتفل بالالفاظ ، البتة ، ولم يتأنق فى سرد هذه الصور التى أشاد فيها بمجالس العلم التى كانت للموحدين ، وخص بالذكر فيها العلوم العقلية ، التى تيسرت لطلابها ، بفضل خليفة المهدى ابن تومرت ، فصار نهج العلوم به مذللا معبدا ، واصبحت النباهة قد تفجرت به ينابيعها ، وفاضت عيونها ، بعد ما كان القاصد اليها قد اصابه الوهن والعجز ، فجعل علوم المعقول ماثلة لمن يريدها ، فيقتنصها فى سهولة ، ويصيب قلبها فيتمكن منها ، وانتشر التعليم فى البلاد فتأتى رعى مراعى العلم المتكاثفة النبات ، فى أوطانه لمن كان منها لا يتيسر له التنقل عنها الى الاقطار الاخرى وانى قد أتيح لى أن وافيت حضرة الامام ، تقدست تربتها ، فشاهدت ما لا يتخيل فى مخيلة الناس ، فقد وقفت مبهوتا وسط حلقات العلم بها ، فوجدتها أسواقا تقام على العلوم والمعارف ، ولم يكن بتلك الاسواق ، الا عالم أو متعلم ، متقلل أو مكثر ، ووجدت مدارس متنوعة ، تسع الرياضيات ، التى لو رآها سقراط ، لاحتقر الهيكل الذى كان يحتويه وباقى الفلاسفة لعهده ، وسمعت فى تلك المدارس الى جانب هذه العلوم ، دروسا فى الهداية والتنوير ، لا يعدل عن مقتضى مذاهب الحق فيها ، ففيها نجد من العلماء من هم فى درجة الامام الغزالى ، يفيض علومهم ، ومن هم فى مرتبة امام الحرمين الجوينى ، تبيينا وتلقينا ، وكلا الرجلين من اساطين الاشعرية ، التى كان على مذهبها محمد بن تومرت وخليفته والموحدون عامة .

ثم يستمر فى وصف هذه المجالس بكونها طافحة بالخطباء والشعراء ، والمتكلمين المجادلين عن عقيدتهم ، والكاتبين المترسلين فى بسط شئون دينهم ، وجميع هؤلاء لا يصل الى المدى المعلوم التى كان عليها الامام المهدى ، فحسب المبرز منهم أن يدركه الليل فى طلب علمه ، وأن يسهر فى التماسه ، فهذه هى سوق العلم حقا ، فاترك جانبا ، سوق عكاظ وما كان يضطرب بها من شعراء وخطباء وعلماء ، كسحبان وائل ، الخطيب ،

ودغفل بن حنظلة النسابة ، وأعشى ميمون الشاعر ، الذى قصده المحلق فمدحه بقولـــه :

لعمرى لقــد لاحت عيــون كثيــرة الــى ضوء نــار باليفاع تحــرق
تشــب لمقروريــن يصطليانهــا وبات عــلى النار الندى والمحلــق

والقصيدة تنظر فى بعض أبياتها ، الى رائية المتنبى فى ابن العميد ، كما ينظر بعضها الآخر الى ابن زيدون فى داليته فى المعتضد بن عبــاد فهى أبيات ، ينظمها النسق المعتاد فى النصائح ، ولا ضجة فيها للالفاظ ، ولا صخابة بصلصلتها ، وما لنا نذهب بعيدا عن البيتين ، اللذين ذكرهما عبد الواحد المراكشى، فألفاظهما ليس فيها من هذا القبيل شىء، كل ما هنالك، مبالغات معنوية ، حيث جعل الزمان قد بلغ ما كان يأمله من الهدايــة ، فى فضل هدى الخليفة عبد المومن ، فكأن الزمان نفسه ، كان ضالا حائرا ، فارتفع عنه هذا الضلال ، ونزح عن كاهله كابوس الحيرة ، بهدى عبــد المومن ، وأن الايام كانت جاهلة جائرة ، فتعلمت به العدل ، بين الناس وقضت لهم بموجبه ، ويكفى هذا الزمان ، أن كان لا يستقر على حال ، ولا يتمثل فى شكــل ، فوجد الاستقــرار فى هذه الهدايــة ، وتشكــل بصورتهــا

ومهما يكن فان هذه القصيدة جاءت على نمط قصيدة للمتنبى .

قد قالها فى ابن العميد وهى التى مطلعها :

باد هواك صبــرت ام لم نصبــرا وبكاك ان لم يجر دمعك أو جــرى

وكان ابن دراج فيما قبل نظر اليها فى قصيدته :

بشراك من طول الترحل والسرى صبح بــروح السفر لاح فاسفــرا

أما نظر ابن حبوس هذا فواضح فى قوله :

لــم الــــق الا عالمــــا وازاءه متعلمــــا متكثــــرا متقلــــلا

فهو من قول المتنبى :

وسمعت بطليموس دارس كتبــه متكلمــــا متبديــا متحضــــرا

وفى قولــه :

وبصرت بالطوسى يفهــق حولــه وابــى المعالــى مجملا ومفصــلا

فهو ينظر الى قول المتنبى :

ولقيت كل الفاضلين كأنما ... رد الاله نفوسهم والاعصرا

ثم كان من أمداحه لعبد المومن قصيدته الرائية التى أنشدها وهو برباط الفتح ، استهلها مخاطبا البحر المحيط :

الا ايهاذا البحر جاورك البحر ... وخيم فى ارجائك النفع والضر
وجاش على امواهك الحلم والحجا ... وفاض على اعطافك النهى والامر
وسال عليك البر خيلا كماتها ... اذا حاولت غزوا فقد وجب النصر
لعلك يطغيك اشتراك سمعنه ... فذلك بحر لا يشاكله بحر
وليس اشتراك اللفظ يوجب مدحة ... ولكنه ان وافق الخبر الخبر
فمالك من وصف تشاركه به ... سوى خدع فى النطق زخرفها الشعر
ومالك من معنى يشير الى الذى ... تفوه به الا السلاطة والهذر
فأنت خديم الشمس والبدر عنوة ... ونخدمه فى أمره الشمس والبدر
ويحويك شطر الارض نغمر بعضه ... وفى صدره الافلاك والبر والبحر
وقد وسع الايام جودا ونجدة ... وليس لما تأتى به عنده قدر

الى قوله :

هنيئا لأهل الارض أن حلها امرؤ ... به تصلح الايام ان فسد الدهر
وبشرى لهذا السيف ماء لحده ... لقد بهرت فيه السماحة والبشر
بنى (فرضة) أم البلاد فكلها ... يسح عليها من مراضعها در
تكنفها الملئان من كل جانب ... نقيضان ذا حلو المذاق وذا مر (1)
فهذا عليه المد والجزر دائبا ... وذلك لامد عليه ولا جزر

ومنها :

غدت نقطة فى ضمن دائرة الدنا ... فلا أفق يناى عليها ولا قطر
فمن حيث ما رمت الجوانب نلنها ... بيسر ولا كد عليك ولا عسر
فذلك أعماق الجسوم وطولها ... وان بعدت يعنى بامدادها (البحر)
يفوح تراب الارض من طيب نشره ... فمن معطس الايام من طيبها نشر

(1) اخذ مضمون البيت من قوله تعالى : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج » كما ركز على عدم هذا الاستواء حل الابيات فى القصيدة .
وهى من الاعلام بعد تصحيح ما اسطعنا من تصحيفاتها .

ولا شك أن هذه القصيدة تفوق بكثير القصيدة السالفة .

وهكذا فهو يخاطب البحر المحيط ، الذى وقف على ساحله فى حضرة ممدوحه الخليفة ، فيفتتح الخطاب بهذا النداء الذى فخم من شأنه ، بأداة الافتتاح ، وبحرف أى ثم بالاشارة التى شفعها بهاء التنبيه كذلك ، فقال ، الا + أى + ها + ذا . وبعد هذه المنبهات الاربعة ، افصح بالمنادى « البحر » مخاطبه بأنه الآن فى جوار بحر آخر ، يفوقه بكونه يحمل كل طاقات الحياة اذ بيده النفع والضر ، وبأنه يجيش بالعقل ويموج بالنها على مياهك ، وأن فيضانه على أعطافك ، انما هو بما يصدر عنه من أمر ونهى وان سلطانه وقدرته ، كان بهما البر يسيل على البحر ، يسيل بهذه الخيول المطهمة ، التى تمتطيها الشجعان والابطال ، المعقود على نواصيها الوية النصر دائما ، فهى ان همت بغزو ، وجب لها النصر ، بادى ذى بدء ، قبل أن تباشر القتال .

فلربما اغتررت ايها البحر ، حينما سمعت ، أن بحرا قد جاورك ، فان هذا البحر لا تضاهيه فى شىء من عظمته فهو بحر لا يشاكله بحر من البحور ، فهذا الاشتراك الذى اغتررت به بين البحرين ، انما هو من قبيل المشكك وليس من قبيل الاشتراك فى الواقع ، بل انه يكاد يكون من قبيل المخالف ، فأنت خديم الشمس والبدر تتحرك بالضرورة وفق امرهما ، مدا وجزرا ، اما ذاك البحر فالشمس والقمر يخدمانه طوع أمره ، وهو بجوده وسطوته يسع الايام ويحتوى الانام ، ولا قدر لما تأتى به فى حسابه ، ولاشك أن هذا الوصف المبالغ ، انما استاقه من وصف الكرسى « وسع كرسيه السماوات والارض » .

اذن فقد سلبت ايها البحر كل ما يمكن ان تشارك به هذا البحر العظيم ، وليس لك من معنى يجمع بينكما ، الا أن يكون هذا الخداع اللفظى ، الذى نجده فى كلمة « البحر » واستغله الشعر فزخرفه ، حيث جعلك تجاوره ، وما لك من صفة تفوه بها الا ان يكون ما تدعيه لك من قبيل الوقاحة والجراءة المتناهية فى التهور والهذيان فى الادعاء ، فليس الاشتراك اللفظى لك مدحة ما .

سوى هذه الامداح وما اليها فلابن حبوس قصيدة يهاجم فيها الفلاسفة وهى (1) :

(الزم) ظماءك فى شريعة أحمد — تسقى اذا ما شئت غير مصرد
(وأقم بـ)أعطان الديانة علها — تدنيك من حوض النبى محمد
(لذ) بالنبوة واقتبس من نورها — واسلك على نهج الهداية تهتد
واذا رأيت الصادرين عشية — عن مذهب الدين الحنيف فأورد
الدين دين الله لم يعبأ بمبـ — تدع ولم يحفل بضلة ملحد
قالوا بنور العقل يدرك ما ورا — ء الغيب قلت قدى من الدعوى قد
بالشرع يدرك كل شىء غائب — والعقل ينكر كل ما لم يشهد
من لم يحط علما بغاية نفسه — وهى القريبة من له بالابعد
ولقد نرى الفلك المحيط وعلم ما — فى ضمنه أعيى على المترصد
سعد المجرة بالكواكب دائم — فى زعمهم وقسيمها لم يسعد
من خص بالسفلى جرم البدر أم — من خص بالعاوى جرم الفرقد
ما شاهق الطود المنيف وان علا — الا بمنزلة الحضيض الاوهد
وجواز عكس الامر فى ذا واضح — للعقل فازدد من يقينك ترشد
ذاك اختصاص ليس يعلم كنهه — من ليس يوصف بالبقاء السرمدى
خفض عليك ابا فلان انها — نوب تطالعنا تروح وتغتدى
سالت علينا للشكوك جداول — بعد اليقين بها ولما تنفد
وتبعقت بالكفر فينا السن — لا تفقد التضليل من لم تفقد
أعداؤنا فى ربنا احبابنا — جرحوا القلوب واقبلوا فى العود
كشف القناع فلا (هوادة بيننا) — حتى نغادرهم وراء (المسند)
ستنالهم منا الغداة قوارع — ان لم تغلهم غولها فكأن قد
وتصوب فيهم سحبنا بصواعق — تلك التى جلبت منية أربد (2)
من كان يضربهم بسيف واحد — فأنا (لأضربهم بألف مهند)
ولعمر غيرهم وتلك البة — ان الحمام لجمعهم بالمرصد
قالوا الفلاسف قلت تلك عصابة — جاءت من الدعوى (بما لم يحمد)

---

(1) من الاعلام لعباس بن ابراهيم وما ورد فيها بين هلالين فهو ساقط أو مصحف صححناه واثبتناه حسب اجتهادنا .

(2) هو أخولبيد الذى قال فيه :

اخشى على أربد الحتوف ولا أر — هب نوء السماك والاسد

خدعــت بألفاظ تــروق لطائفـــة	فـــاذا طلبت حقيقـــة لـــم توجـــد
ذو علمهـــم لو كـــان شـاهـــد علمنا	وراى جهابـــذة الكـــلام المؤيــــد
لعراه مـــن حسن هنالـــك لؤلـــؤ	واقـــام بـــين تحــير وتلبـــد
اسفى لو انى (قد) نصرت عليهـم	(لثلمـــت) فى المهجات كل مهنــد
يلغى كتـــاب الله بين ظهورهـم	وجميـــع مسنـــون النبـــى محمـــد
ياقاتـــل الالـــه الجهالـــة انهـــا	ورق لأغصان الشباب الاملد (1)

انه فى هذا ، وهو الذى درس الفلسفة ، وظهرت آثارها على شعره ، لم يكن الا مدافعا عن نفسه مهاجما لاولئك الذين زحزحوه عن مكانته التى كان يتمتع بها أيام عبد المومن بالذات ، فلما كان عهد ابنه أبى يعقوب يوسف ، كان للفلاسفة مكان مرموق عنده ، حيث قرب ابن طفيل ثم ابن رشد ، وصار ينقطع اليهم أحيانا ولا يظهر للناس ، لانشغاله معهم فى معالجة المسائل الفلسفية ، وطرق المواضع المعتاصة منها ، كما صور ذلك معاصره عبد الواحد المراكشى ، فى كتابه المعجب ، اذ يقول « ولم يزل يجمع الكتب من اقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وكان ممن صحبه مـــن العلماء المتفننين أبوبكر محمد بن طفيل أحـــد فلاسفة المسلمين ، كـــان متحققا بجميع اجزاء الفلسفة ،،، وكان أمير المومنين أبو يعقوب شديـــد الشغف به ، والحب له ، بلغنى انه كان يقيم فى القصر عنده ليلا ونهارا لا يظهر ولم يزل ابوبكر يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار ،،، وهو الذى نبهه على ابى الوليد محمد بل احمد بن محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم (يقول ابن رشد متحدثا عن ابى يعقوب) سألنى . . . . ما رأيهم فى السماء ؟ يعنى الفلاسفة ، اقديمة أم حديثة ؟ . . . . وجعل يتكلم عن المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطوطالس وافلاطـــون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج اهل الاسلام عليهم الـــى آخر ما فى المعجب ، مما يدل على مكانة الفلاسفة عند هذا الملك ، الذى فتر عنده ما كان لابن حبوس من حظوة لم يتمالك نفسه أن حدثها فى تلك القصيدة . ولم يكن ابن حبوس وحـــده قد بخـــس حظـــه ، بل أهل الادب وبقيـــة العلوم كما يقول ابن خلكان : وكان ميله الى الحكمة والفلسفة اكثر من ميله الى الادب وبقية العلوم .

(1) الاعلام وجعلنا كلمات بين قوسين تصويبا منا أو تتميما حسب الامكان .

فنرى فى هذه الأبيات حقدا متقدا ، وتسفيها مدحضا لهؤلاء الفلاسفة ولما يدلون به ، ويزورونه فى ألفاظ خلابة لاحقيقة وراءها كما يقول ، ولكنه يقابل هذا كله ، بما يدعيه له ، وهو المقصود ، ولغيره ، وهو لا يعنيه ، من التفوق فى صوغ الكلام الجيد ، بحيث لو شاهد أولئك الفلاسف هؤلاء الجهابذة وهم يحبرون كلامهم لعراهم الذهول ولأخذوا بجمال هذه اللآلى التى ينظمها غيرهم ، فاستولت على أولئك الحيرة والتبلد . ولا شك أن أصحاب هذه اللآلى ، ما هم الا نظامها ، وما المعنى منهم ، الا ابن حبوس نفسه ، فكلامه كما يقول أصحاب الأصول ، من باب العام الذى أريد بــه الخاص . وهنا تشتد به الحفيظة ويستولى عليه الغيظ ، فيتمنى لو كانت له القدرة على الفتك بهذه الفيئة ، ويأسف لكونه لا ينصر عليهــا وكأنه يريد أن يبرر قصده هذا ، بأن هؤلاء تحل دماؤهم ، حيث الغى بهم كتاب الله وسنة نبيــه :

يلغى كتـــاب الله بين ظهورهــم	وجميــع مسنـــون النبى محمــد
ياقاتـــل اللـــه الجهالـــة انهـــا	ورق لاغصـــان الشبـــاب الأملــد

اذن فأصحاب الجهالة ، أغرار لكونهم حديثى عهد بالشباب ، فمن هم هؤلاء الذين يعنيهم الشاعر ، أهم الفلاسفة أم الذين يتبعونهم ؟ ان كانوا الأخيرين ، فلا شك أن الشاب الموحدى ، الذى كان سنه دون الثلاثين ، على رأسهم ، فلعله يعنيه فى قرارة نفسه وعلى العموم ، فالشاعر تهكم على الفلاسفة فيما يعتقدونه مما بعد الطبيعة ، معتمدين فى ذلك على عقولهم التى يدرك بنورها ما وراء الغيب ، كما قالوا ، مع أن الانسان لا يحيط علما بنفسه وهو متلبس بها ، فكيف به أن يحيط بما هو فى غاية البعد عنه ، وفى هذا الصدد تعرض لابطال علم التنجيم أو علم أحكام النجوم (1) .

---

(1) لان هذا العلم كان من صلب الفلسفة منذ القديم وقبل العصر المسحيى ، وكان منشاه عند الكلدان والمصريين واليونان ، ولاقى رواجا عظيما لاول ما ترجمت الفلسفة فى الاسـلام ، وسيطر على عقول العباسيين ، فوجدنا ابا تمام يسخر مما ادعاه أصحابه فى متـح عمورية ، بل وجدنا من فلاسفة الاسلام من سحر منه ، وهو الفارابى فى رسالة نقلها عنه أحد تلاميذه البغداديين .
وهى ضمن ما جمع للفارابى من رسائل مطبوعة ، ولكن العلم هذا بالرغم مما أخـذ عليه ظل معمولا به عند مخلف الامم الاسلاميه ، فكان فى القرن الرابع أهم ما تناولته رسائل اخوان الصفا ، التى ورد فيها « ان الفقهاء وأصحاب الحديث وأهل الورع والمتنسكين ، قد نهوا عن النظر فى علم النجوم ،،، لان علم النجوم جزء من علم الفلسفة».

ومن شعره فى الاعتبار :

(للحي فى) حمامه عبرة	وانما يعتبر العاقل (1)
يذكر بالكونين من جنة	ومن جحيم ذكرها هايل
وانما يعرض أنموذجا	من ذا وذا لو نبه الغافل
نعيمه فيه الشقاء الذى	يشفق منه العالم العامل
تكاد نفس المرء من حره	تزول لولا أنه زايل
نحن طليان فبادر بنا	من قبل أن يقنصنا الحابل
بحر سلمنا منه فى ساحل	فما ترى ان غمر الساحل
فى حيث لا تنجى الفتى حيلة	سواء الفارس والراجل

واخيرا نجد الشاعر يتنكر لفنه فيقول (2) :

يا غراب الشعر لا طر	ت ومنيت الوقوعا
فاذا استيقظ شهم	قرم زدت هجوعا
هبك لا تقنص عزا	لم تقنصت الخضوعا ؟
رمت أن ترقى سريعا	فترديت صريعا
ربما اصطاد بغاث	شبعا واصطدت جوعا
ولقد غال حبيبا	منك ما غال صريعا
بسطا الايدى حتى	منعا الطير الوقوعا
واستماحا الشيخ ذا الكبـ	ـرة والطفل الرضيعا
واعدا الشعر العلـ	ـم سيوفا ودروعا

وهكذا نرى أن ابن حبوس قد فسد ما بينه وبين فنه الشعرى فى هذه القصيدة ، وانه أنحى باللائمة عليه وعلى السابقين من بنى فنه كأبى تمام وصريع الغوانى .

فكان بذلك متشائما من شعره ، فناداه بغراب الشعر ، كأنه غراب البين ، ويدعو عليه أن يكون مهيض الجناح فلا يقوى على الطيران ، فان طار فمناه الله بالوقوع ، واذا استيقظ من الطبور شهمها القرم ، فليزدد

(1) من الاعلام وسقط منها ما جعلناه بين هلالين اجتهادا منا .
(2) زاد المسافر .

هو هجوعا على هجوع .

انك يا غراب ساقط الهمة ، فان كنت لا تنقص عزا بكسبك ، فلم تحامات وتقنصت الخنوع والخضوع ؟ فكنت في هذا تحاول أن ترقى سريعا ، ولكنك ترديت صريعا خائر القوى ، لم تنل حتى ما يناله بغاث الطير ، وصغارها، فربما اصطاد هذا ما نال به شبعه، أما انت فاصطدت جوعا . ولقد أصاب الناس من فنك بلاء عظيم منذ القديم ، فغالى حبيبا منك ، ما غال صريع الغوانى ، فكلاهما استرقهما الطمع ، فبسطا أيديهما للناس ، حتى سدا بتلك الايدى المبسوطة الفضاء ، بحيث لو سقط طائر من حالق ، لما وقع على الارض ، واستجديا جميع الناس ، من الطفل الرضيع حتى الشيخ الهرم ، على الرغم من مكانتهما في فنهما ، الذى جعلاه للعلم سيوفا يصول بها ودروعا تقيه عادية الجهالة .

لقد استيقظ ابن حبوس من غفوته وثار لنفسه ، وانتفض انتفاضته الكبرى . ولكن الصدمة داهمته فصاح بهذه الصيحة :

رد الطرق (1) حتى توافى النميرا	فرب عسير اتاح اليسيرا
وأرسل قلوصك طورا شمالا	وطورا جنوبا وطورا دبورا
وشن على غازيات البلاد	من النقع والرمل جيشا مبيرا
وفر ماء وجهك حتى يجم	واطف السموم به والهجيرا
وطر حين انت قوى الجنا	ح لا عذر عندك أن لا تطيرا
ولا تقعن وانت السليـ	ـم حيث تضاهى المهيض الكسيرا
فأم الترحل تدعى ولودا	وام الاقامة تدعى نزورا
وذو العجز يرضع ثديا حدورا	وذو العزم يرضع ثديا درورا
يعز على النبل انى غدوت	اكنى اديبا وأسمى فقيرا
وانى ثبت لكف الزمان	يعرق عظمى عرقا مبيرا
وما ذاك انى هيابة	اخاف الرحيل واشنا المسيرا
ولكن بحكم زمان غدا	يحط الجياد ويسمى الحميرا

ففى هذه القصيدة نرى أمشاجا من النصائح ، وألوانا من التوثبات

---

(1) الماء المطروق فهو عكر لذلك والابيات من الاعلام المذكور بعد تصحيح بعض التصحيف فيها .

تنتهى بالنعى على الزمان ، الذى أصبح يحط الرفيع ويعلى الوضيع فهو ينصح بالمداراة ، فان وجد الانسان نفسه مضطرا أن يصيب التافه من الامور ، فلا يحجم عنه ، ريثما ينال عظيمها ، فرب عسير يكون وسياسة لليسير ، ولا يقف الانسان عن المخاطرة فى طلب ما يريد ، حتى ولو كلفه هذا أن يطوف البلاد جميعا ، شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وأن يقتحم البلاد ويثير فى وجهها غبار الاسفار ورمالها ، غاديا ورائحا ، وليحافظ على كرامته ، فلا يرق ماء وجهه بالخلود الى راحة الاقامة ان كان فى هذه الاقامة هوانه ، فليحتفظ بهذا الماء وليوفره عنده ، حتى يطفىء به ، ما يواجهه من حر الهجير والسموم فى ترحاله وليخف طائرا بجناح العزم ، حينما يجد فى نفسه قوة على هذا الطيران ، ولا يتقاعس عنه ، اذ لا عذر له فى هذا ، والا وقع فى الحضيض ، وهو سليم الجناح ، مضاهيا كسير الجناح مهيضه ، لان الترحل لايأتى الا بالخير العميم ، فأم هذا الترحل ولود أما الاقامة فأمها عقيم أو نزور ، والعاجز لا يصيب شيئا ، فهو يرضع ثديا حدورا ، لكن ذا العزم ينال مطالبه ، فهو يرضع ثديا درورا . هذه نصائح لابد أن يعمل وفقها ، ولكن واحسرتاه ، وواسفاه على النبل ، الذى يفت فى عضده ، انى غدوت أدعى أديبا ، ولكنى فقير مملق ، وانى ثبت للزمان ، يعرقنى بكفه عرقا مبيرا ، وما كان تحملى هذا الهوان ، لأنى هيابة للاسفار ، اخاف رحيلها ، واكره مسيرها ولكن حكم الزمان ، الذى قضى بأن يخفض من شأن الجياد ، ويرفع من شأن الحمير .

وبهذه النفثة المصدورة ، ينهى بها قصيدته هذه ، لينشد اخرى ، وقد ساء ظنه فى الناس عامة ، وكفر بالمثل العليا ، فقال (1) :

اعـــد لنابحيــك عصـــا	واقضــم ماضغيــك حصى
وشعشــع للــورى شرقـــا	مــع الساعــات أو غصصـا
وكــــن وردا خبعثنـــة	يـــراوغ منهـــم قنصـــا
وغمـــض عينــك النجـــلا	ء حتـــى تنعـــت الحوصـا
وهـــز لمعشـــر سيفـــا	وهـــز لآخريـــن عصـــا
وكاشـــر مـــن يـدب لــك الضـــ	ـــرا واخـــرص كمـــا خرصـا

(1) من زاد المسافر .

ولا تعتب عليه فلو ... ظفرت به لما خلصا
وسؤ ظنا بكل أخ ... يقاسمك الثنا حصصا
ولا تحفل بامعة ... يخال الشحمة البرصا
ولا تحرص فرب فتى ... مضاع عندما حرصا
وحرص الطائر الواقـ ... ـع صير جوفه قفصا
لقد رخص الغلاء واهـ ... ـون الأعلاق ما رخصا
وقد ذهب الوفاء فلا ... يقول مغالط نقصا
فلا تلزم مكان الظـ ... ـل ان وافيته قلصا
وغن لذا الزمان اذا انـ ... ـتشى وازمر اذا رقصا
ومن شهد الخطوب وعا ... ش مثلى يشرح القصصا

هذه حصيلة التجارب التى انتهى اليها الشاعر السوداوى الطبع فى عمره المديد ، وتقلبه ، فلقد تنمر لآهل زمانه هذا الذى أملى عليه ، أن يتسلح بكل وسائل الايذاء فليحمل العصا ، ليقذع بها كل من يتعرض له ، كأنه كلب نابح ، وليلق صلب الاحجار فى فم من يحاول أن ينال منه ، كأنه يمضغ عرضه ، وليشعشع الناس كؤوسا يغصون أو يشرقون باحتساء ما تحتويه ، وليكن ماكرا مكر الثعالب أو الآساد المختلسة التى تراوغ لتفتك بفريستها ، وليعامل بالخديعة ، كل من يلقى من الناس ، وليبادر الى انتهاز الفرص منها وليبد الغفلة لهم ، خداعا ومكرا ، فيغمض لهم عينه النجلاء ليجعلهم يحسبون أنه أحوص ضيق حدقتها ، كأنها خيطت لضيقها ، وليتحل بحلا الشر ، فيلوح لجماعة بسيفه المطت ، ويهز لآخرين عصاه الغليظة ، وليكاشر عن أنيابه ، كل من يختاله ، وليكذبه الحديث حين يكذبه كذلك ، ولا تعتب على هذا فى هذه الصفات الماكرة ، فانك لو ظفرت بصاحبك لما نجا منك بها ، كما قال المتنبى قبله :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

وان سمعت من أخ ثناءك ، يقاسمك به ، فسؤ ظنا به ، ولا تحفل بامعة يوافقك على كل ما ترى ، ويحسب المظاهر الخلابة حقائق مفيدة ولا تكن حريصا ، فرب حريص خانه ما يحرص عليه ، وكثيرا ما كان حرص الطائر الذى ينزل ليلتقط الحب قد جعل جوفه قفصا لحبسه وهذه نصيحة

مقبولة فى ظاهرها ، ولكنها كانت فاتحة لهذه الامتعاضات ، من كون الغالى اصبح رخيصا ، والشريف عد خسيسا ، وان الوفاء قد ذهب بالمرة ، فلم يعد ينعت به أحد من الناس ، فلا يغالط منهم من يدعى انه نقص عما كان عليـــه .

وبعد ذلك يعود الى النصح ، بالتنقل فى طلب العيش ، كما سلـــف منه فى القصيدة السابقة ، ولهذآ فلا يلزم الانسان الظل الذى ان استظـــل به نقص عنه فيئة وتقلص مده . وهى نصيحة مقبولة كما نرى ، ولكنه يعود الى وصوليته المعهودة ، ونفاقه المشهور ، فينصح بممالئة الناس على باطلهم ، فحينما يسكر زمانك سكرته وينتشى بها، فغن له وازمر اذا رقص من نشوته .

ولا تلمنى فى هذه النصيحة ، لان التجـــارب التى عرفتنى بقساوتهـــا فرضتها على ، فان قدر لك أن تعيش مثلى ، ويمتد بك حبل الحياة ، فتشاهد خطوبها ، فان هذه الاحداث والخطوب ، ستشرح لك قصصها شرحا وافيا .

انه ابن حبوس الشاعر الذى لم يخف شيئا فى نفسه ، فهو وان كان ممالئا متكسبا فى شعره بأمداحه للملوك والوزراء والكبراء ، يطوف البلاد مغربها واندلسها ، فى طلب العيش ، فانه كالمتنبى ، يحمل فى جنب لـــه طمعا ، وفى جنب آخر تعاظما وكبرياء مضعضعة ، تتقسمها الحيرة ، وتعمل على تأريثها الحسرة ، ولا نملأ جوف طمعها ، ولو كانت خزائنها مليئة بكل صامت وناطق فقد حصل ابن حبوس على أموال طائلة ، جبتها له أمداحه الكثيرة ، ولكنه لم يقنع بها ، كما كان المتنبى ، بتلك الصفة ، فتنقل بالبلاد فى طلبها ، وقافلة جماله ، نحمل تلك الاموال ، التى مدح من اجلها العبيد والاحرار ، حتى اذا دوهم فى طريقه لاكتناز المزيد منها ، لفظ نفسه الاخير وهو يدافع عن نفسه وعن تلك الاموال ، فيقضى نحبه ويقضى من كان معه من الرفاق ، وفيهم ابنه وفلذة كبده .

وعلى كل فان هذه نتيجة اليمة انتهى اليها الشاعر ، وقد ضرستـــه التجارب بمآسيها ، وارقته الاحداث بتنمراتها ، ولكن الشاعر ، كما يبدو كان سوادى الطبع حاد المزاج ، لا يختلف فى هذا عن الحطيئة أو ابـــى نواس أو ابن الرومى ، وان كان فى اتجاهه أو فراره من الواقع أقرب الى منهج ابن الرومى ، فقد حرم ابن الرومى من ميزة تمتع بها غيره ، فحنق

عليه ورماه بالحمارية ، فقال :

ان تطـــل لحيـــة عليـــك وتعرض فالمخالــــى معروفـــة للحميـــــر

وكذلك وجدنا ابن حبوس لما انتهى الى الحرمان مما صار يتمتع به غيره ، قد قال :

ولكـــن بحكـــم زمـــــان غـــــدا يحط الجيـــاد ويسمـــى الحميـــرا

فهذا آن دل ، فانما يدل على الحقد والحفيظة والشاعر الحق لـــــه حكمه ، وموقفه الذى يعذر فيه ، أو يلتمس له العذر عند ذهوله عن كل شىء الا عن شعوره الفياض ، ذلك الشعور الذى جعل ابن حبوس يذهل عن التعاليم الدينية ، وهو المسلم المتحمس لاسلامه فيما رأينا ، فينادى بهذه المبادىء التى لو صيغت فى النثر لقلنا ان صاحبها يدعو الى المكيافيلية ، ولكنها صيغت فى الشعر ، فقلنا ان صاحبها فى شطحة متمردة ، لا يلبث أن يقلع عنها أو تقلع هى عنه ، انها طبول مزعجة جعلته يصرخ صرخته :

وســــــؤ ظنـــــا بكـــل أخ يقاسمـــك الثنـــــا حصصـــا
ولا تحفـــــل بامعـــــــة يخـــال الشحمـــــة البرصـــا

وانه الاخفاق فى المسعى ، الذى عبر عنه وشيكـــا :

ولا تحـــــرص فـــــرب فتـــى مضـــــاع عندمـــا حرصـــــا
وحـــرص الطائـــر الواقـــع صــــير جوفـــــه قفصـــــا

اذن فالشاعر ، تعرض لظروف انطقته بتلك النصائح الهدامة للاخلاق ، فاندفع وقد رفـــع عقيرته فيها وهو يشعر بالضيم وبالبخـــس لمكانته : « لقد رخص الغلاء واهون الاعلاق ما رخصا » ولم يجد بجانبه من يرفع مـــن شانه ، وكان له اصدقاء يبادلونه الود ، فتركوه يعانى ظلمة الكفران ويقول : « وقد ذهب الوفاء فلا يقول مغالط نقصا » ولهذا فقد وجبت النقلة والابتعاد عن هذا الجو الخانق : « فلا تلزم مكان الظل ان وافته قلصا » فهو لا يعنى بنصيحته الا نفسه ، ولا يهمه من غيره شىء البتة ، ولكن الشيخوخة تقعده وتضطره الى الاستنامة أو الاستسلام ظاهرا فيقول : « وغن لذا الزمان اذا انتشى وازمر اذا رقصا » ويفصح عن موقفه المضطر اليه ، بقوله :

(ومـــن شهـــد الخطـــوب وعـــا ش مثلـــى يـــشرح القصصـــا)

وهكذا فابن حبوس، تستولى عليه الحيرة وتربكه، وتغمره مشاعره او تخنقه ، فينفس عنها بهذه الآهات اليائسة أو المستيئسة ، وينفجر عن دخليته ، انفجارا مدويا ، ولعل هذا الصدق فى التعبير ، هو الذى وسمه بالتهور أو الحمق فيما سلف عنه فتعرض لغضب المرابطين .

والى جانب هذا فقد قال ابن حبوس فى اغراض اخرى كالنسيب الذى ذكرت له فيه بمحاضرات الابرار للحاتمى هذه الابيات :

اسكان نعمان آلاراك تيقنوا	بانكم فى ربع قلبى سكان
ودوموا على حسن الوداد فانني	بليت باقوام اذا احفظوا خانوا
سلوا الليل عنى مذ تناءت دياركم	هل اكتحلت بالنوم لى فيه اجفان

بعد ابن حبوس ، شاعر الخلافة ، كما بزأد المسافر ، نتصل بآخر (ابو العباس احمد الكراوى) الذى ذكر بهذا اللقب كذلك ، وشاركه بمناسبة قال فيها شعرا كذلك ،،، والكراوى هذا من تادلة ولد فى العقد الثالث من القرن السادس فتلقى تعليمه بمراكش وفاس ثم انتقل الى الاندلس ، التى تقلب فى أنحائها ، فتلقى هناك كذلك عن شيوخه ولا نعرف اكثر من هذا عن اوليته ودراسته ، ولكنه منذ ان اتصل بالبلاط الموحدى اثر ابن حبوس امر امره به فكان شاعره واشتهر ذكره بالمغرب والاندلس وتونس ، كما اشتهر ذكره بالمشرق ، وتناوله كثير من كتاب التراجم سواء فى ذلك منهم من كان فى الشرق ومن كان فى الغرب ، وممن تناوله من المشارقة ابن خلكان فى كتابه وفيات الاعيان ، وممن ردد ذكره بالمغرب ابن عذارى ومن الاندلسيين ابن ادريس وابن الأبار وابن سعيد فى كتابه الغصون اليانعة، وقد ذكر حينما تناول ترجمته انه نقل فيها من كتب التراجم العديدة فى ذلك فقال : وتلخيص ذلك انه من تادلا ، عمل مشهور بين مراكش وفاس ، ثم ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة .

وعلى كل حال فان هذا الشاعر اتصل بعبد المومن وسجل وقائعه فى قصائده التى مدحه بها كما سجل وقائع من بعده من الخلفاء الثلاثة فمن امداحه قصيدة قالها لاستمالة العرب سنة 553 ثم القصيدة التى قالها بمناسبة فتح المهدية 555 ، ثم اخرى فى وقعة انتصر فيها الموحدون على الاسبان سنة 556 كما سنرى . وتوفى قبيل وفاة محمد الناصر بسنة واحدة

فاذا جعلنا تلك القصيدة التى قيلت سنة 553 أول قصيدة له فى هذا البيت الملكى، فانه بذلك يكون قد قضى من عمره المديد قرابة ستين أو نيفا وخمسين سنة وهو يمدح هؤلاء الملوك الاربعة . وعلى هذا فلابد ان يكون ديوانه من هذه الدواوين الكبار التى تضم الآلاف ، وخصوصا انه اشتهر كما يقول ابن سعيد بالقصائد الطوال ، واشتهر كذلك بالهجاء اللاذع فكان رجلا بالاضافة الى أمادبحه هجاء مقذعا ؛ مما يدل على شكاسته ومع هذا وذاك كانت له بعض الابيات أو الاشعار فى أغراض شتى ، كالغزل واشعار المناسبات الشخصية ، الا اننا مع ذلك لا نعثر له على كمية كبيرة من الشعر ، وأهم مرجع يسجل امداحه البيان المعرب .

اما قصيدته الاولى فهى (1) :

احاطت بغايات العلى والمفاخر	على قدم الدنيا هلال بن عامر
وزانوا سماء المجد عودا وبداة	بسمر القنا والمرهفات البواتر
هم المضريون الذين سيوفهم	صواعق بأس تنتحى كل كافر
اوائلهم فى الجود للناس غاية	وكم تركوا من غاية للاواخر
وكم فيهم من مثل كعب وهاشم	وكم لهم من مثل عمرو عامر (2)
وكم قد اقاموا من عروش موائل	وكم قد اقالوا من جدود عواثر
وكم لهم من حكمة تبهر النهى	ومن مثل فى الشرق والغرب سائر
ومن خطبة تستنزل العصم من عل	وتقضى بتكبيل النفوس النوافر
هم أطلعوا فى ليل كل عجاجة	كواكب أطراف الرماح الخواطر
هم مزقوا بالبيض كل ممزق	ممالك شادتها ملوك الاكاسر
اجيبت بهم فى آل ساسان دعوة	بخير عباد الله باد وحاضر
مآثر اسلاف تلاها بنوهم	بأمثالها اكرم بها من مآثر
وآخر مجد شفعوه بأول	وأول مجد شفعوه بآخر
لهم كل جلد فى الجلاد مشمر	سريع الى صوت الصريخ مبادر
هزبر عليه لبده من مفاضة	وناب وظفر من سنان وباتر

---

(1) ذكرت فى الملحق بشاعر الخلافه الحراوى للفاسي وهذا الملحق من مخطوط الاستاد المنونى وسقط البيت الثالث منها وذكر فى « الفحون اليانعة » والغريب أن الاستاذ الفاسى لم يطلع على هذا المصدر فعلق على الابيات السنة الواردة فيها بقوله «نقل هذه الابيات صاحب (مشاهير رجال المغرب) ... ولم يذكر المصدر » وتكرر هذا التنصيص عنه واعتبره عادة منه متبعة .

(2) لعله يريد عمرو بن الزبير وعامر بن عبد الله بن الزبير ابن أخيه .

اذا سال يوم الروع أورد قرنه ... موارد موت ما لها من مصادر
تعاين منه مثل باز مصرصر ... على مثل فتخاء الجناحين كاسر
اذا شبت الهيجاء اول وارد ... وان خفت الابطال آخر صادر
يبادر منه القرن أغلب غالب ... حديد شبا الانياب دامى الاظافر
يثور اليه حاسرا غير دارع ... ويقضى عليه دارعا غير حاسر
بنى عامر انتم صميم فصمموا ... الى الموت تصميم الليوث الخوادر
ولا تتوانوا فى حظوظ نفوسكم ... فانكم اهل النهى والبصائر
ومن شكر آلاء الخليفة صولة ... على الكفر تبقى غامرا كل عامر
تميل الجبال الشم منها مخافة ... وتسكن أمواج البحار الزواخر
ولابد من يوم على الكر أيوم ... تعم به الدنيا وفود البشائر
دعاكم لما يحييكم وارث الهدى ... وجامع اشتات العلى والمفاخر
وأحزم من ساس الديانة والدنا ... واكرم مأمول واحلم قادر
الى أمره فى كل أمر ونهيه ... يروح ويغدو كل ناه وآمر
اذا نامت الاملاك عما يهمها ... رعى الدين والدنيا له طرف ساهر
فلا برح الاسلام منه مؤيدا ... بمنصور رايات على الكفر ناصر

وفى هذه اقتباس من القرآن ولا يكاد شعر للجراوى يخلو منه كما سنرى فيما ياتى من شعره .

وكانت هذه على لسان الخليفة عبد المومن الذى له اشعار فى هذا الغرض كما أن هناك اشعارا أخرى لغيره فى الغرض نفسه .

وهكذا نجد الدولة تستميل هؤلاء العرب ليكونوا فى جيشها ، ولكننا مع ذلك نراها حذرة منهم ، فهى تبعث بهم الى خوض المعارك فى بلاد الاندلس لتستفيد من شجاعتهم كبداة أعراب ، ولتتخلص من شوكتهم

ننتقل بعد هذا الى شاعرنا وهو يلقى هذه القصيدة مادحا لعبد المومن حينما كان محاصرا مدينة المهدية ، يقول فيها ، بتاريخ عام 555 :

كانت محل اناس قبلنا فخلوا ... عنها وآثارهم فيها مقيمات
تالله لو علمت مقدار وارثها ... هبت اليك رباها والقرارات
قالوا العطيات أحياها فقلت لهم ... بل لم تكن قبل أن كان العطيات
اما سمعت جريرا عن هنيدته ... يثنى يرى انها فى الجود غايات

وأين من حسبه الآلاف من ذهب ... هنيدة من سواده أو هنيدات (1)
وأين من قيس عيلان أرومته ... وقيس عيلان أملاك وسادات
ومن يكن من امير المومنين فقد ... قامت على فضله منه الشهادات
اهنا امام الهدى فالقول منبسط ... والدين منتظم والكفر أشتات
أعيت مآثركم من أن تنال وكم ... شنت عليها من الاقوال غارات
وكم أرادت رواة الشعر تحصرها ... فأخفقت دونها منهم ارادات
دمتم ودام لكم أسعاد سعدكم ... ما دامت الارض والسبع السماوات

ولما فتحها قال :

لمن الخيول كأنهن سيول ... غصت بهن سباسب وهجول
طويت لها الدنيا فأبعد ما انتحت ... دان وابطأ سيرها تعجيل
يغزو أديم الارض من صهلانها ... مثل اسمها حتى تكاد تزول
فصهيلها محض الثناء وان يكن ... لا يفهم الاقوام منها صهيل
تثنى على الملك الذى أيامه ... سنر على هذا الورى مسدول
عم البسيطة ملكه فكأنه ... سيل على كل البلاد يسيل
جهل النصارى انه الملك الذى ... يرث البلاد وعذرهم مقبول
اهل الجهالة هم فكيف الوهم ... وعلمت أن الطبع ليس يحول

الى أن يقول :

فعفوت عفو القادرين تكرما ... عنهم وعفو القادرين جميل
شكر البلاد مع العباد خليفة ... هو بالبلاد وبالعباد كفيل
لو تنطق المهدبتان (2) لقالتا ... فى الشكر ما لا يدرك التحصيل
بالامس يملأ سمعها ناقوسهم ... واليوم يملأ سمعها التهليل

فهذه القصيدة مدوية هادرة، زادتها جلجلة هذه اللام المضمومة المسبوقة بالردف فى قافيتها : هجولو، تعجيلو، تزولو، صهيلو الى آخرها وفيها هذا الوطل

---

(1) هنيدة مائة من الابل لا تدخل عليها أداة التعريف فهى علم جنس لا تصرف - والشاعر الجراوى يشير بقوله الى قول جرير فى مدح يزيد بن عبد الملك :
أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ... ما فى عطائهم من ولا سرف
أنظر أدب الكاتب لابن متيبة .
(2) يريد المهدية التى اختطها المهدى أولا والمهدية التابية التى اختطها بعدها الى جانبها وحمل بينهما قدر طول ميدان كما فى معجم البلدان .

الناشىء عن اشباع حركة الروى وهو الواو بعد تلك الضمة ، كما راينا ، وكما نجده فى اللامية المنسوبة للسمؤال :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل

ففيها نجد الكلمات : قليلو ، كهولو ، ذليلو ، الى جانب اخواتها وهى ترن رنينا حادا مزعجا ، يناسب موضوع القصيدة من الفخر وذكر الأمجاد ، وكذلك قصيدة الجراوى ، وهى تصلصل بنواقيس الظفر والنصر ، وتدق طبول الفتح والاستيلاء والبنود خافقة والابطال منتشية متدافعة ، اما تلك التى قالها قبل انجاز الفتح ، فكانت لهجة الاعتبار والاتعاظ تقدمها ، فى هدوء صامت وتفكير مستغرق .

كانت محل أناس قبلنا فخلوا عنها وآثارهم فيها مقيمات

وكذلك ان صارت لنا محلا ، فسنجلو عنها ونخلف بها آثارنا « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » . ويكفى من قصيدتنا ، البيتان فى مطلعها :

لمن الخيول كانهن سيول غصت بهن سباسب وهجول
طويت لها الدنيا فأبعد ما انتحت دان وابطأ سيرها تعجيل

فما كان أجدر بالشاعر ان يثاب عليهما وحدهما ، كما اثيب قبله الشاعر السمعانى ، على بيته :

ما هز عطيفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المومن بن على

ولكن عبد المومن لم يذكر فيهما ، فلم يومر الشاعر بالاقتصار عليهما ، فكان لابد من الاستمرار حتى البيت :

تثنى على الملك الذى ايامه ستر على هذا الورى مسدول

وهذه القصيدة تنظر الى قصيدة لابن هانىء الاندلسى يمدح بها المعز لدين الله الفاطمى بمناسبة انتصاره على الروم ، ومطلعها :

يوم عريض فى الفخار طويل ما تنقضى غرر له وحجول

وهو ينظر فيها الى قصيدة المتنبى فى سيف الدولة ، ومطلعها :

ليالـــى بعـــد الظاعنين شكـــول   طوال وليـــل العاشقـــين طويـــل

اما قصيدتنا ففيها الابيات الآتية :

انت الذى تـــرث البلاد لديهـــم   فالارض فـــال والسجـــود دليـــل
جاءوا وحشو الارض منهـــم جحفل   لجب وحشـــو الخافقين صهيـــل
خاضته أوظفة السوابق فانتهـــى   منهـــن ما لا ينتهـــى التحجيـــل
فلتعلـــم الاعـــلاج علمـــا ثاقبـــا   أن الطيـــب وقد عـــززت ذليـــل
وليعبدوا غير المسيح فليس فـــى   ديـــن الترهـــب بعدهـــا تأميـــل
اهل الفرار فليت شعرى عنهـــم   هل حدثوا أن الطبـــاع تحـــول
رجعـــوا فابـــدوا ذلـــة وضراعـــة   والـــى الجبلة يرجع المجبـــول
فـــاذا قبلـــت فمنـــة مشكـــورة   لـــك ثـــم أنـــت المرتجـــى المامول
وليسمعـــن صليلهـــا فى هامهـــم   ان كان يسمـــع للسيوف صليـــل
وليبلغـــن جياد خيلـــك حيث لـــم   يبلـــغ صبـــاح مسفـــر وأصيـــل
فوراءهم حيـــث انتحوا وأمامهـــم   تطـــوى بهـــن تنائـــف وهجـــول
ورعيـــة هـــداب عدلـــك فوقهـــا   سنـــر عـــلى مهجانهـــا مسدول
والوصـــف يمكـــن فيـــه الا انـــه   لا يطلـــق التشبيـــه والتمثيـــل
ترد العيـــون عليـــه وهى نواظـــر   فـــاذا صـــدرن فانهـــن عقـــول
غامرتـــه فعجزت عـــن ادراكـــه   لكنـــه بضمائـــرى معقـــول

وهذه قصيدة للجراوى كان أنشدها سنة 556 وقد انتصر الموحدون فى موقعة « فحص بلقون » على النصارى (1)

اعليـــت ديـــن الواحـــد القهـــار   بالمشرفيـــة والقنـــا الخطـــار
ورأى بـــك الاســـلام قـــرة عينـــه   وغدت بـــك الغـــراء دار قـــرار
وسلكت من طرق الهداية لاحبـــا   طوبى لمـــن يمشى على الآثـــار
وجرت معاليكم الـــى الامد الـــذى   بعدت مسافتـــه على الاسفـــار
وقفت عـــلى ما قد أردت سعـــادة   وقفـــت عليهـــا خدمة الاقـــدار
لا تخلـــق الايـــام جـــدة ملككـــم   ابـــدا ولا تبلـــى عـــلى الاعصـــار

(1) يقول « هويسى ميرندا » فى هدا المكان انه غير معروف لديـــه .

لا غرو أن كنت الاخير زمانه ... فالفضل للآصال والاسحار
وافيت اندلسا فأمن خائف ... وسعى لأخذ الثار رب الثار
وحللتم جبل الهدى فحللتم ... منه عقود عزائم الكفار (1)
جبل الهدى والفتح والنصر الذى ... سبقت بشائره الى الأمصار
لوبدلوا أقدامهم بقوادم ... طاروا عن الاوطان كل مطار

ثم يقول :

لو راء (2) موسى ما فعلت وطارق ... زريا بما لهما من الآثار
اتممت ما قد املوه ففاتهم ... من نصر دين الواحد القهار
بعراب خيل فوقهن اعارب ... من كل مقتحم على الاخطار
اكرم بهن قبائلا اقلالها ... فى الحرب يغنيها عن الاكثار
وانظر اذا اصطفت كتائبها الى ... ما تحمد الكتاب للاسطار
لو انها نصرت عليا لم ترد ... خيل ابن حرب ساحة الانبار
هم اظهروه مع النبى وواجب ... أن يتبعوا الاظهار بالاظهار
ملك الملوك لقد انفت الى العلى ... ونظرت من فوق الى الاقدار
انت السبيل الى النجاة فكلنا ... لولاك كان على شفير هار
وجريت فى نصر الاله الى مدى ... يكبو وراءك فيه كل مجار
قد ضاق ذرع الكفر منك واهله ... بموفق الايراد والاصدار

انها كانت قصيدة جزلة صاخبة استمد الشاعر فيها كثيرا من أبى تمام ، وبقى أن نذكر انه الى جانب هذا تبدو على القصيدة المسحة الشيعية فى مثل قوله :

لو انها نصرت عليا لم ترد ... خيل ابن حرب ساحة الانبار

ثم يقول :

هم اظهروه مع النبى وواجب ... ان يتبعوا الاظهار بالاظهار

ثم يقول :

اخليفة المهدى دمت مؤيدا ... بالله منتقما من الكفار

---

(1) حللتم الاول من الحلول ، وان كان معناه فى الاصل لا يختلف عن الثانى ، لكن لما حذف مفعوله « الرحل » أصبح لازما فكان مصدره الفعول (باطراد كمدا) وما بعده طرف مكان

(2) لغة فى رأى . والابيات واردة فى البيان المغرب .

وهناك شيء آخر له دلالته التاريخية وهو أن هذه الوقعة انتصر فيها أولئك العرب من قبائل بنى هلال وغيرها لانه يقول فيها :

بعراب خيل فوقهن اعارب ... من كل مقتحم على الاخطار
اكرم بهن قبائلا اقلالها ... فى الحرب يغنيها عن الاكثار

وكما أشرنا فانه فى هذه القصيدة ينظر الى قصيدة أبى تمام :

الحق أبلج والسيوف عوار ... فحذار من أسد العرين حذار
ملك غدا جار الخلافة منكم ... والله قد أوصى بحفظ الجار

ومنها :

موتورة طلب الاله بثارها ... وكفى برب الثار مدرك ثار

وبعد ما عرضنا نماذج من أمداح الجراوى فى الخليفة عبد المومن ابن على ، نتصل بشعره مادحا لابنه يوسف وهنا لابد أن نقول ان شعر الجراوى قد تحول فى لهجته كما عهدناها من الجزالة والصخابة واستبدلها بلهجة أخرى ، كما سنرى ذلك ، فان الشاعر الذى يربط نفسه بركاب الامداح ، لا يريمها ، قلما يكون شاعرا يخلص لفنه ويصطبغ بلونه ، بل هو فى الواقع تاجر يتأجر ببضاعته التى لا يراعى فيها الا ما يطلبه الناس فاذا انصرفوا عن صنف منها وطلبوا غيره ، انصرف هو كذلك عنه وطلب غيره للناس هؤلاء والا افلس وبارت بضاعته ، ودخل فى خبر كان ، وكذلك كان الجراوى ، لا يريد أن يدخل فى خبر كان ، بل روج بضاعته فى سوقه التى ظلت له يعرض فيها مدة تربو على نصف قرن من الزمان ، فكان عليه ان يلائم بينها وبين أذواق طالبيها ، بكل ما وسعته الحيلة وأسعفته القدرة كان عبد المومن ماخوذا بالعظمة والصلصله التى يقول فيها : « بمثل هذا تمدح الخلفاء » ، أما ابنه فكان فيلسوفا ، دقيق الحس ، فلم يوخذ بذلك كله ولم تعجبه تلك الاصداء التى كانت منبعثة عن ابن هانىء مدوية فى شعر الجراوى ، كما لم تعجب اشباهها الفيلسوف أبا العلاء فقال فيها « رحى تطحن قرونا » ، بل وجدنا ملكنا أو خليفتنا المتفلسف ، ينقطع الى فلاسفة الاندلس ، ويخلد الى شعرائها ، وعلى رأسهم أبو عمر ابن حربون ، شاعر المعانى العميقة والاساليب الرقيقة ، فأصبح شاعرنا الجراوى مضطرا الى تغيير

بضاعته ، معلنا عن امعاضه فى بعض المناسبات ، كما سنرى .

والحق أننا لا نعرف شاعرا ، لم يكد يشعر الا لغيره ، كما عرفنا أبا العباس الجراوى ، وبهذا لا نستغرب أن وجدنا فى شعره الآن تحولا ، وأول ما نجد ذلك فى قصيدة له قالها سنة 564 بمناسبة استرداد بطليوس، ورد فيها ما يلى :

نظر بكل سعادة مقرون ... نالت به الدنيا المنى والدين

تقديم من شهد الوجود بأنه ... ما زال بالتقديم فيه قمين

عاق ثمين زينت الدنيا به ... وافاه علق الملك وهو ثمين

تغزو المهابة عنه كل معاند ... ولو انه اشتملت عليه الصين

وتشب حيث توجهت عزماته ... حربا كما وصفت لنا صفين

ان أصبحت رهن البرامك أمة ... فى ظلمها فحسامه هارون

من قيس عيلان الذين سيوفهم ... أبدا تصول ظباتها وتصون

دانت له فى الفخر كل قبيلة ... من شأنها الا تكون تدين

وكفاهم ان كان منهم مفخرا ... معنى الوجود وسرها المكنون

ملك اذا اضطرب الزمان مخافة ... لم يعيه التسكين والتامين

القى على أهل الضلالة كلكلا ... فلهم عويل تحته وانين

وجرى الى الامد الذى لم يجره ... ملك ولم تصعد اليه ظنون

ومن العجائب ان يجود بمثله ... للخلق هذا الدهر وهو ضنين

حمال أثقال الورى متهلل ... فى حيث تعترض الحتوف الجون

فى راحتيه لمعتف ولمعتد ... يومى ندى ووغى منى ومنون

عذرا أبا يعقوب ان علاكم ... قد أفنت الأمداح وهى فنون

لا يبلغ المنثور بعض مآثر ... ترضى لك العليا ولا الموزون

كم مدحة لك بعدها مذخورة ... تزن المدائح كلها وتزين

لو لم يسد الا نظيرك لم يجز ... فيه الامين مدى ولا المامون

قد كان ما قد قلت يرقب حينه ... حتى أتى ولكل شىء حين

ما زال أمركم الذى هو عصمة ... والعز لا يعدوه والتمكين

فهو فى هذه القصيدة لم يتخلص تماما من لهجته الاولى ، وكأنه أحس بعجزه ، فاعتذر الى الخليفة ، ولم نره يعتذر فيما سبق لأبيه ، وكان هذا

ما تقضى به طبيعة النشوء والارتقاء ، ولا شك انه نظر فى القصيدة الى ابن هانىء ايضا ، وهو يمدح المعز بقصيدته :

هل من اعقة عالج يبرين ... أم منهما بقر الحدوج العين

وهذا النظر واضح فى الابيات التالية :

هذا معد والخلائق كلها ... هذا المعز متوجا والدين
هذا ضمير النشأة الاولى التى ... بدأ الاله وغيبها المكنون
لو ان هذا الدهر يبطش بطشه ... لم يعقب الحركات منه سكون
الطالبان المشرفية والقنا ... والمدركان النصر والتمكين
القت بأيدى الذل ملقى عمرها ... بالثوب اذ فغرت لها صفين
أو لم تشن بها وقائعك التى ... جفلت وراء الهند منها الصين
ورمى الى البلد الامين بطرفه ... ملك على سر الاله امين
لم يدر ما رجم الظنون وانما ... دفع القضاء اليه وهو يقين
لم تسكن الدنيا فواق بكية ... الا وانت لخوفها تامين
لك حمدنا لا انه لك مفخر ... ما قدرك المنثور والموزون
الله يعلم ان رايك فى الورى ... مامون حزم عنده وأمين

ولعلنا قد لاحظنا صورة مكررة فى قوله :

وجرى الى الامد الذى لم يجره ... ملك ولم تصعد اليه ظنون

مع ما سبق له فى قوله :

وجريت فى نصر الاله الى مدى ... يكبو وراءك فيه كل مجار

فالشاعر المتكسب بشعره كان من أولئك النفعيين — وما أكثرهم فى زماننا — يدور مع أحداث الزمان ، كيفما دارت ، ولا يستغرب هذا من مثله وكأن تكلفه أوقعه فى هذا السخف :

« حمال أثقال الورى متهلل » فاى ملك يحتمل هذا الوصف البدوى الغليظ الذى ان احتمل من الخنساء فى أخيها فهو هنا كبوة وقع فيها الجراوى محاولا التأنق على ان الخنساء جعلت أخاها يحمل الوية الحروب . فذاك « الحمال » للألوية يختلف عن الحمال للاثقال .

وقال فيه بمناسبة جوازه للاندلس ، ودخوله الى اشبيلية ، على هيئة حافلة قصيدتين يقول فى الاولى :

حللــت من العلى أسمى ذراهــا ... وجاريــت النجــوم الــى مداهــا
ووواليــت الســمــاح فقد تناهــت ... أمــان للعفــاة ومــا تناهـــا
وجــودك نعمـــة للـــه عمــت ... وجــودك نعمـــة أخرى سواهــا
أرى ذاك الزمـــان وشـــــاء الا ... تقــارن فى الامـــور ولا تضاهـــا
وصلت وصلـــت فالامواه تجـــرى ... وغلـــب الاسد تخدر (1) فى شراها
وعـــذر الشمس لو حسدتك بـــاد ... لأن سناك أشهـــر مـــن سناهــا
تنـــال المارقـــين بكــــل أرض ... ولا طـــارت ولا نقلـــت خطاهـــا
لقد أخنى الزمان علـــى النصارى ... بـــوطء مؤيـــد صدعـــت صفاهــا
وانصـــف بعضها الاسلام منهــا ... وادرك فى العقوبـــــة منتهاهـــا
خطوب أذهلت عقـــل ابن ســعـــد ... وذادت عـــن لواحظـــه كراهـــا
وقـــد كانـــت تشـــد بهــا قـــواه ... فمــا لغبـــت قـــواه ولا قواهــا
يـــردد آه مـــن أســـف وحـــزن ... وما تنجـــى مـــن الغمرات آهــا
وهـــل يبقـــى وقد فغـــرت اليـــه ... منيتـــه المريحـــة منـــه فاهـــا
لقد ولـــى عـــن الخـــير اختيارا ... ووالـــى اللات والعـــزى سفاهــا
وآثـــر معشـــرا ضلـــوا سبيـــلا ... فمــا عرفـــوا النبـــى ولا الالهــا

يريد فى الابيات الأخيرة محمد بن سعد بن مردنيس ، الذى خرج عن ربقة الطاعة وتحالف مع النصارى وكان يلبس لباسهم ويقتدى بهم فتوجه اليه اخوه الخليفة أبو حفص وتغلب عليه ، فأشار الى ذلك الجراوى فى هذه القصيدة ، التى صار يتأنق فيها باستعمال الجناس فى

وجـــودك نعمـــة للـــه عمـــت ... وجــودك نعمـــة اخرى سواهــا
وصلـــت وصلـــت فالامواه تجرى ... وغلـــب الاســـد تخـــدر فى شراها

وهذا على سبيل اللف والنشر ، فوصلت من الصلة تناسبه الامواه تجرى ، وصلت مـــن الصولة ، يناسبـــه غلب الاسد تخدر فى شراهـــا والقصيدة فى نسجها تشبه قصيدة أخرى ، كان السيد أبو حفص قد بعثها

(1) فى البيان المغرب « تحذر » وهو تحريف لتخدر ، بالخاء المعجمة والدال المهملة ، من خدر الاسد فى عرينه لزمه .

فى طى كتاب ، من انشاء ابن عياش ، بهزمه لابن مردنيش 560 مطلعها :

لقـــد بلغــت جيادكـــم مداهـــــا ونالـــت ما أرادت من عداهـــــا
وها هى فاسألوا الاصباح عنهـــا بحمـــد الله قـــد حمدت سراهـــا
تعـــد رضاكـــم عـــــزا وجاهـــا فما تشكـــو علـــى حال وجاهـــا
تهيـــم بحـــب طاعتكـــم فتطـــوى بســـاط القفر حتـــى قـــد طواهـــا

ففى هذه زيادة على الجرس تلاعب بالالفاظ على نحو ذلك الجناس ، «وجاها وجاها» «فتطوى بساط الارض حتى طواها»، ومثل «قواهولا قواها» بعدها فالغالب ان الجراوى قد نظر اليها صادرة عن الكاتب ابن عياش كما سلف وكان هذا الكاتب شاعرا كذلك من شعراء الدولة المسجلـــين لاحداثهـــا (1) ويقول أول الثانيـــة (2) :

ضربت عليـــك لواءهـــا العليـــاء وتحيرت فى وصفـــك الشعـــــراء
وقضى الذى اعطاك سعدا مقبلا الا يفـــارق حاسديـــك شقـــاء
ما شك ذو النظر الصحيح ولا امترى ان الورى ارض وانـــــت سمـــاء
الامر امـــر الله ليـــس يضيـــره ما حاولـــت مـــن كيـــده الاعـــداء
والحق ابلـــج والمعانـــد عينـــــه عميـــاء عنـــه واذنـــــه صمـــاء
لو كانـــت الجوزاء مـــن اعدائـــه لـــم تنـــج مـــن غاراتـــه الجوزاء
ساعل اذا ركب الدجا وتحيـــرت زهر النجـــوم ونامـــت الرقبـــــاء
يهدى ويهـــدى منعما ومعلمـــــا لازال منه الهـــدى والاهـــداء (3)
اوفـــى بمـــا ترك النبـــى محمـــد والقائـــم المهـــــدى والخلفـــاء

الى ان يقول :

اولى بعهـــد المومنين ومـــن بـــه كمـــل السرور وتمـــت النعمـــاء
العيد اولـــى ان اهنيـــه بكــــــم فعليـــه منكـــم بهجـــة وبهـــــاء
انتم سنـــا الدنيـــا فلـــولا انتـــم ما فـــارقـــت آفاقهـــا الظلمـــاء

---

(1) وردت القصيدة كلها فى « المن بالامامة » .
(2) ذكرت منها ثلاثة عشر بيتا فى « المعرب » .
أوردنا منها اثنى عشر ، وتركنا بيتا سقطت منه بضع كلمات هكذا :
وجلى الحقائق للورى ،،،، ،،،، ،،، ،،، ،،، الامـــوات والاحيـــاء
(3) فى هذا البيت أيضا لف ونشر .

فهذا الشعر نزل عن مستواه فهو أولى بأن ينسب الى معاصريه من الاندلسيين المتأنقين فى تصنيعهم وتصنعهم أحيانا ، وان كانت الاخيرة تنظر من بعيد الى قصيدة ابن هانىء فى المعز ، ومطلعها :

الحب حيث المعشر الاعداء　　والصبر حيث الكلة السيراء

وقد سبق للشاعر أن استعان ببعض ابياتها ، مثل :

جهل البطارق انه الملك الذى　　أوصى البنيين بسلمه الآباء

فقال :

جهل النصارى انه الملك الذى　　يرث البلاد وعذرهم مقبول

ومثل :

اعززت دين الله يا ابن نبيه　　فاليوم فيه تخمط واباء

فقال :

اعليت دين الواحد القهار　　بالمشرفية والقنا الخطار

ومن شعره فيه هذه القصيدة التى أنشأها بمناسبة انتصار يوسف فى معركة حارب فيها الملك النصرانى فرنندو البيبوج بن الادفونش احد ملوك الاسبان سنة 569 :

عن أمركم يتصرف الثقلان　　وبنصركم ينعاقب الملوان
وبما يسوء عدوكم ويسركم　　نتحرك الافلاك فى الدوران
جاهدتم فى الله حق جهاده　　ونهضتم بحماية الايمان
وتركتم أرض العدى وقلوبهم　　فى غاية الرجفان والخفقان
وغزاهم الدين الحنيفى الذى　　كتب الظهور له على الاديان
كتب الاله لكم فتوحا فى العدى　　هذا لها وسواه كالعنوان
هذا مقام المصطفى بافوز من　　حاز النيابة فيه عن حسان
من يعرف الرحمن حقا يعترف　　بحقوقه لخليفة الرحمن

فهذه أبيات ، اذا استثنينا البيتين الاولين منها ، وهما فى مبالغتهما معروفان للشعراء عامة ، لا ترتفع الى ذلك المستوى الشامخ الذى

عهدناه فى امداحه للخليفة عبد المومن . بل ان اسلوب الشعراء بعيد عنهما وفيه الاقتباس القرآنى نحو « وجاهدوا فى الله حق جهاده » كما ان فيه من العبارات المتواضعة نحو « وقلوبهم فى غاية الرجفان والخفقان » و « كتب الظهور له على الاديان » و « يعترف بحقوقه لخليفة الرحمن » وله كما يقول ابن عذارى من قصيدة اولها :

بسيفك صال الدين فى الشرق والغرب	ودارت على الاعداء دائرة الحرب
واذعن نساء واستقام معاند	ولان قيادا كل ممتنع صعب

وفى المصراع الثانى من اولهما اقتباس « عليهم دائرة السوء » القرءانية. وللجراوى فى الخليفة قصيدتان بمناسبة ابلاله من مرض يقول فى الاولى :

ستملك أرض مصر والعراقا	وتجرى نحوك الأمم استباقا
اذا لم يتفق رأى ورأى	أفادا فى محبتك اتفاقا
صفا لك كل قلب غير صاف	وزحزح عن ضمائره النفاقا
وحقكم وحقكم عظيم	لقد حسن الزمان بكم وراقا
وقد بلغ الوجود بكم مناه	وقد أمنت عصا الدين انشقاقا
تبادرت الفتوح اليك تجرى	غرائبها وتستبق استباقا
امير المومنين ومن عليه	سنا الاسلام يأتلق ائتلاقا
ويا ملكا احنت كل أرض	الى أرض اقام بها اشتياقا
يحن اليك يوم غير آت	ويشكو الذاهب الماضى الفراقا
شكوت فأى قلب غير شاك	وأى العيش لم يمرر مذاقا
ولولا عطفة الابلال كنا	بنار الوجد نحترق احتراقا

ابيات — على عمومها ، بسيطة فى صورها ، وان تخللها تصنيع البديع فى نحو :

صفا لك قلب غير صاف

وهو فى هذا من البساطة بمكان ، بحيث يمكن ابعاده من هذا الصنيع

وفيها من الاقتباس القرءانى الموجود فى قوله تعالى « فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » .

ومن ناحية اخرى فان تصوير الفتوح ، بغرائب الابل ، تجرى اليه

استبلقا ، لا يستحق التنويه ، كما أن الامعان فى المكان والزمان ، بحنين ارض الى أرض يقيم بها الخليفة ، وحنين الايام المستقبلة الى ايامه ، وشكوى الماضية من فراقه كل هذا عمل فيه تأنق الصنعة ، التى صار شاعرنا يمارسها ، ويجارى زملاءه فيها ، استجابة لاعجاب الخليفة بها ، كما فى قوله :

شكوت فأى قلب غير شاك

وقوله أخيرا :

ولولا عطفة الابلال كنا بنار الوجد نحترق احتراقا

وفى الثانية :

شملت ببقائكم النعم وسمت برجائكم الهمم
وهمت ديم من راحتكم هيهات نساجلها الديم
وعنت لعزائمكم عرب تشقى بصوارمها العجم
أسد تنقاد الاسد لها بهم تنقاد لها البهم
حمدت شيم الايام بكم ولكم ذمت منها الشيم
بهرت أنوار خلافتكم وسماء العلم بها علم
فرأى من ليس له بصر ووعى من كان به صمم
وأناف المجد على زحل واتى بغرائبه الكرم
أعيا البلغاء مقامكم ولو أن مقالهم حكم
العيد أحق بتهنئة فله بكم فخر عمم
دمتم والكل يلوذ بكم من صرف الدهر ويعتصم (1)

وقوله فى أخرى بمناسبة قضائه على ثورة للاعراب (وهى من الخبب كذلك لان الخليفة كان يعجبه ويقترحه كما فى المعجب (2) :

(1) من البيان المعرب كسابقتها . ويلاحظ انه كرر فى هذه معنى تقدم فى أخرى بالبيت :

العيد اولى ان أهنيه بكم فعليه منكم بهجة وبهاء

فقال هنا البيت :

العيد أحق بتهنئة فله منكم فخر عمم

(2) من ملحق « شاعر الخلافة » .

ببسيط العالم تعتضد ... وعلى معبودك تعتمد
ما ضر علاك وقد بهرت ... من يحجبه عنها الرمد
شقى الاعداء وان حسبوا ... بمروقهم أن قد سعدوا
وردوا غدران الغدر ولا ... صدر عنهن لمن يرد
كفروا لما كثروا وزكت ... اموالهم ونما العدد
نعم رزقت نعما فطغت ... وبغت فأتيح لها الاسد
ما غرهم بهزبر وغى ... حلق المأذى له لبد
اسد تنقاد له الآسا ... د كما تنقاد لها النقد
تذكو نيران حفيظته ... فيكاد يذوب لها الزرد
فله من عزمته عدد ... وله من نجدته عدد
يلقى الابطال فينقض ما ... عقدوا ويناقض ما اعتقدوا
فدم دفع وطلى بدد ... وظبى قدد وقنى قصد
يشق الأرضى بصحبته ... ان العلوى له مدد
ذخر الاملاك وانت ابا ... يعقوب تجود بما تجد
يعدون ولا يوفون بما ... وعدوا وتجود ولا تعد
جمعت كفاك ندى وردى ... فتصون يد وتصول يد
اصفيت العيش فلا كدر ... واقمت الدين فلا أود
لو تاتت بأنك أوقر من ... احد ما نازعنى احد
لم تات بمشبهك الايا ... م ولا ولدته ولا تلد
ما كذب فيك فراسته ... ملك للعالم منتقد
ملك انوار بصيرته ... ومناقبه سرج تقد
اثواب الدين به جدد ... وسبيل الحق به جدد

فهذه القصيدة بلغت ذروتها فى حليتها البديعية وخصوصا فى التلاعب بالالفاظ والمقابلة بين الاضداد ، وفيها اقتباس من نحو « ما غرك بربك الكريم » ونحو « يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » وهى ظاهرة تعم ما وجدناه من امداحه فى يوسف الموحدى .

وفيها صور مكررة مع ما سبق فى الاخرى :

« اسد تنقاد له الآساد ... كما تنقاد لها النقد »

مع قوله سلفا :

اسـد تنقـاد الاسـد لهـا بهـم تنقـاد لهـا البهـم

وهذه قصيدة اخرى له فى نفس التاريخ ويذكر فيها بناءه لمنار الكتبية — كما يبدو — (1)

اهدى اليك ثنـاء العرب والعجم جود ابر عـلى الدامـاء والديـم
وابصرت جـودك الآمـال فابتدرت الـى همام علي القدر والهمـم
كفتـه أمر أعاديـه سعادتـه فنال مارامـه فيهم ولـم يـرم
مستقبل العمر قد عاد الزمان به الى الشباب وقد أوفى على الهرم
لا غـرو أن يتسمى غيره ملكـا فليـس يلتبـس المنكور بالعلـم
ليس التقارب فى الالفـاظ ملتفتـا يـا بعد ما بين معنى البهم والبهم
سطا وجاد ابو يعقوب فاعترفـت لـه الملوك بفضل البأس والكرم
تبقى الفوارس والكتـاب حائـرة ان قط بالسيف او ان خط بالقلم
غريبـة لـم يعاين مثلهـا زمـن وندرة لا تراها العـين فى الحلـم
أوفى الملـوك واكفاهم لمعضلـة تعيى الكفاة واهداهم الى القمم (2)
والناس فى الخلق اشباه اذا نظروا وانما اختلفوا فى الخلق والشيـم

الى أن يقول فيه :

بنى منارا على التقوى تطالعـه زهر الكواكب والافلاك من امـم
وهد ما كان مبنيـا علـى جـرف هار ولم يبن من تقوى على دعـم

فالقصيدة على تصنيعها مقتصدة فى التلاعب بالالفاظ ، كما فى قط وخط وأوفى وأكفـا وهمـام وهمم ورام ويـرم والبهـم والبهـم وفيه استغلال لاصطلاحات علمية مثل « المنكور والعلم » و « التقارب فى الالفاظ » و « الالتباس » كما انه اقتبس فى البيتين الاخيرين من الآيـة « افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من اسس بنيانه على شفى جرف هار » وهو يشير فيهما الى المسجد الذى بناه المرابطون مكان الكتبية فهدمه الموحدون ، فجعله كمسجد الضرار عفى الله عنه

---

1) من المصدر السالف .
2) بالاصل « اللقم » ولا ارى له لياقة هنا

ثم انه ينظر فى قوله : « ليس التقارب فى الالفاظ ملتفتا » الى ما سبق لابن حبوس فى قوله :

« ولبس اشتراك اللفظ يوجب مدحة » فالاشتراك اللفظى أحق هنا من التقارب اللفظى اذ لا تقارب فيه بين ملك وملك مما هو معنى فى قوله : « لا غرو أن يتسمى غيره ملكا » بل التقارب المدعى انما هو فى المعانى هنا .

ومن أمداحه فيه قصيدة ذكر منها ابن خلكان بيتين فى غاية التأنق قال فيه ابن خلكان « وهو بديع غريب » والبينان هما :

ان الامام هو الطبيب وقد شفى ... علل البرايا ظاهرا ودخيلا
حمل البسيطة وهى تحمل شخصه ... كالروح توجد حاملا محمولا

فهذا وصف جعل الخليفة فيه « يحمل البسيطة » ومثل له بالروح احترازا منه لما سبق له من ذكره بحمال أثقال الورى فكأنه انتقد عليه أشد الانتقاد فكفر عن ذلك بهذا البديع الغريب .

وبعد عرض تلك النماذج من أمداح الجراوى فى يوسف بن عبد المومن ، نتصل به وهو على أمداحه ليعقوب المنصور .

وأمداحه لهذا الملك العظيم ، لا تكاد فيما عدا الفتوح تختلف فى صيغتها المتأنقة ، عن أمداحه لأبيه ، كما أنها فى مستواها السوى لا تكاد تختلف عنها ، وقد كان المنصور كأبيه ، قد ركن الى المدرسة الاندلسية ، فحظيت عنده ، وكان على رأس شعرائها أبوبكر بن مجبر ، الذى وجد الشاعر فيه مزاحما خطيرا ، وحاول أن ينال من فنه فى عدة مناسبات ، ولكن المنصور وهو وزيرابيه كان يدرأ عنه تهجم الجراوى ، ويرفع من شأنه (1) وربما غض ضمنيا من جانب الجراوى ، عند المقارنة به ، وبذلكم كان ابن مجبر فى مقدمة الشعراء الذين ينشدون أشعارهم فى شتى المناسبات التى كانت تتصل بهذا الخليفة ، فكان على الجراوى أيضا ، أن ياتى البيوت من أبوابها ، ويقتنص من شوارد الأساليب ما يطيب لممدوحه أو يقدم له من دواجنها ما يلذ له كذلك ، وهذا ما تصوره تماما ، هذه الامداح ، التى نأتى بها متدرجين فى

---

(1) يذكر ذلك ابن الخطيب فى الاحاطة وينعت الجراوى بالاعمى ولا نعرف هده الصفه له الا من هذا المصدر وفيه أن أباه سر من صبيعه هذا .

عرضها تدرجا تاريخيا .

فمن أوائل هذه الأمداح ،، قصيدة قالها بمناسبة ، دخول ابن غانية بجاية ، ثم انتصار جيش المنصور عليه بأسطوله الظافر :

لواؤك منصور وسعدك غالب ... وحزبك للاعداء عنك محارب
لقد ثكلت أم المناوى وغررت ... مبادىء من أحواله وعواقب
سما لاستراق السمع من وهداته ... ودون سماء الملك شهب ثواقب
تلاقى عليه البر والبحر ترتمى ... سفين الى استيصاله وكتائب
غريق بغرقى مثله متمسك ... وموج المنايا مثلهم متراكب
هوت بهم الاطماع فى هوة الردى ... وغرتهم جهلا بروق خوالب
اطاعوا غويا لم تقيده شرعة ... ولم تره وجه الصواب التجارب
مفيب وجه الرأى والوجه حائر ... يرى حاضرا فى أمره وهو غائب
دعاهم الى آجالهم فتهافتوا ... كما جمع الاعواد للنار حاطب
تصامم عن وعظ الزمان بقلبه ... واعرض عن وجه الهدى وهو لاحب
تخيل أن الناصرية داره ... يطاعن عن ساحاتها ويضارب
وفى الغيب من انجاد طائفة الهدى ... ونصر أمير المومنين غرائب
هو الامر أمر الله ليس يفوته ... مناو ولا ينأى عليه مناصب
وما هارب منه ولو بلغ السهى ... بناج وهل ينجو من الله هارب
بناصرها المنصور تاهت خلافة ... تناسبه فى حسنه ويناسب
امام له فضل على الخلق باهر ... ومرتبة تنحط عنها المراتب
مناقبه مثل الكواكب كثرة ... ونورا الا لله تلك المناقب
هى الدوحة الشماء فى الارض أصلها ... وقد زاحمت منها السماء الذوائب
له نسبة قيسية قرشية ... تقر لها بالمعلوات المناسب
حقيق بميراث النبوة والهدى ... ولا عجب ان المزايا مواهب
بقيتم أمير المومنين وسعدكم ... تهزقنى منه وتنضى قواضب (1)

ففى هذه القصيدة نجده يستعين بما ورد فى القرءان ، كاستراق السمع واتباع الشهاب الثاقب ، الوارد فى الصافات والجن كما استعان بقوله تعالى ، فى هذه السورة « لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا »

---

1) البيان المعرب

واستعان بقوله فى سورة ابراهيم « أصلها ثابت وفرعها فى السماء » ، ونجد فيه تصنيعا بالتقسيم والمقابلة بين المعانى ، واللف والنشر ، والاحتفال بالالفاظ وزينتها كرد الصدر على العجز وفيها استغلال لتمثيل معروف وهو « تمسك غارق بفارق » كما أن فيها من الصور المكررة مع ما سبق قولـــه :

« هو الامر امر الله ليس يفوتــه مناو ولا ينـــأى عليــه مناصب »

مع قوله فى قصيدة أشرنا اليها :

الامـــر امر الله ليـــس يضيـــره ما حاولـــت مـــن كيده الاعـــداء

ولأبى العباس سيد المالقى المعروف بالجراوى أيضا ، من قصيدة له فى عبد المومن افتتحها بقوله :

هو الامر امـــر الله ليس لـــه رد يؤيده أيـــد ويسمـــو بـــه حـــد

وامـــداح الجراوى للمنصور فى مناسبات الانتصارات والتى تتصـــل بالفتوح ، يغلب عليها طابع ابى تمام على العموم ، وهو ما سيواجهنا فى امداحه هذه ، فيما بعد ، ومنها هذه القصيدة التى قالها فى نفس التاريخ بمناسبة تعظيم حجم الدينار الموحدى ، ويقول فيها :

بحد عزمك نـــال الدين ما طلبـــا	وأحجم الشرك عـــن اقدامه رهبـــا
وايقنت ملـــة الاســـلام أن لهـــا	بك الظهور عـــلى الاعداء والغلبا
وان كـــل بعيـــد عندهـــا كثـــب	ولو تطالب فى افلاكهـــا الشهبـــا
وان امـــرك مستـــول على أمـــد	من السعادة فات العجم والعربـــا
ان الخلافـــة نالت مـــن محاسنكم	أوفـــى الحظوظ فنالت منظرا عجبا
اعلى المراتب من بعد النبوة قـــد	حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا
سينظم السعد مصرا فى ممالكـــه	حتى تـــدوخ منهـــا خيله حلبـــا
الى العراق الى أقصى الحجاز الى	أقصى خراسان يلقى جيشه الرعبا
هو الذى كانـــت الدنيا تؤملـــــه	وكـــل عصر لـــه ما زال مرتقبـــا
هل ابن اسحاق الا كالذين جروا	الى مصارعهـــم من قبله خببـــا
عن شر منقلـــب تجلى عواقبـــه	وقلما حمـــد المغـــرور منقلبـــا
راق النضار عيون النظرين وقـــد	غدا اسمك المعتلى أعـــلاه مكتتبا

(1)

ما ارتاب مبصرها فى كف ذاك وذا ... أن النجوم استحالت للورى ذهبا
نداك عم بنى الدنيا والبسهم ... فى الشرق والغرب أثواب الغنى قشبا
خليفة الله رحماكم لمغترب ... ناء وما أن نأى دارا ولا اغتربا

وابن اسحاق المذكور فى القصيدة هو ابن غانية، الذى خلف اباه على جزر البليار ، ميورقة ومنورقة ويابسة ، ثم استولى على بجاية ، ثم حرك اليهم المنصور السيد ابا زيد ، فاستقر ببجاية ، وقد تقدمت القصيدة التى قالها فى هذا الصدد .

ثم كان يمدحه بقصيدة يذكر فيها هزيمة ابن غانية والغز الاتراك معه ، يقول فيها :

عدوكم بخطوب الدهر مقصود ... وامركم باتصال النصر موعود
وملككم مستمر ما له أمد ... موقت دون يوم الحشر محدود
القى على كل جبار كلاكله ... كأنه وهو فى الاحياء مفقود
راى الشقاء ابن اسحاق أحق به ... من السعادة والمجدود مجدود
وكيف يحظى بدنيا أو بآخرة ... وانه عن طريق الحق مطرود
أما درى لا درى عقبى عداتكم ... كل بحد حسام الحق محصود
القى السلاح وولى يبتغى أمدا ... ينجيه وهو مروع القلب مفؤود
ما مر يوما بباب ظنه سببا ... الى التخلص الا وهو مسدود
وهبه عاش أليس الموت أهون من ... عيش يخالطه هم وتنكيد
انحى الزمان على الاغزاز واجتهدت ... فى قطع دابرهم احداثه السود
ونازعتهم سيوف الهند انفسهم ... فلم يفدهم عن الهيجاء تعريد
فهم على الترب صرعى مثله عددا ... ان كان يقضى بأن الترب معدود
أنت سليمان فى الملك العظيم وفى ... طول التهجد فى المحراب داوود
قد أبهج الدين والدنيا مقامكم ... وكيف لا وهو عند الله محمود
جارى مناقبكم شعرى فقصر عن ... بلوغ أدنى مداها وهو مجهود
من ليس معتقدا ايجاب طاعتكم ... فليس يغنيه ايمان وتوحيد

1) ورد فى البيان المعرب بيت غير واضح ، بل هو مصحف تصحيفا معضلا حذفناه هنا .

رضاكم الدين والدنيا وعدلكم ... ظل ظليل على الايام ممدود
دمتم حباة مدا الدنيا ودام لكم ... نصر وفتح وتمكين وتاييد (1)

وهذه قصيدة أخرى قالها فى المنصور بمناسبة انتصار جيشه على ابن غانية فى البلاد التونسية التي استرجع فيها قفصة ، يقول فيها :

فتح يطاول نعته (2) الاحقابا ... خضعت له فرق الضلال رقابا
واستشعر المراق منه مخافة ... ملكت عليهم جيئة وذهابا
وغدا به ما قد صفا من عيشهم ... كدرا وما فيه الحلاوة صابا
لله يوم الاربعاء فانه ... احيا النفوس وتمم الآرابا

الى قوله :

وسع الموالى والمعادى حكمه ... فى كل ارض رحمة وعذابا
وسم ابن اسحاق على خرطومه ... خزيا ينال حديثه الاحقابا
طفح الشقاء باهل قفصة وارتقى ... بهم شواهق صعبة وعقابا
وانالهم اضرارهم من قبل أن ... راوا العذاب انابة ومنابا
لم يغن عنهم اذ أتاهم من عل ... ان يحرسوا الاسوار والابوابا
طلبتهم تحت التراب وفوقه ... آجالهم فتولجوا الاسرابا
نالتهم رحمى الخليفة بعدما ... نادى الردى بنفوسهم واهابا
آيات نصر بينات كلها ... بهرت بما جاءت به الالبابا
وسعادة عجب تهد قوى العدى ... هدا وتقصم منهم الاصلابا
خصت اماما للبرية مجتبى ... برا تقيا خاشعا أوابا
ملك عليه مسحة ملكية ... لبس الزمان جمالها جلبابا
بهجوا على الابصار بهجة يوسف ... ويضيء داود بها المحرابا
مدح الامام عبادة نرجو بها ... عز الحياة وأن نفوز مآبا
ما سافرت أذهاننا فى مدحه ... الا وكان لها القصور ايابا

1) المصدر السابق وان لم يرد فيه ، لبياض بالصفحة ، ذكر نسبة هذه القصيدة اليه ، بل القارىء لهذا الجزء من البيان ، الذى كنا ضمن المشرفين على تحقيقه وطبعه ، يفهم أن القصيدة لابن مجبر الدى تقدم شعره قبلها فى الكتاب . ولكن ابن سعيد فى « الغصون اليانعة » ذكر من القصيدة أبياتا ناسبا اياها الى الجراوى . وفات هذا المصدر الاستاذ الفاسى فى بحثه « شاعر الخلافة الموحدية » .

(2) فى البيان المعرب « فنحه » وكدلك أثبته الاستاذ الفاسى . ولا نرى معنى له فأصلحناه استظهارا منا واستئناسا بنحو قوله فيما ياتى « هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثرا » وقوله « نقصر عن وصفه الرواة » .

لم يـــدر حق مقامه مـــن لا يـــرى   من دون حق مقامـــه الاطنابا (1)

وبعد هذه تأتى قصيدة قالها فى مدحه بمناسبة ظفره بالثائر الجزيرى الذى ظهر بمراكش بمخارقه ونشر أراجفه بها ثم بفاس فالاندلس التى فتن به أوباش الناس ، الى أن قبض عليه بمرسية ، فأحضر الى اشبيلية حيث صلب بها ، فقال الجراوى من قصيدة طويلة (2) :

قضى لـــك الله بالتاييد والظفـــر   وبالسعـــادة فى ورد وفى صـــدر
بظفـــر ما لمغـــرور يطالبـــه   فى الارض من ملجـــا عنه ولا وزر
جد الجزيـــرى فى آتلاف مهجتـــه   حـــتى تـــورط فى ورد بلا صـــدر
نار من الفتنـــة العمياء اطفأهـــا   سعد الامام وحد الصارم الذكـــر
ما زال ابليس فى الاقطار يوقدهـــا   وترتمى من شرار الخلق بالشـــرر
زاد الشقى على الخفاش شبيهـــه   ضعف البصيرة اذ ساواه فى البصر
جارى الى سقر أصحابه فهـــووا   فيها سراعا ووافاهم على الأثـــر
ان الـــذى اتخـــذ الاهواء آلهـــة   على الضـــلال مصر غير مزدجـــر
والوعظ فى الناس مقبول ومطرح   كالخط فى الماء أو كالنقش فى الحجر

وهذه الابيات أراها صادرة عن عفو خاطر ، لا تعمل فيها ولا تصنيع ولا تصنع ، وهى على مستوى من الجزالة محمود ، ومثلها يشهد بصدق على شاعرية الشاعر ، مجردة من كل تمويه ، وبخلاف القول فى اخرى قالها فى نفس المناسبة ، وهى :

ما فى الحيـــاة لمن ناواكـــم طمـــع   ان ند خوفـــا ففى أحبولة يقـــع
عن كل قوس صروف الدهر ترشقه   فما له فى ســـوى التسليم منتفـــع
ما للعـــدو بمـــا أعددته قبـــل   ولا بغيـــر انقيـــاد منـــه ممتنـــع
غزاهم الرعب فى جيش بلا لجـــب   فأحجموا من وراء الدرب وانقمعوا
دارت عليهم كؤوس الذل مترعـــة   تسقيهـــم جرعا من بعدها جـــرع
كل الممالـــك مـــلك خالص لكـــم   وكـــل ممتنـــع طوعا لكـــم تبـــع

1) كذلك وفيها اقتباس من قوله تعالى « سنسمه على الخرطوم » كما أن فيها اشـــارات قرءانية غير هذا كمحراب داود ووسع رحمة .
2) كما يقول ابن عذارى فى البيان المذكور .

والبحر تعتمد الانهار موضعه ... فتلتقى فى نواحيه وتجتمع
والشعر ان لم يكن فى نفسه حسنا ... فما تحسنه الاصحاب والشيع
من رام وصفك مستوفى فغفلته ... يبدى ومن فهمه عند الورى يضع
اضحت علاك مكان النجم عن مدحى ... ما حيلتى وبلوغ النجم ممتنع (1)

فهذه الابيات عمد فيها أو اضطر الى تمويه بنحو « ما للعدو بما أعددته » والى لوك الكلام بما تكرر منه لوكه ، كما فى البيت الاول والبيت الرابع ، وان كان الثانى والثالث تابعين للاول فهما من ذاك القبيل ، ثم البيت السادس منه كذلك ،، واخيرا البيت :

من رام وصفك مستوفى فغفلته ... يبدى ومن فهمه عند الورى يقع

فهو افصاح بهذا العجز الذى يشعر به المتكلم فيلجأ الى تعظيم القول فيه ، وان وصفه فوق طاقة الانسان ، ويتبع هذا البيت الذى يليه ، وان كان الاعتذار فيه على درجة من القبول ، كما قال المتنبى :

وقد وجدت مجال القول ذا سعة ... فان وجدت لسانا قائلا فقل

أما البيتان قبلهما فهما من قبيل ضرب الامثال المجردة لا خصوصية لمحلهما هنا أو فى غير هذا المقام .

ونستمر فى اشعار الجراوى آلتى قالها فى يعقوب المنصور الموحدى ، مسايرين فيها لاحداثها التاريخية ، ومنسباتها الزمنية فأولها هذان البيتان ، قالهما الجراوى بمناسبة تآمر أخيه الرشيد وعمه أبى الربيع ضده سنة 584 ثم القضاء عليهما :

الدهر منا فى مديحك أفصح ... فعلام يتعب نفسه من يمدح
انت المرشح للتى لا فوقها ... ان العظيم لمثلها يترشح

وكأنه اخذ الاول من قول ابن زيدون :

الدهر ان املى فصيح اعجم ... يعطى اعتبارى ما جهلت فأعلم

وفى سنة 587 ، كان المنصور قد تأهب لاستخلاص غرب البرتغال ،،

---

1) المصدر السابق وكذا البيتان بعدها .

وفيه مدينة شلب، من يد النصارى، فتم له ذلك، ثم عاد الى الحضرة مراكش تخفق عليه بنود الظفر والنصر ، فتقدم الشعراء لمدحه ، وكان منهم الجراوى الذى أنشده أبياته التالية (1) :

أيـــاب الامـــام حيـــاة الامـــم ... توالى الســـرور بـــه وانسجـــم
وجاد بـــه الارض صوب الحيـــا ... وجـلى الظـــلام بـــه بـــدر تـــم
فشكـــرا لخيـــل وفلـــك دنـــت ... بمستأصل الظلـــم ماجى الظلـــم
اذا حـــل فى بلــــدة أمرعـــــت ... فطـــاب جناهـــا وفـــاح المشـــم
وقـــــام بأقطارهـــــا عدلـــــه ... وصوب نـــداه مقـــام الديـــم
اذا الخطـــب جيـــش نحو الـــورى ... تصـــدى لـــه عزمـــه فانهـــزم
سل الدهر عـــن بطشه بالعـــدا ... تجب مـــن وراء الدروب العجـــم
فتـــوح عظـــام جناهـــا الزمـــان ... لـــذى همـــم دونهـــن الهمـــم
نصحتكـــم ياملـــوك الزمـــان ... نصيحـــة مـــن ليـــس بالمتهـــم
أنيبـــوا اليـــه ولوذوا بـــــه ... تفـــوزوا وألقـــوا اليـــه السلـــم

والقصيدة تنظر الى قصيدة لابن برد ، فى مدح عمر بن العلا ، وقد اعجب بها الممدوح ، فأجاز عليها بسبعين الف درهم ، وهذا كاف فى حمل الجراوى على النظر اليها ، يقول فيها :

فقـــل للخليفـــة ان جئتـــه ... نصيحـــا ولا خيـــر فى المتهـــم
اذا ايقظتـــك حـــروب العـــدا ... فنبـــه لهـــا عمـــرا ثـــم نـــم
فتـــى لا يبيـــت عـــلى دمنـــة ... ولا يشـــرب المـــاء الا بـــدم
دعانـــى الـــى عمـــر جـــوده ... وقـــول العشيـــرة بحـــر خضـــم
ولـــولا الـــذى خبـــروا لـــم اكـــن ... لأمـــدح ريحانـــة قبـــل شـــم

فهذا النظر واضح فى قوله :

اذا الخطب جيش نحـــو الـــورى

الـــى قولـــه :

نصحتكـــم يا ملـــوك الزمـــان ... نصيحـــة مـــن ليـــس بالمتهـــم

---

(1) كذلـــك

واثر عودة المنصور اصابته وعكة فلما ابل منها قال الجراوى ، ضمن المهنئين من الشعراء :

برء الامام حياة الخلق كلهم — عم السرور به وانثالت النعم
شكى فلا مقلة الا أضر بها — سهد ولا قلب الا شفه السلم
تجهم الدهر لما أن شكا وبدا — ببرئه وهو طلق الوجه مبتسم
صحت بصحته الآمال وانتعشت — وزاحمت زحلا فى افقه الهمم
افاض عدلا على الدنيا والبسها — نورا فلم يبق لا ظلم ولا ظلم
وبث فى كل اقليم هدى وندى — فليس يوجد لا جهل ولا عدم
لولا سياسته ما كان ملتئما — شعب ولا كانت الاسباب تنتظم
والله يختص أقواما برحمته — تجرى بحكمته الارزاق والقسم
حاط الاله لنصر الدين مهجته — وعوفيت تلكم الاخلاق والشيم

وفى سنة 591 ، كانت الموقعة الكبرى التى انتصر فيها المنصور بالأندلس انتصارا سار ذكره فى العالم الاسلامى ، بموقعة الارك فقال الشعراء فى ذلك اشعارا كثيرة عمت الاندلس وكذلك قال الجراوى :

هو الفتح اعيا وصفه النظم والنثرا — وعمت جميع المسلمين به البشرى
وانجد فى الدنيا وغار حديثه — فراقت به حسنا وطابت به نشرا
تميز بالاحجال والغرر التى — اقل سناها يبهر الشمس والبدرا
وصيرت المرقى اليه صوارم — كثير بها القتلى قليل بها الأسرى

واثمره الصبر الذى لم تزل به — حماة الهدى والدين تستنزل النصرا
لقد أورد الاذفونش شيعته الردى — وساقهم جهلا الى البطشة الكبرى
حكى فعل ابليس بأصحابه الالى — تبرأ منهم حين أوردهم بدرا
اطارته شدات تولى أمامها — شريدا وأنسته التعاظم والكبرا
واسلم مما امته جدوده — نجوم قلاع تزحم الانجم الزهرا
من النيرات الزهر ضوءا ورفعة — وان لم يسموها سماكا ولا نسرا
تعوذ بالركض الحثيث من الردى — فلو سابق الارواح غادرها حسرى
راى الموت للابطال حوليه ينتقى — فطار الى أقصى مصارعه ذعرا
وقد اوردته الموت طعنة ثائر — وان لم يفارق من شقاوته العمرا

ولم يبق من أفنى الزمان حماته … وجرعه من فقد انصاره صبرا
حكت أخت صخر فى الرزايا نساؤهم … كما قد حكى أبطالهم فى الردى صخرا
تضحضح فى وقت من الدهر بحره … وقد ضاقت الآفاق من فيضه دهرا
ودارت رحى الهيجا عليهم فأصبحوا … هشيما طحينا فى مهب الصبى يذرى
يطير باشلاء لهم كل تشعم … فما شئت من نسر غدا بطنه قبرا
فكيف راى المغتر عقبى اغتراره … وكيف راى الغدار فى غيه الغدرا
وكان يرى اقطار اندلس له … متى يرم لم يخطىء بأسهمه قطرا
فسلاه يوم الاربعاء عن المنى … فما يرتجى مما تملكه شبرا
اذا عزلته الروم كانت نجاته … وقد أحرقت جمر المنايا به غدرا
فتعسا له ما دام حيا ولا منى … وكسرا له ما دام حيا ولا جبرا
بيمن الامام الصالح المصلح الرضى … نضا سيفه الاسلام فاستأصل الكفرا
معز الهدى معليه حامى ذماره … يجير على أعدائه البر والبحرا
معان بامداد الملائك منزل … من المعتل الاسمى مناوئه قسرا
راى السبل شتى فانتقاها تورعا … وسار على المثلى فيسر لليسرى
ومن قام للاسلام مثل مقامه … يكن شكره فرضا وامداحه ذكرا
تحلى بصدق السر والجهر شيعة … حباه بها من يعلم السر والجهرا
له عسكر مجر من الصبر والتقى … يرد على اعقابه العسكر المجرا
اغاث به الله البلاد واهلها … وصير غايات الفتوح له ذخرا
يقصر فيه كل مثن وان غلا … واجرى الى اقصى نهايته الفكرا
فلا زال بالنصر الالهى يقتضى … بشائر يحصى قبل احصائها القطرا(1)

وللجراوى أيضا فيها :

فتح مبين جل ان يتخيلا … جاء الزمان به اغر محجلا
بهرت عجائبه الخواطر فاستوى … من كان فيها مجملا ومفصلا
لا يبلغ البلغاء غاية وصفه … الا اذا بلغوا السماك الاعزلا
دهت النصارى بالجزيرة وطأة … راع الجزيرة ذكرها والموصلا
بكرت مصارعها العداة سريعة … كالطير ظامئة تبادر منهلا

1) فيه نظر الى قول المتنبى :
تحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره … حلو خلائقه شوس حقائقه
وهذه القصيدة وردت ابيات منها فى البيان وذكرت كلها فى الملحق المذكور .

وشقوا بيوم أوحد فى جنسه — فاتت مناقبه الزمان الاولا
ناهيك منه انارة وان اغتدى — فى اعين الكفار ليلا اليلا
ما كذبت حملاتهم لكن رسا — قدامها اهل البصائر أجبلا
واستحقروا وطآتهم لما دهوا — بأشد من وطىء الزمان واثقلا
عدد المصرع منهم عدد الحصى — هيهات ان يحصى وان يتحصلا
كم اجدل منهم ادل بباسه — ما هم أن ينقض حتى جدلا
جاءوا اسودا لاتنهنه فانثنوا — يحكون فى الحرب النعام المجفلا
والصبح لم يطلل على جنح الدجى — من افقه متجليا حتى انجلى
نهد الامام اليهم فى ساعة — عز المحق بها فبز المبطلا
فى جحفل لجب كأن جموعه — هضبات رضوى أو شواهق يذبلا
فى السابقين الاولين كانهم — اسد تربب فى الغباب الاشبلا
سابت اكفهم السيوف غمودها — وكسا مجالهم السماء القسطلا
من كل ذمر يمتطى من طرفه — بحرا ويحمل فى الحمائل جدولا
فكأن صارمه وهامات العدى — كف تدحرج فى الصعيد الحنظلا
جمح ابن ريمند فكف جملحه — عزم لو اعتمد الرواسى زلزلا
خاضت بموارده المصادر حيرة — وعمى وكان القلبى الحولا
طاحت به هفواته والماءلا — بد له من أن يفيض اذا غلا
ردت معالمه الخطوب مجاهلا — وصفاءه كدرا وجدته بلا
وتفرقت ايدى سبا اشياعه — لا يعرفون من البسيطة موئلا
لا ذوا بشم جبالهم من زاخر — متلاطم الامواج قد ملأ الملا
اجلاهم رعب اطار قلوبهم — واراهم معنى التخلص مشكلا
خاموا وراء النهر حتى انهم — ظنوه مسلولا عليهم منصلا
القت بمن فيها المعاقل طاعة — وانابة عجبا لها أن تعقلا

ومنها :

يا مورد الآمال بحر نواله — عذب الموارد سلسبيلا سلسلا
ومجرد الأفهام من صدا العمى — ومفتحا ما كان منها مقفلا
لما رجوت الله بلغك المنى — واثابك الفتح الهنى الا عجلا (1)

1) وردت فى الملحق المذكور .

وهى قصيدة لا تقل جزالة عما قبلها ــ كما رأينا ــ وفى كلتا القصيدتين ، لم يفتتح بخطاب الخليفة وتعظيم شأنه والتنويه بأعماله ، بل واجه الحادث الخطير بادىء ذى بدء ، وصار يشيد به ويكبر من أمره ، ويبذل فى وصفه طاقته ، ويفصح بكون اللسان عاجزا عن تصويره ، وبعد ما يشيد بأبطال الاسلام ومواقفهم الخالدة فى ذلك الجهاد ، يتصل بوصف المنهزمين من اعدائهم ، ويبالغ فى ذكر انهزامهم واجفالهم .

ثم يتصل بالخليفة الممدوح ، فيذكر ابلاءه فى الموقعة وما حشد من رجال ابطال شداد ، وأنهم بجموعهم كالجبال المتراصة ، يحملون سيوفا لا يغمدونها ، ويجولون بأفراسهم التى يحجب السماء غبار سنابكها .

ويتعرض للخصم فيصور جبورته وكبرياءه فيما قبل ثم ذلته وخضوعه فيما بعد ، وتفرق رجاله عنه أيدى سبأ ، فهم يجدون فى الفرار ويقطعون فى ذلك الجبال ويخوضون الانهار .

وأخيرا يعود الى الخليفة ، فيمدحه بالجود المحقق للآمال ، وبالهدى الذى يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويبصرهم بعد العمى ، ويفتق الافهام بعد قفلها ، وأنه لما توكل على الله حقق له النصر والظفر على الاعداء .

ونلاحظ ان القصيدة فيها حس من لامية ابن حبوس التى مدح بها عبد المومن ، وكان الجراوى حاضرا فى ذلك الموقف ، وان لم يذكره عبد الواحد ، وقال فى الموقعة التى سبقته ، كما تقدم ، أول شعره

على أن هذا الحس لا يشتد الا فى بعض قوافيها ، والا فهى من الناحية الفنية ، أجود من لامية ابن حبوس ، على اختلاف فى الموضوع ، وفيها من الصور البيانية كثير من الجمال القولى .

وبعد هذا يقول فى حصار المنصور لمدينة طليطلة التى كانت قد اشرفت على التسليم ولكن المنصور من على اهلها :

قد اصليت نارها العداة	وانجزت فيهم العدات
وعمهم بالدمار يوم	تقصر عن وصفه الرواة
فى مشهد لا تزال تتلى	آياته وهى بينات

فتـــح مفاتيحـــه المواضـــى — والعزمـــات المؤيـــدات

ردت حمى الفونش مستباحـــا — بيض مـن الهنـد مرهفـــات

ذلـوا لأمـــر الالـــه قسـرا — وهـــم أولـــو نجـدة أبـــاة

وغرقـــت جمعهـــم بحـــار — أمواجهـــا الخيـــل والكمـــاة

راوا لحـزب الالـــه صبـــرا — والمـوت حفـت بـه الجهـــات

فحاولـــوا منهـــم انفلاتـــا — وليـــس للخائـــن انفـــلات

فلا تسـل عـن بنـات مـــاء — ان صرصـرت حولهم بـــزاة (1)

وهذه قصيدة اخرى يبدو انه مدح بها المنصور أيضا :

ادركت آمال الشريعة فى العـــدا — وتركت نظـم جموعهم متبـــددا

وكففـت من دون المدى جمحاتهـم — من بعد ما راموا المزيد على المدى

وثنـــت عزائمهـــم عزائمك التـــى — اغنت عن الاسياف أن تتقلـــدا

وتضحضحت فرقا بحار جيوشهـــم — لما أتاهـــم بحر جيشـــك مزبـــدا

القـــوا بأيديهـــم مخافـــة صولـــة — تستأصـــل الادنـــى بها والابعـــدا

واستسلموا اذ لم يروا تحت الثرى — نفقا ولا فـــوق الثريـــا مصعـــدا

ما جـــاءت الدنيا بمثلـــك ناصـــرا — للدين منصور اللواء على العـــدا

اعلى الملوك يدا وامنعهـــم حمـــى — واعمهم صفـــدا وابعدهم مـــدى

عم الورى عدلا وجـــودا فاغتدى — هـــذا لهـــم ظـــلا وهـــذا موردا

ما الجود مما كان فى طبع الحيـــا — لكن راى منـــه المواهـــب فاقتدى

والنجم لو لم يسر فى جنح الدجـــى — ورأى دليـــلا من هداه ما اهتـــدى

من حيث قابلـــت العيون جبينـــه — حسبـــت سنـــاه نيـــرا متوقـــدا

لم ترتو الابصار مـــن لالائـــه — الا وعادت نحوه تشكو الصـــدى

خلعـــت سريرته عليـــه فاغتـــدى — متجمـــلا منهـــا بأجمل مرتـــدى

الى أن يقول :

لا يعـــدم الاســـلام منك حياطـــة — ورعايـــة وحمايـــة وتفقـــدا

واراك ربـــك فى بنيـــك كفايـــة — ترعى المضـــاع وتجمع المتبـــددا

كمل السرور بهم وتـــم وعمهـــم — فضـــل الاهـــى وخص محمـــدا

---

1) البيان المغرب .

اهنــأ امـــير المومنـــين بأنجـــم ... منهم تقابــل فى المطالـــع اسعـــدا
والله خصـــك بالكمال وشـــاء أن ... يبقى على الايام أمـــرك سرمـــدا
رؤيـــا لامركـــم العلـــى يعـــزه ... تقضى وطـــول بقائـــه متجـــددا
اوصى الى فقمـــت غيـــر مضيـــع ... لوصاية مـــنه وغنى منشـــدا (1)

وهى قصيدة كما نرى متواضعة فى اسلوبها مكررة لعديد من صور غيرها السابقة . ومن المبالغات السخيفة فيها ما فى الابيات العاشر والحادى والثانى عشر .

وبعد الخليفة المنصور كان الشاعر الجراوى فى ركاب الخليفة محمد الناصر ابن المنصور الموحدى ، الخليفة الذى ظل ينشده اشعاره طيلـــة أربع عشرة سنة ، الى أن توفى قبل وفاته بسنة واحدة .

ومن الحق أن يسجل على شعره فى هذا الخليفة ، نوع من الفتور والنزول عن ذلك المستوى الذى كان فى أوجه أيام عبد المومن ، وفى لهجته الصاخبة ، ثم صار أيام يوسف يتأنق تأنق الاندلسيين المحيطين بذلك الخليفة، وكذلك كان على عهد يعقوب قد جنح الى مسايرة الشعراء الذين كان المنصور معجبا بهم ، وكان على راسهم ابن مجبر ، كما تقدم ، اما فى عهد هذا الخليفة ، فكان الفتور غالبا كما نجد فى هذه وقد بويع محمد .

لهجت بذكرك الســـن المـــداح ... وسمـــت بذكـــرك رتبـــة الامداح
أزرى نـــداك بكل بحـــر زاخـــر ... هبـــت عليـــه عواصـــف الارواح
بمحمـــد وزر الـــورى وبمـــا لـــه ... فى كـــل يوم نـــدا ويـــوم كفـــاح
فرع سيحكـــى أصله ولقـــد حكى ... بمقاصـــد قد ســـددت وصـــلاح
تأبى الخلافة من سوى أكفائهـــا ... والجـــد غيـــر مقابـــل بمـــزاح
عشيت بنوركـــم البلاد فمـــن بها ... أغنى عـــن الاصبـــاح والمصبـــاح
سكنت ببيعتـــه القلوب ولم تـــزل ... تهفو مـــن الاشفـــاق دون جنـــاح
عـــم السرور بهـــا البسيطة كلها ... كالصبح فاض على ربـــى وبطاح

---

(1) من الملحق المذكور . ويؤكد كونها فى المنصور البيت السابع الذى يناظره قوله من اخرى فيه :
بناصرهـــا المنصور تاهـــت خلافـــة ... تناسبـــه فى حسنـــه ويناســـب

لا زلت للاعياد تمنح بهجة   يعيى سناها أعين اللماح (1)

وهكذا نشعر بفتور الشاعر فى هذه الابيات وتكلفه بتلك الصور التى طالما لاكها فيما سبق له وكذلك نجده يقول فى أخرى بمناسبة هذه البيعة من قصيدة طويلة كما يقول ابن عذارى :

صنع جميل جل عن ان يوصفا   نال الوجود به كمالا واكتفى (2)
هى بيعة أحيا الاله بها الورى   وحما بها دين النبى المصطفى
سبقت قلوب الخلق أيديهم بها   ورجا الزمان بعقدها أن يسعفا
كل يمد يد الضراعة راغبا   فى نيلها مسترحما مستعطفا
جمعت صلاح الدين والدنيا معا   وغدا بها شمل العلى متالقا
ما من تقى مومن الا وقد   سرت له نفسا وهزت معطفا
لبى مناديها بقلب مخلص   متبركا بحضورها متشرفا
انست مآثره مآثر يعرب   وسمت بقيس فى العلاء وخندفا
فت المدائح فالبليغ مقصر   ولو انه نظم الكواكب احرفا (3)
لازلت بالملأ العلى مؤيدا   ولصرف دهرك كيف شئت مصرفا

فهذه الابيات كليشى تطبع بها هذه المناسبات الرتيبة قلما نجد فيه جديدا ثم يحاول أن يستوى فيقول هادرا فى فتح منورقة عام 599 ، كما فى البيان لابن عذارى :

أطاعك صرف الدهر فى مهج العدا   واصدر عما شئت فيهم واوردا
بعثت أمام الجيش جيش مهابة   اقامهم فى كل ارض واقعدا
سعودك نبل لو قصدت به السهى   لكان على بعد المسافة مقصدا
تركت بقايا السيف خلف حصاره   رمادا تهادته العواصف رمددا

---

(1) وهى قصيدة تنظر الى سينية ابى تمام فى أحمد بن المعتصم ، كما فى هذه :
فرع نما من هاشم فى تربة   كان الكفىء لها من الاعراس
بالمجتبى والمصطفى والمشترى   للحمد والحالى به والكاسى

(2) تنظر الى قصيدة ابن هانىء فى مدح المعر الفاطمى :
قد صار بى هذا الزمان فأوجفا   ومحا مشيبى من شبابى أحرفا

(3) يشير الى البيت :
ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها   عقود مدح فما ارضى لكم كلمى
والقصيدة أيضا من البيان المعرب .

جرى بهـم الامهال شأوا مغربـا — وأعمتهم عن رشدهم فسحة المـدا
هو الفتح أعيى من أطال مرجـزا — وفـات مداه مـن أطال مقصـدا
قضى الله أن يحظى به أسعد الورى — فكـان أميـر المومنيـن محمـدا

وكذلك نجده يحاول أن يرتفع فى أخرى قالها بمناسبة فتح ميورقة واخذها من يد ابن غانية بنفس السنة كقوله فى هذه الأبيات :

لك النصر حزب والمقادير أعـوان — فحسب أعاديك انقيـاد واذعـان
وما تعصم الاعداء منك حصونهـا — ولا الاسد خفان ولا العصم ثهلان
انابت الـى أمر الالـه ميورقـة — فليـس عليهـا للشقاوة سلطان
هنيئا لـك الاعلان بالحـق بعدما — تمادى لها بالافك والزور اعـلان
غرائـب سنتها السعـادة لم يكن — ليحسبها تجرى على الفكر انسان
فبعدا وسحقا لابـن اسحق انـه — مطيع لاحلام الكرى وهو يقظـان
سـواء لديه مـن غبـاوة طبعه — هـلاك ومنجـاة وربـح وخسران
فمن حيث رام العـز جاءته ذلـة — ومن حيث رام الحظ لاتاه حرمـان
يرى الارض ذات الطول والعرض حلقه — وكـان له فيهـا مكان وامكـان
ويهوى لقـاء الموت لمـا أضافه — الى نـوب تنتابه وهـى الـوان
به لا بظبـى بالصريمـة أصفـر — لقد طاح منه مارد الانس شيطـان
تصامم عن وعـظ الزمان بقلبـه — ومن دونـه عند الالباء سحبـان
وكـان له فيمـا تقـدم زاجـر — ولكن ذوو الاهواء صـم وعميـان
وهل هو الا من أناس تهافتـوا — فراشا على اسيافكم وهى نيـران
عصوا دعوة المهدى وهـى سفينة — فأغرقهم طغيانهـم وهو طوفـان
رغا فوقهم سقف السماء فأصبحوا — كأنهم فى عالـم الارض ما كانـوا
وما الجن ممن يرعوى عن تمـرد — على حالـة لولا النبى سليمـان
ولما دهى من سحر فرعون ما دهى — أتيحت عصا موسى له وهى ثعبان
لقد ألبـس الله الخلافـة بهجـة — بملـك به يزهـى الوجود ويزدان
بأبلـج أمـا شيم نـور جبينـه — فيمـن وأمـا حبـه فهو ايمـان
تعـم أياديـه ولكـن نجـاره — تخـص بـه دون البريـة عدنـان
مدائحـه فى الحـال عز ورفعـة — وفوز عظيـم فى المآل ورضـوان
تهلـل وجهـا واستهـل أناملا — فأرضى المعالى منه حسن واحسان
اذا ما تجلـى أو جرى ذكر مجده — فللـه ما تعطـى عيـون وآذان

كأن جميـــع الحسن خط بوجهـــه كتابا له فى صفحـــة البدر عنوان
اذا مـــا تروى ناظر من روائــــه تمنـــى اليه عـــودة وهو ظمـــآن
انا السابق المربى على كل سابق وللشعر ميدان رحيب وفرســـــان
وانى مع الاحســـان عنكم مقصـــر ولو كان فى عونى زياد وحســـان
وما الشعر الا السحر غير محـــرم والا فما تغنـــى قـــواف وأوزان
وما كل نجـــم كالدرارى شهـــرة ولا كلهـــا فى رفعـــة القدر كيوان
سعودك من يرتـــاب فيها وللورى عليهـــا دليل كل يوم وبرهان (1)

وهكذا نجد الشاعر فى هذه القصيدة قد تأنق أبلغ تأنق ، وبالغ أقصى مبالغة ، وابدأ وأعاد فى التمجيد والاشادة والتنويه ، فأفرغ كل ما فى جعبته من سهام الامداح التى طالما وجهها الى اغراضه ، طيلة نصف قـــرن تقريبا ، واننا لنحس به قد ركبه الغرور بفنه فصار يصىق فى يده كالبحترى ويصيح ، مما يتفجر به ، فى الابيات الاربعة التى يتحدى بها ضمنيا زملاءه فيقول أنا أنا ، وهذا شعرنا فدونكم الميدان فنتبارى ، والشعر هو السحر الحلال ولكن شعرى عصا موسى « تلقف ما يافكون » واليكم البرهان ، فان كانت اشعاركم نجوما فشعرى الدرارى منها وما كل قافية ولا وزن ، يضاهى القوافى والاوزان التى صغتها . ومع هذا يستعمل ذلك التواضع المصطنع فيظهر به أمام سيده :

وانى مع الاحسان عنكم مقصـــر ولو كان فى عونى زياد وحســـان

والحق انها عامرة ، بفضل ما فيها من نظر الى قصيدة ابن دراج التى قالها فى سليمان المستعين واستهلها بقوله :

هنيئا لهذا الدهر روح وريحـــان وللدين والدنيـــا أمـــان وايمـــان

وقصيدة له اخرى فى خيران العامرى ومطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران وبشراك قد آواك عـــز وسلطـــان

وقد ادرك صفوان بن ادريس نظر الجراوى الى ابن دراج فى قصيدة له اخرى ، وكان نظره اليه فى البيت :

---

1) القصيدة من الملحق المذكور الا البيت الاخير فهو من البيان المعرب الذى اقتصر على ابيات ثمانية من القصيدة .

الا هل الى الدنيا سبيل وهل لنا سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

قال الجراوى فى تلك القصيدة :

وغدا على مشروعة رهن الردى فالجو قبر والهوى أكفان

وقد انطلى على بعضهم ، فاعتقد أن هذا البيت من بحر القصيدة التى نحن بصددها ، مع أن هذه من الطويل وتلك من الكامل وبون بينهما (1) والملاحظ أن قصيدة الجراوى بدأت بقوله « لك النصر » وبدأت قصيدة ابن دراج فى خيران بقوله « لك الخير » فالبداية متشابهة .

وقال أيضا يهنئه بفتح منورقة :

شاء الاله حماية الاسلام فأعز نصرته بخير امام
بسمى خير الخلق والنور الذى كفلت بدايته الى الاتمام
جمعت ببيعته القلوب على الرضى واستبشرت بمنال كل مرام
وصل السرور بها وصار مواصلا للجد فى الانجاد والاتهام
واعتز دين محمد بمؤيد ماضى العزائم للشريعة حام
لولا انتظام امورنا بوجوده لغدت مبددة بغير نظام
اضحت خلافته السعيدة للورى وزرا من الاعداء والاعدام
ذخر الزمان من الفتوح غرائبا لزمانه المتهلل البسام
لا مثل فتح منورقة (2) فهو الذى ابقى السرور لمنجد وتهام
مطلت به الايام حتى استنجزت بسنان خطى وحد حسام
وبعزمة مشهودة وعصابة مشهورة التصميم والاقدام
جمح ابن غانية فكف جماحه يوم أدار عليه كأس حمام
ناهيك من يوم اغر محجل متميز عن سائر الايام
وعظت بمصرعه الحوادث عنوة ناهيك من وعظ بغير كلام
فليهنىء الدنيا وجود خليفة جزل المواهب سابغ الانعام
تغنيه عن قود الجيوش سعادة تقتاد ما شاءت بغير زمام

1) انظر مشاهير رجال المغرب حيث تجد « وله أيضا من قصيدة يظهر من صنيع صفوان أنها غير قصيدة الصابونى » فهذا « الاستظهار » ما كان الا لذلك « الانطلاء »

2) بالاصل وكما فى « البيان المغرب » ميورقة ولكن المصحح من التاريخ أنها كانت « منورقة »

نيطت أمـــور الخلق منـــه بحازم ... متكفـــل بالنقـــض والابـــرام
سام الى الرتب التـــى لا فوقهـــا ... نجل الاكابر مـــن سلالة ســـام
ورث الخلافة عـــن خلائف كلهـــم ... علـــم الهدى الهادى الى العـــلام
لبست بـــه الدنيـــا جمالا كنهـــه ... اعيى على الافكـــار والاوهـــام
خير الاصول مشى على آثارهـــم ... خـــير الفروع وحـــاز أى مقـــام
ظهرت شمائلهم عليه ولم تـــزل ... فى الشبل تظهر سيمة الضرغام (1)
فكأنهـــا دار الســـلام نعيمهـــا ... متابـــد ودخولهـــا بســـلام
يا عصمـــة الدنيا نـــداء مؤمـــل ... صبحـــا يروحـــه مـــن الايـــام
فارقـــت ما قـــد كنت فيه كأنـــه ... طيـــف راتـــه العيـــن بالاحـــلام
فعسى أرى وجه الرضى فلطالمـــا ... أملـــت رؤيتـــه مـــع الأعـــوام
بالطبع حاجتنـــا اليك وهل غنـــى ... يلفى عـــن الأرواح للأجســـام
لازال سعـــدك مسعـــدا متصرفـــا ... فيمـــا تريـــد تـــصرف الخـــدام

ولاشك أننا لاحظنا على الابيات الاخيرة من القصيدة ، أن الشاعـــر صار يقصى عن البلاط وعن المجالسة بالسنوات الأخيرة (2) فتستولى عليه الآلام .

وباستثناء النونية فما قلناه فى هذه الامداح، نقوله فيما تلاها، فهى لاترتفع عن ذلك المستوى ، وتلزمه غالبا ، كما نجد فى هذه ، التى قالها سنة 604 بمناسبة ابلال الناصر من وعكته التى أصيب بها فى مكناسة (بعد فاس) فعاد الى عاصمته ، وقد ارتدت اليه العافية ، فقال الجراوى :

اطلـــع البدر منـــك بدرا منيـــرا ... مـــلأ السبعـــة الاقاليـــم نـــورا
واتانـــا الزمـــان منـــك كمـــالا ... لم تشاهد له العصـــور نظيـــرا
اول أنـــت فى التقـــدم والسبـــ ... ـــق وان كنـــت فى الزمان أخـــيرا
مـــلأ الله كـــل قلـــب وعـــين ... نضرة من كمالكم وســـرورا (3)

---

1) هدان البيان غير واردين فى البيان ووردا فى الملحق الذى اقتصر على أبيات تسعة من القصيدة
2) بل ان بوادر ذلك ظهرت أيام المنصور حيث نجد الاشارة اليه فى قوله من قصيدة مـــدح تقدمـــت :

خليفـــة اللـــه رحماكـــم لمغتـــرب ... ناء ومـــا ان نـــأى دارا ولا اغتربـــا

3) من قوله تعالى : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » .

- الى ان قال :

ايـن منك الملوك عزما وحزمـا ونـدى فائضـا وخيرا وخيـرا
كنـت فى الغيب للخلافـة أهـلا وخليقـا بنيلهـا وجديـرا
شـاء اسعادنـا الالـه تعالـى يـوم تفويضـه اليـك الأمـورا
انمـا أنت رحمـة الله عمـت ساكنى الارض منجـدا ومغيـرا
أوجد اللـه منك للديـن عـزا ومعينـا ونـاصرا وظهـيرا

الى قوله :

يا امـام الهـدى مـلأت جمـالا وجـلالا عيوننـا والصـدورا
كـل نور للشمـس والبدر يبـدو انـت أصل لـه ومنك استعيـرا
دمـت للديـن عصمـة ومـلاذا ولأعدائـه مبيـدا مبـيرا

فهذه ان ارتفعت بشىء فانما هو تلك المبالاغات التى يطرب لهـا المعجبون وقد تكررت مرارا فيما سلف من الامداح وكذلك الشأن فيما تلاها (1) كما قال فى مطلع قصيدة طويلة يصفها بذلك ابن عذارى :

أضـاء لنـا بغرتـك الزمـان والبسنـا تقلبـك الأمـان
وجاءتنـا المنـى متواليـات على نسـق كما انتظـم الجمـان

وقال أيضا فى مطلع أخرى طويلة كذلك :

شـد الالـه بكم للدين اركانـا وأذعنـت لكـم الايـام اذعانـا
وارتاض كـل جموح فى عنانكـم من بعد ما أعجز الرواض أزمانـا

ومن شعر الجراوى فى محمد الناصر ، قوله مرتجلا فى وصف بعض ما أخضع من البلاد :

كانت من الشمس الصعاب مراضها عـزم فرض الراسيـات وذلـلا
لبست حدادا مـن دخان حريقهـا لما تخـرم جمعهـا واستأصـلا

هذه نماذج من أمداح الجراوى للخلفاء الموحدين ، ويمكن أن نلخص المثل العليا والاوصاف التى رددها فى ذلك بما يلى :

---

1) وهذه الابيات واردة بالبيان .

الجود ، وهو عنده فى المرتبة الاولى

السعد والاسعاد فى جميع قصائده تقريبا

النسبة القيسية القرشية لهؤلاء الخلفاء

الفضائل لا يمكن أن يحصرها نظم ولا نثر

النور الذى تستمد منه الشمس والقمر

القدرة التى لا تعجزها النجوم لو طولبت منهم ، فالدهر فى ركابهم ، والانس والجن والملائكة فى خدمتهم

الظفر والنصر يقدمهم والرعب من بعيد يقهر أعداءهم .

هذه هى العمد التى اعتمد عليها مدحه الذى امتد نفسه طيلة خمسين سنة أو يزيد ، وغالبها مطروق لشعراء المدح ، وفيهم — كما تقدم — ابن حبوس ، الذى اعتمد على القدرة الفائقة والجود المفرط ، والفضائل عامة بما فيها العلم ، لكنه لم يذكر قضية النسب القيسى ، الا عند هجو أبى جعفر بن عطية ، ولا السعد والاسعاد ، أو النور الذى تستمد منه الشمس وذكر الصفة الاخيرة فى قصيدته الجيمية ، حيث وجدنا ماجوج يشقى فى سده ذعرا ورهبا منهم .

والجراوى يحتفل بالصور كثيرا كما نجد فى البيتين السابقين :

ان الامام هو الطبيب وقد شفى	علل البرايا ظاهرا ودخيلا
حمل البسيطة وهى تحمل شخصه	كالروح توجد حاملا محمولا

بخلاف ابن حبوس المحتفل بالمعنى عموما ومن محاسن صنعته — كما يقول ابن سعيد — قوله :

جادوا وصالوا وصادوا واحتبوا فهم	مزن وأسد وأصقار وأجبال
ان سابقوا سبقوا أو حاربوا غلبوا	أو يمموا وصلوا أو املوا نالوا

وقوله :

غزوا فما امتنعوا صالوا فما انتفعوا	كروا فما دفعوا فروا فما فاتوا

ومن ناحية الاسنمداد ، فقد استعان الجراوى كثيرا بالقرآن ثم الحديث

والسنة النبوية ، على عكس ابن حبوس ، وركن الى الالفاظ أكثر من ركونه الى المعانى ، عكس ابن حبوس كذلك ، وكلاهما سخط على وضعيته التى انتهى اليها ، لكن هذا كان نثرا من الجراوى ، وشعرا من ابن حبوس ، وكلاهما هجا ، ولكن هجو هذا كان شخصيا ، وهجو ابن حبوس كان من اجل السياسة وحدها وكلاهما يرتكب مبالغات لا يمكن أن تجد لها مبررا فى ادعاءات الشعراء وتخريجات النقاد من جهابذة الكلام الادبى .

والعجب من الجراوى ، وهو فى شيخوخته ، ينظم عدة قصائد مطولة ، فى مناسبة واحدة ، وهى التهنئة بابلال من مرض ، وكان عليه أن يأتى فى كل منها بشىء كثير او قليل ليس فى الاخرى .

واذا كان الجراوى قد زوحم بأبى بكر بن مجبر فى عهد المنصور ، فاننا نجده هنا قد زوحم بأبى زيد عبد الرحمن الفازازى الاندلسى كذلك ، وهو القائل فى هذه المناسبات ايضا :

شمس الضحى من سنا مرآك مقتبس ... فأى قصد عليك اليوم يلتبس

وبهذا يبدو ان مدح الخليفة بالنور الوهاج ، الذى دونه نور الشمس ، كان مرغوبا فيه ، فأبدأ الشعراء فيه واعادوا ، ولم يملوا بذلك .

هكذا كان الجراوى مداحا للخلفاء الموحدين ، أما فيما عدا ذلك ، من شعر ونثر فنى فنجد له فى الغزل بيتين قالهما وهو بتونس مجاريا غيره من الشعراء وهما : (1)

وعلوى الجمال اذا تبدى ... أراك جبينه بدرا أنارا
أشار بسوسن يحكيه عرفا ... ويحكى لون عاشقه اصفرارا

هذا ما حفظ للجراوى فى الغزل وهو اول ما نعرف عن شعراء المغرب فى هذا النحو منه بعدما عرف قديما فى الشرق ثم فى الاندلس .

أما الهجاء فقد كان الجراوى حطيئة عصره، نال الناس بهجوه، كما نال قبيله بذلك الهجو، فهجا من كبراء عصره القاضى ابا حفص عمر بن عمر الاغماتى وكان هجوه له يصل الى النيل من رجولته والحط من أدبه والشعر منه

---

1) نفح الطيب بعد « زاد المسافر » لصفوان الذى جاء فيه انه استنطقه بذلك شاب بتونس .

على الخصوص ، اذ قال فى ذلك (1) :

نبغـــت عمـــرة بنـــت ابن عمـــر … هـــذه فاعتبـــروا احدى الكبـــر
قـــل لها عنـــى اذا ما جئتهـــــا … قولة تتـــرك صدعـــا فى الحجـــر
هبـــك كالخنســـــاء فى اشعارهـــا … أو كليلى هـــل تجاريـــن الذكـــر

فأجابه الاغماتى بأبيات مهذبة فى ظاهرها ولكنها مقذعة فى باطنها ، مما تضمنه البيت الاخير منها وهجا الشيخ ابن الياسمين بقوله :

است الحبارى وراس النسر بينهما … لون الغراب وأنفاس من الجعـــل
خذها اليـــك بحكم الوزن اربعـــة … كالنعت والعطف والتوكيد والبـــدل

فلم يكتف أن يصوره تصويرا « كاريكاتوريا » حتى أضاف اليه الروائح الكريهـــة .

وقال فى هجو رجل كان اسمه خلوف :

زعمـــوا ياخلـــوف انـــك خلـــف … صدقوا فيـــك من خلـــوف الســـوف
ولهـــذا دعـــوك بالجمـــع فـــردا … جمع خلـــف بلاخلاف خلـــوف (2)

وقال فى أهل فاس :

مشى اللؤم فى الدنيا طريدا مشردا … يجوب بلاد اللـــه شرقا ومغربـــا
فلمـــا أتـــى فاســـا تلقاه أهلـــه … وقالوا له أهلا وسهلا ومرحبا (3)

ولم يكن يكتفى بالهجو ، شعرا ونثرا ، بل كان طبعه يوحى اليه بالدس

---

1) جاعلا اسمه عمرة ، بدل عمر ، مما جعل صاحب المشاهير يدعي أنه يريد بنتا له شاعرة اسمها عمرة ، مع أنه يقصده نفسه بذلك ، كما يتضح من رد الاغماتى عليه بأبيات جاء آخرها قولـــه :
بفانـــا الحســـود ولسنـــا كمـــا … يقـــول ولكـــن كمـــا يعلـــم
بل هناك بيتان آخران من نفس القطعة صريحان فى هذا القصد وهمـــا :
قينـــه فى فـــاس تدعـــى بعمـــر … ذات حســـن ودلال وخفـــر
نصـــف الســـن ولكـــن نرتجـــى … رد مـــا فـــات بتسويـــد الشعـــر
نقلهما الفاسي عن الذيل والتكملة .
وفى الازهار أنه قال الابيات اثر انشاد الاغماتى ميميته الآتية فى الخليفة يوسف .
2) من زاد المسافر وقد علق المحقق عليه بأن المهجو هو ابوبكر بن خلوف أحد الفقهاء والمقرئن الاندلسيين ناقلا عن التكملة فى ذلك .
3) ذكرهما ابن خلكان ودلك فى ترجمة أبى يعقوب يوسف الموحدى كما ذكر فيها البيتـــين اللذين نوه بهمـــا .

والتعريض ، وهو فى خفية عن الأبصار ، من ذلك انه وجه الى الكاتب ابن عياش ، بأبيات حملها امرأة اليه ، بعد مقتل ابن الياسمين المذكور ، فلما قرأها ابن عياش وجدها تعرض به هكذا :

هـذا ابـن حجاج تفاقـم أمـره وجرى وجـر لحد غايته الرسـن
حتى غدا ملقـى ذبيحا حاكيـا للناس رقدته اذا هجر الوسـن
فليحـذر الكتـاب ما قد غالـه وأخص بينهم الفقيه أبا الحسـن

وبهذا عرض وكان تعريضه مؤذيا بذلك الكاتب الذى كان يضاهى أبا جعفر ابن عطية فى مكانته وسطوته وجاهه عند الدولـة ، وبالرغم من من كونه بعث الأبيات مختفيا وراء الاستار ، فان ابن عياش عرف وجهتها ، وقال ، بعد ما سئل عن قائلها ، ياسبحان الله ؟ وهل صاحبها غير الكراوى، الذى طبعه الله على أن لا يضيع فرصة من فرص الاذاية ؟ وكان ابن عياش مصيبا فى هذه النسبة وقوله فيه يدل على شهرة الجراوى بالهجاء والاذاية للناس عامة ، وفيهم قومه ، كما سنرى بعد

وممن تعرض له من الكبراء ، ابن خيار الجيانى ، الذى كان قد سعى فى محنة ابن عطية الكاتب ، فقال فيه (1) :

أيا ابـن خيـار بلغـت المـدى وقد يكسـف البدر عند التمـام
فأيـن الوزيـر أبو جعفـر وأيـن المقـرب عبد السـلام

ومن هؤلاء العظماء الذين نالهم بهجوه الوزير ابن يوجان ، فكان مما خاطبه به قولـه (2) :

لقد كنت تحكى فى التجهم مالكـا وكانت بك الاحوال تحكى جهنمـا
فما أعظـم البشرى بعودك خامـلا وغيرك قد أضحى النبيه المقدمـا

وهذا النوع من هجو رجال الدولة الكبار من كتاب ووزراء ، كان يتسم بالتذكير وسوء المنقلب ، كما تقدم فى ابن عياش وابن خيار ، حيث ذكر الاول بذبحة ابن الياسمين ، وذكر الثانى بالمقرب ابن عبد السـلام

---

(1) كما فى « الغصون اليانعة » ونسبهما ابن ادريس فى « زاد المسافر » لليكى الاندلسى الهجاء المفحش ولغيرها .

(2) الغصون أيضا وفات هذا المصدر الاستاذ الفاسى ، ويريد بمالك الملك المذكور فى الآيـة « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك » .

الكومى الذى لقى مصرعه كذلك ، بعد ما كان حظيا مقربا لدى الخليفة عبد المومن ، فلقى النكبة التى لقيها ابن عطية قبله مباشرة .

وامداحه للخلفاء نفسها كان جانب كبير يعتمد على هجو خصومهم كما راينا فيما سلف .

اما هجوه لقومه بنى غفجوم ، فقوله :

يا ابن السبيل اذا مررت بتادلا لا تنزلن على بنى غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى الا مجاوبة الصدى للبوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللوم
لاحظ فى اموالهم ونوالهم للسائل العافى ولا المحروم
لا يملكون اذا استبيح حريمهم الا الصراخ بدعوة المظلوم
ياليتنى من غيرهم ولو اننى من أهل فاس من بنى الملجوم

وهكذا نال من قومه ، وعرج على بنى الملجوم من فاس ، فأصابهم فى لمحة ، بكل مكروه ومذموم ، والغالب انه نظر فى سياقه هذا الى قول الحماسى :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذا لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
لكن قومى وان كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن اساءة اهل السوء احسانا
فليت لى بهم قوما اذا ركبوا شنوا الاغارة فرسانا وركبانا (1)

وهذه الابيات كانت أول ما افتتح به أبوتمام مختاراته الشعرية للجاهليين وغيرهم ، وسماها « ديوان الحماسة » فقلده الجراوى ، كما سنرى وفيما تقدم من شعره وجدناه قد استعان بأبيات من هذا الديوان .

وحينما نتناول بعد هذا لونا آخر من شعر الجراوى فهو اللون القاتم الذى سبغ حياة الشاعر ، سبغتها الاخيرة ، وقد أكل عليها الدهر وشرب ، وطال عليه الأمد ، وهو فى خدمة سادته الموحدين ، الذين كان فى ركاب الاربعة الأول منهم ، عبد المومن ، فابنه أبى يعقوب يوسف فابن هذا ، أبى

(1) أما أبيات الجراوى فهى فى نفح الطيب وازهار الرياض للمقرى وذكرت منها ثلاثة فى الفصول.

يوسف ، فابنه محمد الناصر .

كان الشاعر خلال هذه الحقبة الطويلة ، التى تمتد أكثر من خمسين سنة ، شاعر الخلافة ، كما سماه بذلك ابو بحر صفوان بن ادريس ، فكان لسان الدولة النطق فى كل مناسبة ، والمسجل ، وحده لملاحمها ومواقفها العديدة ، وهو ما لم يتقدم له مثيل ، فى شعراء المشرق ، وليس له مثيل ، بالمرة فى شعراء الاندلس والمغرب ، خمسون سنة من القول ، تفنيه وتقضى على كل مداد يمده ، مهما كان الانسان على قدرة خارقة للعادة ، ولكن الجراوى ، كان عليه ، أن يحقق المستحيل ، وأن يصمد للحوادث والاحداث ، بالرغم مما طرأ على موقفه من فتور ، يلوح لنا به فى تلك القصائد التى قالها على عهد محمد الناصر ، بل وجدنا بعضا من ذلك حتى فى عهد أبيه كما قلنـا .

وفى هذه المرحلة ، نراه يلعن حظه العاثر ، نثرا فى كلمة ، قالها ، وهو يقارن بينه ، يوم كان مع عبد المومن ، بجبل طارق وهذا يطريه ، وبينه وقد انتهى الى أرذل العمر ، ولاصق أراذل الناس وسادتهم .

نعم فى هذه المرحلة ، نصيخ الى الشاعر ، وهو ينشدنا فى صـوت متهدج كئيـب (1) :

يا سيدى جاءتك رقعة شاعر ... شهدت له الشعراء بالاحسان
لو أدرك النعمان فى أيامه ... لرأى له فضلا على الذبيانى
أو كان يوما فى بنى حمدان لم ... تبهج بأحمدها بنو حمدان
لكنه قد أدركته حرفة ... أدبية مزجته بالعبدان
فغدا مازة كل مصفوع القفا ... صفر اليدين ممزق الأردان
فاذ نظرت الى قفاه حسبته ... نبتت عليه شقائق النعمان

هذه النهاية التى بالغ فى تصويرها ، هى النهاية التى كان ابن حبوس قد انتهى اليها ، الا أن الشاعرين مختلفان فى طبعهما ؛ الشاعر ابن حبوس

(1) « زاد المسافر » أما كلمته النثرية فهى مذكورة فى « الغصون اليانعة » وفاب هذا المصدر الفاسى وهى بنصها « تعسا لطول العمر الذى أخرنى لمعاشرة هؤلاء الاندال ! وعهدى بالخليفة عبد المومن يقول لى فى جبل الفتح : يا أبا العباس « انا نباهى بك أهل الاندلس » وهى كلمة قال مثلها المعز عن ابن هانى ، بالنسبة للمشرق .

سوداوى ثائر متمرد على القيم ، اذا كانت مثلها قد صدمته أو وقفت حجرة عثرة فى سبيله ، فهو اذ كانت كذلك يلقى عن عاتقه صخرة التحمل ، ويقذف بها على المجتمع ، بما فيه من خيرين وشريرين على السواء ، أو ينساب فى غمرتهم ويداهنهم ويلبس جلدتهم أما الجراوى فيقف متضرعا حائرا، يستجدى طويلا ويستعطف ، واخيرا يذرف عبرته ، وهو متحمل للهوان ، ظاهرا ، متلظ منه باطنا وتحسر على ما مضى ، متندما على ما وقع فيه ، ولا شك ان ذاكرته طرقته ، بما لاقى النابغة من النعمان ، من هوان وبما لاقى المتنبى من الحمدانى من حرمان وان تستر عنه ،، قالوا ان الابيات ، كانت له مع احد المتبذلين ، ولكنها فى الواقع لها أبعادها الحقيقية ، وبواعثها الداهمة المريرة ، وكذلك القول ، فى البيتين ،، اللذين ، وقع بهما فى اسفل قصيدة استجداه بها شاعر (1) :

يا مـن يجـدى لمـن يجـدى اسرفـت واللـه فى التعـدى
انـا اجـدى الانـام طـرا وانـت تبغـى النوال عنـدى

الشاعر ، قالهما ، وقد اعوزته الحاجة ، وغاض معين النعمة التى كانت تفيض عليه ، من ذى قبل ، فأصبح آنذاك يستجدى الانام طرا ، فهذه العبارة فى اللوحة الباهتة ، التى ترسمه ، شيخا محطم البنيان ممزق الاردان فقيرا صفر اليدين ، كما قال فى تلك الابيات ، ويذكرنا بما قال ابن حبوس عن الشاعرين ، اللذين عنى بهما نفسه :

بسطـا الأيـدى حـتى منعـا الطيـر الوقوعـا
واستماحـا الشيـخ ذا الكبـ ـرة والطفـل الرضيعـا

انها مأساة هؤلاء الشعراء الذين يتقدمون الى الافناء ، ويتخطون الاعتاب ، فيعلونها وهى تنزل بهم الى الدرك الاسفل فلا يجدون لهم نصيرا، لنفاقهم الذى كان جزاؤهم عليه جزاء وفاقا ، ولكونهم « يهيمون فى كل واد » كما قال الله فيهم .

لقد قصر الجراوى مدائحه عليهم ولم يمدح غيرهم (2) ، كما فعل ابن حبوس الذى قصد بمديحه حتى من لم يسبق له معرفة به كابن الملح .

1) زاد المسافر
(2) فيما نعلم وان ادعى انه صار يستجدى الناس طرا ، كما تقدم .

سوى هذه الموضوعات المتقدمة ، فللجراوى منظومة فى رثاء الحسين ، والرثاء فى حد ذاته ، قليل فى أدبنا ، وأول ما يصادفنا منه هذه المرثية التى اقامها الجراوى ، على مصاريع معلقة امرىء القيس ، بحيث جعلها مخمسة، بهذه المصاريع .

ومراثى الحسين بعد مضى الازمان تقليد شيعى ، ما زال أصحابه يقومون به ويحتلون المنابر لانشاد قصائده وخصوصا ليلة عاشوراء ، فى البلاد المتشيعة ، بل كان هذا حتى فى غيرها ، وقد شاهدته بالقاهرة ، فى سبعينيات هذا الرابع عشر .

أما تحويل مصاريع المعلقة الى هذا الموضوع ، فهو صنيع صوفى ، حولوا به خمريات أبى نواس الى الذات القدسية ، كما حولوا غيرها اليها ، والعلاقة بين التصوف والتشيع وثيقة ، وقد الف فيها كتب حافلة .

وعلى كل حال فهذه مرثية الجراوى التى يقول فيها ، حسب الحروف الهجائية التى أقام عليها المصاريع الأربعة التى تسبق مصراع التخميس ، كما نرى :

خليلى دعوى برحت بخفاء ... الا أنزلا رحل الاسى بفنائى
وهدا من الصبر الجميل بنائى ... قفا ساعادانى لات حين عزائى
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

أيترك ربع للرسالة سبسب ... تجىء به هوج الرياح وتذهب
ولا تنهمى فيه العيون وتسكب ... وتظلع أعناق الذنوب وتذهب
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ديار الهدى بالخيف والحجرات ... الى ملتقى جمع الى عرفات
مجارى سيول الغيم والعبرات ... معرف هدى أصبحت نكرات
لما نسجتها من جنوب وشمال

عذيرى من رزء بصبرى يعبث ... ومن شانىء فى عقدة الصبر ينفث
وأى مصاب عهده ليس ينكث ... كأنى اذا ما القوم عنه تحدثوا
لدى سمرات الحى ناقف حنظل

الا يا رسول الله صدرى توهجا ... لمصرع سبط فى الدماء تضرجا
فعطلت جيد اليأس من حيلة الرجا ... فتعسا لأقوام يريدون لى نجا

يقولون لا تهلــك اسى وتجمـــــل

على مثل ما امسى من الحب اصبح زناد فــؤادى باللواعــج تقــدح
ولو ان قلبــى للتجلــد يجنــــح لفاضت جفونى بالسواكــبتطفــح

على النحر حتى بل دمعى محملــى

عهود مصابى امنــت يــد فاســخ ومحكمــه لا يتقى حكـم ناســخ
فلو اشتكيــه للنجــوم البــواذخ لعالت بنعى السبط صرخة صارخ

فقالت لك الويلات انك مرجلــى

اقول لحـــزن فى الحســـين تأكدا تملك فؤادى متهما فيــه منجــدا
ولو غير هذا الرزء راح أو اغتدى لناديته قبــل الوصــول مــرددا

عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

سهام الاسى هذا فؤادى فانفذى ففى المـــى بعد الحســـين تلذذى
ومن عبرتى والثكل أروى واغتذى ويا مقلتى من أن تشحـــى تعوذى

ولا تبعدينى من جنـــاك المعـــلل

وركب اذا جاراهــم البرق يعثــر تذكــرت فيــه كربــلاء فحيــروا
وغيداء لا تدرى الاسى كيف يخطر بثثت لها بالطف ما كنــت اضمــر

فالهيتهــا عــن ذى تمائم محــول

مجلى الاسى فى ملعب الصدر برزا وماطــل ذاك الدمع وفى وأنجــزا
وحاز الاسى من قلبى الصب مركزا فغاية هــذا الحــزن أن يتحيــزا

بشق وشـــق عندنا لــم يحــول

غرائــب فى عشواء ثكلى خابــط وسهدى الى ورد المدامــع فارط
وللقلب فى مهوى الوجيب مساقــط تعدت شجون فى القضايا قواســط

علي وآلــت حلفــة لــم تحــلل

اما لعهــود الهاشميـــين حافــظ فبالطــف يــوم للرسالــة غائــظ
على ثكله قلــب الكريم محافــظ فيامهجتى انى على السبط فائــظ

فسلى ثيابى مـــن ثيابك تنســل

نجيع حفيد المصطفى كيف يسفــك ورق بنيــه بعــده كيــف يملــك
فيا كربلا والكرب لى متملـــك ليكفيك منى أن ذكرك مهـــلك

وانك مهما تامــرى القلب يفعــل

أيا حسرتى يـــوم انتأوا وتحولـــوا الى كربـــلا مأوى القلـــوب تنقلوا
ليسبوا على حكم الضلال ويقتلوا فيارزءهم صمم ومثلـــك يفعـــل
بسهميك فى أعشـــار قلب مقتـــل

أيا فاسقا قـــاد الغرور شكائمـــه فأورد فى صدر الحسين صوارمـــه
تهيـــأ ليوم الحشر تجرع علاقمـــه فما لـــك منجى من خصومة فاطمه
وما ان أرى عنك العماية تنجـــل

تبرأ مـــن قلـــب بلذتـــه اعتنـــى وآل رسول الله فى شر مجتنـــى
اذا ما اقتضوا وردا أحيلوا على القنا وعترة حرب فى جنى روضة المنى
غذاهـــا نميـــر الماء غير المحـــلل

عصوا فى احتمال الراس ياويح من عصى وخلوا حسينا فى الثرى متقمصـــا
لكى يدركوا عند ابن حرب تخلصا كأن سنا راس الحسين على العصا
منـــارة ممســـى راهـــب متبتـــل

فؤادى صرح بالجـــوى لا تعـــرض ويا دمع ذهب وجنتى لا تفـــضض
ويا سهرى من طيب نومـــى تعوض فما عمر احزانـــى عليه بمنقـــض
وليس فؤادى عن هواها بمنســـل

مصاب حسين راس مال الفجائـــع فلا تـــك فى سلوان قلبى بطامـــع
وقرطس بسهم العتب غير مسامعى ثكلتك من ناه عـــن الحزن وازع
نصيح علـــى تعذاله غير مؤتـــل

الى الله من عبد على سيد بغـــى فغادره تحـــت العجـــاج ممرغـــا
ينادى رسول الله فى أزمة الوغى اجرنى مـــن باغ بعدوانه طغـــى
علـــي بانـــواع الهموم ليبتلـــى

الا انـــه يوم عـــلى الطـــف آزف به نكـــرت لابن الرســـول معارف
وساعـــده تلـــب هنالك واجـــف فنادى ظلام الظلم والنحر راعف
الا ايها الليـــل الطويل الا انجـــل

أيا حـــادى المختار جلـــدى يمزق بعـــدوان قـــوم غيهـــم يتفـــرق
وكيف تحن اليوم أو كيف تشفـــق قلوب عدى عن موقف الوعظ تزهق
كجلمود صخر حطه السيل من عل

ايا امـــة الطغيان ما لكم حـــس   على م بناء الدار ان هـــدم الاس
اترجون اصباحا وقد غابت الشمس   وزل بكم عن دينكم ذلك الرجـــس
كمـــا زلت الصفـــواء بالمتنـــــزل

رويتم وضج السبط فيك تعطشا   فسقيتمـــوه ظالمـــين دم الحشـــا
الا رب حقد فى صدركم فشـــا   فاغريتم للصارم العضب ارتشـــا
بجيد معـــم فى العشريـــة مخـــول

قضى الله ان يقضى على القمر السها   فراشة سوء زلزلت عصبة النهى
فشعر الحســـين بالنجيع تموهـــا   ترى الدم فى تلك الذوائب مشبهـــا
عصـــارة حناء بشيـــب مرجـــل

بقايا ضلوعى فوق جمر الغضا تطوى   ودمعى يسقى حر جمر فلا يـــروى
لرزء قضى ان يغلب الاضعف الاقوى   وينزل اهل الفسق فى اربع التقوى
نزول اليمانى ذى العياب المحمـــل

فرمت به قلبا عـــن الصبر اجفـــلا   تحمل من برح الجوى ما تحمـــلا
ولا ناصر يعدى على جور كربـــلا   على أن لـــي دمعا اذا ما تسيـــلا
يكب على الاذقان دوح الكنهبـــل

لمثلك مـــن رزء عصيت عزائيـــا   واعطيـــت اشجانـــى قياد بكائيـــا
فلو اننـــى ناجيـــت طودا يمانيـــا   لأذرف دمعا افضـــح الغيم هاميـــا
فانزل منه العصم من كل منـــزل

لأتتحلـــن الدهر حـــب بنى عـــلي   واتلو مراثيهم عـــلى كـــل محفـــل
عسى جدهم يوم الجزا ان يمد لـــى   بغفـــر ذنوبـــى راحـــة المتفضـــل
فاظفـــر بالرحمى مـــن الملك العلي

فيا سامعى هذا الرثاء ترحمـــوا   على مسرف قد طال منـــه التجرم
مؤخـــر سعيـــى حبـــه متقـــدم   عـــسى يتلقـــاه النبـــى المكـــــرم
بوجـــه يرقيـــه لكـــل مؤمـــل (1)

وهكذا تنتهى القصيدة المخمسة ، المقامة شطورها على حـــــروف

1) من بحث الاستاد الفاسى « شاعر الخلافة الموحدية ابو العباس الحراوى » نقلا عـــن مخطوط لشيخنا سيدى جواد الصقلى رحمه الله واحسن مثواه .

المعجم ، المتكرر منها اللام والميم ، وربما كان التكرار الوارد بعد الياء من زيادة ادخلت غريبة على هذه القصيدة ، بدليل الشطرة :

فأظفر بالرحمى من الملك العلـــي

فهذا ليس من المعلقة المذكورة ، كما أن الشطره :

فيا سامعى هذا الرثاء ترحمـــوا

هو من قبيل الاستعمال العامى أو الشبيه به ، مما لا يصدر عن مثل الجراوى ، وهو اجدر بأن يكتب على شواهد القبور واذا كنا ممن يعجبون بالحاقات القاضى عياض على رسالة أبى القاسم ابن الجد ، فاننا نعجب من الحاقات الجراوى على مصاريع معلقة امرىء القيس ، فقد وفق فى هذا الى حد ، بالرغم من ظهور تكلف فى بعضه القليل جدا .

وسوى الشعر ، فللجراوى نثر — كما كان لابن حبوس — نلتمـــس نموذجا منه فى مقدمة تأليفه او مجموعه الذى عنونه ، بصفوة الادب وديوان العرب . وكان هذا الديوان عند اهل المغرب — كما يقول ابن خلكان — كالحماسة عند أهل المشرق ، وهو يضم أبوابا من اغراض الشعر ، هى المدح والفخر والمراثى والنسيب والاوصاف والامثال والحكم والملـــح وذم النقائص والزهد والمواعظ ، مرتبة ترتيبا زمنيا ، مما امتاز به عن مقلده أبى تمام ، الذى لم يراع شيئا من ذلك ، بل حتى الابواب تداخلت احيانا ، لكن هذا ذكر بعض المعاصرين بخلاف شاعرنا الجراوى فانه لم يذكر منهم أحدا ، على أن الجراوى خالف الترتيب الزمنى فى شىء واحد اضطره الى ذلك تبركا بالجناب النبوى ، فافتتح كتابه بالامداح النبوية ، ثم تابعها بأمداح أخرى ، جلها متقدمة عليهـــا .

وهذه مقدمة الديوان ، نأتى بها كأنموذج من نثر الجراوى الفنى :

الحمد لله على آلائه الوافرة الاعداد ، المتصلة الامداد ، والصلاة على محمد رسوله الداعى الى سبيل الرشاد ، المنقذ برسالته من مهاوى الضلال والالحاد ، والرضى عن الامام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القائـــم بالحق بعد ظهور الفساد ، الفائضة أنوار هدايته على الاغوار والانجاد ، وعن الخليفتين الامامين ، المنصورين الناصرين ، المتكفلين لدين الله بالاعانة والانجاد ، المستوليين فى كل مأثرة على الغايات والآماد ، والدعاء بتيســـير

المامول وتسهيل المراد ، ونجاح الاصدار والايراد ، لسيدنا ومولانا امير المومنين ، ابن سيدنا أمير المومنين ، ابن سيدنا أمير المومنين ، ابى يوسف عصمة الاسلام ، وكاشف الظلم والظلام ، البعيد مدى الهمم ، الجزيل الباس والكرم ، يبلى الزمان ولا تبلى مفاخره ، ويحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره .

جاءت به هذه الدنيا فلو سئلت شبهها لقالت قياس غير مطرد

ماضى العزمات ، وكاشف الأزمات ، وكافل الامة وكافيها ، وناصر الشريعة وحاميها

تقلد سيف الحق يمضى بحده على كل من ماراه حكم المصاحف

بهرت مناقبه الانوار ، وغمرت مواهبه البحار ، وصدقت سحائب جود يمينه ، مخايل برق جبينه .

ما شام برق جبينه مسترفد الا استهلت كفه أنواء

سنام الشرف وذروته ، ونخبة المجد وصفوته ، ومعنى الجود وسره ، وشمس الزمان وبدره

عزيمة لم يعاينها بنو زمن وقدرة لا تراها العين فى الحلم

ثمال المعتفين وموئل الخائفين ، ورحمة الله التى ورد الخلق زلالها ، وتفيئوا ظلالها ، فلله خلافته السعيدة لقد بهر جمالها ، وراقت غررها واحجالها .

من كان مولده تقدم قبلها أو بعدها فكأنه لم يولد

خرق العوائد باسا وسماحا ، وحلما راجحا واسجاحا ، وأبر على الملوك مضاء وتصميما ، وانشاء وتتميما

وجرى فقصر عن مداه فى العلى اهل الزمان واهل كل زمان

بهرت آياته الالباب ، واعجزت غاياته الطلاب ، وتحيرت فى كنهه الاوهام ، وقصرت عن وصفه السن الانام والاقلام

جلت عن المدح واستغنت فضائله والشمس تكبر عن حلى وعن حلل

لا زالت خلافته تروق حسنا وجمالا ، وتوسع البرية احسانا واجمالا

ولما فرغ العبد من جمع الكتاب ، المترجم بصفوة الادب ، ونخبة ديوان العرب ، فجاء خالصا خلوص الذهب الابريز ، منفردا دون ما تقدمه فى فنه بالسبق والتبريز ، نفذ الامر المطاع باختصاره ، والاختيار من مختاره ، وكتاب النخبة وان كان فيه بعض الطول ، فانه بما اشتمل عليه من غرائب المنظوم ، وعجائبه غير مملول ، وقد احتوى هذا المختصر منه على جملة كافية ، ولغليل المتعطش الى الادب شافية ، وبغرض المتمثل والمحاضر وافية ، واثبت مدح النبى صلى الله عليه وسلم بكماله ، واقر فى الديوانين على حاله ، لم يذهب فيه الى الاختصار ، كما فعل فى غيره من الاشعار ، رغبة فى كثرته ، وتبركا بتفصيله وجملته ، وانما تلقى العبد الامر العالى وامتثله ، ووقف جهد استطاعته عند ما حد له ، فان أصاب الغرض ، وطبق المفصل ، فسهم سدده رأميه ، وسيف انتضاه منتضيه ، وان تكن الاخرى فقد استوفى جهده ، وأبلغ النفس عذرها ببذل ما عنده

نسأل الله دوام من دامت لنا به سوابغ النعم ، وشفانا بتعليمه النافع ، واحسانه المتتابع ، من الجهل والعدم ، انه سميع الدعاء ، جزيل المواهب والآلاء ، لا رب غيره ، ولا خير الا خيره .

فهذا الديوان اذن ، كان بأمر من الخليفة المنصور الذى نوه بـه واشاد بأفضاله ، فهو اقدم مؤلف لنا كان صادرا عن أمر مولوى للمغاربة ، وقد كان المنصور يضع المنهاج لمن يأمرهم بالتأليف ، كما حصل منـه تجاه الذين ندبهم للتأليف فى شؤون الدين ، فهو اذن صادر عن الدولة ، التى كانت لذلك العهد ما زالت مضطرة الى القول بعصمة الامام المهدى ، وان كان المنصور فى قرارة نفسه غير معتقد لذلك ، بل هم بابطاله ، كما قال عنه ابنه المامون .

لهذا لا غرو أن نجد الجراوى ، يرضى عن هذا المهدى المعصوم ، وهو الذى صب جام شتائمه ، على زميله الأغماتى ، حينما أحرجه بالقيام عند سماع « أماديح » الامام أبى يعقوب يوسف بن عبد المومن .

هذا من ناحية الفكرة والداعى الى التاليف ، أما من ناحية التناول فى المقدمة ، فانه تناول شاعر ، لم يستطع أن يتخلص من فنه ، وينطلق فى

نثره انطلاق ابن حبوس ، أو حتى القاضى عياض قبله ، والقاضى الاغماتى بعد هذا .

نلاحظ أن نثره لا يفتأ يتنفس بالشعر ، عندما تنحبس أنفاسه بالنثر (1)، وفى فقرات قصيرة قلائل ، بل انه حتى فى هذه الفقرات التى لا تتخلص من نقرات السجع ، نجد الشعر يتدخل فيها ، فقوله يبلى الزمان ولا تبلى مفاخره ، ويحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره « انما هو بيت المتنبـــى » :

حلـــو خلائقـــه شـــوس حقائقـــه تحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره

وتقدم فى مدحه له للمنصور ، أنه استغل هذا فقال :

فـــلا زال بالنصر الالهـــى يقتـــضى بشائر يحصى قبل احصائها القطرا

والبيت كما تقدم من رائيته التى قالها فى الانتصار العظيم بموقعة الأرك ...

والابيات التى خلل بها نثره غالبها لابى تمام ، لأنه كان متأثرا بـــه كما سبق منا القول بذلك ، ومن غير الغالب ، ما كان له ، أو لغيرهمـــا ومن أبياته التى خلل بها نثره هذا البيت :

ما شـــام بـــرق جبينه مسترفـــد الا استهلـــت كفـــه أنـــواء

فهو من قصيدة له فى مدح المنصور وكذلك البيت المذكور بعـــده والاخير فيها من قصيدتين فيه أيضا .

ومن الاوصاف التى وردت فى أمداحه قوله « المستوليين فى كل مأثرة على الغايات والآماد » فقد تقدم له :

وجرت معاليكم الى الامد الـــذى بعـــدت مسافته عـــلى الاسفـــار
وجريت فى نصر الاله الـــى مـــدى يكبـــو وراءك فيـــه كـــل مجـــار

وقد كرر هذا المعنى كثيرا ، كما سبقت الاشارة اليه ، وكذلك قوله « بهرت مناقبه الانوار ، وغمرت مواهبه البحـــار » تكرر هذا بشعـــره وهكذا نجد مغلب الصفاة الواردة فى المقدمة ، قد ترددت فى أمداحه للخلفاء الثلاثة الأول .

(1) وفى « البيان المغرب » الجزء الثالث الذى ساهمنا فى تحقيقه نجد بالصفحة 197 وصفه بالكاتب الأريب .

والأسلوب كاد أن يخلص من الالفاظ العتيقة ، الا ما قل فيه ، مــن نحو « سنام الشرف وذروته » ونحو « ثمال المعتفين وموئل الخائفين » و « راقت غررها واحجالها » وهذه الاخيرة أيضا ، تقدمت فى بعض أمداحه ، وقوله « حلما راجحا واسجاحا » .

كان هذا كله عند الاشادة بالخليفة ، اما حينما انطلق الى الحامل على التاليف واختصاره ، فانه تخلص من تلك الاشعار ، ينصها أو يضمنها ، ولم يرتبط الا بالاسجاع ، الى نهاينها ، ولا نجد فيها الا هذه العبارة « وابلغ النفس عذرها » وهى مقتبسة من بيت الحماسى .

ليبلغ عذرا أو يصيــب رغيبـــة   ومبلغ نفـــس عذرها مثل منجـــح

وبعد الجراوى نتصل بأديب آخر، هو أبو حفص عمر الأغماتى، المولود بها عام 530 والمتوفى باشبيلية عام 604 قبيل الجراوى ، المقارب له فى سنه ، بنحو خمسة أعوام .

كان هذا الأديب اندلسى الاصل ، وهذا ما جعل الشقندى يعتبره من الاندلس ويفاخر به ابن المعلم الطنجى ، ولكن مغربيته لاشك فيها ، مولدا ومنشأ ، وقد ذكره كذلك ابن سعيد فى كتابه الغصون اليانعة ، وعن ابـــن سعيد نفسه يروى قصة المفاخرة المقرى فى نفح الطيب ، ولم يعقب عليها ، ولكنه فى أزهار الرياض نقل عن ابن الابار انه ولد بأغمات واثبت له شعرا فى المديح وغيره سنذكره .

تقلد هذا الاديب مناصب قضائية وغيرها من شورى وافتاء ، وتقلب فى عدة عواصم ، كتلمسان وفاس وأخيرا اشبيلية ، وبالرغم من هذا المنصب الذى ورثه عن والده قاضى فاس ، وما كان يفرضه من تزمت وحفاظ على سمت معين ، فانه شهر بالغزل ، الذى انتقد عليه ، فما ارعوى ، حتى أدركه الهرم ، فتصوف ، وصار ينظم قصائد سماها المكفرات ، كما فعل ابن عبد ربه ، فسماها الممحصات ، يكفر بها عن تلك الغزليات ...

أما قصيدة المديح الذى اشارنا اليه ، فنعنى به ميمية قالها فى الخليفة الثانى يوسف بن عبد المومن يقول فيها :

الله حسبك والسبــع الحواميــم   تغزو بها سبعة وهـــى الاقاليـــم

سبع المثانى التى لله قمت بها   عليك من سرها نصر وتقديم
وانت بالسور السبع الطوال على   كل الورى حاكم بالله محكوم

وهكذا يستمر فى تلك السبع من السنوات والشهب والايام ويستغل كل ذلك فى مدح هذا الملك وهى تردد اصداء مبهمة لا يدركها صاحبها على حقيقتها ، عند قومها الاول الشيعة فى هذه السبعية التى ركز عليها تركيزا مملا وتطرف فيها تطرفا لاندرك ولا يدرك هو نفسه كنهه ، على التحقيق . فهذه السبعية هى فى الواقع القاعدة الاساسية للمذهب الاسماعيلى ، لأن العدد السبعة عندهم يقوم عليه تسلسل غريب ، يكون فى نهايته الامام السابع اسماعيل ، فهو العدد الخفى ، الذى يضم سبع فترات للانبياء والرسل آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ، محمد بن اسماعيل (1)، وكل واحد من هؤلاء أعقبه سبعة من الائمة ، وأول كل سبعة من هؤلاء هو الامام الصادق ، وهو صامت ولكنه ناطق ، وهو رئيس وأساس وأصل ، وآخر كل سبعة من هؤلاء الائمة ، يعقبه اثنا عشر نقيبا ، تنتهى الفترة النبوية بالاخير منهم ، لتبدأ بعدها فترة نبوية أخرى ، وعلى هذا تكون الفترة السادسة قد بلغت نهايتها على يد الامام السابع اسماعيل .

ثم يقول للخليفة :

عليك أهل الهدى والحق متفق   وحبل من فارق الاجماع مصروم
وكل جد مفاد من علائك من   نسيمه نفس العلياء مشموم

وفى تحدثه عنه يقول :

فؤاده بضياء العلم منشرح   ووجهه بجمال النور موسوم
وكفه بطنها بالخير منهمر   وظهرها لعهود الله ملثوم
العلم قيمته والحلم شيمته   طابت أرومته والنفس والخيم

ثم يبالغ فى وصفه بالقدرة والسلطان وينتقل الى وصفه بانه حقيق بهذه الخلافة والامامة اذ يقول :

ان الخليفة سر الله ظاهرة   آياته وهو عند الله معلوم

(1) فى زعمهم الضال المضل .

فسلموا واخلعوا الآراء واتبعوا ... حكم الامام فما فى الدين تحكيم
الشرق والغرب من عرب ومن عجم ... فى كفه عودهم بالقبض معجوم
والبحر والبر من سهل ومن جبل ... جميعها بزمام الراى مخطوم
لطالبى العلم ما شاءوا بخدمته ... غنى وعز وارشاد وتعليم
سحب العلوم عليهم من سماحته ... تهمى ففى بحرها هم شرع هيم
العين من نظر والاذن من خبر ... لا تشبعان وباغى العلم منهوم
يغضى أناة وحلما عالما وله ... فى موضع الحق اقدام وتصميم
تشتد فيمن عصى أو خان وطأته ... وفى الثقاف لذات الزيغ تقويم
ارادة فوق ادراك العقول لها ... فحسبها منه ايمان وتسليم
حتى اذا ما بدا منه النجاح بدت ... كالشمس ما دونها فى الجو تغييم
انظر خوانمها تفهم مبادئها ... بالشرح ما ليس بالمفهوم مفهوم
والحظ سماء علاها عبرة وكفى ... من يسترق سمعها بالشهب مرجوم

ومنها ، كما بالأزهار :

للمسلمين أمير المومنين حمى ... يحله من صروف الدهر تحريم
الدهر فى انفه من حكمه برة ... بها الزمان على الابرار مخزوم
العلم والدين والدنيا وساكنها ... فى سلك رايك ياوسطاه منظوم
جزاء سعيك عند الله مدخر ... هذا كتابك فى الابرار مرقوم
عطفا على حر امداحى وان عجزت ... ان الجمال على العلات مرحوم
ما علقوا لو رأوا هذا « قفا » و « الا ... هبى » ولو جاءهم حجر وكلثوم
اذن لقال لراويه عليقمة ... هل ما علمت وما استودعت مكتوم(1)

وهكذا يقول :

ياسامعين أماديح الامام الا ... فاجثوا على الركب الاعظم أو قوموا
خذ كأس لفظى دهاقا من مدائحه ... فبها الحقائق لا لغو وتأثيم
ندعو له بدلا من مدحه لقصو ... ر المدح عنه وفيه العذر معلوم
عز الامام فلا تضرب به مثلا ... من ذا يقاس به والمثل معدوم

(1) بعد هذا أم حبلها اذ نأتك اليوم مصروم
ولا شك انه استعان بها وخصوصا فيما يتصل بقوافيها مثل « بالقتب مخزوم » و « المحروم محروم » و « الكتان ملثوم » و « قران معجوم » وبه « النفوس معلوم » و « بالحبر موسوم » (انظر الاغانى 113 من الجزء 21)

أعطى الورى فضل ما أعطاه خالقه　　　عليه من ربه بشرى وتسليم
صل بالصلاة عليه صدق مدحته　　　ذاك الرحيق بهذا المسك مختوم

فهذه الابيات تطغى عليها اللهجة الشيعية وفى نهاية القصيدة نجده يصلى على هذا الملك مع أن الصلاة عند اهل السنة مخصوصة بالنبى وآله ، الا أن الشيعة نراهم يصلون على أيمتهم باستقلال (1) .

فالمدح بالعلم ، مطروق فى أمداح هؤلاء الخلفاء ، وعلى مقدمتهم عبد المومن ، وعلى مقدمة الشعراء ابن حبوس . والمدح بالكرم ، هو ما برزت فيه أمداح العربية منذ جاهليتها . وتقبيل الايادى كان معروفا ، وعلى عهد العباسيين بصفة خاصة . والوصف بجمال الطلعة وكون العين لا تمل من النظر اليها ، وأن صاحب هذا الجمال يغضى أناة وحلما ، كل هذا ما مله المدح فى الاسلام وفى عهوده الاولى . والاقدام والشدة على العصاة وقطع دابرهم ، مما تغنى به المادحون لذوى الاخطار . ونفوذ الراى الى غور الأمور ، وانها بعد تسليط الارادة القوية على غوامضها تصبح واضحة للعيان ، كذلك مما لايستحق الاشادة به . ورجم من يسترق السمع بالشهب ، صورة قرآنية ، رددها الجراوى وغيره ، من شعراء الموحدين ، بعد غيرهم . ثم الدعوة الى الانابة والبعد عن اختلاف الرأى والتسليم لحكم الامام ، وارد ذلك كله فى القرآن الكريم . وأخيرا المبالغات فى بسط السلطان على الشرق والغرب والبر والبحر ما يطرب له الخالون ولا يأبه له المطمئنون الى أنفسهم ، فلم يبق بعد ذلك شيء الا أبيات فى الافتخار من الشاعر بقصيدته والاعتذار الى سيده الخليفة وطلب عطفه ...

وكأن الاغماتى لم يكن له نصيب موفور فى أمداح الخلفاء الموحدين ، وهذا لا يضيره بالمرة ، وكأن الجراوى أدرك هذا العجز منه ، وان كان الاغماتى لا يعترف به ، بل يفتخر بقصيدته تلك ، ويجعل غيرها دونها ، ويحتقر المادحين بسواها ، ولهذا وجدنا الجراوى يتهكم عليه ، اثر انشاده لهذه القصيدة ، فيقول الأبيات المعروفة :

---

(1) وفى القصيدة اشارات الى معلقة امرىء القيس ومعلقة عمرو بن كلثوم و » حجر « هو والد امرىء القيس وهو وحده المسمى بهذا الاسم ، مضموم الحاء مسكن الجيم ، وقد صغر علقمة الفحل تحقيرا لشأنه فى ميميته الشهيرة التى جعلها دون ميميته هذه .

نبغــت عمــرة بنــت ابن عمــر — هــذه فلتعجبــوا أم العبـــــر
قــل لهــا عنــى اذا لاقيتهـــا — قولــة تتــرك فى الصخــر أثــر
هبــك كالخنســاء فى أشعارهــا — أو كليلى هــل تجاريــن الذكـــر

وكذلك نجد للاغماتى قصيدة ، فى يوسف يمدحه بها ويهنئه ببيعته الثانية ، يقول فيها :

الا هكــذا تبنى العلا والمآثــر — وتسمــو الى الأمر الكبير الاكابـر
نؤم لبيعات الرضى مطلع الهــدى — وحيث الهدايــا تعتلى والاوامـر

فلا شك أنه أخذ هذا المطلع من قول المتنبى فى مدح سيف الدولة .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم — وتأتى على قــدر الكرام المكــارم
وتعظم فى غير الصغير صغارهــا — وتصغر فى عــين الكبير العظائــم

وبعد الخليفة يوسف نجده فى ركاب ابنه يعقوب واسطة عقد البيت الموحدى حيث يمدحه بقصيدة على اثر انتصاره فى موقعة « الارك » فيقول فى تلك القصيدة : (كما فى الغصون اليانعة)

اطاعتــك الذوابــل والشفــار — ولبــى أمــرك الفلــك المــدار
ببشــرى مثل ما ابتهجت ريــاض — وسعد مثــل ما وضــح النهــار
وفتح مثــل ما انفتحت كمـــام — وشقت عن صــدور مها صــدار
وآمــال كمــا مــدت ظـــلال — وافعــال كمــا مــدت بحــار
وأعـــلام بنصــرك خافقـــات — لهــا فى كــل جــو مستطـــار
ليهنــىء أرض اندلــس بــدور — مــن السراء ليــس لهـــا سرار

الى ان يقول فى وصف الروم الاسبان :

وكم راموا الفرار مــن الرزايـــا — ولكــن أيــن مــن أجــل فــرار
تــدار عليهــم حمــر المنايـــا — بكــأس فيـــه عقــر لا عقـــار
اذا ما الليــث اصبــح فى محــل — فمــا لطريــدة فيــه قـــرار

ونلاحظ على هذه القصيدة ان نفس الشعر فيها طويل وان الاسلوب بالرغم من ارتفاعاته اسلوب شعرى على الحقيقة لا يبدو عليه ذلك التكلف والارتباك الذى تبدت به قصيدته الاولى فتلك القصدية كانت فى اسلوبها

تبعد فى بعض الاحيان عن الاساليب الشعرية مثل قوله :

يا سامعين أماديح الامام الا فاجثوا على الركب الاعظم أو قوموا

اما هذه فقد اسعفته شاعريته فيها فكانت مبالغاته مقبولة لا يأباها الذوق المعتدل .

وهذه أبيات اخرى فى مناسبة مماثلة ، كما يبدو ولعلها قيلت من قصيدة فى مدح المنصور وهى ستة أبيات ساقها صفوان بن ادريس :

هكذا :

يزع الاله بسطوة السلطان من لم يزعه واعظ القرآن
اخوان اما حكمة أو مرهف هذى يمانية وذاك يمان
شدوا اليراعة بالحسام فانه برهان من يعمى عن البرهان

الى أن قال فى وصف الممدوح :

يهدى البرية ممسيا او مصبحا فكأنما فى وجهه القمران

ثم قال فى وصف الجلاد :

يتعانقون اذا لقوا أعداءهم يوم الكفاح تعانق الاخوان
ها انما ذاك التعانق بينهم من شدة البغضاء والشنآن

فهذه الابيات المتأنقة ، على حين لم يكن موضع للاناقة ، ماذا نجد فيها ؟

نجد البيت الاول يتضمن المأثور «يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرءان»

والبيت الثانى منبثق عن الحديث « الايمان والحكمة يمانية » كل ما هنالك ، انه وضع المهرف موضع الايمان ، ونسج على نفس المنوال والبيت الثالث ، لاباس به ، وان كنا لا نتصور الحسام يشد اليراعة ، الا فى المقصود منه لا فى الصورة المتخيلة ، وهو لا يبتعد عن قصد أبى تمام فى قوله :

السيف اصدق انباء من الكتب

الى آخر البيت من قصيدته المعروفة فانه متولد منهما ولا شك .
بل ان كل واحد من الابيات الثلاثة يغنى عن غيره فى الفكرة ، ولا غناء فى الصورة يستحق الذكر والبيت الرابع ، فيه منتهى التصنع ، وهو معتمد كل الاعتماد على « القمران » اللذين بحثت عنها القافية بادىء ذى بـدء والبيت الخامس يصور الاعتناق بين الاعداء فى شدته ، كأنه احتضان الأحباب ، وهذا كان يكفى فى وصف ضراوة الجلاد ، ولكن الشاعر لم يكتف بذلك حتى قتله شرحا ، فى البيت بعده :

ها انما ذاك التعانق بينهم	من شدة البغضاء والشنآن

والشعر اذا وضع على منضدة التشريح ، فقد حيويته واصبح جثة هامدة ، وفى عداد الموتى .

أما النسيب فقد برز أديبنا فى غرضه هذا ، وانتزع اعجاب المعجبين به كما نجد ذلك جليا ببعض الأبيات التى قالها فى هذا وكان الشقندى يشيد به ويفخر على ابن المعلم ، ويتحداه أن يأتى أحد بمثلها من شعراء المغرب قاطبة .

والواقع أن هذا الغزل ، بصرف النظر عن فنيته ، غزل تصرخ الجنسية فيه صرخة صاعقة ، توجه اليها اعجاب المحرومين أو المنهمكين ، لـذات الجنس ، فغزله هذا أو نسيبه ، ليس من ذلك النوع المهذب الذى نجده عند ابن زنباع أو عياض زميليه فى القضاء والأدب ، بل هو من ذلك النوع الشره، الذى يكاد يصل الى امرىء القيس أو الفرزدق أحيانا ، وهذه نماذج منه :

مشت كالغصن يثنيه النسيم	ويعدوه النسيم فيستقيم
لها ردف تعلق فى لطيف	وذاك الردف لى ولها ظلوم
يعذبنى اذا افكرت فيه	ويتعبها اذا رامت تقوم
وما حبى لها الا عذاب	عليه من نضارتها نعيم

قال ابن سعيد فى الغصون ، وقد اشتهر قوله لها فى الغرب والشرق ، ولا غرو أن يشتهر بهذه الفتنة الجنسية عند المفتونين بها .
سوى هذا فان الصنعة متحكمة فى غزله ، قلما تخلو منها قطعة له .

ومن هذه القصيدة قوله :

اعيذك يا سليمى من سليم … قتلت فتاهم وهو الزعيم

قتيل الحب لا يودى وعانيه … لا يفدى ولا فيه الخصوم

وما لي طالب بترات قتلى … اذا قتل الغرام فلا غريم

الا ياظبية الحرم التى ان … رميت سلمت والرامى كليم

بلى انت الغزالة فى سناها … فراميها بعيدا ما يروم

فؤادى سار نحوك عن ضلوع … بها ياريم حبك لا يريم

ودادك صح فى قلب سقيم … كطرفك صح ناظره السقيم

اذا اعرضت تسود الأمانى … وأن أقبلت تبيض الهموم (1)

فهى أبيات صحراوية رشيقة بديعة بالرغم من بعض البهرجة فيها والبيت الاخير منها فريد فى بابه .

وقد تمكنت الصناعة من باقى الابيات ، وخصوصا التشبيه الضمنى منها ، وما يعرف بالمذهب الكلامى فيما قبل ومرمى القصيدة فى واقع الأمر هو الفخر الذى يفصح عنه البيت الاول ، وهو :

اعيذك يا سليمى من سليم … قتلت فتاهم وهو الزعيم

قتيل الحب لا يودى وعانيه … لا يفدى ولا فيه الخصوم

وما لي طالب بترات قتلى … اذا قتل الغرام فلا غريم

والبيت الأخير من هذه مأخوذ من بيت اسحق الموصلى

« وكم من دم قد طل يوم تحملت … أوانيس لا يودى لهن قتيل

وهذه قطعة دخلت عندهم فى كنوز المعانى (2) وهى قوله فيها :

هم نظروا لواحظها فهاموا … وتشرب عقل شاربها المدام

يهاب الناس مقلتها سواها … أيذعر قلب حامله الحسام

سما طرفى اليها وهو باك … وتحت الشمس ينسكب الغمام

واعقب بينها فى الصدر غما … اذا غربت ذكاء أتى الظلام

---

(1) انظر « الزهرة » للاصفهانى حيث ورد فيها :
عليك سلام الله أما قلوبنا فمرضى وأما ودنا فصحيح فلا شك ان الاغماتى نظر اليه فى البيت قبل الاخير من القطعة الواردة فى « جذوة الاقتباس » .

(2) كما قال فيها ابن سعيد فى « الغصون اليانعة » .

قد يعجب هذا الصنيع أولئك المتحذلقين فى تصرفاتهم أو الغافلين عما يجيش فى ضمائرهم ، أما غيرهم فلا تبهرهم هذه الأصباغ ولا تحرك فيهم ساكنا هذه الأصداغ ، حتى يكونوا كمن قال :

صدغ الحبيب وحالى كلاهما كالليالى

على أن هناك أبياتا اخرى تروعنا بجمالها ، وتأخذنا بتهذيبها ، كهذه التالية :

هذا فؤادى احصدته الاسهم	من ذا يرى تلك الجفون ويسلم
ياغرة حكم الجمال لها على	شمس الضحى واصاب فيما يحكم
يحكى الجآذر جيدها ولحاظها	هيهات دون العالم المتعلم
وكأن قامتها ونغمة لفظها	غصن عليه بلبل يترنم

فهذه أبيات بصرف النظر عن الانباعية فى الثانى والثالث منها خاصة ، تبهرنا بجمالها ونعجب لتنسيق صورها وتصفيف معالم فتنتها وكذلك الشأن فى هذه الابيات البدوية الاعرابية ، التى يقول فيها :

مها القفر لادمية المرمر	وفى العرب لا فى بنى الاصفر
بنفسى يعافير تلك الخيام	ومسرحها فى النقا الاعفر
ملاعب يصبو اليها الحليم	ويسلب فيها فؤاد الجرى
وفيها الظباء بنات الأسود	غيارى متى بغمت تزار
فخيس الهزبر كناس الغزال	به الشبل ناش مع الجؤذر
تخالسها نظرا تحته	فرام به الحى لم يشعر
وباللحظ يقدح زند الهوى	بطرف غر وفؤاد برى (1)

ولا شك انه هدف فيها الى الغزل بهذه الجميلات التى ذكرها بالمها واليعافير والظباء ، ولم يكن قصده منها غير الغزل الذى لا يسيطر عليه التصنع أو التحلية البديعية مما يشغل الناس عما عناه وان كانت لا تخلو من مقابلات بالاضدآد ، وكأنى به ذلك المخالس للنظرات المنبعثة عن غرام وافتنان . . ومهما يكن ، فهذه الابيات ، على بساطتها وقلة عددها قد وفق فيها الشاعر حتى ولو كان مقلدا بهذا الصنيع فى جميلة ذلك الجمال البدوى

(1) انظر « ازهار الرياض » .

وان كان التشبيه بالبدويين قديما حاوله بشار ، فى رائيه له خاصة ، ثم حاوله من بعده من الشعراء ، كالمتنبى فى قصيدته البائية ، فكانت قصيدة حسنة ذلك الحسن ، الذى لا يحتاج الى تطرية عهدناها فى غيرها ، وصدق المتنبى فيها اذ قال :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية　　　وفى البداوة حسن غير مجلوب

والغالب أن الاغماتى نظر اليها ومطلعها :

من الجاذر فى زى الاعاريب　　　حمر الحلى والمطايا والجلابيب
افدى ظباء فلاة ما عرفن بها　　　مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

اذن فانظروا الى مها القفر ، والى يعافير الخيام ، سارحة فى النقى الأعفر ، فيه الظباء ، ولكنها بنات الاسود اذا بغمت زأرت آباؤها الغيارى ،

وهكذا : فخيس الهزبر كناس الظباء ينتشى فيه الشبل مع الجؤذر ، وهذا اجمل ما فى الصورة وبعد هذا تأتى أبيات فى وصف الحب وفعله بأهله وهى :

اغار على الصب من انبه　　　هو الحب من يطفه الهبه
نأى القلب عنى وشوقى معى　　　فلله أمرى ما أعجبه
يحن فؤادى الى قاتلى　　　كذاك الهوى عند من جربه
ترق شمائل من ذاقه　　　وتلطف شمائل من هذبه
يجود لمسخطه بالرضى　　　ويطلب راحة من أتعبه
اذا شف قلبى غرام الهوى　　　دعا بالنعيم لمن عذبه

ونحو هذا القبيل قوله :

لقد لبست لتلبسنى نوار　　　شبابا ماؤه فى القلب نار
شباب ماؤه فى مقلتيه　　　يجول وفى القلوب له قرار
حمى برد اللمى منها لماما　　　وبيض الهند والأسد الحرار
بأيدى مقحمين على المنايا　　　بهم تحمى الحقائق والذمار
عواليهم اسنتها الذرارى　　　تمور بسعدهم أبدا موار
تلوح مع الكواكب وهى نور　　　وتهوى للكتائب وهى نار

فوارس عندها للنقع ليل | اذا أبدى ظبى (1) منه النهار
تغير على الحضارة من بعيد | ومسكنها الفلاة لما تغار
سباني من قنائهم غزال | عزيز القوم نابيه غرار

وله :

لله احبابنا الألى سلفوا | بانوا وما منهم لنا خلف
كرهت سكنى البلاد بعدهم | وقد يكن بعض الجواهر الصدف (2)

وغير القصائد الغزلية ، فقد شهر الشاعر كذلك بنظمه للموشحات ولكنه لم يحفظ له منها — كغيره — الا النادر ومن هذا قوله :

حسانة رخيمه | عانقت منها البانا
والنقى الرجراج | واشواقى لحسانه

والملاحظ على غزل شاعرنا سواء فى أوزانه العربية العتيقة وفى موشحه — انه كان غزلا شهوانيا صارخا فى بعض الاحيان ، وهذا ما اخذ به هذا الاديب . فابن سعيد يقول بعدما يقول : وكان فى غاية الظرف اذا اقبل شممت رائحة الطيب منه على بعد ، واذا غسلت ثيابه لا يكاد يفارقها ، وكان منزله كأنه الجنة حتى وجد فيه اعداؤه مطعنا ورفعوا للمنصور انه غير حافظ للناموس الشرعى بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته وانهماكه فى العشق . ووافق ذلك ان رمى ابن اخ له يده على امراة وغصبها على الدخول لمنزله وشهد بذلك عند ابى موسى بن امانة حافظ فاس جماعة فأمر باحضار المذكور بعد صلاة الصبح وضرب عنقه .

بعد هذا الشعر نتناول من شعر الأغماتى الجانب الخلقى ، الذى يشمل الايصاء بالتعلم وتقوى الله والزهد فى أوساخ الدنيا وهذه هى المرحلة التى استراح عندها الشاعر ، وقد تراءى له المصير ملمعا بالنهاية الدنيا ، فكان فيها الندم على ما مضى ، وكان فيها التكفير عن السيئات ، وكان من هذا التكفير ، أبيات وعظية ، توصل بتلك الابيات الغزلية الفاتنة ، فكان شأنه فى هذا شأن ابن عبد ربه حيث وصل غزلياته ، بما سماه بالممحصات .

(1) هذه الكلمة غامضة فى الجدوة التى نقلنا عنها هذه الابيات .
(2) من الجذوة كذلك .

ومن هذه المكفرات أبيات وصلها بتلك الأبيات البدوية الاعرابية فى الغزل ، كما مضى ، يقول فيها :

بقلبك يا غافلا فانظرى	وعينيك غمضهما تبصر
اذا أرسل الطرف هام الفؤاد	وبعض المرائى عمى المبصر
وآفة قلب الفتى عينه	فان ترع قلبك لا تنظر

اما ما قاله فى الحض على التعلم والتقوى والزهد فى الدنيا فنحو قوله :

العلم يكسو الحلل الفاخره	والعلم يحيى الاعظم الناخره (1)
كم ذنب أصبح راسا به	ومذنب ابحره زاخره
ما شرف النسبة الا التقى	أين تهيم الانفس الفاخره
من يلطب العز بغير التقى	ترجع عنه نفسه داخره
أعرض عن الدنيا تكن سيدا	بل ملكا فيها وفى الآخره

وهى أبيات كاد يحرر فيها الشاعر من تلك الصنعة التى وجدناه يتفنن فيها من ذى قبل الا ما كان من الجناس فى ذنب ومذنب والمقابلة بينهما بالراس والذنب .

وفى الزهد هذه الأبيات التى نظمها على بحر المتدارك ، ونظر فيها ولا شك الى نونية لأبى نواس ، وان كان ابتعد عن الغرض فكانت فى الزهد وهى :

أيها المغتر بالزمن	فى هواه خالع الرسن
حبك الدنيا وزينتها	فتنة عمتك بالفتن
ظلت والحالة شاهدة	عاكفا منها على وثن
فاهجرنها ان زينتها	زينة شانت ولم تزن
خدعتك انها قبحت	باطنا فى ظاهر حسن
ولتقدم ما تسر به	قبل طول البث والحزن
فكأن اخراك ما برحت	وكأن دنياك لم تكن

---

(1) من الجذوة والازهار .

أما نونية أبى نواس فيقول فيها :

يا كثير النوح فى الدمن	لا عليها بل على السكن
سنة العشاق واحدة	فاذا احببت فاستكن
ظن بى من قد كلفت به	فهو يجفونى على الظنن
بات لا يعنيه ما لقيت	عين ممنوع من الوسن
رشأ لولا ملاحته	خلت الدنيا من الفتن
كل يوم يسترق له	حسنه عبدا بلا ثمن
فاسقنى كأسا على عذل	كرهت مسموعه اذنى
من كميت اللون صافية	خير ما سلسلت فى بدن
ما استقرت فى فؤادى فتى	فدرى ما لوعة الحزن
مزجت من صوت غادية	حملتها الريح من مزن

وكذلك هذه الأبيات التى هى — كما يبدو — من قصيدة زهدية :

ولا تنسب الى كبر فهذا	ابوك الترب يخفضك انتسابا
ولا تصحب اخا كبر وقدم	على النفس الأعادى والصحابا
ولا تحبب محاباة بمدح	كفى بالمرء حوبا أن يحابا
وحاذر أن ترى فى القوم رأسا	ولا تنس الذنوب وكن ذنابا
تراب كن هنا فعساك أن لا	تمنى أن تكون غدا ترابا

وهذه قصيدة اخرى التزم فيها طريقة أبى العتاهية فى روحها وفى اسلوبها ، واختيار بحرها من مخلع البسيط كما نرى :

يا راكضا فى طلاب دنيا	ليس لمن تصرع انتعاش
تنح يا عرضة لرام (1)	أسهمه بالردى تراش
لم تخش نارا هوى لظاها	لمن له نحوها انحياش
أعذر منك الفراش حالا	علمت ما يجهل الفراش
تطلبها لا تنام عين	عنها ولا يستقر جاش
من لك بالرى من شراب	يشتد من شربه العطاش
دعها فطلابها رعاع	طاشت بألبابهم فطاشوا

(1) ازهار الرياض نقلا عما ورد فى « الاشادة » لبعض الاعلام فى وصف الدين نثرا ثم شعرا هذا .

واظمأ لتروى وكن كقوم ... ماتوا بها عفة فعاشوا
لم يردوها فهم رواء ... ووردوها هم العطاش
كأن آمالنا ظباء ... ونحن من حيرة خراش
ان لآمالنا انبساطا ... به لأعمارنا انكماش
كأن آجالنا صقور ... ونحن من تحتها خشاش (1)

وبناء القافية على روى الشين مما يصعب على الشعراء وقلما وفقوا فيه ، وخصوصا اذا كانت الشين مضمومة كما هنا ، وقد حاول المتنبى هذا ومن مواقفه العلمية التى سجلها شعره ، ما قاله ردا على بيتى الزمخشرى اللتين نال بهما أهل السنة ، وهما :

لجماعة سمت هواها سنة ... لجماعة حمر لعمرى موكفة
قد شبهوا معبودهم ونخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة

فرد عليها الاغماتى بأربعة أبيات ، وهى :

اجعلتم العلماء حمرا موكفة ... هذا لانكم اولو تلك الصفة
اجهلتم صفة الاله وفعله ... ونسبتموه لغيره بالزخرفة
واردتم تنزيهه فوقعتم ... فى الشرك والالحاد والامر السفه
خالفتم سنن النبى وصحبه ... وتبعتم فى الزيغ أهل الفلسفة

ومن نثره قوله فى الفلاسفة اياكم والقدماء وما أحدثوا ، فانهم عن عقولهم حدثوا ، اتوا من الافتراء بكل اعجوبة ، وقلوبهم عن الاسرار محجوبة ، الانبياء ونورهم ، لا الاغبياء وغرورهم ، عنهم يتلقى وبهم يدرك السول ، « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول » « الدين عند الله الاسلام » والعلم كتاب الله وسنة محمد عليه السلام ، ما ضر من وقف عندهما ، ما جهل بعدهما ، خير نبى فى خير أمة ، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة دلهم من قرب عليه ، واختصر لهم الطريق اليه ، فما ضر تلك النفوس الكريمة ، والقلوب السليمة ، والالباب العظيمة ، ما زوى عنها من العلوم القديمة ، نقاهم من الاوضار والادناس ، وقال « كنتم خير أمة اخرجت للناس » كتابهم أعظم كتاب انزل ونبيهم أكرم نبى ارسل ، السيد الامام ، لبنة التمام ، خير البرية على الاطلاق ، بعث ليتمم مكارم الاخلاق ،

(1) سبقه بهذا من قال : انا وفى اعمارنا ... قصر وفى آمالنا طول

انزل الكتاب اليه « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » هو الشفاء والرحمة ، وفيه العلم كله والحكمة ، معجز فى وصفه ، عزيز فى رصفه ، « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » آياته باهرة قائمة ، ومعجزاته باقية دائمة ، ماذا اقول ، وقد بهر العقول ، حسبى ، حسبى ، « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى ، لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى »

هذه خطبة ما أشبهها فى صنيعها بأسجاع الكهان ، فلا فكرة متسلسلة ولا لحمة متلاحمة ، وانما هى أسجاع تتخلها آيات تناسبها فى جرسها ، ولا يتورع صاحبها من التكرار فى بعض معانيها ، وصاحبها ان هدف بذلك الى تسفيه الفلاسفة وهم المعنيون بالقدماء أو اصحاب العلم القديم ، فهو بعيد كل البعد عن الالمام ، ببعض مسائلها ، حتى يستعمل نفس السلاح أو يركز الهجوم على قاعدة من تلك القواعد التى يعتمدون عليها ، ففرق كبير فى ردوده بينه وبين ابن حبوس أو أبى تمام مثلا

ومن نصائحه النثرية قوله :

(هذه الدنيا ، حفظك الله كما علمتها ، فاعرض بحلمك عن جهلها ، وارغب بنفسك عن اهلها ، واذكر قبائح ابنائها ، واصرم وصل ابنائها (1) لا ترتع فى روضهم ، ولا تكرع فى حوضهم — وقل الله ثم ذرهم فى خوضهم — واذا مررت باللاغين بذكر محاسنها ، اللاهين بحسن ظاهرها ، عن قبح باطنها فاله عن لهوهم ، ومر كريما بلغوهم ، مر المهتدى فى سيره ، واعرض « عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » فالسيادة والسعادة فى نبذها لا فى اخذها ، وفى تركها لا فى دركها ، والبك عن وصلها اليك ، وعليك بهجرها عليك ، واذكر قوله تعالى (ولا تمدن عينيك) وقوله تعالى (ولا تعد عيناك عنهم) واحرص ان تكون منهم ، فزخرف الدنيا فى نظر العين زين وفى نظر العقل شين ، فغمض عينيك تبصر ، ولا تملاهما واقصر ، جعلنا الله ممن نظر بقلبه وابصر بلبه فاولوا الالباب والفكر المخصوصون بالذكر والعلم ارفع المزايا واوسع العطايا ، غاية المنال والمدرك ، من ناله أى شىء فاته ومن فاته اى شىء أدرك ، ولا علم الا علم الكتاب والسنة ، هما أفضل العطايا والمنة ، فمن علمهما ، ونظر فيهما ، وعمل بهما ، نال غاية السعادة ، وادرك

---

(1) من أزهار الرياض كما اشرنا الى ذلك نقلا عن « الاشادة » .

منتهى السيادة . قال الله تعالى لنبيه الكريم (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) . هذه المزايا العالية والعطايا الوآسعة الباقية لا ما نهت عنه الآية الثانية ، جعلنا الله ممن ابصر رشده وذكر مراده ووجه أليه قصده ورأى أول امره آخره وابتغى فيما آتاه الدار الآخرة بمنه وفضله آمين .

ففى هذه النصيحة عناصر مما سبق أن ذكرنا من أشعاره فى الاخلاق والحكم والزهد ، مثل البيت :

اعرض عـن الدنيا تكـن سيـدا　　　بـل ملكـا فيهـا وفى الآخـره

ومثل البيت :

فاهجرنهـا ان زينتهـا　　　زينـة شانـت ولـم تـزن

ومثل البيت :

بقلبـك ياغافـلا فانظـرى　　　وعينيـك غمضهمـا تبصـر

ومثل البيت :

العلـم يكسـو الحلل الفاخـرة　　　والعلم يحيـى الاعظـم الناخـره

واخيرا فان الرسالة متضمنة لكثير من الآى القرءانية ، ومستشهدة باخرى ، كما أن فيها اشارة بالآية الثانية ، الى قوله تعالى ، بعد الاولى التى ذكرها « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمومنين »

وبعد فرسالة القاضى ليست على مستوى رفيع من النثر الفنى ، فاغلبها تحليل لاشعاره أو مستعين بنص القرءان أو مضمونه وعلى كـل حال ، فان ما بيدنا من نثر القاضى الاغماتى ، لا ينبى عن رتبة عالية ، وان كان مترجموه قد اجمعوا على وصفه ببراعة النظم والنثر ، كما نقل المقرى عن العزفى فى كتابـه « الاشادة بذكر المشتهرين مـن المتأخرين بالافادة » وفيـه أن محمد بن عبد الرحمن التجيبى يحليه الكاتب المجيد « وللناس فيما يعشقون مذاهـب » .

والنتيجة ان الاغماتى شاعر الغزليات خاصة ، وحظه من مدح الخلفاء لا يصل الى ما كان عليه ابن حبوس أو الجراوى ، أما شعره فى الزهديات

فتغلب عليه طريقة أبى العتاهية ، وكأن الزهد لعهده أصبح من الاغراض العامة فى شعرنا ولهذا وجدنا معاصره الامير سليمان الموحدى يفردلـه بابا خاصا فى ديوانه كما سنرى فيما بعد .

ولا شيء بعد الشعر يمكن أن يذكر به القاضى الاغمانى كأديب ، فخطبته التى عرضنا جانبا منها لا يمكن أن تنزله منزلا كريما فى النثر ، وهى بتلك الصفة من الفقر المذقع .

وبعد انتهائنا من الكلام على القاضى الاغماتى وأدبه شعرا ونثرا ، نتصل بأديب آخر كان يعاصره وكانت وفاته أوائل القرن السابع ، كما كانت وفاة الأغماتى والجراوى ، هذا الاديب هو (ابن عم المنصور الموحدى) ، أبو الربيع (1) سليمان بن عبد الله بن عبد المومن الذى تردد ذكره فى كتب الأندلسيين والمغاربة كالبيان لابن عذارى وهذا الاديب ،، ولد كما يظهر بعد العقد الخامس من القرن السادس ، فنلقى بالمغرب والاندلس ، ثم اشتغل بمهام المناصب فى الدولة من مدنية وحربية (وهذه الاخيرة هى الصفة الغالبة على شاعرنا) وكان شأوه عظيما على عهد المنصور الذى حظى عنده ، بالخصوص ، وكادت أمداحه تقتصر على هذا الملك وان كان تعرض الى ما يتعرض اليه الرجال الكبار من جفاء السلطان وغضبة الملك ، اذ وجدناه س 581 بمراكش تحت جفوة المنصور . وقد قال فى تلك الحقبة كثيرا من الأشعار يستعطف ويسترضى بها المنصور ويعتذر اليه ،، ويذكر ابن عذارى فى المرجع السابق كثيرا من المواقف الحربية والأدبية التى حفظها التاريخ وسجلت لهذا الامير ، ومهما يكن فقد ظل هذا الشاعر مرموقا من بيت الامارة فى النصف الثانى من القرن 6 وان كانت شهرته فى الربع الاخير من القرن السادس الى ان توفى سنة 604 أو 606 . ومن حسن الحظ جمع بعض رجاله شعره فى ديوان يعد اقدم ديوان للمغاربة جمعه محمد بن عبد الحق بن عبد الله الغسانى . وشعره فى مدح المنصور لا يختلف كذلك فى لهجته عن باقى الأمداح التى عرفت للشعراء فى الموحدين .

---

(1) أقام عليه دراسة نال بها درجة الماجستير الدكتور عباس الجرارى ، معتمدا على نسخة ديوانه التى يوجد أصلها بالخزانة العامة للرباط ، وقال انه لم يطلع على نسخة الاسكوريال التى تضاعفها ، ولا على نسخة اصطنبول التى هى أضعافها ثلاث مراب ، ونشرناها . (انظر مقاله المنشور بدعوة الحق ابريل ماى 65) .

اما ما عدا ذلك فشعره له طابعه — عندنا — فى الغزل والرثاء والزهد والالغاز ووصف الرياض والشراب والعتاب والتشبيهات وما اليها . يقول فى احدى القصائد التى مدح بها المنصور بمناسبة فتحه لمدينة قفصة سنة 583 :

هبت بنصركم الرياح الأربع   وجرت بسعدكم النجوم الطلع
وانت لعونكم الملائك سبقا   حتى لضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الاثير تيقنا   ان الامور الى مرادك ترجع
وامدك الرحمن بالفتح الذى   ملأ البسيطة نوره المتشعشع
لم لا وانت بذلت فى مرضاته   نفسا تفديها الخلائق اجمع
ومضيت فى نصر الاله مصمما   بعزيمة كالسيف بل هى اقطع
وكتائب منصورة يحدو بها   عزم اذا امضيته لا يرجع
ملئت بها ارجاء كل تنوفة   حتى حسبنا ارضها تتصدع
من كل من تقوى الاله سلاحه   ما ان له الا التوكل مفزع
لا يسلمون الى النوائب جارهم   يوما اذا اضحى الجوار يضيع
لله جاشك والصوارم تنتضى   والخيل تردى والاسنة تشرع
كم من قصى الدار عاص قاده   حتف يخب به اليك ويوضع
لم يلف ارضا يستقر بظهرها   انا له ومضاء عزمك أسرع
ان ظن ان فراره منج له   فلجهله قد ظن ما لا ينفع
اين المفر ولا مفر لهارب   والارض تنشر فى يديك وتجمع
فمتى يفت يوما فاملاء له   كيما يحم له الحمام الاشنع
اخليفة الله الرضى هنيته   فتحا يمد بمثله ويشفع
وليهن هذا الفتح انك فتحه   وبحسبه منك النصيب المقنع
فلقد كسوت الدين عزا شامخا   ولبست منه انت ما لا يخلع
ان الذى سماك خير خليفة   جعل الخلافة فيكم لا تنزع
لكم الهدى لم يؤته الاكم   ومن ادعاه يقول ما لا يسمع
هيهات سر الله أودع فيكم   والله يعطى من يشاء ويمنع
ان قيل من خير الخلائف كلهم   فاليك يا يعقوب تومى الاصبع
فلانتم ذخر الخلافة والذى   عين الزمان لوقته تتطلع
ان كنت تتلو السابقين فانما   انت الملاذ لها وانت المفزع

حسـب البريـة ان تكون امامها ... ونصيرها ان نـاب أمر مفظـع
جلت صفاتـك ان يحيـط بكنهها ... نثـر يؤلـف أو قريض يجمـع
فلتشتهـى كـل الجوارح انهـا ... اذن تصيـخ لمدحكم أو تسمـع
خذهـا أميـر المومنـين مديحـة ... من قلب صـدق لم يشبه تصنـع
فالمـدح منى فى عـلاك طبيعـة ... والمدح مـن غيرى اليـك تطبـع
جـرر مـلاءة عـزة موصولـة ... قعساء يحسدها السماك الارفـع
واسلـم أميـر المومنـين لامـة ... انـت المقـدم والخلائق تبـع
وحماك مـن يحمى بسيفك دينـه ... وكفـاك ما يخـشى وما يتوقـع
وعليـك يا علـم الهـداة تحيـة ... يفنى الزمـان وعرفهـا يتـضرع

أتينا بهذه القصيدة كلها لأنها احسن قصيدة مدح بها الامير ابن عمـه الخليفة المنصور ، وهى كما تبرر أولا قصيدة عامرة ، ولكنها تدخل فى فنها ما عهد للمداح قبله اذ فيها كثير من محفوظات الشاعر القديمة ، سواء الجاهلى منه والاسلامى بله ما تقدم لشعراء الموحدين خاصة وعلى راسهم ابن حبوس والجراوى . فالرياح تهب بنصر الخليفة ، والنجوم تطلع بسعده ، والملائك تتسابق الى عونه ، حتى ضاق بها الفضاء ، كل ذلك ما لاكته الألسن ولفظته الاسماع عن شعراء الموحدين ، الاندلسيين والمغاربة منهم علـى السواء . وكذلك استبشار الأفلاك بتحركاته وامداد الرحمن له بالفتح الذى ملأ الدنيا ، كل ذلك كان مما يطرب له هؤلاء وخصوصـا ان وجه بكونهم على مرضاة من الله بل ان هناك أبياتا قدت على غيرها ، مثل :

ومضيت فى نصـر الالـه مصممـا

فقد تقدم للجراوى قوله فى عبد المومن :

وجريـت فى نصر الاله الى مـدى

وقريب منه قوله فى ابنه يوسف :

وجرى الى الامد الذى لم يجـره ... ملـك ولـم تصعد اليه ظنـون

وقوله فيه أيضـا :

حلت من العلـى اسمى ذراهـا ... وجاريـت النجـوم الى مداهـا

أما قوله فى البيت :

لا يسلمون الى النوائب جارهم   يوما اذا اضحى الجوار يضيع

فهو مطروق جدا فى شعر الجاهلية ، مثل :

لا يسلمون الى النوائب جارهم   حتى يزل الشراك عن قدمه

وهذا البيت قد قيل فى الجاهلية الأولى ، وفى حرب كانت بين الحمرية والقيسية ، وهو يعبر عن الحياة القبلية والعصبية الجاهلية فان كان لائقا بهؤلاء القوم ، فانه لا يليق مطلقا بهؤلاء الخلفاء ، حتى يمدحوا به ، وهم فى قصورهم الشامخة ، لا جوار لهم ، بل الحاشية حولهم . وبهذا فان الأمير لم يوفق فى مدحه للخليفة العظيم أو الخلفاء الموحدين عامة ، بكونهم « لا يسلمون الى النوائب جارهم » فلم يبق بعد هذا الا هذه الصخابة التى مللناها فى أمداح الموحدين ، مثل قوله :

اين المفر ولا مفر لهارب   والأرض تنشر فى يديك وتجمع
ان ظن أن فراره منج له   فلجهله قد ظن ما لا ينفع
لم يلف ارضا يستقر بظهرها   أنى له ومضاء عزمك أسرع
كم من قصي الدار عاص قاده   حتف يخب به اليك ويوضع
ملئت بها ارجاء كل تنوفة   حتى حسبنا ارضها تتصدع

فلعلنا هنا على ذكر من قول الشاعر منشدا عبد المومن بجبل طارق :

اين المفر وخيل الله فى الطلب

وكان قد ابتدأ البيت بقوله :

ما للعدى جنة اوقى من الهرب

فسمع عبد المومن يقول « الى اين الى أين » فتمم الشاعر بيته ، بقوله : اين المفر وخيل الله فى الطلب

ولما اتم انشاده قال عبد المومن معلقا على القصيدة بقوله : « بمثل بهذا تمدح الخلفاء » فكان على الشعراء بعدها أن يرددوا هذه النغمة التى اطربت الخليفة حتى سئمناها منهم ، وفيهم ابن حبوس والجراوى والاغماتى أخيرا ، ومعه شاعرنا الامير سليمان الموحدى .

وهناك نماذج أخرى تنزل عن هذا المستوى كما فى الهمزية التى هنأ بها المنصور بفتح افريقية ومطلعها :

ضـــاءت بنـــور ايابـــك الظلمـــاء ... وتبـــاشرت بقدومـــك الارجـــاء

وكنت قد أشرت فى مقدمة الديوان الى أن الشاعر استعان فى هذه بقصيدة عبد الحق بن عطية فى مدح الامير المرابطى عبد الله بن مزدلى : ضاءت بنور ايابك الايام وكذلك الكافية التى انشدها على اثر موقعـة الأرك الهائلة ، فهى كذلك لاتقارن بقصيدة الجراوى فى الموضوع نفسه ، كما نرى فى عرضها :

عزمات جدك للهـدى ما ابركـا ... وغروب حدك فى العدا ما افتكـا
غضبت وما للديـن غيرك ناصر ... لمنابـر الاسـلام أن تتملكـا
شكت الثغور الخطب لما لم يكـن ... الا اليك من الخطـوب المشتكـى
وتخاصمت مهج النفوس بها الى ... حد الحسام فلـم تشـر الا بكـا
والسيف اعدل حاكـم يقضى لهـ ... ـذى أن تصان وهذه أن تسفكـا
قدت الهدى مثـل الصباح تبلجـا ... وحملـت ليلا للـردى محلولكـا
بموحديـن مصممـين عدوهـم ... جعلـوا دليـل الفتح فيه عزمكـا
وبكل اشوس ان ثنيـت عنانـه ... لاك الشكيم كما تـلاك المصطكـى
وبحيث أنكـرت الجياد مراحهـا ... جزعـا وأنكـرت النياق المبركـا
أوطأتهـا هام الكماة فلم تضـع ... الى علـى خـد طريـح مبتكـى
وجعلت أطـراف الاسنـة مدرجا ... وشبا العوالـى للمعالى مسلكـا
فتركت غايـة كل سبـق مبـدأ ... ومنعت غايات العلى أن تدركـا
ومـلأت أسمـاع الزمان مـسرة ... بعد الذى قد ساءه فاستضحكـا
اهنـأ اميـر المومنـين بغـزوة ... قالت لك الاقـدار فيها هل لكـا
وكأنمـا آلـت عليـك اليـة ... ألا ترى بـك فى البسيطة مشركـا
لو أن مـن صيرتـه جزر السبـا ... ع رآك يومـا فى الوغى لأحبكـا
كرمـت نفـوس والحياة لذيـذة ... قد سرهـا من قتلها مـا سركـا
يعقوب يا شرف الخلافة لـم ارد ... الا التيمـن والتبـرك باسمكـا
ان الفتـوح عظيمهـا وجسيمهـا ... لـم تدخـر لخليفـة الا لكـا
تطوى البلاد ولم تزل من غربهـا ... كالكـون بوجـد ساكنا متحركـا

هذى الشـــآم برسلهـــا وبكتبهـــا نفـــرت اليـــك تيمنـــا وتبركـــا
لم يثنها بعـــد الديار عـــن التـــى جعلتـــك حـــلا للحجيج ومنسكـــا

فهذه القصيدة على العموم لا جديد فيها الا هذا التأنق التى ظهرت به فى البيتين آلثالث مع الرابع وقد أوقعها هذا التأنق فى الفتور الذى نجده فى هذا التشبيه بآخر البيت الثامن مما لا يتناسب مع عظمة الموقع وهولـــه . وليس بعد هذا الا صور مرددة فى قصائد المادحين ولكن فى البيت السادس عشر مع الذى يليه معنى لم نجده عند السابقين عليه وان كان تناوله فى حد ذاته لابدع فيه ، بل البدع فى الصورة التى جعل فيها الشاعر هؤلاء الصرعى من الاعداء مسرورين والسباع تنهشهم وتمزق أجداثهم لان الذين صرعوهم كرام بانتمائهم آلى هذا الخليفة فكأنهم لذلك صرعاه ، ولهذا فقد شاركوا الخليفة سروره بهذا آلظفر بهم والنصر عليهم فالنفوس الكريمة تسخو بالحياة وان كانت لذيذة . ثم الابيات الثلاثة الاخيرة تضرب على نغمة أحبها الموحدون وهى الحلم بضم الشرق الى الغرب . وفى تلك الموقعة بالذات كانت رسل صلاح الدين شاهدة بعد ما حملوا اليه كتبه .

وبعد باب المديح فى الديوان يأتى باب الرثاء

والرثاء من الموضوعات القليلة الـــتى تناولها شعراؤنا ، فكـــأن المغاربة لم يكن فى طبعهم هذا النوح والتوجع يبوحون به ويستـــــدرون الدموع فيه ، ويظهرون بمظهر المهيض الجناح ، وان حاول صاحبه أن يحتاط لنفسه فى هذا ، كما فعل أبو الربيع ، وهو يرثى أخاه ، حيث قال :

فلو غير محتـــوم القضاء أطعتـــه لمـــا كـــان منـــي للعـــزاء نصيب
وناب منـــاب الدمـــع فيك مهنـــد خضيـــل برقراق النجيـــع خضيب

بل ان العربى نفسه حاول هذا ، فقال أبو ذؤب الهذلي :

وتجلـــدى للشامتـــــين اريهـــم اني لريـــب الدهـــر لا اتضعضـــع

وان أمثل ما قاله الرجال فى الرثاء والتأبين ، كلمة النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو يوارى فلذة كبده فى التراب ، على كبر وشيخوخة منـــه « ان العين لتدمع وان القلب ليخشع ، وانا بك يا ابراهيم لمحـــزون ، انا لله وانا اليه راجعون » .

ومهما يكن فان قلة قليلة من شعرائنا حفظت لهم مراثي في ذويهم ، وكانوا على اتصال بالاندلس الذى قلدوه فى أدبهم عامة أولهم أبو الزبيع سليمان . اذ لا نعرف من سبقه بالمراثي فى أدبنا ، وثانيهم ابن رشيد فى رثائه لابنه محمد بتلك المرثية المؤثرة التى يقول فيها :

فان التفت فالشخص للعين ماثل　　　وان استمع فالصوت للاذن طارق

وثالثهم أحمد بن شعيب الذى رثى جاريته صبحا بمراث ، يقول فى احداها :

لما ذهبت بكل حسن اصبحت　　　نفسي تعاني شجو كل الأنفس

وغير هؤلاء ، ان صدر عنهم رثاء ، فقد كانوا ماجورين فيه مامورين او مواسين ، كما فعل ابن خبازة ، فى العهد الموحدى الأخير ، وكان على اتصال بالأندلس كذلك ، فقال قصيدته فى رثاء ابن للوزير ابن الجد ، التى استهلها بقوله :

ارجة الصعق يوم النفخ فى الصور　　　أم دكة الطود يوم الصعق فى الطور

وكأن هذا البيت ، يطلعنا على التكلف فى هذا الرثاء ، ويكاد يقول لنا — كما يقول المريب — خذوني ، خذوني ،،،

وكذلك الشأن فى القصيدة التى رثى بها ابو عثمان سعيد الجزولي ، ابن محمد الشيخ السعدى الملقب بالحران ، ومطلعها :

اتروى الامانى والأمانى سراب　　　وتفنى المغانى والمغانى خراب

فهذان الرجلان ، كانا كالمتنبي ازاء الرثاء ، مامورين أو مواسيين ، ولم يكونا معبرين عن دخيلتهما ، كما فعل الأمير أبو الربيع ، وبعده ابن رشيد ثم ابن شعيب .

ولم يرتفع هذا اللون الا قليلا ، وفى العهد العلوى بنسبة خاصة ، الى ان كان العصر الحالي الذى عمل فيه التقليد جدا فصار شعراؤنا يرثون ، وتعلموا من غيرهم ذرف الدموع الساخنة وغير الساخنة ، كما تعلموا غيرها من الفنون التى لم تنبع من منابعهم المغربية الأصيلة ، بل كانت تقليدا للشرق فى جانب والغرب فى جانب آخر .

والنتيجة أن الرثاء غريب علينا ، عرفه أدبنا بعد ما عرف باقي الموضوعات عند شعرائنا خاصة ، فكان أول الراثين أبو الربيع .

وهذا مطلع القصيدة البائية التى رثى بها اخاه ، وأشرنا اليها :

بعيد مدى العمر الطويل قريب ... وان طال عمر فالحياة تريب
وليس عجيبا غدرها بك انما ... ركونك منها للوفاء عجيب
خليلى قلبى للخطوب درئية ... وسهم الرزايا ما أراد مصيب
اتانى نعى ضاق صدرى بحمله ... وصدرى كما قد تعلمان رحيب
فمر بقلب لم تدمل قروحه ... كما مر بالجمر الدفين هبوب
فحتى متى تبرى الرزايا سهامها ... وتقصدنى عمدا بها فتصيب
وحتى متى القى رزايا ممضة ... يكاد لاحداها الحديد يذوب
جريت أبا حفص مليا فلم تفت ... منونا لها فى العالمين دبيب
فلو غير محتوم القضاء اطعته ... لما كان منى للعزاء نصيب
وناب مناب الدمع فيك مهند ... خضيل برقراق النجيع خضيب
فشقت قلوبا فيك لم ترض مثلها ... فداء كما شقت عليك جيوب
ولكن قضاء الله حتم فليس لى ... سواه على حمل الخطوب حسيب
خطوب اذا قاومت اوكدت بعضها ... رمتنى بما لا أستطيع خطوب
فها أنا صبرا للحوادث لم أجد ... سوى عبراتى والعزاء ضروب
مكان بسيفى للقراع وليته ... فلول بخدى للدموع ندوب
فلو آب الف رحمة لمحبه ... لكنت أبا حفص الى تؤوب
فتبصر ما القى ولست بآيب ... فكيف و « زكار » عليك رقيب
غريب ولا كالحى يرجى لقاؤه ... ولكن غريب ما تقول غريب
بحيث شدا الكندى قبلك الفه ... « أجارتنا ان الخطوب تنوب »
فيا عمر الادنى الي وقبره ... تكل شمال دونه وجنوب
يقولون لى صبرا ونار تلهفى ... لها بين أحناء الضلوع وجيب
وكيف أبا حفص اطيق تصبرا ... وبين الأسى والصبر فيك حروب
فان ذبت صبرا أو اسى ما علمتنى ... على احد الا عليك أذوب
فسقى ثراك صوب غمامة ... تسح عليك رحمة وتصوب
واعطاك رضوان الذى أنت جاره ... بحيث يلذ الملتقى ويطيب
وملأ ذاك القبر نورا وانه ... سميع لما أدعو به ومجيب

انها القصيدة المؤثرة الجزلة بأسلوبها الفائقة بمعانيها باقى مراثيه ، أما تناوله لعناصرها فهو فى هذه القصيدة ، ينظر الى الحياة نظر المتأمل فى حقيقتها المعتبر فى مآلها ، فيقول انها لا أمان لها ولا بقاء لحالها فمداها وان طال ، فهو وشيك النهاية قريب ، فهذه الحياة ، وان طال حبل العمر فيها ، تبعث فى أصحابها الريب من امرها . وهذه قضية مسلمة ، ولا عجب منها ، ولكن العجب انما هـو من الانسان الذى تستهويه الحيـاة ويخلد الى وفائها الموهوم منها ثم جرد من نفسه رفيقين له كعادة العرب قديما ، وصار يبثهما ما يلاقى من مصائب فى هذه الدنيا ، مصائب تتـرى واحدة بعد أخرى لا تنقضى ولا تمهله ، كأن صدره دريئة لسهام الرزايا . تتلقاها لا تحيد عنها ، وأفصح عن ذلك فى البيت بعده ، بأنه قد جـاءه بما ضاق صدره عن تحمل نعيه ، وان كان معروفا لهم برحابة الصدر وتحمل الأهوال ، لقد مر هذا المصاب الجلل بقلب لم تضمد جروحه ولم تدمل قروحه ، من مصاب آخر تقدمه ، فكان هذا بمثابة هبوب الرياح على الجمـر الدفين ، الذى كاد ان ينطفى ويهمد ، لولا اثارة الرياح وشبها لتلك النيران من جديد ، وهنا ينفجر باللائمة على هذا الدهر ، فحتى متى يستمر فى تلقى الضربات القاصمة منه ، وحتى متى تبقى الرزايا تريش له السهام وتبريها فتقصده بها ، عامدة فى غير شفقة ولا رحمة ، انها لرزايا ممضة حقا فتاكة هدامة ، ولو سلطت احداها على الحديد لذاب من شدتها ولهيبها . ثم تمثل أخاه الفقيد فصار يخاطبه ، بأنه لو لم يكن حنفه قضاء وقدرا وعلـى الانسان أن يسلم أمره لهما لكان قد امتشق الحسام واخذ له بالثار ، ولما كان له عزاء ولا سلوان عن هذه المصائب التى حلت به ولكان قد حل محل الدموع سيوف تتخضل دماء ، فكانت القلوب تشق من اجله ، كما شقـت الجيوب من الحزن عليه ، والحسرة من فقده .

ولكن قضاء الله حتم على كل احد ، فليس له اذن ، الا أن يتحمل المصيبة فى صبر ، ويحتسب أمره لله ، الذى ليس له غيره حسيب ومع هذا فهى خطوب عظام ، لا يمكن أن تقاوم شدتها ، فلو حاول بعضا منها لرمته بما لا يستطيع تحمله ، وعلى هذا فهو لا يجد مـن نفسـه الا العبرات منهمرة ، فهى عزاؤه الوحيد ، والعزاء ضروب وانواع ، فهى بخده ندوب ، كما أن بسيفه ندوبا من قراع الأبطال وان حبه لاخيه لشديد ، بحيث

لو كان الحب الجم يجعل الآلاف يؤوبون الى محبيهم رحمة بهم وشفقة ، لكان أبو حفص أخوه يؤوب اليه فيبصر منه ما يعانى من آلام الفراق ، وما ينجرع من مرارة الفقدان ، ولكن هيهات ، وجبل زكار رقيب عليه ، لا يتركه يغادر مكانه مع أنه غريب بذلك الجبل، ولكنه ليس كالغرباء، يعودن الى أهلهم بعد الغربة والافتراق ، فيرجى منه اللقاء ، ولكنها الغربة الأبدية واغرب منهـا ، ما يقـال فيها ، ومن قبـل شدا امـرؤ القيـس فى مثلهـا

« اجارتنـا ان الخطـوب تنـوب   واني مقيـم ما أقـام عسيـب »

فياعمر الأدنى الى قلبى ، البعيد مكانه عنى ، بحيث تكل عن قبره ، ريح الشمال والجنوب ، التى تهب علينا من بعيد ، انهم يقولون لي صبرا ، وكيف لي بالصبر أطيقه ، وبينه وبين الأسى حروب ضروس ، لا يهدأ أوارها ، ولا تنطفى نار لظاها بين أحناء الضلوع الواجبة الخافقة ، فان ذبت صبرا أو أسى ، فأنت عليم بأنى ما كنت لأذوب على أحد سواك ، وما كانت نفسى تذهب عليه حسرات .

فسقى الله ثراك ، بصوب الغمام ، يسح عليك رحمة ويصوب ، واعطاك رضـوان الـذى انت جاره ، وهـو ابونا ، فيلذ لكما الملتقـى ويطيب لكما الأنس ، وملأ ذلك القبر نورا من لدنه ، فانه سميع الدعاء مجيـب .

بهذا تنتهى المرثية ، التى ابدأت واعادت فى التعبير عن هذا الحدث الأليم ، على طريقة الاعراب ، تتخللها موعظة واعتبار ، وتتجاذبها تعاليم الدين ، والرضى بقضاء الله ، ثم الدعاء بالرحمة والغفران ، والرضوخ الى الصبر ، وان كان لا يطاق .

وله فى هذا الأخ قصيدة اخرى ، دون هذه فى تصوير الفاجعـة ، استهلها بقوله :

نعى المجـد ناع فأبكـى السمـا   واسبـل دمعـا لهـا عندمـا
نعـى اطيـب النـاس جرثومـة   وخـير ملـوك الدنـا منتمـى

الى أن يقول :

احقـا ابو حفـص المجتبـى   الى جـدث شخصـه اسلمـا

فكم معرك قد غدا عاطلا وملحمة اصبحت أيما
فلو انها تستطيع البكا اقامت على قبره مأتما
فمن ذا ينبه ان ايقظت حروب العدى الأعين النوما
ومن ذا يجرد ان اوقظت عيون المها الصارم المخذما
ومن ذا يسدد فى مأزق لطعن نحور العد اللهذما
ومن ذا يجود على معشر ويلبس ثوب الغنى المعدما
فلا تدع سقيا لبطن الثرى فقد اودع المطر المثجما
وقل للغمام رويدا فقد كفاه بأن ضمن المرزما
فقد أودعوا البحر فى رمسه على حين كان ندى قد طما
اما لو شققنا عليك الجيوب فلم نأت فى فعلنا مأثما
ولكننا نأتسى فى الأسى بعلم النبى الذى علما (1)
فنجعل آدابه شرعة ولا نتعدى لها معلما

والأبيات الثلاثة الاخيرة فيها ضعف تركيب وفتور معنوى .

وبعد الرثاء يأتى النسيب ، وفى أوله هذه القصيدة البديعة لما فيها من حوار وقص ووصف ، كما نجد عند ابن ابى ربيعة :

اقول لركب ادلجوا بسحيرة قفوا ساعة حتى ازور ركابها
واملأ عينى من محاسن وجهها واشكو اليها ان أطالت عتابها
فان هى جادت بالوصال وأمعنت والا فحسبى ان رأيت قبابها
وقفت بها اشكو واسكب عبرة على غير بين ما علمت سكابها
فأومت برخص من بنان مخضب وحطت على البدر المنير نقابها
وقالت أيبكى البين من قد أراده ويشكو النوى من قد أطار غرابها
اليك فخذها لاسلام مودع ولكنها نار نريد التهابها
فلا عجب أن قد سكرت وانما هى الخمر ارشفت الغداة حبابها
ولما تناءت دارها وتباعدت وعاقت على بعد المزار خطابها
كتبت اليها اشتكى الم النوى لعلى أرى يوما الى كتابها
وكنت أرى أن الجواب تعلل فقد زاد ما بى اذ رايت جوابها

وقد جعل ابن سعيد « الغصون اليانعة » الأبيات من مشهور غزله ،

(1) يشير الى ما قاله النبى وفعله عند وفاة ابراهيم ابنه ، وتقدم ذكر ذلك .

وذكر اربعة منها الثلاثة الاولى ، والرابع هكذا :

فقبلتها فـــوق اللثام فقال لـــــى هى الخمر ارشفت الغداة حبابهـــا

وعلى كل فهذا نسيب باهر : فيه توديع ولوعة ، وفيه حسرة وعتاب ، وفيه تمل بالنظرة واختلاس لضمة العناق والقبل ، ثم فيه تراسل وتشك بما يجد من لوعة النوى ووصف التجاوب منها وما كان له من انعكاسات مفاجئة له .

ولكن لا شيء بعد ذلك فى وصف الحبيبة الا ما كان من « محاسن وجهها » ورخص بنانها المخضب ثم العود الى الوجه بالبدر المنير واخيرا رضابها المسكر ، وكل ذلك لا يحمل جديدا ولا يبعث فى الصورة فتنة (1) بل فيه فتور بنحو « واشكو اليها ان اطالت عتابها » .

نعم ان طابع القصة فيها ، ربما راق اولئك الباحثين عن القصة فى ادبنا ، وهي على اختزالها فى الابيات ، لها حبكة الاقصوصة وان لم يهدف الشاعر الى اتقانها ، وهذا فى نظرنا ما يزيدها اعتبارا ، عند الناقديـــن الطلقاء فى نقدهم .

وباب النسيب هو اوسع الابواب فى الديوان ، يشمل اغراضا عديدة ، كما يضم اساليب متنوعة ، ومن الجديد فيه بالنسبة للأدب المغربى ولما سبق من مراحله بالخصوص وصف مجالس الخمر وما يتبعها ، كما سنرى ، وسبق منا أن اذعنا (2) فى سبيلها نماذج، قارنا بعضها بما هو فى رباعيات الخيام ، وغالب خمرياته ، كان ممزوجا بغيره ، ومرتبطا بالزمان والمكان ، وما يعتورهما فى تلك اللحظات ، التى يعتبرها خلسة .

يقول ابو الربيع فى هذا الغرض :

تنبـــه تـــرى ديمـــــة تمطـــــر ووجـــه الصـبـــاح لهـــا يسفـــر
وكالنـــــد لكـــــن كافـــــوره بـــدا فيـــه واكتتـــم العنبـــــر
على حـــين فل الدجـــى مدبـــــر وللصبـــح فى اثـــــره عسكـــــر

(1) وحتى المكاتبات بين المحبين نجدها كثيرا فى شعر ابن ابى ربيعة المذكور .
(2) سابقين ، واخبرنا بعد ذلك بتاليف الدكتور الجرارى فيها ، ولم نطلع على هذا التاليف

وبــين الغمــام وممطـوره — مـن الروض كالحـرب أو اكثـر
اذا التـاح من بـرق ذا ابيـض — تأطـر مـن غصـن ذا اسمـر
وللقطر فى جيد غصن النقـا — لآل مـن المـاء أو جوهـر
وفى عاتـق الـروض من سيفـه — نجـاد ولكنـه اخضـر
كـأن الـرذاذ عـلى زهـره — يفـت مـن المسـك أو ينثـر
وما عبـق الـروض طيبـا لنـا — ولكنـه للحيـا يشكـر
تنبـه الـى شرب مشمولـة — يطـوف علينـا بهـا جـؤذر
يـدل صفاهـا واشراقهـا — عـلى ان مـن خـده تعصـر
لبابـل فى جفنـه نفثـة — وللحسـن فى خـده أسطـر
اذا شـاء أرسلهـا نظـرة — فتسكـر أضعـاف ما يسكـر
فيـا عاشقـين عـلى رسلكـم — مـن الشرب ساقيكـم أحـور
متـى تستفيقـون سكـر مـن — اذا فنيـت خمـره ينظـر

هذه القصيدة تبـدو فيها شخصية هـذا القائد الحربى ، فانـه بالرغم من كونه واصفا لجمال الرياض وأرج الأزهار ونسيم الصباح وغير ذلك من مباهج الطبيعة ، جعل ذلك الوصف قائما على ما اعتاده فى خوض المعارك والحروب ، فالصبح عسكر يتعقب فل ظلام الليل وهو منهزم ، أو الدجى المدبر ، والمطر يسقط على الروض فيحدث أصواتا كأنها الاصوات التى تسمع فى الحروب أو اكثر وان لم يوفق فى هذا وشانه كلمة اكثر . وهذا البرق يبدو وكأنه السيوف البيض تلمع ، وتتقاطر من هذه الاغصان مياه كدرة كأنها الرماح فى سمرتها لما كانت تتحمله من غبار وأتربـة . ولكنه رق بعد فى جعل قطرات المطر على جيد غصن النقا لآلىء من ماء أو جوهرا وان كان ذكر الماء فتر من بهاء الصورة ، ثم عاد الى حاله ، فجعل على عاتق الروض من سيفه نجادا أخضر وهكذا وجدنا هذه الاوصـاف حربية ، وهذا طبيعى ، فكل يصف ويشبه ، اذا كان صادقا فى وصفه وتشبيهه بما يعتاده فى حياته ، وبعد هذا نجده يرق مرة اخرى ، فالرذاذ على الزهر يفت مسكا أو ينثره ، والروض ما عبق طيبا الا ليشكر الحيا ، ثم يتوجـه الشاعر الى رفيقه فيحثه على شرب معتقة من بد ساقيه الجميل (1) وهذا

---

(1) ولعل الابيات المبدوءة بهذا مستقلة عن سابقتها ، كما نرى ان البيت السابع حقه ان يكون سادسا ، كما أن الثامن من حقه أن يأتى بعد المذكور سادسا وحقه ان يكون سابعا .

جديد عندنا لم تذكر صراحة فى السالفين من شعرائنا ، كما ذكرها شاعرنا ، وجعلها فى صفائها واشراقها ، كأنها عصرت من خد هذا الساقى الساحر بجماله البابلى ، والمذهل بنظراته ، ثم ينصح شربه بالمهل . فهذه الخمر ان نفدت فان سكرهم سيستمر من نظرات ساقيها الجميل وبذلك فلن يصحوا من سكرهم هذا .

ومن خمرياته قوله : داعيا الى المنادمة والشراب ، بعد ما ولى رمضان واقبل شوال ، يغرى بالمعتق من الخمور ، وطالما اشتاق هو اليها ولهذا يلح فى طلبها ليكرع من كبار كؤوسها مع صحبه :

شوال يدعو بالشراب البالي	فأصخ اليه ولا تكن بالسالي
اني اليه لعاشق متشوق	فابعث الي به بغير مطال
واستعمل الكأس الروية واسقين	جلساءك الندمان بالعلال
حتى يخروا راكعين وسجدا	لا يعقلون لسورة الجريال
وصل العبوق الى الصبوح ولا تكن	فى شربه بالعاجز العطال
وانعم اخى فى غبطة موصولة	لا تنقضي حتى الى الدجال
والدهر ياتي كلما تهوى على	ما تشتهي فى سائر الاحوال

وكأنى بشوقى رحمه الله ، اطلع على هذه الابيات ، وهو بالديار الاسبانية ، أو الديار التركية ، حيث ديوان الشاعر ، فقال قصيدته :

رمضان ولى هاتها يا ساقي	مشتاقة تسعى الى مشتاق

ومهما يكن فهذه خمرية عارمة ، تدعو الى السكر المطبق ، ولا تتورع ان تقحم « الركوع والسجود » الى جانب التعبير العامي وهو « بالعلال »

ويقول من أخرى :

افدى الذى اهدى الكؤوس بكفه	وأراحني من هجره وعتابه
فمدامتي من كأسه ولحاظه	وتنقلي برضاه رشف رضابه
فلئن سكرت لقد شربت مزاجها	من ريقه وجفونه وشرابه

ومن تأنقاته قوله فى هذا الساقى الجميل الذى أسعفه بالوصال، وأراحه من الهجر والعتاب ، فكان له سكرات ، من لحاظه ورضابه وكؤوسه ،

دونها نشوتا أبى نواس بقوله :

« لـــى نشـوتان وللندمان واحـــدة | شيء خصصت به من بينهم وحدى»

وكذا قوله : فى هذه الجميلة آلتى كانت تسقيه فصرف عنايته الى جمالها وقوامها وحليها وحركاتها ، وطباعها ، وما تبعث من فتن ويحذر من فتكات الحاظها ، ثم ينتهى الى تأنقه فى تناول شرابه :

من لي بها مثل الغزالـــة منظـــرا | ماء الجمال يجـــول فى وجناتهـــــا
خودا تـــرى أن الوصـــال اساءة | وتعد طول الهجـــر من حسناتهـــا
سلت لواحظهـــا عـــلي سيوفهـــا | فحـــذار ثم حـــذار من فتكاتهـــا
بهـــرت محاســـن وجهها فكأنهـــا | بدر الدجـــى يلتاح فى صفحاتهـــا
والنجـــم يخفق فـــوق أتلعهـــا ولا | كمقلـــد الجـــوزاء فى لباتهـــا
وكانما لدن الغصون اذا انثنـــت | سرقت ليان العطف من حركاتهـــا
قامت تميـــس وكفهـــا مخضوبـــة | بشعاع ما قد ضاء من كاساتهـــا
وتشاركـــا فخضابها من راحهـــا | لكنمـــا الاسكـــار مـــن لحظاتهـــا
نفسى الفـــداء لها شريكة كاسهـــا | فى لونهـــا وصفائهـــا وصفاتهـــا

وهكذا رأينا أن هذه القطعة من اجمل ما واجهنامن خمريات الأمـــير أبى الربيع فمزج هذه الخمرية الانيقة حقا بما زانها من التغزل فى هذه الفاتنة بجمالها ، الساحرة بفنونها .

ومن خمريات قوله مخاطبا نديميه ليسقياه ، فينفيا الهم الجاثم على صدره ، فهو عاكف عليها ، لا يصغي الى لائمه ، فهذا لا يفهمه كما تفهمه هذه الخمر المعتقة الشجيعة مثله ، أنه يحث الكاس ، مع هؤلاء الجميلات ، وظنه بالله جميل ، فهو ضامن بهذا النجاة لرفاقه ، يدعوهم فلا يضيعوا فرصة فى هذه الرياض اليانعة أغصانها الغناء بها وبعصافيرها :

يا خليلي اشربا واسقياني | وانفيا الهم ببنـــت الدنان
أنزلاهـــا درة كالآلـــى | وارفعاها وردة كالدهـــان
خمرة تذكرنى عهد كســـرى | وابن ساسان وعبد المدان
لست أصغى لعذول عليها | شان من يعذلني غير شان
فأنا وهى شـــج ما أردنـــا | فاهمان بالضنـــا عارفـــان

ان تشكا فى ضناى فسلاها — أو تشكا فى ضناها فسلاني
من يحث الخمر فى غير كبر — هائما بالغانيات الحسان
ويكون الظن منه جميلا — كل ما يلحقه فى ضمان
فاغتبقها يا خليلي ولاء — واغتنم نومة عين الزمان
حيث عود الروض عود فصيح — ومن الأغصان فيه مثان
ومن الطير قيان عليها — ومن الزهر ستور القيان
واذا الشمس أوان الغروب — لونها احمر كالأرجوان
عندما تسقط فى الماء نارا — يصعد الليل كمثل الدخان

فهذه قطعة خيامية ، مزج بها الفرح بالهموم ، والتمتع باللحظة قبل اطباق المنون ، واشراك الخمر فى تلك الأحاسيس ، التى تبادل صاحبها وهذه كآبة فى قوله حاضا على الشراب ، وقت الصباح ، لان الطير على الجبال تغرد ، بدعائها الى الصبوح ، فاغتنم وانهض فانك ستنام طويلا فهى نغمة خيامية كذلك :

اتاك بالصبح غريد على علم — يقول قم فاصطبح يكفيك لا تنم
اما ترى الليل قد مالت كواكبه — وقام للصبح داعيه على قدم
ولى وجيش بياض الصبح يطرده — فعل المظفر فى أعقاب منهزم
لا توثر النوم فى حال تضن بها — لكم تنام طويلا بعدها وكم
وقد نصحتك فى شرب الصبوح فلا — تضيع النصح انى غير متهم

وقف فى هذه القطعة ، موقف ابن التمار فى قوله :

« أما ترى الليل قد ولت عساكره — مهزومة وجيوش الصبح فى الطلب»

ونحوه قول الرفاء :

« أما ترى الصبح قد قامت عساكره — فى الشرق ينشر أعلاما من الذهب »

وكذا يقول التنوخى :

« أما ترى البرد قد وافت عساكره — وعسكر الليل كيف انصاع منطلق»

ومن تأنقه فى الخمريات هذه القطعة آلتى كرر فيها ما سبق فى قطعتين

سالفتين ، وهى فى منتهى التصنع خصوصا بالبيت الاخير منها فقال :

سقانـــي الراح سلســـالا عتيقـــا ... وعـــوض من مزاج المـــاء ريقـــا
هلال يـــزدرى بالشمس حسنـــا ... فـــلا وجد المحـــاق لـــه طريقـــا
اذا مـــا الشرب أعوزهم رحيـــق ... فمـــن أجفانـــه يسقـــي رحيقـــا

ومن أجملها هذه القطعة التى مزج فيها الخمر بالغزل ، وزادها جمالا هـــذا الوزن المترنح ترنح ذلـــك الشادن الغنج الآتى ذكره كمـــا نرى لطفا بصورها لولا البيت الخامس منها الذى لاكه الشعراء كان عندنا آخرهم الأغماتـــى :

الا ياصـــاح حـــث الكأ ... س ثغر الصبح مفتـــر
ولا تبخـــل علـــي بهـــا ... فقد طابت لـــي الخمـــر
بكفـــى شادن غنـــج ... يميـــل وما بـــه سكـــر
أنا السكران من مقـــل ... ثوى فى حشوها السحر
أيـــا مـــن قده غصـــن ... ومـــن صفحاتـــه بـــدر
تحمـــل خصره دعصـــا ... فيشكو ثقلـــه الخصـــر
سبـــى قلبـــي وعذبـــه ... فهـــل فيما أتـــى عـــذر
سينبـــىء لحظه عنـــه ... اذا مـــا أشكل الأمـــر

فالقطعة لا تقل جمالا ، عن خمريته التالية ، لـــولا البيت الـــذى أشرنا اليـــه .

« تحمـــل خـــصره دعصـــا ... فيشكـــو ثقلـــه الخـــصر »

فهو بدوى صحراوى .

وكذا قوله فى هذه التى تعرض فيها للربيع ، ولأيامه الغر بثمارها ، العطرة بأريجها ، الزاهية بألوانها ، الغردة بطيورها ، ثم انتهى الى مجالس الأنس التى يديرها جميل :

للـــه يـــوم اينعـــت تمراتـــه ... سفرت لنـــا عـــن وجهها لذاتـــه
وتهللـــت فرحـــا أسرة وجهـــه ... ونبـــاشرت بلقائنـــا وجناتـــه
يـــوم مـــن الأيـــام الا انـــه ... رقـــت حواشيه وغاب وشانـــه

القى الربيــع عليــه حلة وشيــه   فتضوعــت بنسيمهــا نفحاتــــه
والطير تصفر فى الغصون كأنهــا   وتر تشـــوق قلوبنــا نغماتــــه
والانـــس مبثـــوث يدير كؤوســـه   رشأ تغايــر فى الجمال صفاتــه
لــم يدر شاربهــا لحسن جفونـــه   أمدامـــه صرعتـــه أم لحظاتــه

فالجمال يتجلى فى هذه ، ببث الانسية فيها ، كما سبق فى الأخرى ، فاللذات كانت محجبة فسفرت عن وجهها ، وحسرت عن خمارها ، واليوم قد تهللت اسرة وجهه ، فرحا وسرورا بهم ، ونباشرت وجناته بلقائهـم ، والربيع قد القى عليه حلة وشيه ، والطير على أغصانها ، تصفر كأنها وتر ، تشوق نغماته القلوب (1) .

بعد هذه نجد قطعة أخرى بداها بذكر حبيبته التى اتيح أن يتلاقــى معها بعد الفراق فى يوم شكره . ثم شكر الفراق الذى به عرف فضل التلاق واخيرا عرض للشراب ، بما عرض به من قبل ، فقال :

للـــه يـــوم وجهـــه منهلــــــل   مــلأ القلـــوب محبـــة وسرورا
بلقاء من سمـــح الزمان بقربــــه   وشفى بتعجيـــل الاياب صـــدورا
فأدال من سمـــر الحداة حديثـــه   وادال من شجوى الطويل سرورا
لا ذنب بعد اليوم عنـــدى للنوى   أن صيرت وطن الحبيب مـــزورا
سبـــب البشـــارة باللقاء فراقـــه   لولا الفـــراق لما رأيـــت بشـــيرا
فارفع شموسا من رحيق سلسل   واذا شربـــــت فالقهــــن بدورا
فى ود مـــن الـــف النفـــار تدلــلا   وسطا علي فما وجدت نصـــيرا

وهذه أخرى يقول فيها ان الجو قد طاب للمنادمة والشراب ، فيدعو رفيقه للانغمار فيه ، ومصاحبة غادة جميلة ، تفوق البدر فى جمالها والغضن لدن قوامها :

الجـــو يبكـــى بدمـــوع سجـــــام   والروض يبدى عند ذاك ابتســـام
فافضض مـــن الدن لنا ختمــــه   فـــأول اللـــذة فـــض الختـــام

---

(1) وان كان التعبير هنا خانه ، حيث جعل الطير « تصفر فى الغصون » وترا ، وتقدم لابـــن زبباع ما يفوق هذا ويفضله وهو :

والطيـــر قد خفقـــت عـــلى افنانهـــا   تلقـــى فنـــون الشـــدو فى أسلوبهـــا
تشـــدو وتهتـــر الغصـــون كأنمــــا   حركاتهـــا رقـــص عـــلى تطريبهــــا

واسحب ذيول اللهو فى لذة ... واعكف على حث كؤوس المدام
ولا ترى الا الى نشوة ... تصحو فما فى فعل ذا من حرام
وهم بخود يستبي حسنها ... وقدها اللدن قلوب الانام
ان قستها بالشمس أين السنا ... أو قستها بالغصن أين القوام
وعاطها الكأس جهارا فما ... فى الحب لذة وفيه اكتتام

ومثلها قوله فى اخرى :

قم أدر كأس المدام ... قد بدا جنح الظلام
واستقينها سلسبيلا ... عصرت من عهد حام
من يدى احوى رخيم ... لحظه حد الحسام
قد حوى الحسن جميعا ... فسبى كل الأنام

وهى لا تختلف عن الاولى الا فى اقتضاب هذه واطناب تلك .

وكذا قوله فى ساق :

وساق يطوف علينا ضحى ... وكأس المدامة فى راحته
وقد أشبهت راحه خده ... فخلت المدامة من وجنته

فهذا الساقى فى الواقع كتلك ما أتى به الا لهذآ التشبيه الجميل ، لا لجماله هو ليسحر به الشاعر .

ومن النسيب قوله فى التلاقى بعد الافتراق (1) :

نقضى بينهم فشفى ولوعى ... وسكن لوعة القلب الصديع
تقضى بعد أن قد كاد يقضى ... على نفسى بانلاف الهجوع
دنوا فتألقت نار اشتياقى ... لهم كتألق البرق اللموع
تلاقينا على كأس فكانت ... تحيتنا مساجلة الدموع
فلو ابصرتنا يوم التقينا ... كما التقت الظباء لدى الشروع
بكينا فى الفراق وفى التلاقى ... فلم تخل المدامع من هموع
فيوم فراقهم أسفا عليهم ... ومن فرح بهم يوم الرجوع

---

(1) وفيه من الخمريات ما نجد فى البيت الرابع منها .

ويقول فى تاميل التلاق بعد الفراق :

حسب الهوى من قتيل الحب مصرعه ... وحسبه منه مـا تحويه اضلعـه
يروم كتمان ما يلقى أسى وضنـى ... فكلمـا رامـه أبدتـه اضلعـه
قالوا تعز وقد بانوا فقلت لهـم ... كيف العزاء وأدنى البين اوجعـه
أصاب سهم النوى قلبى فأثبتـه ... فصار موضع من أهواه موضعـه
لا عـذب الله قلبـا بالفراق ولا ... سقاه من صابه ما بت اجرعـه
لا تعذلونـى فما اصغى لعذلكـم ... صمت عن العذل اذنى ليس تسمعه
وادعوا لنا فعسى من شت شملهم ... بعدا، وشملـى يعافيكم ويجمعـه

والغالب انه نظر فى هذه الابيـات ، الي قصيدة محمد بن زريـق البغدادى :

لا تعذليـه فان العـذل يولعـه ... قد قلت حقا ولكن ليس يسمعـه

فهذا المطلع هو ما تضمنه البيت قبل الأخير ، أما الاخير منها ، فيحاذى البيت الأخير من القصيدة المذكورة :

عل الليالـى التى اضنت بفرقتنـا ... جسمى ستجمعنى يوما وتجمعـه

وعلى هذا فان البيتين الأخيرين من أبيات شاعرنا ، يفصحان بأنه نظر فيها الى قصيدة ابن زريق والتزم وزنها وقافيتها تماما .

ويقول مبشرا بالعودة الى الحبيب :

يا أم حفصـة والمطي بنا علـى ... قرب من العذب الشهـى المورد
هل بلغنك الريح انـى قـادم ... ومسلـم ان شاء ربي فى غـد
وممتـع من ناظريـك لو احظـا ... مذ شط عنك مزارهـا لم ترقـد
للـه أيـة عزمـة وسريـرة ... صرفت عـن الامر الاهم الاوكـد
فأتتك تنفح فى الربـى لم يثنهـا ... حر الهجيـرة فى الفلاة الفد فـد
بأغر كالغصن الرطيـب قوامـه ... وأغن كالظبـى الغرير الاغيـد
فينانـة فرعـاء تحسب عقدهـا ... بالمرزمـين وقرطهـا بالفرقـد
صاغت لها شمس الاصيل سوارها ... يا حسنه من عسجد فى عسجـد
كيف امتنعـت الوفنا من وصلنـا ... هذى الزيارة لـم تكن فى موعـد

ندعــوك للقيــا وأنــت أبيــــة   من يعشــق الالحاظ غير مفنــد
تلك اللحاظ وان شربت سلافهــا   عجبا لســاق منهمــا ومعربـــد

ونحو هذا يقول مبتهجا بورود كتاب بشر بابلال الحبيب من مرضه :

شفــى ابلالكــم حــــر الغليــل   وأبــرأ سقــم مشتــاق عليـــل
وآنــس وحشــة أودت بنفــسى   وما ابقت ســوى جســم نحيــل
فضضـــت كتابكــم فوقفت منــه   على مـــا ســر من خيــر جزيــل
فسرى مـــا بقلبــى من شجـــون   وكفكــف ما بجفنـــى من همــول
وكــدت اطير مـــن شوق اليكــم   ومـــن وجــد لبينكــم دخيـــل
واني والنـــوى قــذف وسيـــرى   حثيــث فى الحزون وفى السهــول
لأذكركم مــع الساعـــات ذكـــرى   تشوق لدى الغــدو وفى الاصيــل
ومـــا لـــي حيلــة أرجــو دنوى   بها منكــم ســوى صبر جميــل
سأهـــدى ما بقيت لكــم سلامـــا   كريــح الــورد أو ريـــا الشمول

فهذه أبيات تتضمن رسالة عائلية كذلك ، لا دخـــل فيها للنسيـــب

وهذه شكوى وحنين :

رمتنى صروف الدهر من كل جانب   فشكت فؤادى بالسهام الصوائــب
فلو أن هذا الدهر ينصف شاكيــا   لفــرق ما بينــى وبين المصائــب
ولو أنه يجرى على العدل حكمـــه   لجمع ما بينـــى وبين الحبائـــب
لقد غص لما أن رأى جمع شملنـــا   تزيـــن لآليـــه نحـــور الكواعـــب
فما زال يسعـــى فى التفرق بيننا   فلما نأى الفـــي أتى بالعجائـــب
فيا غائبا غـــص الزمـــان بقربـــه   فأسهمنـــى منـــه ضرب النوائب
لئن غبت عن عينى لشخصك حاضر   مقيم بأثنـــاء الحشى غير غائـــب

ويلاحظ فى هذه القطعة صورة مكررة ، فى المصراعين :

لقد غص لما أن رأى جمـــع شملنا   فيـــا غائبا غـــص الزمان بقربـــه

أما البيت ؛ فما زال الخ فهو ولا شك من قول ابى صخر :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينهـــا   فلما انقضى ما بيننا سكن الدهـــر

ونحوها قولـــه :

كيف التصبـــر والاشـــواق تزداد ... والدار تنـــأى وما للوصل ميعـــاد
والدهر قد عاق عن لقياكم حســـدا ... والبـــين جيـــش والافكـــار اجناد
فكلمـــا قربـــت منـــى دياركـــم ... ينأى المزار كـــأن القرب ابعـــاد
فالقلب فى حرق والجفن فى أرق ... وللبلابـــل اصـــدار وايـــراد
والدمع يـــزرى بقطر المزن وابلـــه ... وللجوانـــح ابـــراق وارعـــــاد
فلو تركت ركبـــت الهول نحوكـــم ... وان وشى بـــي أعـــداء وحســـاد
انـــي وان فاتنـــى عيد بربعكـــم ... حسبى بلقيـــاك أعراس واعيـــاد
اذ نلتقى حيث ثغر الروض مبتسم ... والنهر مضطـــرب والغصن ميـــاد
يا قرب الله ذاك الروض ان بـــه ... تاللـــــه ما شـــــاء وارد ووراد

فما أصدق هذه الابيات وما ابدعها ، لولا هذا البيت المتصنع فيهـــا المفرط بمبالغاته :

والدمع يزرى بقطـــر المزن وابلـــه ... وللجوانـــح ابـــــراق وارعـــــاد

ولولا هذا الفتور فى البيت الأخير ، وقد لبيت الصناعة بنهايته فى رواد ورواد .

ويقول فى الربيـــع :

حـــي الربيع بما وشت أزاهـــره ... ونظمت من أكاليـــل على الشجـــر
ودبجت فوق متن الروض من حلل ... ونمقتـــه بألـــوان مـــن الزهـــر
من نرجس ساحر الالحاظ ذى غنج ... ومن اقاح نقـــى الثغر ذى اشـــر
هذا يضاحك وقع الطل عن شنب ... وذا يلاحظ عطف النهر عن حـــور
بما تضوع روض الزهر غب حبـــا ... تأكد الشكر للنعمى على البشـــر
لا يحسب الناس ان الروض فاح لهم ... طوعا ولكنـــه يثنـــى على المطـــر
وفى الثناء جـــزاء ما نظمت ولـــو ... لم ينظم المدح فى الاشعار لم يسر
سرى مـــع الليل خيرى وربتمـــــا ... لاقـــى النسيم فؤادا أطيب الخبر

نلاحظ أن الابيات بدأت على نسج بديع ونظم لم ينخرم الا بنهاية البيت الثانى عند قولـــه :

ونمقتتــه بألــوان مــن الزهـــر

اذ الضمير المستتر فى نمقت عائد على الأزاهر فيكون التعبير هكذآ « نمقته الأزاهر بألوان من الزهر ، فلو وقع الضمير محل الظاهر وهو الزهر ، لسلم التعبير بجلده البلاغى ، اما وهو كما هو فلا محل فيه للخروج عن مقتضى الظاهر ، ولزم « نقتمه بألوان منها » والبيت الخامس ، وهو بما تضوع الخ ، يمهد للبيت السادس ، لا يحسب الناس الخ ، وهو قضية رددها الشاعر وسبق منها قوله :

وما عبــق الــروض طيبا لنـــا	ولكنـــه للحيـــا يشكـــر

وهذه التفاتة جميلة لو اقتصر فى هذه الابيات ، ولكنه انطلق منها الى نفسه ، حيث جعل الثناء عليه جزاء ما نظم ، لأنه كما قال « ولو لم ينظم المدح فى الاشعار لم يسر » فهذا وجوم ما اشد ما كنا عنه فى غنى ، ونحن نمرح فى هذه الرياض ، ونطير بخيالنا ، فنقع كالطيور على اكاليل من دوحها ، والطبيعة يضاحك بعضها بعضا وعراسها تتبدى فى غنج فينبعث ارج العطر فوحا .

وقوله فى قطر الندى ، متخلصا فى ذلك الى بث شوقه واستعادة ذكرياته الجميلــة :

وقطر الندى خاف على الحس وقعه	يحوك من الازهار وشيا محبــرا
وينظم اجيــاد الغصون فلا يــرى	ويعلق اذن الآس قرطا مجوهــرا
لقد شاقنى انس تقضى جميعـــه	ولم يبــق للمشتـــاق الا تذكـــرا
الا هل لذاك العهد بالروض عودة	فنصهر غصن الوصل ريان اخضرا
وعـــل صبــاه ان يجود بنفحـــة	يطيب شذاها ممسيا ومسحـــرا
وما لنسيــم الريح عطر بطبعـــه	ولكن اتى مـــن نحوكم فتعطـــرا

فهذه المناجاة التى باح بها البيت الأخير ، هى وحدها ما يناسب النسيب ، والا فباقى الابيات لا نسب له فيه .

وقوله فى حمامة مغردة :

وهيـــج لوعتـــى ورقـــاء بانـــت	علـــى فنن ولـــم تطعـــم رقـــادا
تـــردد نوحهـــا فى جنـــح ليـــل	وقـــد لبســـت دجنتـــه حـــدادا

فقلــت لهـــا أمثلـــى انت وجـــدا ... غـــرام حشـــاك يتقـــد اتقـــادا
فـــان قلـــت البعاد اثار شوقـــى ... فأين دمـــوع مـــن يشكو البعادا
فأبداهـــم لـــذى الشكوى جفونـــا ... احرهـــم بلا شـــك فـــؤادا

بعد ما ننبه على قوله « بـــلا شـك » لا يليق بلغة الشعراء وأساليبهم الخاصة ، التى جبلوا عليها وعهدناها فى أشعارهم قديما وحديثا ، فهذه الأبيات تذكرنا بمناجاة القاضى عياض لها بقوله :

اقمرية الأدواح باللـــه طارحـــى ... اخا شجـــن بالنـــوح أو بغنـــاء
فقد أرقتنـــى مـــن هديلك رنـــة ... تهيـــج من برحـــى ومن برحـــاء
لعلـــك مثلـــى يا حمـــام فاننـــى ... غريـــب بـــداى قـــد بليت بـــداء

وهذا يذكرنا بقول جهم بن خليفة ، كما فى الحيوان :

وقـــد شاقتنـــى صـــوت قمريـــة ... طروب العشى هتـــوف الضحـــى
مـــن الـــورق نواحـــة باكـــرت ... عشيـــب اشـــاء بـــذات الغضى
تغنـــت عليـــه بلحـــن لهـــا ... يهيـــج للصـــب ما قـــد مضـــى

ويمتاز قول عياض وسليمان بالخطاب الذى توجها به الى هذه الحمامة ، وكان المنتظر ان يخلق حوارا يتردد بينهما ، لكننا لم نسمعه الا من طرف واحد هو الشاعر نفسه ، دون الحمامة التى ظلت غير آبهة بهذا الخطاب ، ولا مجيبة عن ذلك الاستفهام ، وهنا قصور فى الخيال ، وجنوح الى الواقع واخلاد اليه ، فانشطرت الصور الجمالية به ، فلم نبصر الا نصفها ، وغيب عنا نصفها الآخر بخلاف هذا الحوار الذى نجده بينه وبين وبين صاحبته ، وقد جلل مفرقه الشيب :

زوت وجهها لما رات شيب مفرقى ... وصدت بعطف عن وصالى مـــزور
فقلت لها ماذا يريبـــك من فـــتى ... ثوى الشيب فى فوديه كالانجم الزهر
والا كما انشق الصباح عن الدجى ... او ابتسمت لمياء عن وضح الفجـــر
فقالت على غيرى فللشيب قولـــة ... نصـــح ولكـــن فى مخيلة الشعـــر
فان كان عذرا عن شبابك لم نكن ... تحوجك الحسناء قبل الى العـــذر
وهبنى هجرت الصب بعد مشيبـــه ... فانت ابعد الشيب تجزع من هجـــر
جزوعا من الهجران طفلا ويافعـــا ... وكهلا فما تنفك دهـــرك من ذعـــر
فارسلت دمع العين عند مقالهـــا ... واتبعته آها على ذاهب العمـــر

وقوله في بعض مناجاتـــه :

أيا شجـرات الواديـين الى النقا ... بعـين وسيم هـل اليك رجـوع
فحتى متـى نمسى ويصبح شملنا ... شتيتا وشمل الناس فيك جميـع
سقتك على شحط وان كنت نازحا ... غـواد كأجفانى عليـك همـوع
معذبتى حـتى اذا شئـت سلوة ... أتت بفـؤادى من هواك صـدوع

وقوله في هيامه وما يقاسى من همومه :

وكم ليلة كالدهـر طولا قطعتهـا ... ونفسى في سم الخياط لها جـذب
تعللنى الارواح في ظلمة الدجـى ... برؤياه في قرب وان لم يكن قـرب
واصبر محزونا على مضض الهوى ... ولا مسعد يحنو علي ولا صحـب

ويتصل بهذا قوله :

الا صـف لي معاهـد ام عمـرو ... ودع عنـك الرصافة والغميمـا
بحيث الريـح تعرفهـا اشتياقـا ... وحيـث الروض تعرفه شميمـا
وبـين الريـح والروض انتساب ... اذا هبـت عليـه ضحى نسيمـا
لامـر ما تطابقـت السجايـا ... كريـم لـم يثـر الا كريمـا
ويمـسى الجـو مكتئبا عبوسـا ... فيضحـى الروض مبتهجا وسيمـا

ومن هذا قوله :

«وشيبن أيام الفراق مفارقى»(1) ... وانهكن من جسمى وابلين من عظمى
فمهما يرانى الناس قالوا صبابـة ... اضرت به ماذا اعتراه من السقـم
فقلت لهـم ما الأمـر ما قد طلبتم ... الا فاسألونى تخبروا بعد عن علـم
ترادف طول البـين صيرنى كمـا ... ترون وابـدى ما اسر من الكتـم
ووكل طرفى بالسهاد فليـس لـى ... منام ولكنـى رقيب عـلى النجـم
اذا هجع النـوام ارسلت عبـرة ... وعفيت آثـار الركائـب باللثـم
اغالب نفـسى كي أفوز بغفـوة ... لعلي ارى فيها الاحبة في الحلـم
سلام عـلى من في فؤادى محلـه ... ومن عنده روحى وان بان عن جسمى
وان حـل أرضا غيـر أرض ومنزلا ... سوى منزلى ما ذاك الا على رغمـى
سلام محـب اقصدته يد النـوى ... بسهم فأدمـى قلبه موقـع السهم

(1) شطر البيت من شواهد الجناس في البلاغـة .

نلاحظ انه افتتح الابيات بشطرة من شواهد البلاغة للجناس ، ثم استمر فى وصف حاله بصور تسودها البساطة فى الفكرة والتعبير ، وان بدأ فى البيت الرابع يتأنق ، « كما ترون » وثقلت تأنقا فاترا باهتا بألوانه المبتذلة وشفع ذلك بالبيت السادس فالسابع واخيرا استسلم للسلام

وكذلك يقول فى الوفاء ورعى المحبة ، وان كانت هذه الابيات تحتويها مراسلة الأحباب :

لئن غاب عني شخصكم فوحبكم	لقلبى مقيم ما حييت على العهد
وما حال عما كنتم تعلمونه	من الشوق والتذكار والحب والود
وكيف ونفسى لا تحب سواكم	ولا ترعوى حتى تغيب فى اللحد
اذا لذ للنوام طيب منامهم	ارقت لما القاه من شدة الوجد
وكيف يلذ النوم من ظل قلبه	يروع فى كل الاحايين بالبعد
فلو اننى أعطى الخيار اتيتكم	وابلغتكم بعض الذى لكم عندى
ولما الح البين بيني وبينكم	بعثت اليكم من سلامى على قصدى
تحية مشتاق تنوب منابه	لديكم فمنوا بالسلام وبالرد

فهذه فى الواقع مراسلة غرامية ضمنها هذه الابيات التى انطلق فى نظمها على سجيته ولم يتعمد اية صنعة أو حلية بديعية :

ويلاحظ ان بيتا منها نظر الى قول الشاعر :

فلو أعطى الخيار لما افترقنا	ولكن لا خيار مع الزمان

على أن قوله :

ولما الح البين بينى وبينكم	بعثت اليكم من سلامي على قصد

فيه ضعف ، لأن قوله « بينى وبينكم » لا لزوم له ، وقد وصل بالبين قبله ، ثم ان قوله « على قصدى » كذلك لم يات الا لسد ذريعة القافية ويقول فى اخرى من هذا السبيل :

خيالك فى عينى وشخصك فى قلبى	فعهدى سواء فى البعاد وفى القرب
أعوج على دار عهدتك الفها	ولو لم اجد دارا لعجت على قلبى
فالفيتها زهراء ناقعة الثرى	مفتحة الانوار عاطرة الترب

عجبت لها أنـــى تضوع تربهـــــا على طول عهدك منك بالمندل الرطب
ولما أردت الكتب والشوق حافـــز علمت بأنى سابق الرسل والكتب
وما طويــت أرض لنا من كرامـــة ولكننــــا طرنـــا بأجنحـــة الحـــب

والكرامة في البيت الأخير مراد بها كرامة الاولياء الخارقة للعـــادات وهذه اخرى فى السلام والتحية على بعد الدار والبشرى بقرب المزار :

سلام كما فاح النسيم مع السحـــر والا كما انشق الرياض عن الزهر
على من له فى القلب اشرف منـــزل ومن هو مثل السمع عندى والبصر
تحية مشتـــاق تكـــن ضلوعـــــه من الشوق اضعاف الذى لاح للبشر
يود لو ان الريح تلقى اشتياقـــه اليكم فتقضى عنه من حقكم وطـــر
قطعنـــا بذكراكـــم بـــلادا بعيـــدة وهان الذى نلقاه من تعب السفـــر
فلمـــا قضينا مـــا نرجـــى ثوابـــه ولم يبق بعد الورد شيء سوى الصدر
ثنينا عنـــان الشـــوق نحو دياركـــم وليس لنا حاد وهاد سوى الذكـــر
لينتظم الشمـــل الشتيت بقربكـــــم وتغفى اجفـــان اضر بهـــا السهـــر
وتبلـــغ آمال ونقـــــضى مـــــآرب وترتاح نفس من جوى الوجد والفكر
فلا زلتم فى خفض عيش ونعمـــة مجددة مـــا ان يغيرهـــا كـــــدر

فهذه الابيات واضح كونها عائلية ، لا تمت الى ما عرف فى النسيب بسبب ومن ناحية اخرى تدل على ان الشاعر توجه للحج وقضـــــاء ما يرجى ثوابه ، كما يقول ، وهى رسالة كذلك منظومة اشبه ما تكـــون بالرسائل المرسلة المتحررة من قيود الصنعة ، الا ما كان من تشبيه مقتصد جميل .

ونحوه قوله :

سلام كعرف المسك أو هو أطيب وكالوصل بعد الهجر أو هو اعذب
على نازح ان كان أحسن منظرا من النجم فى عينى فالنجم اقـــرب
وفى كل يـــوم لى اليكـــم رسائـــل من الرجل وفدا أو من الخيل موكب
وكنت جديرا ان ازور دياركــــم مع الريح اسرى أو على البرق اركب
فلا تحسبى يا دار من صرت بعدها اجنبهـــا عـــن اختيـــار اجنـــب
وانى لمن يشكو الهوى بمدامـــع لها بـــين اثناء الجيوب نصبـــب
ولكنـــه الأمـــر المطاع تعينـــت اجابتـــه والدهـــر بالناس قلـــب

سقى بلـدا أمسيتم خير مزنه	غمام كعينى دائم الدهر تسكب
ألم تعلمي ياغابة النخل انه	لنا منك فى تلك الخميلة ربرب
وأن لنفسى والهوى يبعث الهوى	على اثره منهن شخص محبب

فهذه مراسلة جميلة رقيقة ، تفوق سابقتها فى فنها الرفيع ، نكتفى بها اخيرا (1) .

ومن الحنين قوله :

الا ليت شعرى هل ترى عيني النقا	بعين وسيم والنخيل مكمم
وهل ترين عينى الرياض وحسنه	وهل اسمعن فيه الطيور ترنم
وهل اجلسن تحت الاراكة ساعة	بحيث يفيء الظل والنهر مفعم
وهل ترجعن ايامه اللاء قد خلت	وهل أنعمن فيه كما كنت انعم
احن اليه صبوة وتشوقى	مؤالفه والقلب بالالف مغرم
فلم ترعيني منظرا مثل حسنه	ولم تر الفا كالذى كنت أعلم
فروى ثراه دميمة مستهلة	وجاد على مغناه رعد مزمزم
رعى الله عهد للصبا فى ظلاله	اذ الدهر مغض والعواذل نوم
ورعيا لايام تولت حميدة	متى ذكرتها النفس فالعين تسجم
ولا زال معمور المعاهد آهلا	بمثل الألي بانوا كما كنت أعلم
معاهد كانت لي اشت قطينها	صروف زمان بالتشتت يعلم
الى الله اشكو شوقه فلعله	يمن بمرآه وشيكا وينعم
واذ رمقي فى عنفوان شبابه	وعمرى للذات عمر مقسم
فلم يبق من تلك اللذاذة فى الحشى	مع الدهر الا الوجد والوجد يسقم

ويلاحظ على القصيدة ، وفى قافيتها بعض الضعف فى نسجها ، كما فى قوله : «ولم تر الفا كالذى كنت أعلم» مع «بمثل الا لى بانوا كما كنت أعلم»

زيادة على ما فى هذا من عيب الايطاء ونحو قوله :

« وهل انعمن فيه كما كنت أعلم » مع « يمن بمرآه وشيكا وينعم »

وقوله :

---

(1) ولوحظ فى البيت الاخير منها أنه رفع اسم أن ، وقد فصل عنها ، على سبيل الشذوذ والسماع .

« صروف زمان بالتشتت يعلم » .

فاذا استثنينا هذا فالقصيدة منطلقة على طبيعتها لا تعمل فى اسلوبها ولا تأنق فكأن الشاعر عبر بخالص صدقه وبسيط لهجته .

ومن الحنين ايضا قوله :

ادمـــوع جفونـــك تنسكـــب	وغـــرام ضلوعـــك يلتهـــب
فكـــأن شئونـــك تصرمـــه	وكـــأن الدمـــع لـــه حصـــب
أمذيـــب حشـــاى عـلـى شحـــط	هـــلا ومـــزارك مقتـــرب
عجبـــا ان ذبـــت عليـــك ومـــن	عجبـــي أن ذبـــت هـــو العجـــب
لم لا وقـــد ارتحلـــوا بك عـــن	مـــن كـــان تشوقـــه الحجـــب
فلئـــن حلـــت بكـــم ابـــل	صبـــر فسترحل بـــي نجـــب
تحتـــز مشافرهـــا بـــرة	ويعـــض غواربهـــا قتـــب
تخـــدى فيحـــث ركائبهـــا	لتذكركـــم سبـــر خبـــب
حـــتى ليـــرى بمقدمهـــا	حمـــص وبمؤخرهـــا حلـــب
احـــداة الركـــب حـــذار حـــذا	رفـــان الركـــب بـــه عـــرب
ارواح النـــاس لهـــم وبهـــم	ان هـــم نهبـــوا او هـــم وهبـــوا
معســـول لقاحهـــم عســـل	وشهـــي رضابهـــم ضـــرب
وقـــوام قدودهـــم اســـل	ولحـــاظ جفونهـــم قضـــب
يمشـــون كأنهـــم القضبـــا	ن وحشـــو مآزرهـــم كثـــب
فعـــلام انكـــب عـــن عـــرب	عـــرب منهـــم لهم هـــرب
لـــم أنـــس غـــداة منـــى رشـــأ	يرمـــي الجمـــرات ويحتســـب
وقـــد اشتمـــل الصمـــاء ببـــر	دتـــه أرنـــوه فيحتجـــب
كالشمس قـــد اشتملـــت بسحـــا	بتهـــا وكبردتـــه السحـــب
عجبـــا يرجـــو الحسنـــات ومعـــ	ـصمـــه بدمائـــي مختضـــب

هذا البحر من البحـــور التي اثارها كما نقدم ، الحصرى بداليتـــه الشهيرة ، وافتتن به المتصوفة ، فنظموا عليه اناشيدهم ، التي نجد منها عندنا ، منفرجة النحوى الجزائرى ثم التازى المغربى ، وكلتاهما افتتحت بالحديث الشريف « اشتدى أزمة تنفرج » .

ويلاحظ على قصيدتنا هذه ، بعض الصور التى كررها الشاعـــر فى قصائده ، مثل :

عجبــا أن ذبـــت عليـــه ومـــن عجبـــي ان ذبت هـــو العجـــب

وقد تقدم :

غريـــب ولا كالحـــي يرجى لقـــاؤه ولكن غريـــب ما تقـــول غريـــب

ونحوه قبلـــه :

وليس عجيبـــا غدرها بك انمـــا ركونـــك منهـــا للوفـــاء عجيـــب

اذن فالعجب من غدرها عجيب كذلك ، وهو تأنق مقبول لا تكلف فيه ، مثل تلك المحسنات التى نجدها فى القصيدة ، كالتشبيه بالاضرام والحصـب ، والجناس بين نهبوا ووهبوا ، والرضاب والضرب ، والعرب والعرب ، ثم هذه المقابلة المعنوية بين الضلوع تلتهب والدموع تنسكب ، مما سبق ابن زيدون اليه فى نونيته بقوله :

بنتـــم وبنا فما ابتلـــت جوانحنـــا شـوقـــا اليكم ولا جفـــت مآقينـــا

وقوله فى اشجانه ولوعاته :

اهاجت لك الأشواق تلك المصانع غدا ساكنوها فهي قفـــر بلا قـــع
وقد كنت ابكي البين قبل وقوعـــه فكيف بكائي اليوم والبين واقـــع

وغير سجال حرب دمع ومقلـــة يصول عليها الدمع والطرف خاشع
يشب أوار الشوق بين جوانحـــي فيصبح خدى احرقته المدامـــع
وكل يبكـــى طرفـــه قـــدر وجـــده فدام عـــلى اثر المطـــي ودامـــع
تفرق شمل ضاق صدرى بحملـــه وصدرى كما قد يعلم الناس واسع
فيامانعي أن اشتفى من رضا بـــه أتلنى من التوديـــع ما أنت مانـــع
فانك لا تدرى اذا شطت النـــوى وسارت بنا الركبان ما الله صانع

وهذه فى الواقع امتر قطعة له ، فى هذا الصدد ، فماذا نتصور فى الحرب السجال بين دمع ومقلة ، الا أن يكون تمويها لصول هذا على تلك وكيـف نتصور احراق المدامع خد الشاعر ، الا أن يكون ذاك لتثبيت هذه المبالغة للدموع الحـــارة المنبعثة عن شبـــوب الشوق بـــين جوانح الشاعـــر ؟

ثم هذا العمد الى الجناس فى دام ودامع ، دعى الى قوله « وكل يبكي طرفه قدر وجده » ثم لا يخفى ما فى تبكية الطرف من تعمل متصنع وبعده هذا الاضطراب فى العبارة التى أفسدت المقصود حيث يقول « تفرق شمل ضاق صدرى بحمله » فالضمير عائدا على الشمل مفسد له ثم تأتى هذه السخافة ، زيادة على كونها لا محل لها ، بعد ما تضمنته الابيات السالفة ، فهذا اضطراب فى السرد ، وعود الى التوديع :

فيامانعي أن أشتفى من رضا به ... انلني من النّوديع ما أنت مانع

ويقول فى الطيف :

بأبى والله طيف طرقا ... سلب النوم واهدى الارقا
دله فى ظلمة الليل على ... مضجعي دق فؤاد خفقا
ركب الهول فأحيا دنفا ... فرعى الله خيالا طرقا
ترك الصب على حال ردى ... مقلا غرقى وقلبا محرقا
اشكر الله كفانى وصله ... والرضى عني وقرب الملتقى
ومبيتى معه يجمعنا ... لحف العز وابراد التقى
ليس شيء غير رشفى شنبا ... يحسد الدهر عليه المنطقا
والتثامي وردة الخد الذى ... يخجل البدر اذا ما اشرقا
يا خليلى أفي ذا حرج ... أم جناح فأجابا صدقا
ثم قالا بحنان ان يكن ... شملكم بعد ائتلاف فرقا
جمع الله قريبا بينكم ... وكفى من فرقة ما يتقي

وقوله :

أيها الحادى بنا نحو منى ... خذ على نفسك كي لا تفتننا
اترك الجزع يسارا لا تنر ... ربربا يفتك فينا الأعينا
وانح عن حى رماة كلهم ... طالما سقوا نجيعي الدمنا
بسيوف بين ألحاظهم ... ظاهروا الهند بها واليمنا
وقدود حشو أبرادهم ... نازعوا الخط بها لدن القنا (1)

---

(1) لابن جبير معاصره قصيدة على الوزن القافية يهنىء فيها حجاجا اجتمع بهم فى مكة

يا وفود الله فزتم بالمنى ... فهنيئا لكم اهل منى
ولكم بالخيف من قلب شج ... لم يزل حوم التوى يشكو الضنى
ما ارتمى جاحة الصدر له ... سكنا مندبه قد سكنا

فاذا قيل جمال فهم — واذا قيل غرام فأنا
لم يغيبوا الطيف غنى انما — غيبوا عن مقلتى الوسنا
ما لظبى منهم لم يصمنى — بسهام اللحظ حتى طعنا
كالهلال كالقضيب كالطلا — ان نبدى أو تثنى أورنا
لاح بدرا فى دجى لمته — وانثنى فوق كثيب غصنا
غرنى فى حبه اسعاده — فحسبت الأمر فيه هينا
آه من وجد عليه لم يدع — موضعا فى القلب الا سكنا
لم ازل أخفي هواه فلقد — صار ما اخفيت جهدى علنا
ولعمرى مذ نأى ما ابصرت — بعده عيناى شيئا حسنا
فرعى الله ديارا حلها — وسقى تلك الربا والدمنا

سقنا هذه الابيات ، استحسانا لها أولا والا فان الطيف فيها ذكر عرضا وفى بيت واحد من القصيدة ، وهذه اخرى فى الطيف ايضا :

حنانيك انى قد نويت رحيلا — فهل تأذنن لي في الوداع قليلا
بعثت فؤادى شافعا فلعلني — أنال به فيما رغبت قبولا
وما كنت اختار الوداع لو انني — اخير لكن ما وجدت سبيلا
اقول اذا هب النسيم غدية — على كبدى الحرى عليك بليلا
سل الريح لم فاح الغداة نسيمها — أجرت على مغنى الحبيب ذيولا ؟
أم الركب اجرى من حديثك لفظة — ادار بها الحادى علي شمولا ؟
وللطيف اذ يسرى بشخصك كلما — بعثت بها عند الرقاد رسولا
الا كيف زرت الصب فى فاحم الدجى — وقد كنت فى وجه الصباح بخيلا
فقصر ليالي ما أردت وصالكم — وان كان ليل العاشقين طويلا

وهكذا نجد الابيات ، قد تناولت الوداع ثم الحنين الى الحبيب ، وتخلصت بعد ذلك الى الطيف الذى هدفنا اليه هنا ، وكذلك نجده فى هذه القصيدة ينحى على الطيف فيقول :

الشوق يزداد اذ تدنو بك الدار — فهل على الشوق أعوان وأنصار ؟
ما باختيارى نأت بي الدار يا أملى — وليس غير دنوى منك أختار
ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة — الا وفى النفس من تذكاركم نار
ولا نظرت الى شىء فأعجبنى — مذ فارقت وجهك المحبوب أبصار

اللـــه يعلـم أن القلب عندكـم   وان تنـاءت بـه عن الفه الدار
وأن ليلـي طويـل لا انقضاء لـه   كـأن آنـاءه فى الطـول أعمـار
الفت فيك « ألوف » رعي أنجمـه   سهـدا والفي أشجـان وافكـار
وكيف يقصـر ليلى بعـد نأيكـم   وليـس للسهد عن عينى اقصـار
ما ضـر طيفكم لو زارنى بـدلا   منكم وطيف حبيب النفـس زوار
لكنه ضـن لمـا أن رأى كلفـى   بكم وعنـدى لـه فى ذاك أعذار
الذنب للنوم لا للطيف يا سكنـي   وكيـف يطرقنـي والنوم فـرار
سقيا لأيام وصل قـد بلغت بهـا   آمال نفـس لهـا فى الحب آثـار
ونلت ما أشتهى فيهـا ولا حـذرا   من الرقيـب فتخفى منه أسـرار
وسوف ترجـع ايام السرور كمـا   كانت وتقـضى أمانـى وأوطـار
عليك مني سلام يا « ألوف » كما   نمت بعرف نسيم الزهر أسحـار
ما حـن صـب الى لقيا أحبتـه   وما تغنت على الاشجار اطيـار

وله أيضا فى ذلك :

يا أيهـا الطيف خبـر   مـا للحبيـب لدينـا
وأنـه ليـس شـىء   احـب منـه الينـا
واقـرا السلام عليـه   منـا ومنـه علينـا
وقـل له غـاب قلبـى   وانـت تعلم اينـا (1)
فـاردد عـلى فـؤادى   يا أمطل النـاس دينـا

ومن قوله فى المنجاة وذمام الاحبـة :

رحل الاحبة واستقلـت عيسهـم   يوم العذيـب وواصلوا الوخـدا
لما حدا الحادى بهـم فى سحـرة   ومضى يحـث ركابهـم قصـدا
أهديتهـم نفـسي ليولو نظـرة   ومـن العجائب مهجـة تهـدى
فسروا وما قضوا لبانـة عاشـق   الف الغـرام وحالـف السهـدا
ما ضرهـم لو أسعفوا بتحيـة   يحيـون مـن أودى بهـم وجـدا

(1) وهكدا أكثر الشاعر من ذكر الطيف لدرجة انه صار يتمثله فى اليقظة فيخاطبه كما فى هده الابيات الاخيرة ، مع أنه يتحدث عنه لا اليه كما قال الشاعر :

فقمـت للطيـف مرتاعـا فأرقنـى   فقلـت أهـى سرت أم عادنى حلـم

والحديث عن الطيف اسلامى كما نظن وأقدم ما نعرفه منه أبيات لجعفر بن علبة الحارثـى من محضرمى الدولتـين .

لم يبق منه بعادهم الا صدى — قدحته أنفاس الهوى زندا
يا ظاعنين وبين أثناء الحشى — قد خيموا وان انتحوا نجدا
لا تحسبوا أني كلفت بغيركم — وجدا وأني خنتكم عهدا
ما ذاك من شيم الكرام وانني — ارعى الذمام واحفظ الودا
ان كان هذا الدهر حالف صرفه — فينا البعاد واظهر الحقدا
وتعصبت لفراقنا أيامه — وتجمعت لقتالنا جندا
فالله يخلف ظنه ويدلنا — وصلا وينظم شملنا عقدا
ويتيح للصب المشوق لقاءكم — عجلا فيضحي عيشه رغدا

وله هذه الابيات التقليدية :

الا صف لي معاهد أم عمرو — ودع عنك الرصافة والغميما
بحيث الريح تعرفها اشتياقا — وحيث الروض تعرفه شميما
وبين الريح والروض انتساب — اذا هبت عليه ضحى نسيما
لامر ما تطابقت السجايا — كريم لم يثر الا كريما
ويمسي الجو مكتئبا عبوسا — فيضحى الروض مبتهجا وسيما
اطل فى وصفها وخلاك ذم — وذكرني بها العهد القديما
وسلني عن مهى نجد تجدني — خبيرا ما أردت به عليما
ومن عجب الأمور اكون ليثا — لدى الهيجاء ثم اخاف ريما
والقى الجيش فى الفلوات وحدى — فأوسعه ويوسعني كلوما
ولكن واحد والجيش خلفي — تسلم مهجتي وغدا سليما

هذه الابيات تبدو علبها الكلفة ، وتعمد الصنعة فى بعض أبياتها ، كهذا التقابل فى قوله :

ويمسى الجو مكتئبا عبوسا — فيضحي الروض مبتهجا وسيما

وهو يذكرنا بقول ابن زنباع :

فعجبت للأزهار كيف تضاحكت — ببكائها وتبشرت بقطوبها

وكانى بغرض الشاعر من هذه الأبيات ، يكمن فى البيت الاخير منها .

وقد أفصح عن ذلك من قطعة أخرى بهذه الابيات :

عجبا نراع لهجر آرام النقا ... وتخاف من سطواتنا اسد الشرى
لا غرو أن صرع الكمي مقرطق ... ان سل ابترسل جفنا احورا
ان كنت ترهب صارما من جفنه ... فارهب بقامته الوشيج الأسمرا

وهذا معنى قيل على لسان هرون الرشيد ، فى جوار ثلاث له ، تضمنتها أبيات ثلاثة هكذا (هى للعباس بن الاحنف) :

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن فى عصياني
ما ذاك الا أن سلطان الهوى ... وبه قوين اعز من سلطاني

ثم تردد على هذا شعراء فيما بعد مثل سليمان بن الحكم الاموى الخليفة وكلهم صاغ المعنى حسب منحاه ، الى أن كان الشاعر ابن حمديس الصقلى ، حيث قال هذا البيت الذى قلده مباشرة كما نظن (1) :

فلا غرو أن لانست لظبى عريكتى ... انا صائد الضرغام والظبي صائدى

ومن ذكرياته قوله :

أرقت لبرق لاح من نحو ارضهم ... فبت اشتياقا للحبيب أسامره
الح وميضا فاستطرت تشوقا ... وايقظ ما يسرى من البرق سامره
فذكر أيام الكثيب واذ به ... تلاعبنى غزلانه وجئاذره
واذ لا نرى من لا يصدق قوله ... علينا ولا فينا تمشى أوامره

---

(1) قال سليمان :

عجبا يهاب الليث حد سنانى ... واهاب سحر فواتر الاجفان
واقارع الاهوال لا متهيبا ... منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الابدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى ... من فوق اغصان على كثبان
حاكمت فيهن السلو الى الرضى ... فقضى بسلطان على سلطان
هذى الهلال وتلك بنت المشترى ... حسنا وهذى أخت غصن البان
فابحن من قلبى الحمى وتركننى ... فى عز ملكى كالاسير العانى

وفى « الانيس المطرب » أن امرأة جميلة خاطبت العلوى وهو يحاصر احدى مدن الشام بأبيات منها :

نقتل الاسد ثم تقتلنا البيض ... المصونة اوجها وخدودا

وسيأتى أن المنصور السعدى قد قال أبياتا فى هذا المعنى أولها :
« طرقت حماه والاسود حوادر »

واذ شملنــا فى غبطــة متألـــق	عدمنا حسودا أو رقيبا نحــاذره
فلله ما نبهــت يا برق من شــج	لسهــد بعينيــه وشوق يخامــره
ولله ما اذكرتنــى مــن احبــه	على اننــي فى كــل حالي ذاكــره
اثرت خلال الدجن ضــوءا كأنــه	اسرتــه لفــت عليهــا غدائـــره
فلم ادر خفقا مــن فؤادى منكــم	ولم تدر جهلا ما الذى انا ساتــره
اظنــك مثلي قــد أطيل عتابـــه	وقل بما لــم يبد للنــاس عــاذره
ملوما على من لو تبدى لأصبحــت	عواذلــه فى الحب وهي عــواذره
الا فى ضمان الله من ليس راحمــي	ولا عــاذرى فى أن تبــوح سرائره
كفاني كتما للــذى بــي أن أرى	اجنبــه حــتى كأنــي هاجـــره
فالا اكــن افــشى اليـــه وداده	فحسبى ما تلقى اليــه ضمائــره

لاشك ان هذه القصيدة الجميلة الرصينة قد صيغت على نمط قصيدة ذى الرمـــة :

وقفت علــى ربــع لمية ناقتـــي	فما زلــت أبكي حولــه واخاطبــه

وهي قصيدة طويلة نجد من ابياتها هذه :

تمشى بــه الثيران كــل عشيــة	كما اعتاد بيــت المرزبان مرازبــه
فابديت من عينى والصدر كاتــم	بمغرورق نمت عليــه سواكبــه
وازور يمطــو فى بــلاد عريضــة	تعــاوى بــه ذؤبانــه وثعالبــه

فأبياتنا بدوية ، تذكر ومض البرق لاح من أرض الحبيب ، فأرقه ذلك ، فصار يتذكر أيام الكثيب الذى لاعبته غزلانه وجآذره فيه ، وأنه نعــم بغياب الواشى ، وبجمع الشمل فى غبطة ، وعدم رقيب ، ثم توجه بالخطاب للبرق ، فاستعظم ما ذكره من ذكريات الحبيب ، وان كان على ذكر منه دائما ، وأنه اثار خلال الظلام نورا ، فشابه ذلك أسرة الحبيب لفت عليها غدائرها ، ثم تابع خطابه ، حيث قال له : اظنك مثلى قد أطيل عتابه وان عاذره قليل منه هذا ، وهو كاتم للواعجه التى لو افصح عنها لاصبح عاذله عاذره ، ثم التفت الى الحبيب فقال الا فى ضمان الله حبيب لا يرحمنــى ولا يعذرنى ، فكفى بى كتمانى للواعجى ، وتظاهرى بهجران ذاك الحبيب الذى ان لم ابد ودادى له ، فحسبى ما تحدثه به ضمائره نحوى .

ومن هذه الاشعار البدوية الصحراوية قوله :

قف العيس نبك الدار بان قطينهـــا ونسأل عنهـــا أين سار ظعينهـــا
ديـــار تبكينـــا فتبكـــي مطينـــا كأن شئون الدمـــع مني شئونهـــا
تساجل في سح الدموع اذا التقت عيوني عـــلى آثارهـــا وعيونهـــا
وقد حلفـــت لا نلتقـــي ابدا لهـــا على سنة حـــتى تراهم جفونهـــا
وكم من مصيف في البلاد ومربـــع ولكـــن لاوطان النفـــوس حنينهـــا
سأركب نحو الظاعنين وان نـــأوا بحار فـــلاة والمطـــي سفينهـــا
قلائص يخبطـــن الظلام فترتمـــي بها أرض نجـــد سهلها وحزونهـــا
الى خير قوم يشرعون اذا التقوا رمـــاح عيـــون ما يبـــل طعينهـــا
عيون حيـــاة النفس بين لحاظهـــا وان كـــان في تلك اللحاظ منونهـــا

فبكاء الديار معروف في أقدم ما روى لشعراء الجاهلية ، ثم قلد في الاسلام ، وهو يصور الحياة البدوية المنتجعة ، ولكـــن الجديد في قطعتنا هو تبكية الديار للمطية ، ومساجلة عيونها عيون صاحبها في ســـح الدموع وكونها قد تقمصت طبيعة الانسان حتى في نطقه فحلفت بادراك اللقيا والرؤيا ، وكأن الشاعر هنا استوحى من قوله تعالى : « قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » فالمطي مسخرة له كما سخرت الشياطين لسليمان فبلغته مقاصده ، وبعد هذا لا نجد الا هـــذا البيـــت :

وكم من مصيف في البلاد ومربـــع ولكن لأوطـــان النفوس حنينهـــا

وقوله في الوداع :

وقائلـــة أيـــن الترحـــل سيـــدى وتترك قلبـــي من هواك مصدعـــا
فقلت لهـــا مهلا فلســـت بتـــارك لقولـــك ما أرجـــو به ان ارفعـــا
اذا ما اردت العزم لم يثن عزمتـــي رخيم يسوم العـــزم ان يتمنعـــا
فلو نزعت نفـــسي عليها محبـــة لما كنت يوما عن سبيلى لأنزعـــا
ابى اللـــه الا ان أوفـــي عهـــده وابنـــي مجـــدا لا يـــزال مرفعـــا
فلمـــا راى الا انثنـــاء وانني عزمت بكى خوف النوى ثم رجعـــا
وقال رعـــاك الله مالـــي حيلـــة سوى انني أدعو لترجع مسرعـــا

فللـــه ما اشـجـــى حبيبـــا رايتـــه تميـــل مآقيـــه عشيـــة ودعـــــا
ولله ما انـــــدى ازارا بفضلـــــه مسحت له يوم التفـــرق مدمعـــا

فهذه ابيات على بساطة أسلوبها ، محكمة فى صنيعها ، مصورة لخلجات ونوازع عزماته ، وهى بالفخر فى الهمم أشبه منها بوناء التوديع وقوله :

تقول ابنتي الصغرى غداة رحيلنا وادمعها كالقطر بل هي أســـرع
حنانيك هذا البين حتم وقوعـــــه علينـــا فما ينفـــك منـــه تـــروع
وشدت على حضني كفـــى مشوقة وقالت ابي تمضي ؟ فما لى ارجع ؟
فدعني اسر احذو ركابك حيث مـــا تسير وارضى كي اراك واقتنـــــع
بنية كفـــي من بكائك واصبـــرى ولا تجزعي ان البكا ليـــس ينفـــع
فقالت على اسم الله فارحل مصاحبا وسر فى امان الله لا نبا بك مضجع

اما هذه ، فما احرها واشد تأثيرها فى النفس ، وتصديعها للقلوب ، لا تضاهيها الا تلك المقدمات التـــى نجدها لابن دراج فى مدح العامـــرى

ويقول ايضا فى الوداع :

طمت مـــن دموعي للفراق بحـــور واجج ما بـــين الضلـــوع سعيـــر
وودعت قلبي يوم ودعت صاحبـــي فللـــه احنـــاء خلـــت وقصـــــور
وناديته يا قلب رفقا فقـــال لـــي حنانيـــك انــــي نحوهن أسيـــر
فثـــق بجميل الصنع ممن علمتـــه اذا شاء أمـــرا فالعسير يســـر
عسى الله يقضـــي للمحبين اوبـــة فتشفـــى قلـــوب منهم وصـــدور
فكم من قصي الدار أمسى بحزنـــه فاعقبـــه عند الصبـــاح ســـرور

وهذه تطفح فى البيتين الاولين ، بما عرف فى لغة الشعراء من مبالغـــة اتباعية ، ثم يأتى الحوار بينه وبين القلب جميل ينتهى بالموعظـــة وقوله :

يا مزمع البين فى ترحالـــك الأجـــل وانت لاه بحب البـــين مشتغـــل
اني لأعظـــم أن نمضي وتتركنـــى والدمـــع يهمى ونار الوجد تشتعل
فلا تـــروع فؤادا انـــت ساكنـــه بالبـــين منك فانـــى واله خبـــل
لم يـــدر قومك ماذا فى ترحلهـــم من الذنوب ولو يدرون مارحلـــوا
سروا بزعمهم ليلا وما علمـــــوا بانهم فى فـــؤادى حيثما نزلـــوا

لم يغن فيك اطراحي من وثقت بهم ... سيان ان اسعدوا فى الحب او عذلوا
اذا رجعت الى دار وليس بهــا ... ذاك الحبيب لمن أشكو ومن اسل ؟
ويلتقى الحزن والداجي فيذكرنـي ... حسنين من مقلتيه الكحل والكحـل

فهذه أبيات جميلة فى تعبيرها ، متمكنة فى تصويرها ، لولا البيت الاخير الذى عمد الى الصنعة البديعية بتشبيهه ، ونسى لوعة صاحبه ويتصل بهذا قولــه :

ولمــا ثنينــا للقــاء ركابنـــا ... وقام على اعجازنا الشوق حاديـا
طـوت ما رأت من مهمـة ومفازة ... وقطعت البيداء هضبا وواديـا
كـأن لها عنـد اللقـاء مـواردا ... تروى بلقياها نفوسـا صواديـا
وما كـان الا أن انيخـت بمـورد ... أتيح لها بين فراحت كمـا هيـا
لقـاء وتوديع معـا فى اعتناقـة ... كأن لم يكـن ذاك التلاقي تلاقيـا
اذا نحن أجهدنـا اليكم ركابنـا ... فكانت صروف الدهر عنكم عواديـا
اخا البين ان شئت الوصال تمنـه ... فلم يبـق الا أن تراهـم أمانيـا

وهذه كذلك قصة محبوكة بارعة ، وان سلك فى تصويرها مسلـك الاعراب الرحل ، حيث توجه بنصف ابياتها الى الحديث عن الركـاب والحادى بالبيداء .

وكذلك قوله فى هذه الأبيات التى تأنق فى بعضها :

قف بالحجيج فـان ذاك الموقـف ... واسألهـم بمأمهـم أن يعطفـوا
وانشد فـؤادك ان عرفت مكانـه ... بين القبـاب وما اخالك تعـرف
عند التي رمت الجمار غديـة ... وبنانهـا بـدم القلوب مطـرب
نفسي الفداء لها وان لم تبق لـي ... قلبـا يذكرنـي بهـا ويعـرف
يا صاحبى كن عاذلي أو عـاذرى ... بي من نوى الاحباب ما لا يوصف
لم أدر طعم الموت حتـى جاءنـي ... نبـأ بنرحـال الاحبة يوجـف
نفروا غداة منـى وقد نادى بهـم ... حاد عـلى شرف الثنيـة يهتـف
يانازحـا حنـت ركائب بينـه ... لم يثنهـا منـي أسـى وتلهـف
ليت الذين نأوا بشخصك قد ونـوا ... وعلى جفائـك ليتهم لـم يوجفوا

ومن قوله فى الحب :

الحـــب دق فـــلا تدرى حقيقتـــه ... فمن يرد فيه لا يقدر على الصــدر
وجل عن ان يرى يخفى فمكنـــــه ... فى القلب مثل كمون النار فى الحجر
ان تقدحوا زنـــده تظهر شرارتـــه ... أو تتركوه خفى عن أعين البشـــر

وهذه الابيات أجمل وأدق من تلك التى قالها الأغماتى فى الموضوع ، واقتصر فيها على مفعول الحب (1) :

اغـــار عـــلى الصـــب من انبـــه ... هـــو الحـــب من يطفـــه الهبـــه

الى آخر الابيات الستة ، وان كان المصراع الثانى هنا أبلغ ما فى الموضوع ويقول لمن يسائل الدمن ، ناصحا اياه بالاقلاع عن ذلك :

رفقا عليك فكـــم ذا تسأل الدمنـــا ... وكم تجـــدد فى مغناهـــم الحـــزنا
من ذا اجابته عن أحبابه دمــــــن ... فيما دعا أو أصاخـــت نحوه أذنـــا
لو كان شـخص اجابته الديار لما ... تبدى من الوحش والشكوى لكان انا
فلا تسائل طلولا ما بهـــا سكـــن ... فما تفيـــدك الا الهـــم والشجنـــا
فما مسائل دار غـــاب ساكنهـــا ... الا كمستفهم عـــن روحه البدنـــا

وهذا معنى بسيط على بداعة صياغته وتسلســـل حججه وافكـــاره
وله مجيزا هذا البيت لأحد كتابه :

الفـــت بتيليـــت السهاد وعلمـــت ... براغيثهـــا جنبـــي حسن التقلـــب

فقال شاعرنا :

ولا كخلاف العيس نطوى بها الفلا ... لتبلغنا الاوطـــان بعد التغـــرب
فتبعـــد مـــن أوطاننـــا ما نحبـــه ... وتدني من الاوطـــان غير المحبـــب
عجبت لدار ليـــس بيني وبينهـــا ... من البعد ما يعيى مطيى وأركبـــي
جرينا لها حتى اذا ما تقاربـــــت ... وقفنـــا فلـــم تبعد ولـــم تتقـــرب

(1) وقد ورد فى « الزهرة » وصفه من قول امرأة « حل والله عن أن يحمى ، وخفى عن أن يرى ، فهو كامن كمون النار فى حجرها ، ان قدحته ورى ، وان تركته توارى » وفى طوق الحمامة « الحب أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة » .

نطوف فلا ندنو كأننا حوائم … جوازر همت بالوقوع بمشرب
وفي عرفات اليوم للناس مطلب … وليس كحجي في الديار ومشربي
فؤادي هديي وادلاجي مناسكي … ودمعي جماري والمطي محصبي

وهكذا لا نجد في هذه الاجازة ما يجمع بينها وبين البيت السابق الا بحسن التقلب ، ثم ان فيها نفحة صوفية تشبه ما عرف به شعر ابن الفارض، وخصوصا في الابيات الاربعة الاخيرة ، لما فيها من غمغمة لا تستبين مقاصدها ويقول في بعض صروف الدهر :

الا رب يوم قد ختمنا أخيره … بأطيب مما قد فضضناه أولا
اتى مدبرا من بشره وسروره … باضعاف ما قد جاء من قبل مقبلا
وتم بتحجيل على بدء غرة … فكان كما شئنا اغر محجلا

ويقول في معركة زوارق :

وزوارق تحت الظلال حسبتها … حلبات خيل تهتدى بمقدم
مرحت ومن رش المجاذف نقعها … من كل اشهب في السباق وادهم
حملت بها الفتيان ملء عنانها … حمل الكمي على الكمي المعلم
فظننت أن الحرب حرب مسالم … لا حرب مضطغن ولما اعلم
حتى انثت عند الاصيل كماتها … مخضوبة حلق الدروع من الدم

ومن الحق أن يقال ان هذا الوصف دون ما عرف فيه لابن هانىء الاندلسي أو ابن حمديس الصقلي ، وخصوصا البيتين الاخيرين :

فظننت ان الحرب حرب مسالم … لا حرب مضطغن ولما اعلم
حتى انثنت عند الاصيل كماتها … مخضوبة حلق الدروع من الدم

فهذا الاسلوب فيهما لا يختلف عن المعهود في كلام الناس عامة ، لا فضل فيه على كلام العوام ، الا بكلماته الفصيحة المعربة

والابيات لا علاقة لها بالنسيب المعروف ، فهي تصف الزوارق ، كأنها حلبات خيل في تدافعها وكان رش المجاذف غبارها ، قد انبعث من سنابكها ، وقد حملت بها حمل الكماة فتيانها فظننت ان تلك المعارك سلمية ، ولم أعلم انها حرب على الحقيقة ، الا بعد أن عادت أبطالها عند الاصيل ،وقد خضبت بالدماء حلقات دروعها .

وبعد فاننا نلاحظ عليه انه غالبا يرتكز على الحقيقة فى تناوله لباب النسيب فى مدلولات الفاظها ، وان كان التشبيه سيخصص له باب فيما سنرى بعد . وغزله او نسيبه لا يصل الى المستوى الذى عليه غزل القاضى ابى حفص الاغماتى ، بل الفاظه فى عمومها ، مستعملة فى حقائها ، وغالبا ما يكون المجاز فيها مستعارا من السابقين ، لدرجة ان اصبحت دلالاتها عرفية ، وبذلك كان حظ نسيبه من الخيال حظا ضئيلا وقليلا ما نجده يعتنى بالمحسنات البديعية وهى لـه

نعم انه قد تستهويه بعض الصور البديعية ، ولكن ذلك يتضح فى الحلية اللفظية اكثر من غيرها ، مثلا نجد يقف عند كلمتى العاذل والعاذر فيكرر ذلك فى شعره ، كأن يقول :

ياصاحبي كن عاذلي او عاذرى   من نوى الأحباب ما لا يوصف

ويقول ايضا : كما سبق :

ملوما على من لو تبدى لأصبحت   عواذله فى الحب وهى عواذره

كما انه يقلد بنحو قوله :

ايها الحادى بنا نحو منى   خذ على نفسك كى لا تفتنا

فقد قلد ــ ربما ــ نونية لابن جبير . وكذلك نجد فى الديوان ، قصائد قلد بها مهيارا ، مثل

يا خليلي بذى الأثل قفا   وسلا ربعهم كيف عفا

ومثل هذه :

بأبي والله طيف طرقا   سلب النوم واهدى الارقا

ومثل :

نام من اهوى وارقني   ونفى عن مقلتي وسني

فقصيدة مهيار ، المشار اليها اولا ، كان النظر فيها الى تسعة أبيات ، اولها :

سل طريق العيس من وادى الغضا   كيف اغسقت لنا راد الضحى
الشيء غير ما جيرننا   نفضوا نجدا وحلوا الابطحا (1)

والثانية مطلعها :

من عذيرى يوم شرقي الحمى   من هوى جد بقلب مزحا

والاولى ، نظر اليها ايضا فى القصيدة المذكورة اخيرا ، خصوصا الابيات منها :

نظرة عادت فعادت حسرة   قتل الرامي بها من جرحا
رجع العاذل عني آيسا   من فؤادى منكم أن يفلحا
لو درى — لاحملت ناجية   رحله — فيمن لحاني ما لحا

وكما فى الجاهلية والاسلام فقد عرفت لدى الشعراء قصائد أو مقطوعات ينذرون فيها لنوقهم نذرا ما اذا بلغتهم مرادهم ومن هؤلاء الاخيرين ابو دهبل الجمحي ، يقول ابو الربيع :

اذا يممت نحو الاحبة ناقتي   واعملت السير الحثيث وخبت
وعرست يوم النحر فى ذلك الحمى   ورويت من لقيا الأحبة غلتى
دعوت لها الرحمن بالخصب دائما   وان تبلغ الآمال فيما احبت
واعفيتها من كل سير ورحلة   واطلقتها ترعى الكلا حيث حلت
كفاء لما أولت ولست ببالغ   جزاء الذى اهدت الى واسدت
فقلت لها يانـاق بلغت فارتعي   على رغد أو فاذهبى فتولت
وقالت كفاني قد قضيت فريضتى   فنفسى الى مراى المعاطن حنت

فهذه على العموم ابيات تقليدية ، لا حيثية للبيت الثالث فى شطره الاخير لانه يناسب الانسان اكثر من مناسبته هذه الناقة :

دعوت لها الرحمن بالخصب دائما   وان تبلغ الآمال فيما احبت

---

(1) انظر بقية الابيات التسعة ، فى تعليقنا عليها بالديوان الذى نشرناه .

وعلى العكس نجد مما هو من النسيب ولم يذكر فى بابه (1) ، قوله :

مقلـــة مـــن دمعها فى غـــــرق ... وفـــؤاد مـــن جـــوى فى حـــرق
عجبـــا للمـــاء والنـــار معـــــا ... كيـــف لـــم يختلفـــا فى الطـــرق
أى صبـــــر لعميـــــد قلبــــــه ... اقصدتـــه طائشـــــات الحـــــدق
فى سبيل اللـــه نفـــس صبـــــة ... بقيـــت منهـــا بقايـــا رمــــــق
شد ما لاقت مـــن الوجـــد بمـــن ... دونه شمس الضحى فى الرونـــق
بـــدر تـــم اطلعـــت صفحتـــــه ... مـــن سنـــاه قمـــرا فى غســــق
كيـــف اذ لاح لأجفانـــــى لـــــم ... يعشـــهـــا ضـــوء سنـــاه المشرق
كلمـــا ابصرتـــــــه عوذتـــــــه ... خيفـــة العـــين بـــرب الفلــــق

نتصل بعد النسيب بباب من ابواب الديوان ، ظهر فى ادبنا الفصيح **لأول مرة** (كما فى علمنا) واستمر موضوعه فى عاميتنا ، وهو الالغاز ، **التي** عرفت قديما فى الأدب العربى ، واشتهر بها فى العهد الاسلامى الاول الشاعر ذو الرمـــة .

والالغاز فى عاميتنا كانت تضاهي فى نشاطها ما عرفت به مصر مـــن « الفزورة » ، فهى تعتمد على الذكاء فى اكتناه الغامض من العبارات والاوصاف شأنها شأن الرياضات الفكرية التى تستدعى طويل التفكير وأناة فـــى الاستنتاج يتحلى بذلك من يزاول لعبة « الشطرنج » ، او اية لعبة من باقى الرياضات الفكرية . والالغاز مرتبطة بالتشبيه ، ولهذا وجدنا أحدهما بازاء الآخر فى الدوان ؛ اذ كل تشبيه لم يذكر فيه المشبه بما عرف به . فهو من الالغاز كما نجد له امثلة فى كتاب التشبيهات لابن الكتانى الاندلسى .

وقبل أن ندخـــل فى بابنا مباشرة ، نود أن نطـــرق له بنموذج مـــن الغاز الشاعر غيلان ذى الرمة ، يقول فى بعضها من قصيدة :

وسقط كعين الديك عاورت صاحبي ... اباهـــا وهيأنـــا لموقدها وكـــرا
مشهرة لا يمكـــن الفحـــل أمهـــا ... اذا نحن لم نمسك بأطرافها قسرا
أخوها أبوها والضوى لا يضرهـــا ... وساق أبيها أمها اعتقرت عقـــرا
قد انتجت من جانب من جنوبهـــا ... عوانا ومن جنب الى جنبها بكـــرا

---

(1) بل ذكر فى باب التشبيه لما فيها من صوره .

فلما بـــدت كفنتها وهـــي طفلـــة بطلساء لم تكمل ذراعا ولا شبـــرا
فقلت له ارفعها اليـــك واحيهـــا بروحك واقتتـــه لها قتتا قـــدرا
وظاهر لها من يابس الشخت واستعن عليها الصبا واجعل يديك لها سترا
ولما تنمت تاكل الرم لم تـــــدع ذوابل مما يجمعـــون ولا خضـــرا
فلما جـــرت فى الجزل جريا كأنـــه سنى الفجر احدثنا لخالقنا شكرا

فالسقط النار التى تسقط من الزند ، الاعلى الذكر وهو المراد بأبوها والأسفل الانثى وهو المراد بأمها فالزند هذا نمسك بأطرافه ، واخوها المقارن أبوها والضوى النحافة ، وساق ابيها امها ، لانهما من شجرة ، وانتتجت تدحت ، والعوان القرصة المقدوحة بخلاف البكر ثم يقول :

وقريـــة لاجـــن ولا انسيـــة مداخلـــة ابوابها بنيـــت شـــزرا
نزلنا بها لا نبتغى عندها القـــرى ولكنهـــا كانـــت لمنزلنا قـــدرا

يريد قرية النمل وابوابها مداخلة اى مخالفة ، وبنيت شزرا على غيـــر استقامة فهى معوجـــة .

ومضروبة فى غير ذنـــب بريئـــة كسرت لأصحابى على عجل كسرا

يريد بالمضروبة الخبز ، اذا اخرجت من الملة وهو الرماد الحار ، تضرب ليسقط عنها ذلك الرماد .

وسوداء مثل الترس نازعت صحبتى طفاطفها لم نستطع دونها صبـــرا

يعنى بالسوداء الكير ، والطفاطف لحم الخاصرة

وأبيض هفاف القميص اخذتـــــه فجئت به للقـــوم معتبطا ضمـــرا

يريد بالابيض فؤاد الشاة وهفاف القميص ما فوق فؤاد الشاة مـــن جلد ، والاعتباط ان تذبح الدابة من غير علة ، وهو المقصود فى البيـــت التالـــي :

وأبيـــض قد شققـــت عنه قميصه فقدمته للقـــوم مهتضمـــا ضمـــرا
ومقرونة منهـــا يديهـــا برجلهـــا حملـــت لأصحابـــى ووليتهـــا قترا
مكنية لم يعلم الناس ما اسمهـــا وطئنا عليها ما تقول لنا هجـــرا
وان ظلمت لم تنتصر من ظلامـــة ولم تبـــد نابا للقتـــال ولا ظفـــرا

والمقرونة اى القرنة ، وهى دويبة صغيرة فى ظهرها نقط ، تكنى ام حبين او ام جنين ، وهذه الكنية ، هى المعنية بقوله مكنية لم يعلم اسمها

وهكذا تستمر هذه القصيدة الواقعة فى تسعة وستين بيتا ، تأتى بالالغاز التى لا تخرج عما صادفه الشاعر فى رحلته هذه التى قصها وهى بطريقة تحوم حول عرض واحد وتدور على محور يعتمد عليه من يحاول فك السلسلة من الالغاز وقد عرف الاندلس ، من الشرق ، الالغاز فى الشعر ، كما نجد فى اقدم مصدر فى هذا ، وهو كتاب العقد ، لابن عبد ربه ، فقد تعرض له ، فى اللؤلؤة الثانية ، أو أواخرها ، وهى فى الفكاهة والملح ، فنقل فى باب اللغز ، ما حكي عن لغثة أبى عطاء السندى من أن الحمادين الثلاثة ، اجتمعوا مع بكر بن مصعب ، فى مجلس بالكوفة ، وانهم استدعوا ابن عطاء ، ليجعلوه يلثغ فى الكلمات التى تحتوى تلك الحروف ، فسأله حماد الراوية :

يا ابا عطاء ، كيف علمك باللغز ؟

قال : هسن ، يريد ، حسن

فقال له :

فما صفراء تكنى ام عوف كأن سويقتيها منجلان

فقال ابو عطا ، زرادة ، يريد جرادة ...

ثم قال له حماد :

اتعرف مسجدا لبني تميم فويق الميل دون بني أبان

قال ، هو فى بني سيتان ، يربد شيطان ...

ثم قال له حماد :

فما اسم حديدة فى الرمح تسمى دوين الصدر ليست بالسنان

قال ، زز ، يريد ، الزج

بعد هذا صار ابن عبد ربه يذكر الغازا ، منها للمامون العباسى ، فى خاتم ، ثلاثة أبيات ، أولها :

وابيض اما جسمه فمدور نقى واما راسه فمعار

واخرى له فى ارنب ، أولها :

لهوت بذات راس ذى التياث كرفع الاصبعين على الثلاث

ثم ذكر له ابياتا ، تناول فيها النمل ، باسم الثور ، وموضع الردف من الفرس ، باسم القطاة ، وبطون الحوافر ، باسم النسور ، والسيف ، باسم العجوز ، والجلد الذى يعمل منه غمد السيف ، ببطن الكلب ، وعبارة « صار كلبا » يريد بها ضم كلبا ، من صار يصور ، اخذا من الآية « فصرهن اليك » اى ضمهن اليك ، والصخرة ذكرها باسم الأتان ، والبكرة ، باسم العقاب التى تطير من غير ريش ، واخيرا ، ذكر كلكلة العقاب .

انى رايت عجوزا بين حاجبها ونابها حبشى قائم رجل

له ثلاثون عينا بين مرفقه وبين عاتقه فى رجله قزل

فى ظهره حية حمراء قانية فى ظهرها رجل فى ظهره رجل

قال : العجوز الناقة ، والحبشى الذى بين حاجبها ونابها الاسود الحابس بالخطام .

وله ثلاثون عينا بين مرفقه وبين عاتقه مثاقيل كانت مصورة فى عضده .

وفى ظهره حية برنس فيه تصاوير بعضها داخل بعض .

وهو ما عناه بالبيت الاخير من ابياته .

وابياتا فى القلم ، لعديدين من المحدثين ، ختم بها كتابه المذكور .

وقد لاحظنا أن المامون ارتكن فى الغازه الى مترادفات الالفاظ ، فعمى بغير المشهور منها ، كما استغل الاشتراك فيها .

اما غيره ، فقد اعتمد على الاوصاف ، وهذا ادق واغمض ما فى الالغاز

وكما هى عادة الاندلسيين فى تقليد المشارقة ، فقد شاعت الالغاز بينهم ، وكان منها ما يقوم على التشبيه ، الذى يحذف منه المشبه واداة

التشبيه ، من ذلك قول ابن هذيل فى المروحة :

ومصروفـــة فى خلقهـــا ان صرفتها ... الى طى بـــرد أو الى طـــي مهرق
علـــى أنها شبـــه المجن ودونـــه ... فان كنت ذا فهم ابـــن لي واصدق
لها لطف أنفاس الصبـــاح ورقـــة ... تلذ بها نفـــس الفنـــى المتشـــوق

وقولـــه فى المذبـــة :

وقائمـــــة فى يـــــدى قائـــــم ... تحـــرك مـــن شعرهـــا الفاحـــم
يميلهـــــا نفـــــس المستقـــــل ... لهـــا عـــن قضيـــب لهـــا ناعـــم
وتحسبهـــا كجنـــــاح غـــــراب ... علـــى راســـــه طائـــر حائـــــم

وقوله فى الشمعة :

وقائمـــة تسبي العقـــول بحسنها ... حكى قدهـــا فى شكله كل كاعـــب
بكـــت بدموع كالجمـــان فأصبحت ... تدير الندامى عن صباح الكواكب
لها جسد من خالص التبر جامـــد ... يناط الى راس من التبر ذائـــــب
تألف منها الضـــد بالضد فاغتـــدت ... لناظرها من مشكلات العجائـــــب

وهذه الآخيرة ، لعلها نظر اليها شاعرنا ، عند الغازه فى الصلاة

ومن الغاز الاندلسيين ، ما كان يروج بين ابن زيدون والمعتمد ابن عباد ، كقولـــه :

انا ظـــرف للهـــو كـــل ظريـــف ... انـــا مستـــودع لعلـــق شريـــف
انا كالصـــدر فى الاحاطـــة بالـــرا ... ح اذ الـــراح كالضميـــر اللطيـــف
سل عن الطيبـــات فهـــى فنـــون ... الفـــت فـــى أحســـن التأليـــــف
أى حســـن بقى بحسنى محمـــو ... لا بكفـــى وصيفـــة أو صيـــــــف

وكقولـــه :

ان لـــلارض والسمـــاء وللمـــاء ... علينـــــا أذمـــــة لا نــــــــذم
هـــى بعض اسم من أحـــب ولاء ... وبتكريـــر بعضهـــا يستتـــــم

ولابن زيدون طرق أخرى غريبة فيها . وقد باراه المعتمد ابن عباد فى هذه فكانت بينهما تلك الابيات المطيره .

مثـل :

اظفـر كمـا انـت ظافـر   بكـل غـاو منافـر

ومثـل :

شعـر مـن محـض وده   لـك فـي علـم طيـره
فهـي مهمـا زجرتهـا   لـم تخبـر بغيـره

وسنرى لهذين البيتين صدى فيما يأتى لشاعرنا فى سجلماسة .

ومن مطيراتهما ، قوله :

صـدق لنـا فـال السمـه   تظفـر علـي الكلمـه

وقوله :

انـت ان تغـز ظافـر   فليطـع مـن ينافـر

وغير هذه من الابيات العديدة التى ترددت بين الشاعرين العظيمين ولابستها قصائد كثيرة نظمت حولها .

وبعد فهذه نماذج من الغاز أبى الربيع ، يقول فى الصلاة ، (التى يقال فيها قد قامت الصلاة ، أى أصحابها : اقـم الصلاة لدلوك الشمـس)

وقائمـة ابـدا دهرهـا   وما هـي واللـه بالقائمـه
يصيح بها الناس مهما انـت   وما ان يخافون مـن لائمـه
وما هى انـس ولا هى جـن   ولا هـى غرثى ولا طاعمـه
ولا هى شخـص ولا هى روح   ولا هى يقظـى ولا نائمـه
وليست تكل لطـول القيـام   فخبـر فديتك مـا القائمـه

ومن ذلك قوله فى جبل درن :

يا عجبـا مـن بـارك دهـره   وهـو عظيـم الجسـم ممتـد
لـه عيـون جمـة تنهمـي   مـن غيـر حـزن وهـو مربـد
وهـو لعمرى منصـت مطـرق   وابيـض الـراس ومسـود
وخلقـه فى ذا الـورى معجـب   ليـس لـه مـن صنفـه نـد

ويقول فيه ايضا :

وشامـخ الانـف الا انه جبـل لم تدر ذروتـه ما حافر الفـرس
منـع تلـوح لنـا بيضا نواجـذه كالليث يكشر عن انيـاب مفترس
نمشي ضحـى وكأنا فى مناكبـه نمشي من الفزع الملتف فى غلـس

(وزاد احد كتابه فى هذه الابيات فقال :

فكنت موسى وكان الطور تصعده وكانت الشمس فيه آية القبس)

والواقع ان هذه الابيات خرجت عن معهود الالغاز ، اذ هى واضحة فى كونها تصف جبلا الا يكن جبل درن ، فغيره كجبل الشيخ مثل . (أمـا آية القبس الواردة فى بيت الكاتب ، فهى « سآتيكم منها بخبر أو آتيكـم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » أو « لعلي آتيكم منها بقبس أو اجد على النار هدى ») .

ويقول فى سمك الشابل :

ما اسـم اذا ما شئـت الغازه فى أحـرف البيـت اذا فتشـا
بـل يكتـم الاول عنـه فـان اتيـت بالثانـي اليـه وشـا

ويقول فى مدينة سجلماسة :

بيـت حلـم اتيتـه اشتكـي طـول هجره
ارق العـين مـن بـه نائمـا خلـف سـتره
مـا لقطـر كتمتـه اعتنـاء بقـدره
كيف لم يدن من شـج يتغنـى بذكـره
اسـأل الشعـر علـه هـو أدرى بسـره
اى ابياتـك الـذى حـل الفـي بشطـره
قـال ان شئت علمـه صحف النصـف تـدره

وعلى هذا نصحف كلمة « بيت » سينا والحاء من « حلم » جيمـا و « تيت » من اتيته سينا والهمزة منه الفا وهاء الضمير منه كذلك هـاء التانيث فينتج من هذا الشطر : بيت حلم أتيته كلمة « سجلماسة » .

فهذه الالغاز فى الامكنة المذكورة ، تدل على انه قالها وهو بالمغرب ،

ولم تجد له ألغازا فى بلاد غيرها ، كالاندلس التى تقلب فيها ، مدة طويلة ولا فى غيرها كبلاد الجزائر التى ولي منها بجاية ، كما تقدم .

بعد الالغاز اتى باب التشبيه وله علاقة بالاول حينما تسقط أداة التشبيه ويتلوها حذف المشبه ، فكلا البابين يتصلان فى غاياتهما بمجرد الشكل، اذ التشبيه حلية من الحلى التى تكون عليها صور التعبير الفني ، ولعل اهتمام الناس آنذاك بالاندلس والمغرب ، كان منصبا على التشبيه ، الذى تفنن فيه الشعراء بالاندلس وكان فارسهم بالقرن الخامس ابن خفاجة ، وهذا الانصباب لا يستغرب منه ، فلقد كنا بالمغرب ننصب على دراسة الاستعارة ، ونترك ما عداها من بحوث البلاغة .

وانطلاقا من هذا الشكل ، لابد أن نجد فى هذا الباب ما يتداخل وباقى الابواب من الديوان ، وفعلا نجد مثلا للخمريات فيه نماذج كثيرة ، وقد سبق أن باب النسيب كان قد تضمنها مع غيرها ، بل اننا وجدنا بعض (1) النماذج قد ذكرت بهذا الباب ، وسبق أنها ذكرت نفسها بباب النسيب ، مثل الأبيات :

لله يوم قد تكامل أنسه	أبدت لنا وجه المسرة كاسه
خلعت كمائمها الازاهر بهجة	وتلفعت بالدجن فيه شمسه
نلنا به كل المنى فلذاك ما	قد ظل يحسده عليه أمسه
فاعكف على شرب المدام فيومنا	جسم ولكن المدامة نفسه

أما باقي الخمريات الواردة فى التشبيه ولم تكن واردة فى النسيب ، فهي :

انظر الى دورحة التفاح مال بها	ريح الصبا فأثار الزهر والورقا
والنبت من حولها تبدو أزاهره	كأنها انجم قد فرقت فرقا
كأنها ملك طاف العفاة به	ليسألوه فألقى بينهم ورقا
فاشرب على حسنها صهباء صافية	تهدى السرور وتنفى الهم والأرقا

(1) الابيات الآتية تمتاز كذلك بانسيبها فى كون الكأس تبدى وجه المسرة وأن الازاهر مبتهجة تخلع كمائمها ، وأن الشمس قد تلفعت بالدجن وأن هذا اليوم قد حسده امسه ، وانه جسم والمدامة نفسه .

جعلنا القطعة من الخمريات ، لنداء البيت الاخير منها ودعائه الى الشراب ، وان كانت قيلت فى دوحة تفاح ، التى اعتمد عليها هذا التشبيه بادىء ذى بدء ، فكأن هذه الدوحة ، ما أتى بها الا لتكون مادة خامة ، ينحت منها هذا التمثال العجيب .

ومما لا علاقة له بالتشبيه وذكر فى بابه ما كتب به الى ابن عم له ، يقول :

اليوم يوم الجمعة	يوم سرور ودعه
وشملنا مفترق	فهل ترى أن نجمعه

يريد على مجلس الشراب ، فأجابه هذا :

اليوم يوم الجمعه	وربنا قد رفعه
والشرب فيه بدعه	فهل لنا أن ندعه

وما ورد فيه من خمريات قوله فى يوم انس :

ومحل انس لا نظير لحسنه	فى روضة معدومة النظراء
جمعت به شتى الازاهر فاقتطف	ورد الربيع ووردة الصهباء
من قهوة حمراء نحسب ضوءها	قبسا تبدى فى دجى الظلماء
صبغت بياض الكاس اذ حلت به	فكأنها خداك عند بكاء

وقوله فيها :

قالوا الذباب وقعن فى مشروبنا	حاشاه من وقع الذباب وحاشا
لم يستبح حرم العقار وانما	لما أضاء لها سقطن فراشا

وقوله فى ساق :

وساق يطوف علينا ضحى	وكأس المدامة فى راحته
وقد اشبهت راحه خده	فخلت المدامة من وجنته

أما ما هو من النسيب ولم يذكر فى بابه فقوله :

مقلة من دمعها فى غرق	وفؤاد من جوى فى حرق
عجبا للماء والنار معا	كيف لم يخلفا فى الطرق

أى صبـــر لعميــد قلبـــــه ... أقصدته طائشات الحـــــدق
فى سبيل اللـــه نفس صبـــة ... بقيـــت منهـــا بقايـــا رمـــق
شد ما لاقت من الوجد بمـــن ... دونه شمس الضحى فى الرونق
بـــدر تـــم أطلعـــت صفحتـــه ... من سنـــــاه قمرا فى غســـــق
كيـــف اذ لاح لأجفانـــي لـــم ... يعشها ضوء سناه المـــشرق
كلمـــا أبصرتـــــه عوذتـــــه ... خيفـــة العـــين برب الفلـــق

وقد تقدم فى النسيب طرق الشاعر للوفاء الذى يتجلى به نحو أحبائه ، فمن هذا قوله هنا :

بينـــي وبينـــــك ود لا يغيـــــره ... صرف الزمان ولا يبلى مدى الحقب
وان تكن غبت عن عيني مذ زمـــن ... فان شخصك فى الاحشاء لم يغـــب

كما تناول فى الباب السالف الرياض والامطار ونحوها ، ويقول هنا فى ذلك وهو جميل بديـــع :

بين الرياض وبين الجو معتـــرك ... بيض من البرق أو سمر من السمر
ان أوترت قوسها كف السماء رمت ... نبلا من المزن فى درع من الغـــدر
فتح الشقائق حرجاهـــا ومغنمهـــا ... وشي الربيع وقتلاها جنـــى الثمر
فاعجب لحرب سجال لم تثر ضررا ... نفـــع المحارب فيها غاية الظفـــر
من أجل هذا اذا هبت طلائعهـــا ... تدرع النهر واهتزت قنا الشجـــر

هذه أبيات جميلة وأجمل ما فيها البيتان الثانى والثالث ، وان كان القاضى عياض قد سبق الى مضمون الثالث فى البيتين المعروفين :

انظـــر الـــى الـــزرع وخاماتـــه ... تحكي وقـــد ماســـت أمام الرياح
كتائبـــــا تجفـــــــل مهزومـــــة ... شقائـــق النعمـــان فيها جـــراح

ويتصل بهذا قوله فى وردة :

خذهـــا اليـــك كوجنـــة العـــذراء ... من غيـــر ما خجـــل وغير حيـــاء
عطريـــة الانفـــاس يمـــلأ عرفهـــا ... متنشـــق الندمـــــاء والجلســـاء
نثـــر السحاب لآلئـــا منـــه على ... اوراقهـــا لكنهـــا مــــن مـــاء
وكانمـــا رقـــم النـــدى اوراقهـــا ... رقم الحبـــاب غلالـــة الصهبـــاء
ثـــم الـأمن فرائـــدا فى صحنهـــا ... فكأنهـــا خـــداك غـــب بكـــاء

فاذا استثنينا بيت التقديم ، فان هذه الصور كلها قد مضت في الرياض والزهر الا ما كان من التشبيه اخيرا بالخد الباكي المورد . وقد تقدم في النسيب خطاب الديار والدعاء لها بالغيث والسقيا ، وهنا أيضا يقول :

امنزلنا الاسنى سقيت وعمرت ... معاهدك العليا بكل سرور
لكم ليلة نلنا الأماني سوافرا ... لديك ومتعنا بكل حبور
ولا زلت محفوظا من الخطب آهلا ... تفدى بأحداق لنا وصدور

كما عرج على الشيب في بعض أبياته المذكورة في النسيب ، وهذه اخرى فيه :

اقول وقد لاح المشيب بمفرقي ... الا اكرم به ضيفا وخلا وصاحبا
لبشرى اتت نحوى وان كنت قد مضى ... شبابي وما قضيت منه مآربا

ويقول فيه ايضا :

حل وفد المشيب بالراس مني ... فتبدلت من سواد بياضا
اى بشرى اتت الي ولكن ... لم اتمم من الصبا أغراضا

وكان الاندلسيون اكثر الناس استعمالا للكتابة كزخرفة تتزين بها مبانيهم وقصورهم بصفة خاصة ، كما كانوا يتمقون بها حللهم وملابسهم ، وقصة ولادة بنت المستكفي بالله معروفة بأشعارها التي كانت مكتوبة على جانب من حلتها ، وهذا كله ما فعله شاعرنا ووجدناه فيما بعد ماثلا في مباني المرينيين الذين قلدوا فيها الاندلسيين ، وضمنها مدارسهم العديدة ومساجدهم الجامعة وفي العصر السعدي بلغ أوجه فيما كتب على قببه وابوابه وابهائه ، مما تردد صداه قويا فيما بعد وفي أيام المولى اسماعيل وعلى قصوره بعاصمته وعلى ابواب هذه (واقتصر هؤلاء جميعا على المباني عامة) .

أما شاعرنا سليمان ، فنجد مما كتبه (لا محالة) على دار لهم قوله فيها وكانت بمراكش :

رعاك الله يا دار الكرام ... وجادك بالحيا صوب الغمام
ومتع فيه أعواما طوالا ... على نعم وخير مستدام
ارى مراكش الحسناء تزهى ... وحق لها على دار السلام

كأن الأرض شخص وهى وجـــه وانــت بوجهها وضح ابتسام
تقــول لأهلهــا لمــا أتوهــا قدمتـــم فادخلوهــا بالســلام
اقيمــوا آمنــين بخيــر حــال فعنــدى للعــلا اسنى مقــام

فهذه الستة الابيات ، لا تشبيه فيها الا فى الرابع منها ، وهو :

كأن الارض شخص وهـى وجـه وانــت بوجهها وضـح ابتسـام

(ولا بأس به) وان لم يكن من البداعة فى سنامها ، اما كون مراكش الحسناء تزهى ، فهذا مما تنوسيت فيه التشبيهات واقترب بابتذاله الــى حقائق المدلولات ، فصار البحث عن الاستعارة المنبثقة من التشبيه فى ذلك ، كالبحث عن الاموات لا يشعون أيان يبعثون ويبقى بعد هذا البيتان الاخيران، وهما مقتبسان من القرآن « ادخلوها بسلام آمنين » اى الجنة ، وما اقرب أن يشبه بهذه .

ونحو هذا قيل فيها كثيرا ، من ذلك :

لمــراكش فضل عــلى كل بلــدة فلم تــر عيني مثلها مــن مشابه
ومـا هــى الا جنه قد تزخرفــت ولكنهــا محفوفــة بالمكــاره

فهذا أيضا من الحديث « الجنة حفت بالمكاره » ويقول فى شخص غره حلو كلامــه :

كم من شريــف القول قد غرنــى بقولــه والفعــل منــه وضيــع
لا تصنــع المعــروف الا لمــن رايتــه أهــلا لشكــر الصنيــع
ولــم أكــن اغلــط فى مثلــه لكــن دهننــى ثقتــى بالشفيــع

فهذا كلام مغسول مجرد من كل زينة ، تتزين بها عرائس الاشعار ، ولا أدرى أين موطن التشبيه منه ، اللهم الا ان نعود الى الخلقة الاولــى لمدلول الكلمات (وما فى مكنتنا أن نشهد خلقها حتى ندعى ما يدعيه بعض المتحكمين) عن الشقندى فى الغصون اليانعة انه قال : اذكر انه شفع له فى شخص مليح الكلام ، فولاه واحسن اليه ، فاتى بالقبائح ، فذكر امره وانا حاضر ، ثم قال فيه ، فهذه اذن من وحى الساعة ويقول فى اهدائه خوخة :

ارسلت نحوك يا خليلي خوخــة قد جمعت فيهــا الصبا والشمأل
لونــيولونــك اذ تطــل فجــاءة فــأراع عن حــذر عليك وتخجــل

فالبيت الثانى بديع والتذكير فيه ، والبيت الاول لا يفهم على حقيقته اذ التأنيث لائح فى قوله « اذ تطل فجاءة » فالاطلال من النوافذ ونحوها مألوف من ربات الحجاب ، وقد عرفت العربية فى اشعارها بالخصوص هذا الصنيع من اطلاق التذكير على التانيث ، منذ أن اتصلت بالفارسية التى لا تفرق بينهما فى الضمائر والاشارات والصفات (فكأن شعراءنا تابعوها فى عدم التفرقة ، بل تابعوها حتى فى الغزل المذكر الذى عرف به الفرس قديما) ويبدو أن الشاعر نظر الى ابن زيدون وقوله فى تفاح :

اتتك بلون الحبيب الخجل	تخالط لون المحب الوجل
ثمار تضمن ادراكها	هواء أحاط بها معتدل

ومما جاء فى باب التشبيه قوله فى خصة الماء (أو ما يعرف فى الشرق باسم فسقية) :

انظر اليها وقد سالت جوانبها	بالماء سيلا خفيفا دمعه يكف
كأنها مقلتي يوم الوداع وقد	لاح الرقيب فلا تجرى ولا تقف

وكتب على لسان حلة زرقاء :

انظر فاني سماء بدر	مطلعه مني الجيوب
وفى مهما نظرت معنى	مبتدع زاهر عجيب
بدرى لا يعتريه نقص	وانجمي ما لها غروب

والبيت الاول فيه صورة معروفة للشعراء ، كقول ابن زريق :

استودع الله فى بغداد لي قمرا	بالكرخ من فلك الازرار مطلعه

ومن شواهد التلخيص :

لا تعجبوا من بلى غلالته	قد زر ازراره على القمر

فكون الوجوه الصبيحة تبرز كالاقمار والبدور من فتحات الحال المزررة مثلا ، هذا شيء مطروق جدا ، انما البداعة آتية من الانسجام بين زرقتها ، كالسماء ، وبين مطلع البدر من جيوبها ، وهذا البدر لا يعتريه نقص (وهذا مطروق كذلك) ، ويبدو أن نجوما كانت مصورة على هذه الحلة ولذلك قال « وانجمى ما لها غروب » فالابيات ، على العموم ، انيقة ، وان

لم يكن فى تشبيهها بدع عظيم .

ويقول فى الضرابين للنقود :

وفتيـــة ممـــا ادامـــوا الضـــراب	لا يفهـــم السائـــل فيهـــم جواب
كأنمـــــــا وقـــــع مناقيشهـــــم	فى اكلب الضرب نبـــاح الكـــلاب

وهذا التشبيه فى الواقع أتى به الجناس فى اللفظ ، فلم نجد به ما بين المعنيين من نسب ولهذا كان التكلف باديا عليه .

وقوله أيضا فى خطاب قبة :

قبـــة المجـــد والعـــلا والفخـــار	ساكنوها عـــلى المنـــى باختيـــار
تنشـــد النازلـــين اهـــلا وسهـــلا	ادخلـــوا آمنـــين اسعـــــد دار
متعـــوا اللحـــظ مـــن اجـــل رواء	واهنئـــوا الامـــن فى اعز جـــوار
كيفت اسعـــدى ليمنـــاى وقتـــا	حـــط فيـــه تواعـــــدى وازارى
وبنتنـــي المنـــى بيمـــن يمـــــين	منظـــرا رائعـــا ويـــسر يســـار
فانـــا ان نظـــرت قـــرة عـــين	وانـــا ان حللـــت دار قـــــرار

فهذه أبيات لا تشبيه فيها بالمرة ، ولا طرافة فى وصفها او فى انشادها وما نطقت به من جمالها وهناء فيها واختيار الطالع لبنائها فكان نظرهـــا رائعا ونعيمها مريعا ، فهى قرة العين ودار القرار ، مما تتصف به الجنـــة ووارد فى القرآن الكريم عنها .

ويقول فى قبة بناها أخوه :

أيا قبـــة العلياء حـــل بك المجـــد	وحل بك التوفيق واليمن والسعد
وقرت بمـــا تهواه فيـــك عيوننـــا	وانجز فى لقيا ابي حفص الوعـــد
وحالفـــه فيـــك السرور مخيمـــا	اذا ما أتى وفـــد قفـــا اثره وفـــد
ولا زالـــت الاقـــدار تخدم امـــره	على وفقه والدهر فى ملكه عبـــد

فهذه الابيات لا شىء فيها يستحق الالتفات ، فالقبة العالية ، حل بحلول صاحبها فيها التوفيق واليمن والسعد ، كما ظهر اليمن والاقبال فى ذلك اليوم وعيوننا قريرة بما تهوى بانجاز اللقيا لابى حفص ، حالفه السرور وتواردت عليه الوفود ولا زال القدر يخدم أمره والدهر عبدا فى ملكه ، فأين شفوف التشبيه فى هذا كله ؟

وبعد فان التشبيه عمود الشعر ، وأساسه الاول ، وكان شعاؤنا وما زالوا ، يدلون بقدرتهم عليه ، وتمكنهم من ناصيته وقدما قال غيلان ذو الرمة : اذا قلت ككأن ولم اجد لي مخرجا فقطع الله لساني .

ثم كان عبد الله بن المعتز أمير الشعراء فى التشبيه ، الذى كان يعد على راس فنون البديع ، والف فيها عبد الله المذكور ، تأليفه الذى يعد اول تأليف فى هذا الباب .

وفى الاندلس جاء ابن خفاجة ، ليتلقى راية التشبيه باليمين ، فكان بطل الابطال فى هذا الميدان ، بصفة خاصة .

ولا غرو أن يكون التشبيه بهذه الدرجة العالية فى سلم الشعر العظيم ، كما قال الشاعر ، لانه يدل على خصب فى الخيال المبدع ، وعلى قوة التداعى فى المعانى ، واستجابتها لصاحبها عند الحاجة اليها ، وبقدر ما يسجم الشاعر بينها ، بقدر ما يكون ماهرا فى ربط بعضها ببعض ، على طريقة التخييل .

ومن المؤلفات التى الفها الاندلسيون فى التشبيه الشعرى كتاب التشبيهات من اشعار اهل الاندلس لابى عبد الله محمد بن الكنانى الطبيب ، من رجال القرن الرابع واوائل الخامس ، وهو كتاب طريف (1) .

---

(1) فقد قسم كتابه ثلاثة أجزاء جعل الاول أبوابا ، أولها فى السماء والنجوم والقمرين ، ثم ابلاج الصبح ، فالرياح ، فالبرق والرعد ، فالسحاب والمطر ثم الربيع والزهر ، ثم الورد خاصة ، فتغريد الطيور بالرياض ووصف الحمام ، ثم الانهار والجداول والمياه المندفقة والآجنة ، ثم القصور والبساتين والصهاريج والاشجار ، فالنواعير والارحية ، ثم المأكولات من الفواكه وغيرها ، ثم الشراب واوصاف الخمور ، تتلوها صفات الكؤوس والاقداح ، ثم السقاة والندامى فالقيان والمغنين ، فأدوات الطرب من عود وطنبور وغيرهما ثم وصف الشعر نفسه .

وبعد هذا يأتى الجزء الثانى من الكتاب أول بابه فى الحسن ، فوصف الشعر ، بالسواد والشقرة ، ثم ما يخص اصداغ القيان وعذار الغلمان ، فاشراق الوجه والخدود والخيلان ،، ثم فتور العيون وغنجها ، ثم الثغور وطيب رضابها ، فالنهود فالقدود ومشى العذارى والفواتن من النساء ، ثم الحديث ، فالخصور والارداف ، فالعناق والوداع ، يتلو ذلك البكاء ، فخفق الافئدة والقلوب ثم طول الليل والنهار ورعى النجوم ، ثم الطيف والخيال ، فالنحول والهزل ، ثم النيران ، فالشتاء والصقيع ، فقطع المفاوز وصفات الابل التى يمتطيها المسافر كذلك ، ثم الشراب ، ثم البحر والسفن ، ثم القنص والطرد ، ثم الحيات والهوام ، ثم الخيول ، فالسيوف فالرماح ، فالقسى والنبال ، فالدروع والبيض ، فالتجافيف والرايات والطبول ، ثم وصف الحروب والطعان والمعارك والفتوح والجيوش ثم الرؤوس والمصلوبين ، ثم الخوف والهلع والمهابة .

وبالجزء الثالث وصف الدواة والقلم والصحيفة ، فالسكين والجلم ، ثم المذبة والمروحة ، فالجود والكرم ، فالبخل ، ثم الخوان والاكلة والطفيليين ، وهجو النسا والمغنيات ، ثم الثقلاء والكذابين والمنافقين .

بعد باب النشبيه بديوان أبى الربيع ، باب العتاب والاعتذار والشكوى ، وهو عبارة عن مقطوعات ، تتراوح بين بيتين وثمانية الى جانب قصيدتين أطولهما تسعة وعشرون بيتا ، وأقصرهما أحد عشر بيتا ، يقول فى الاولى :

عيل صبرى لهموم لا تطاق	شردت نومهما عني المآق
وجدت صبرى خلوا واسعا	فأصارته لها مأوى فضاق
فغدا انسى عنى نافرا	مستحثا برحيل وانطلاق
زندها أورى بقلبي شررا	صدعته بالتهاب واحتراق
اضرمتها زفرات صعدت	بذما نفسى الى حد التراق
فهو لا ينفك منها فى عنا	مثل عان حل فى أسر الوثاق
أتمنى أن أرى لي حاجة	معها وهى تبارى فى السباق
أو ترى عيناى شيئا ترتضى	بوفاق أو على غير وفاق
لينها اذ نخذتنى غرضا	حملت قلبى منها ما أطاق
عجبا كيف بقائى معها	وأنا بين نزاع وسياق
كلما رمت اسلى النفس عن	ما دهاها انطبقت أى انطباق
وابت الا نفارا دائما	او هلاكا بانفطار وانشقاق
ليس من عشق ولا من سقم	اشكر الله ولا فرط اشتياق
مقسما أن لا يني فى طلبى	كل مطلوب ففى حكم اللحاق
أنا ان قاومته جرعني	غصص الموت كريهات المذاق
وشدا مستهزئا ينشدني	« من لنا بعد افتراق بتلاق »
وانبرى مستأنفا عادته	من مجيرى منه قد ضاق الخناق
لا لجرم والذى اسأله	فرجا مما اقاسي والاق
فاليه المشتكى من جوره	وبه منه اعتصامى واعتلاق
وبمولانا الامام المرتضى	فاتح كل انسداد وانغلاق
ومجلي كل خطب فادح	بالعتاق الصفر والبيض العتاق
فهو يعدينى عليه وكفى	بأمير المومنين منه واق
فأتقضى الدهر ما اقرضني	وأذيق الدهر ما كان أذاق
واجازيه جزاء حسنا	واريه ما أراني من مشاق
ويكون الشكر منى ديدنا	ما دعت ورق على غصن وساق

كيف لا افعل هذا وانا ... صادق حبى ما فيه اختلاق
ومديحى فيه قد يعرفه ... من ببغداد ومصر والعراق
نال مما يشتهى آماله ... ووقته خيفة العين الأواق (1)

وقد حاول الشاعر أن يتجلى فيها ببعض المحسنات البديعة ، لكنها بدت فاترة باهتة غير رائقة للذوق الفنى ، مثل قوله :

فهو لا ينفك منها فى عنا ... مثل عان حل فى أسر الوثاق

وقوله :

او انا ارضيته او رضته ... عله يرضى تمادى فى الشقاق

وقوله :

ومجلى كل خطب فادح ... بالعتاق الصفر والبيض العتاق

واخيرا يأتى البيتان ، اللذان يحمل أولهما غرابة فى عطف العراق على بغداد ، ولا تجيز هذا الصنيع الا القواعد الجافة ، التى تقول بعطف العام على الخاص ، ويحمل آخرهما معنى عاميا مبتذلا ، وكأنه انصت الى بيت عرفه من شواهد النحو فى النداء ، وفيه « ياعديا لقد وقتك الاواقى »

أما القصيدة الاخرى ففيها نفحة من الشعر ، وحرارة من العاطفة المشبوبة ، وان لم تكن متقدة ملتهبة ، وهى :

كلوم فى الحشى بمدى الزمان ... وقد ترم الأوانى والمغانى
وقد كان المجن تجاه وجهى ... ولكن حاد عن طرق الطعان
اذا كان المحارب لي زماني ... فما يغنى مجنى او سنانى
ومن اى الجهات اظن سلما ... اذا حوربت من جهة الأمان
فيا مستفهما عن كنه حالي ... كفاني ما اشرت به كفانى
اذا ما شئت تسلينى فزرني ... فقد فهم الشكاية من رآنى
وان كنت الخبير بها ولكن ... لسان الحال افصح من لسانى
فيازمن التغافل والتغاضي ... ويا عهد التواصل والتدانى
بعدت فصار وصلك لي حديثا ... يحدثه فلان عن فلان
تغالطنى الحوادث فيك حتى ... اشك وان رأيتك فى العيان

(1) هذه القصيدة وجهت الى يعقوب المنصور ضمن ما وجهه اليه من اشعار .

وهكذا نرى ان اجمل ما فى القصيدة هو البيت الأخير منها ، وأن اكهم ما فيها هو البيت الأول منها ، وما عدا هذين فيتفاوت فى الحسن ، وأن كان البيتان :

فيازمـــن التغافــل والتغاضي	وياعهد التواصـــل والتدانـــي
بعدت فصار وصلك لي حديثا	يحدثـــه فـــلان عـــن فـــلان

يثقل أولهما بالترادف فى التغافل التغاضى والتواصل والدانى ، ويتزمت الثانى برواية الحديث عن فلان وفلان .

على أن التكرار عند الشعراء والكتاب ، لا يعد من مساوى فنهم ، فالتزيين بهذا مطلوب لهم ، خصوصا ان كان فى احدى الكلمتين فضل ما ، يتحقق فى المعنى أو فى مجرد اللفظ ، اذ الموسيقى الصوتية فى فـــن الأدب لا تغفل أهميتها عند الادباء ولهذا نغمط حقهم ، اذا ما أخذناهم أخذ عزيز مقتدر بهذا التكرار ، وهم يقصدون به التجمل والاحسان .

فالشاعر يئن من آلام هذه الجروح التى اصيب بها من شفار الزمان ، وحطم له كل ما لديه ، فتعرض لكل رام ، وقد تجرد من كل واق ، وما يغنى المجن والدهر هو الذى يقصده بسهامه ، واين يجد له الامان ، اذا كان محاربه من يحيره ، فيامستفهما عن الحال ، كفاك ما اشرت به ، فان شئت أن تدرك ما انا عليه ، فزرنى تفهم شكاتى ، فانك لو كنت خبيرا بالامور ، لكن حالتى تجعلك تدرك الحقائق اكثر واعمق ، لقد تمنيت السلامة غيـــر دار بأن الضر قد يكمن فى بعض ما يتمنى الانسان ، فيازمن التغافل عنا ، لقد ابتعدت عنا كثيرا ، فصرت مجرد حديث يتنقل من هذا الى آخر ، وتنمرت لنا فلم تغض عنا لحظة ، واصبحت الحوادث تترى ، تغالطنى فى حقيقتك الاولى ، فكأنها كانت حلما من الاحلام .

والى جانب القصيدتين فهناك قطع تتفاوت فى عدد ابياتها وفى قيمها الفنية ، منهـــا :

عذيـــرى من دهـــر الـــح كأنمـــا	علـــي له دين وحـــان اقتضـــاؤه
فياليت شعـــرى ساقط لا لعلـــة	اينفع او يجـــدى لدبـــه ارتضاؤه
وما الناس الا السيف صين بغمده	ليحمـــد فى يـــوم النـــزال مضاؤه

يريد فى هذه أن يتنفس الصعداء ، ولكنه ينفث نفثته المصدورة ، من هذا الدهر الذى لا يفتأ يصيبه بشتي المصائب ، كأنه يطالبه بدين له عليه طال المطال فيه ، فهو يستحثه ويقتضيه ، فما يدرى كيف يتخلص منه ، وهو الذى خانه حظه ووقع من حالق ، لا لعلة تسبب بها ، ولا لجريرة أوجبت عليه تحمل احنها ، فلهذا هو يائس من النجاة ، ومن أن يرضى عنه الزمان ، بعد ما حاول ارتضاءه فلم يجده ذلك شيئا ولم يعنه ، على تحصيلها باد فى بيتها الأخير أنه توجه بها الى المنصور معتذرا بمكانة القربى التى تستجيب لأصحابها عند المكاره وكذلك نجده يستعطف - أيضا - يعقوب المنصور، بعد المحنة التى تعرضت فيها بجاية للسقوط فى يد ابن غانية ، وكان الشاعر عاملها فيقول :

يا كعبة الفضل التى حجت لها	غز الشآم وتركها والديلم
طوبى لمن أضحى يطوف بها غدا	ويحل بالبيت العتيق ويحرم
ومن العجائب أن يفوز بحجة	من بالشآم ومن بمكة يحرم
حاشا امير المومنين فانه	احنى على رحم دعته وأرحم
اليوم تغفر للجناة ذنوبها	فعسى اكون بفضل عفوك منهم
هبنى جنيت أليس تعلم انه	نحن الألى نجنى وأنت المنعم
والفضل نظهر بالنقيض لحاكم	بينى وبينك اذ نسىء فتحلم
من ابن يعرف قدر اغضاء الفتى	لولا المسىء له ولولا المجرم

فهو يناديه ، ويشيد بمكانته ، التى جعلت الشام يتجه اليه ، بغزه وتركه وديلمه ، وكان ذلك واقعا فى تلك الجماعات التى حجت اليه وفيها ابن حموية السرخسى ، الذى لازم المنصور ، وحضر معه موقعة الأرك الشهيرة ، وكتب عنه وعن رجاله ، مذكرة ، يعتبر ما حفظ منها سجلا هاما عن المنصور، وايام من عهد ابنه الناصر ، والشاعر ، وهو يئن تحت وطأة تلك الجفوة ، يذكر المنصور ، بما يسخو به نحو هؤلاء الغرباء الذين حجوا اليه ، فهو يمكنهم من التمتع بحضرته ، فهم يطوفون به بالبيت العتيق ويحرمون ، شأن الحجاج يطوفون حول الكعبة فيكونون محرمين ثم محلين . أما هو فقد أقصى عنه ، على قربه منه . فياللعجب ، أن يفوز من أتى من الشام بحجه ، ويحرم من بمكة مقيما من ذلك الحج ، فيطوف البعيد منها بكعبتها ، ويحل ويحرم ببيت عتيقها ؟؟؟

ان أمير المومنين لن يحرمني من عطفه ، وانا ابن عمه ، فهو احنى على رحمه وأرحم لهم ، واليوم ، تغفر فيه ذنوب المذنبين ، فعسى ان أكون ممن تشملهم هذه المغفرة ، فهبني جنيت ، فأنت الذى تعودنا منه الانعام ، على جنايتنا ، فلولا الاساءة ما كانت المغفرة ففضل الانسان بمواقفه من الحلم ، تجاه المسيئين اليه ، وبهذا النقيض يكون الحكم بينى وبينك ، اسيء فتحلم .

ويقول أيضا فى استعطافه :

رضاك أمير المومنين فانني ... اعالج بين العذر والذنب مشكلا
أبرئ نفسى ان علمت خلوصها ... واعتبها أن لم تفز بك اولا
الا فى ضمان الله نفسى من الردى ... اذا كنت لي فى زلنى متأولا
وفى حفظه من كل سوء اخافه ... اذا كنت لي حرزا حريزا ومؤئلا
ومن جاء فى اخلاصه مترضيا ... فقد جاء من تقصيره متنصلا

ففى هذه أيضا يبثه شجواه ، وأنه فى دوامة العذر والذنب وانه يبرىء نفسه حيث يعلم خلوصها ، ويعاتبها لأنه مجفو مقصى عنه ، ولا ضمان له ولا أمان ، الا اذا التمس له المنصور عذرا ، وتأول ما وقع فيه ، فحمله محملا حسنا ، فانه ان كان حافظا لذمته راعيا جانبه ، فقد أمن من كل ما يخشى ، ومن قصده يطلب رضاه ، فقد بان تنصله من كل ما يرمى به من سوء ، وكل ما اتهم به من تقصير .

وكذلك يقول فى هذا الغرض :

أمير المومنين نداء عبد ... رجا عتباك فى الزمن القريب
فسخطك قد أذاب النفس سقما ... وما لي غير عفوك من طبيب
فلا تقطع رجائى واعف عني ... فدتك النفس من كل الخطوب
وهب عظمت ذنوبى ما أرادت ... اليس رضاك اعظم من ذنوبى
اذا كان الظهور حسيب غيرى ... فان رضاك عني هو حسيبى (1)
فما نقص الكرامة منك عيب ... اذا وفرت بالعتبى نصيبى

---

(1) انظر ما وقع فى هذه الحادثة للشاعر ، الجزء الثالث من البيان المعرب ، ص 146 — 149 تحقيق « هويدي ميرندا » ومساهمة ابراهيم الكتانى ، ومحمد بن تاويت ، العبد الفقير

وهذه لا تختلف عن سابقها ، فى الشكوى من الجفاء والسخط الذى أضناه ، فهو يرجو العفو ، وان عظمت زلته فعفوه أعظم ، وحسبه رضاه وحده وله غير هذه أبيات ، يصح أن نعدها حكما مجردة مثل قوله :

عثــرات اللســـان بالمرء تـــودى	ان يرى راسه سقيــط الحســام
ويــرى بارئـــا وان هـــو يومـــا	عثــرت رجلـــه بصـــم الرجــام

وأخيرا يأتى الباب السابع فى الديوان ، وهو باب الزهد ، الذى يمثل نهاية المطاف فى حياة الامير أبى الربيع ، الذى كان ، كما صوره تمام التصوير باب النسيب ، ولهذا نجد فى البيان المغرب ، فقرة لاشك أن كاتبها كــان معاصرا له ، فيها دعاء من هذا الكاتب لشاعرنا بأصلحه الله وعفا عنه ، فمن قصائده الزهدية ، هذه الداليـــة :

ياراقـــدا مـــلء عينيـــه يهدئـــه	لين القراش وعين الله ترصــده
لو كنت تعلم فوز الغانمين غـــدا	ياراقـــدا ليلـــه ما كنـــت ترقـــده
وكيـــف ترقـــد لــــلا أو تلذ بـــه	وانت تجهل ما يأتـــى بـــه غـــده
مهد لجنبـــك فى التقوى بخشينـــه	فليس شىء سوى التقـــوى تمهده
أليس ترحـــل عن حال وسركهـــا	فاجن لنفسك منهـــا ما تـــزوده
فسوف تجزى بما قدمت من عمل	وزارع الخير فى الدنيا سيحصده
يارب راقـــد نوم حشو مضجعـــه	شـــوك القتاد ولكن لا يسهـــده
أغفى على غبـــر وعد من منبهـــه	مع الصباح ويوم الحشر موعـــده
يوم الندامـــة لو تغنـــى ندامتـــه	مبيـــض الوجـــه فيه أو مســـوده
والمرء من كثـــرة التسآل مشتغل	يقيمـــه هول مـــا يلقى ويقعـــده
حتـــى يقول طويل العمر وافـــره	ياليته كـــان ذاك اليـــوم مولـــده
قد كان احمد عمـــر المرء اطولـــه	فاليوم اقصر عمر المرء احمـــده

وهكذا فانه فيها يوقظ ذلك النائم ملء جفنيه فى فراشه الوثير ، لا يبالى بما يرتكب مـــن المعاصى ، وعـــين الله تراه وترصـــده ، وهو لا يرعوى فلو كان يعلم فوز الفائزين بالطاعات ، يوم المغنم الاكبر ، لما كان يستنيم الى ملذانه ، ويخلد الى مرقده ، يقضى به طول ليله وكيف يرقد ليله ، ويلذ له نومه اليوم ، وهو يجهل ما يأتى به الغد ، يوم تبيض وجوه وتسود وجـــوه .

اني ناصح لهذا الغافل ، فليمهد لنفسه المسكينة ، بما ينجيها ، من عذاب القيامة ، فلا يحد عن تقوى الله وخشيته ، والعمل على مرضاته ، فليس ما يمهد به الانسان لنفسه، الا التقوى، والا فانه سيرحل عن هذه الدار وهو ينوء بالاوزار ، فليجنن لنفسه ما يزودها به من اعمال الابرار ، فكل سيجزى بما قدمت يداه ، وزارع الحسنات لابد أن يحمدها مع الاخيار .

رب راقد على سريره والشوك ملء حشـيته ، يشك جنبيه ولكنه لا يحس بذلك ، ولا يسهده المه ، فقد أغفى على غير موعد من منبهه مع الصباح ، ولكن الموعد يوم يحشر الناس عراة حفاة ، يوم الندامة لو تغنى الندامة ، ويوم ينال كل انسان جزاء ما قدم فى هذه الدنيا ، من خير أو شر ، ويوم يكون الانسان منهمكا فى تسآله ، مشتغلا بالاجابة عن نفسه ، فياهول ما يلقى فى موقفه ، حتى يتمنى طويل العمر فى الدنيا وافر النعيم فيها ، أن لو كان مولده ذلك اليوم الذى كان فيه ترابا .

لقد كان أحمد الاعمار فى الدنيا ، أطولها ، اما اليوم ، فأحمدها أقصرهـــا

وهكذا يأتى هذا البيت الأخير ليؤكد معنى البيت سابقه ، وهو صنيع للشاعر ، سقنا أمثلة منه ، فيما سلف ذكره .

ونحو هذه القصيدة قطعة أخرى يقول فيها :

ياغافــلا عن ذكــر مـــولاه	وذاهـــلا عـــن شكـــر نعمـــاه
وراتعـــا فى غبــه لا هبـــا	قـــد كحلـــت بالنـــوم عينـــاه
يا عجبـــا تكثـــر عصيانـــه	وتدعـــــى انــــك تخشـــــاه
فعد عـــن ذكـــر الصبا جانبـــا	وارج الـــذى تامـــل رحمـــاه
فى يـــوم لا قـــوة الا بـــه	ويـــوم لا راحـــم الا هـــو
رب اذا ما شئـــت أن تهتـــدى	لقدره فاقـــرأ « هـــو اللـــه »

فهذه قطعة عليها مسحة المتصوفة ، فى وزنها ومغزاها ، يبتدئهـــا بخطاب الغافلين وتنبيههم من ذهولهم ، عن شكر نعم الله الوافرة فهـــم راتعون فى غيهم ، لا هون عن ذكر ربهم ، قد كحلت جفونهم بالنوم العميق ، واصطحبوا الغفلة عن الله ، الذى يرعاهم برعايته .

ومن هذا يخاطب نفسه :

يا نفس حسبك ما فرطت فازدجرى	عن الذنوب فان القبر مثواك
خافى الاله لما قدمت من زلل	واعصى هواك فان الله يرعاك
ان الهوى قلما تجدى هوادته	وهو الذى عن سبيل الرشد اقصاك
لشدما تعلمين الفرق بينهما	ما كان احراك بالأجدى واولاك
الى م تلهين عن قولى مغالطة	وتوقنين بأني غير افاك ؟
اصغى الي فما فى الارض من احد	ألقي اليه صريح النصح الاك
توبى الى الله ان الله يقبلها	واسعى بجهدك فى تحسين عقباك

يخاطب نفسه ، وينصحها بأن تكف عما فرط منها ، فتزدجر عن ارتكاب الذنوب ، ولتذكر القبر الذى ينتظرها ، فيكون مثواها الأخير ولتخش الله ، فيما قدمت من ذنوب ، ولتعص الهوى الذى يعمى الابصار ، فان الله ، لا تخفى عليه خافية ، فهو يرعاها ويرقب أعمالها ان هوى الانسان لا يجديه فى شىء ، بل هو الذى يقصى صاحبه عن سبيل الهدى والرشاد ، ولشدما يدرك الانسان الفرق بين هواه ورشده ، فما احراه واولاه باتباع ما يجديه .

فالى متى تبقين لاهية غافلة عن نصحى ، لا تدركين انى اصدقك النصيحة ، لا اكذبك فيها فاصغى الى ، فانه ما فى الارض احد اخلص فى ارشاده واصدقه قولى وامحضه نصحى غيرك .

فتوبى الى الله توبة نصوحا ، فان الله يقبل توبتك ، واسعى بجهدك فى تحسين عقباك وكذلك يخاطبها بقوله :

ستعلم نفس قد قضى الله نحبها	بأية ما كانت تجاهر ربها
وما المرء الا نائم طول دهره	اذا ما انقضى عمر الحياة تنبها
اعاتب نفسى طامعا فى ارتجاعها	ولو كنت ذا يأس لخليت عتبها
ولكننى أرجو لها من بفضله	الى العمل الأرضى يقلب قلبها

وهى ابيات عليها طابع ابى العتاهية ، الا ما كان من البيت الاخير منها ، فانه فيه يجمل ظنه فى ربه ، ويجعل قلبه فى يده ناظرا الى الحديث « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك »

وهذه قطعة أخرى يقول فيها :

عاتبت نفسى ولو كانت موفقة ... لكان لي ولها من نفسها حكم
السعت عالمة يا نفس موقنة ... أن الحياة وان طالت بنا حلم
نأتى من الذنب قدرا ليس نجهله ... عض الانامل فى عقباه والندم
لم يكف أنا من الدنيا على خطر ... والعمر ينفد والأيام تنصرم
حتى غررت بآمال مزخرفة ... وجودها ان نرم تحصيله عدم
هلا أقمت على حال تكون بها ... كالفائزين ومن لي أن اكونهم
وان قوما أعانتهم ذنوبهم ... على السلامة فى الدنيا لقد سلموا
فقالت النفس لما عوتبت عجبا ... تالله ما سلموا مني ولا عصموا
فاسترحم الله ان القوم كلهم ... كانوا بحالتنا لكنهم رحموا

فهو هنا يعقد حوارا بينه وبين نفسه ، ويتحدث عنها بأنه عاتبها ، فلم تأبه له ، ولو رشدت لكان لها وله حكم عليها لقد قال لها فى عتبها ، السعت يانفس عالمة موقنة ، بأن الحياة ستنتهى ، وانها وان طالت حلم من الاحلام ، لا حقيقة لها اننا نرتكب من الذنوب ، ما لا جهل لنا فى ارتكابه من معصية ، واننا ستنالنا به ندامة وأية ندامة ، نعض الانامل من اجلها الم يكفك أننا على خطر من الدنيا الفانية ، وأن العمر فيها ينفد وشيكا ، والأيام تنصرم انصراما هائلا كلا ، انه ما كفاك ذاك ، حتى صرت تغترين بالآمال الخادعة المزخرفة ، وهى لا وجود لها من الواقع ، فوجودها ان حققت فى تحصيله عدمها ، فالفناء هو الحقيقة الماثلة ، ولا وجود للبقاء ، فهو ظل زائل ، وسراب ناكل فهلا أكون قد سلكت طريق النجاح ، وأقمت على حال الرضى والفلاح ، فأصبح بذلك من الفائزين ، ومن لى أن أكونهم ؟

لقد أذنبت كثيرا ، وليتنى كنت من أولئك القوم الذين انتهوا الى رشدهم وأقلعوا عن ذنوبهم ، التى أعانتهم على السلامة فى الدنيا ، فسلموا من خطر ما كان سيصيبهم فى الآخرة .

هنا قالت له النفس ، وقد طال عنابه لها : عجبا منك ، تقول ، انهم قد سلموا ، فوالله ما سلموا من تلك الأخطار ، ولا عصموا من امر الله ، فاطلب الرحمة منه ، فالقوم كلهم كانوا مثلنا بحالتنا ، لكنهم استرحموا فرحموا .

ويلاحظ عليه ، أنه تكلم عن النفس فجعل لها نفسا فى البيت الاول :

عاتبــت نفسي ولو كانت موفقــة   لكان لي ولها مــن نفسها حكــم

ذلكم أن كلمة النفس فى الشطرة الثانية ، ما هى الا ضمير ، يدعــى ضمير النفس ، يقوم مقام الضمير تماما وهو مضاف اليه ، حينها يتحد فى الفاعلية والمفعولية أو نحوها ، مما له تعلق بالفعل ، كما نجد ذلك فى قوله تعالى : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » فنفسها هذه ليست بمعنى النفس ، بل هى تقوم مقام الضمير الذى اضيفت اليه .

فهذا الاسلوب فى الزهديات هو الذى عرفناه فى الشرق منذ اربعــة قرون خلت فى شعر أبى العتاهية الزاهد الذى ـــ كما هو معلوم ـــ كان لا يتكلف فى صياغته ويختار له هذه الاوزان الخفيفة ، وقد ذكرنا فيما سبق نموذجا آخر من هذا القبيل ـــ فيما عرضنا ـــ للقاضى أبى حفص السلمى ، وهناك اديب آخر من هؤلاء الذين عاشوا فى اواخر القرن السادس واوائل السابع ـــ وكان فى ركاب الدولة ـــ هذا الاديب هو ابن خبازة الفاسى المعروف بميمون الخطابى وسنتكلم عنه فيما بعد حين التعرض له .

أما نثر سليمان الموحد فنلتمسه فيما حفظ له من توقيعات واجابات قليلة نجدها بالغصون اليانعة وغيرها . وهــى لاتنم عن نثر فائـــق له . ولو اطلعنا على اختصاره للاغانى لكانت مقدمته ضمن نماذجه النثرية .

وبعد ما تعرضنا لأدباء كانو ضمن شعراء الدولة الموحدية ، فى عهودها الاولى ، نتعرض لأديبين عظيمين ، كانا على رأس كتابها فى عهدها الاول كذلك نعني به عهد الخليفة الاول ، عبد المومن بن علي .

لقد عمل هذان الأديبان ، للدولة المرابطية ، كاتبين ، كما كان ابن حبوس شاعرها ، وكما كان أبوهما من كتابها أو على رأسهم بعد علــي بن يوسف ، وهما يختلفان عن ابن حبوس من حيث نسبهما الذى يرجع الى اصل اندلسى ، وكان ابن حبوس ينتمى الى أصل بربرى .

هذان الأديبان ، هما أبو جعفر ابن عطية وأخوه أبو عقيل ابن عطية ، مؤسسا الترسل السلطانى ، لهذه الدولة ، بل حتى لما بعدها من الدول المتعاقبة على هذه البلاد ، وهى فى أوج عظمتها وشامخ سيادتها .

لقد اتصل أبوجعفر بهذه الدولة ، وهـــى لما تـــزل توطد لصرحها ، وتعمل على تمكين قواعدها ، وترسيخ دعائمها فى الداخل فنال الحظـــوة العظيمة لدى الخليفة الاول ، وعد أول وزيرها بالمعنى الصحيح ، فألقيت اليه مقاليد الدولة ، فكان وزير قلمها بلا منازع كما كان مستشارها فى تسيير أمورها المدنية ، وتحريك دواليبها الادارية ، وهو فى العقد الرابع من عمره، وانضم اليه أخوه ، وهو حديث السن لما يسلخ عقده الثانى من عمره القصير

ولسوء الحظ لم تطل خدمة هذين الكاتبين الخطيرين فى هذه الدولة ، التى أطاحت رؤسهما ، فى غبر ما شفقة أو رحمة أو رأفة ، ومع هذا فقد خلفا عدة رسائل سلطانية ، كانت كما قلنا النموذج المثالى الذى احتذاه من بعدهما، مما جعل عبد المومن يأسف بمرارة وحسرة، لما فرط منه ،نحوهما، وخصوصا أبا جعفر الذى ذهبت الكتابة بذهابه ، كما يقول هذا الخليفة القاسى وقومه الغلاظ الاكباد .

حقيقة ان السياسة لا ترحم ، ومن واجبنا أن لا ترحم ، اذا كانت مصلحة البلاد تتعرض للاختلال بهذه الرحمة ، ولكن درء المفاسد وجلـــب المصالح ، فى بعض الأحيان ، كان تحقيقهما ، بأقل مما وقع لابى جعفـــر وأخيه أبى عقيل ، الذى أخذ بذنب الاخ الاكبر ، ولم يكن له دخل فيه ، أو يذكر له دخل فى ذلك .

ونحن هنا لانقف موقف المحامين عند الدفاع ، فلنترك التحقيق لرجاله من المؤرخين ، ولنلتمس فقط ما كان له صداه الأدبى فى هذه المحنة أولا ، وفى تسيير شؤون الدولة ثانيا ،،،

لقد استعطف أبو جعفر ، هذا الخليفة الصارم ، برسائل تضمنـــت الشعر الى جانب النثر ، فكان منها قوله :

تالله لو أحاطت بى كل خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخبرات بطيئة ، حتى سخرت بمن فى الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت ان الله تعالى لم يوح ، فى الفلك لنوح ، وبريت لقدار ثمود نبلا ، وابرمت لحطب نـــار الخليل حبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين ، وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وافتريت علـــى العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظاهرت الاحزاب

بالقصوى من العدوة ، وذممت كل قرشى ، وأكرمت لأجل وحشى كل حبشى ، وقلت ان بيعة السقيفة لا توجب امامة الخليفة ، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة ، واعتلقت من حصار الدار وقتل اشمطها بشعبة ، وقلت تقاتلوا رغبة فى الابيض والاصفر وسفكوا الدماء على الثريد الاعفر ، وغادرت الوجه من الهامة خضيبا ، وناولت من قرع سن الحسين قضيبا ، ثم اتيت حضرة الامام المعلوم لائذا ، لقد آن لمقالتى أن تسمع ، وتغفر لى هذه الخطيئات اجمع ، مع انى مقترف ، وبالذنب معترف .

فعفوا أمير المومنين فمن لنا ‏ ‏ ‏ ‏ بـرد قلـوب هدهـا الخفقـان

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته .

هذه الرسالة من حيث الصياغة والشكل ، تنظر الى رسالة للجاحظ وجهها الى محمد بن عبد الملك ابن الزيات ، يقول فيها :

والله لو كنت ابتلعت مزار بابك ، وابطلت نمر الباطل ، ووردت الفظائع كلها ، ونقضت الشروط بأسرها ، وافسدت نتاجك ، وقتلت كل شطرنجى لك ، ورفعت من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلت المروج كلها حمى (1) وكنت صداق المرادين ، وبرسام الاولاد ، ومسخت جميع الجوارى فى صورة ابى رملة ، ورددت شطاط خلقك الى جعودة أبى حثة ، وكنت أول من سن بيع الرجال فى النخاسين ، وفتح باب الظلم لأصحاب المظالم ، وحولت اليك عقل ابى دينار ، وطبعت على ببان مانويه ، وأعنت على موت المعتصم ، وغضبت لمصرع الافشين ، واستجبت للديك الابيض الا فرق ، واحببت صالح بن حنين ، واحوجتك الى حاتم الريش ، وكان أبو الشماخ صديقي ، والفارسى فى شيعنى ، لكان ما تركبنى به سرفا ، ولكنت فى هذا العتاب متعديا .

فالجاحظ فى هذا يورى بشخصيات معاصرة ، بعضها معروف ، كالافشين وبابك وصالح بن حنين وحاتم الريش ، وبعضها غير معروف لنا كما يورى بأعراف معاصرة كذلك ، مثل تبرك العامة لعهده بالديك الابيض

(1) من « رسالة فى الجد والهزل » ومنها اقتبس ابن زيدون كذلك . وقد وردت فيها بعض كلمات غامضة مثل « نمر الباطل » هكذا وبلا نقط و « صداق المرادين » وفى نسخة « جدام المردان » كما ذكر عبد السلام هرون .

الا فرق ، ولعل هذا انتقل الينا فيما ينتقى من الديوك لذبحها قربانا علـــى الزوايا المنتمية الى مولاى عبد القادر الجيلانى دفين بغداد ، فالغالب أن ذلك اتى الينا من العراق ...

وليس فيها من الشخصيات التاريخية بالنسبة الى الجاحظ الا شخصية « مانويه » المتنبىء الفارسى فى القرن الثالث للميلاد . أما رسالة ابى جعفر فهى مليئة بالتوريات التاريخية ، والقصصية القرآنية وغيرها من آدم الى قدار ثمود ، عاقر الناقة ، الى نار ابراهيم ، التى جعلت بردا وسلاما عليه ، ثم شجرة اليقطين ، التى نبتت على يونس ، بعد ان نجاه الله من غـــم الحوت الذى التقمه ، ثم ايقاد هامان على الطين ، وما لابس ذلك مـــن اثر الرسول موسى فنبذها ، ثم افتراء بنى اسرائيل على مريم ، الى ان انتهى الى المرحلة التاريخية المعروفة ، منذ البعثة المحمدية ، فصحيفة القطيعة التى سطرها كفار قريش ضد النبى عليه الصلاة والسلام معروفة بالسيرة ومظاهرة الاحزاب بالعدوة القصوى ، حيث كان أعداء الاسلام يستعدون لمحاربة النبى فى غزوة بدر ، ثم ذكر وحشى الذى قتل حمزة ، فى غزوة أحد بعدها ، ثم تعرض لبيعة السقيفة ، التى بويع فيها ابوبكر ، وما قال المعارضـــون فيها ، الى غلام المغيرة ، الذى طعن عمر بخنجره ، ثم حصار عثمان بداره ، الى ما قيل فى تلك الفتنة التى كانت بحروب علي ومعاوية من قولة جائرة ، وهى تقاتلوا رغبة فى الابيض والاصفر ، وسفكوا الدماء على الثريد الاعفر » الى أن انتهى الى قتل علي باعتلاء سيف ابن ملجم هامته ، فخضب الوجه بدمائها ، ثم ما كان من اليزيد وهو يقرع سن الحسين بقضيب ، لما وضع رأسه بين يديـــه .

فهذه أحداث أولها قرآنى قصصى وبعدها اخرى تاريخى ، ذكر ما يتصل بالنبى فى القرآن ايضا ، وغيره استقل به التاريخ وحده وقد أورد أبوجعفر ذلك كله متسلسلا حسب الزمان ، وابتداء ــ كما قلنا ــ من آدم ، حـــين ابى ابليس من السجود له .

والرسالة من الناحيـــة التاريخية ، فيما يخص عقيدة الموحديـــن ، تنفى أن يكونوا شيعة الرأى ، فهى تتبرأ من الطعن فى بيعة ابى بكـــر ، والشيعة على هذا الطعن ، فهم يرون انه غصبها عليا ، الذى كان أحق

بها ، وتخلف عن البيعة أولا ، كما تتبرأ من قتل عمر ، وعمر اعدى عدو للشيعة ، اما ذكر المهدى بالامام المعصوم ، فمع أن المهدوية وعصمة صاحبها وليدة الشيعة ، ولكنها فكرة استغلت وحدها لتدعيم الدعوة التى قام بها ابن تومرت ، وما كان لها من نتيجة الاطاحة ، بالمرابطين ، واقامة دولة الموحدين ، فهو استغلال سياسى طالما تردد ذكره عند الموحدين وادبائهم ، وفى مقدمتهم أبوجعفر وأخوه ، كما سنرى بعد فى النماذج التى سنانى بها من رسائلهم .

ومما استعطف به أبو جعفر ابيات شعرية وجه بها طفلا له الى الخليفة افتتحها بقوله :

عطفا علينا أمير المومنين فقد	بان العزاء لفرط البث والحزن
قد اغرقتنا ذنوب كلها لجج	وعطفة منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهام كلها غرض	ورحمة منكم اوقى من الجنن
هيهات للخطب أن سطو حوادثه	بمن أجارته رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة	بنصره لم يخف بطشا من الزمن
فالثوب يطهر عند الغسل من درن	والطرف ينهض بعد الركض فى سنن
انتم بذلتم حياة الخلق كلهم	من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من احيت مكاركم	كلتا الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر	لم يالفوا النوح فى فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابغة	والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

وهى أبيات معروفة فى كتب التواريخ والتراجم ، كالبيان المعرب وروض القرطاس والاحاطة ، ويلاحظ عليها انها تنظر الى ابراهيم بن المهدى يخاطب بها ابن أخيه ، المامون بن الرشيد ، معتذرا اليه فى قبوله البيعة فى خلافته ، منها هذا البيت :

برئت منك وما كافيتنى بيد	هما الحيانان من موت ومن عدم

فلا شك أن بيت أبى جعفر :

ونحن من بعض من أحيت مكارمكم	كلتا الحيانين من نفس ومن بدن

منبثق من بيت ابراهيم بن المهدى المذكور ، وهى مذكورة فى اشعار أولاد الخلفاء ، وفى كتاب تاريخ بغداد . . . .

وقد علق عبد المومن على ابيات ابى جعفر بالآية « الان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » ، وهو ما فعله ابن ابى عامر تجاه المصحفى فاجابه :

الان ياجاهلا زلت بك القدم تبغي النكرم لما فاتك الكرم

والى جانب ما قلنا من نظر أبى جعفر الى رسالة الجاحظ وقصيدة ابراهيم بن المهدى ، فقد نظر فيهما الى الرسالة الجدية لابن زيدون يستعطف بها ابن جهور وقصيدة ابن عمار يستعطف بها المعتمد بن عباد ، ونظره من حيث المضمون الى ابن زيدون اقوى واعظم ، فقد بدأ توررياته بآدم ، ثم نوح ، ثم هامان وموسى واعتداء بنى اسرائل فى السبت فعقر ناقة صالح والشرب من النهر الذى ابتلى به طالوت وقود ابرهة الفيل الى الكعبة الى الصحيفة التى علقت بالندوة الى بيعة العقبة واستنفار قريش لغيرهم فى غزوة بدر ثم الانخذال بثلث الناس يوم أحد ، والتخلف عن صلاة العصر فى بني قريظة ، ثم الافك على عائشة ، ثم الانفة من امارة زيد بن اسامة أول خلافة ابى بكر ، بعد الزعم من كون بيعة الخليفة الاول كانت فلتة ، فمحاربة ابى شجرة لخالد بن الوليد ، والفتك بعمر ثم عثمان الى التضييق على الحسين بن علي فى وقعة الحرة ، مما نسب الى يزيد بن معاوية ، ثم رجم الكعبة ، فتصليب عبد الله بن الزبير اثر ذلك ، أيام عبد الملك بن مروان .

فهو اذن قد بدأ بالقصص القرآني واشار بالنص الى بعضه في القرآن ، ثم انتهى الى السيرة وما حدث فيها من احداث كان آخرها حديث الافك ، ثم اتصل بما وقع أيام الخليفة الاول وما قيل فى بيعته الى اغتيال عمر فعثمان الى ما كان نحو الحسين وموقعة الحرة بعده ، ثم عبد الله بن الزبير . والغالب أن ابن زيدون نظر الى رسالة الجاحظ فى الجد ، فنسج على منوالها فى رسالته الجدية ، ونظر الى هذه أبو جعفر .

وبعد ما تناولنا من اثر ابن عطية نماذج من نظمه ونثره ، فى غير رسائله السلطانية ، نتصل بنماذج من هذه الرسائل التى سنذكر فيها ما حبره ، وهو كاتب لعبد المومن وما سطره وهو ما زال يعمل فى الجندية ، وعلى تقليده السابق الذى كان عليه ، وهو يتولى الكتابة عن الملك المرابطى

اسحاق بن على ، بعد أخيه تاشفين .

وهذا النموذج ، هو الوحيد الذى بأيدينا ، يمثل ما انتهت اليه الرسائل الانشائية بالعهد المرابطى ، ومسطرا من قبل كاتب مغربى النشأة والدار ، لأنه كتب الرسالة هذه ، على اثر نهاية هذه الدولة ، فكان يعمل بالجندية من ضمن المرتزقة الرماة ، كما يقول عبد الواحد المراكشى وابن الابار فى كتاب « اعتاب الكتاب » ولا يوجد من هذه الرسالة الا فصل اولها مثبت بالكتاب المذكور وبالاحاطة لابن الخطيب ، ونفح الطيب للمقرى ، هكذا :

كتابنا من وأدى ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصره تعالى المعهود القديم « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » فتح بهر الانوار اشراقا ، واحدق بنفوس المومنين احداقا ، ونبه للأمانى النائمة جفونا واحداقا ، واستغرق غاية الشكر استغراقا ، فلا تطيق الالسن لكنه وصفه ادراكا ولا لحاقا ، جمع اشتات الطلب والأرب ، وتقلب فى النعم اكبر منقلب ، وملأ دلاء الأمل الى عقد الكرب .

فتح تفتح ابواب السماء له   وتبرز الارض فى اثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة ، كان اولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلما ، واقتطعوا الكفر معنى واسما ، وأملى الله لهم تعالى « ليزدادوا اثما » وكان مقدمهم الشقى وقد استمال النفوس بخزعبلانه ، واستهوى القلوب بمهولاته ، ونصب لهم الشيطان من حبالاته ، فأتته المخاطبات من بعد وكثب ، ونسلت اليه الرسل « من كل حدب » واعتقدته الخواطر اعجب عجب ، وكان الذى قادهم الى ذلك وأوردهم تلك المهالك ، وصول من كان بتلك السواحل ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام « آناء الليل واطراف » الايام ، لبسوا الناموس اثوابا ، وتدرعوا الرياء جلبابا ، فلم يفتح الله لهم للتوفيق بابا .

(ومنها فى ذكر الثائر) فصرع بحمد لله لحينه ، وبادرت اليه بوادر منونه ، واتته وافدات الخطيات عن يساره ويمينه ، وقد كان يدعى أنه بشر بان المنية فى هذه الايام لا تصيبه ، والنوائب لا تنوبه ، ويقول فى سواه قولا

كثيرا ، ويختلق على الله افكا وزورا ، فلما عاينوا هيئة اضطجاعه ، ورأوا الاسنة على أضلاعه ، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه ، انهزم ما كان لهم من الاحزاب ، وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب ، واعطوا على بكرة ابيهم صفحات الرقاب ، ولم تقطر كلومهم الا على الاعقاب ، فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم ، وآذنت الآجال بانقراض آمادهم ، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم ، فلم يعاين منهم الا من خر صريعا ، وسقى الارض نجيعا ، ولقى من الهنديات أمرا فظيعا ، ودعت الضرورة باقيهم الى الترامي فى الوادى ، فمن كان يؤمل منهم الفرار ويرتجيه، ويسبح طامعا فى الخروج الى ما ينجيه ، اختطفته الاسنة اختطافا ، وأذاقته موتا ذعافا ، ومن لج فى الترامي على لججه ، ورام البقاء فى ثبجه ، قضى نحبه شرقه ، والوى بذقنه غرقه ، ودخل الموحدون الى البقية الكائنة فيه يتناولون قتلهم طعنا وضربا ، ويلقونهم بأمر الله هونا وكربا ، حتى انبسطت مراقات الدماء ، على صفحات الماء ، وحكت حمرتها على زرقته حمرة الشفق على زرقة السماء ، وظهرت العبرة للمعتبر ، فى جرى الدماء مجارى الابحر ....

وهكذا نجد فى هذه الفصول الاعتناء بترصيع الالفاظ والاحتفال بالصنعة البديعية والبيانية ، والاطالة بما يجعلها احيانا لا طائل تحتها ، فالتكرار فيها لا يأتى الا بالنشوة الايقاعية ، فى نحو « بهر الانوار اشراقا ، وأحدق بنفوس المومنين احداقا ، ونبه للأماني النائمة جفونا واحداقا » . فالاسلوب الشعرى المتأنق فيها متحكم بجناسه وتشبيهاته وطباقه واستعاراته وكناياته . فهذه « مراقات الدماء على صفحات الماء تحكى حمرتها على زرقته حمرة الشفق على زرقة السماء »

ثم التضمينات والاقتباسات تعددت من القرآن والاشعار والامثال ، فمن القرآن :

« واملى الله لهم تعالى ليزدادوا اثما » فهذا من قوله « انما نملى لهم ليزدادوا اثما » وكذلك نجد « ونسلت اليه الرسل من كل حدب » من قوله تعالى : « وهم من كل حدب ينسلون » كما أن « آناء الليل وأطراف الأيام » لم يغير فيه الا النهار ، فجعل بدله الايام ، طلبا للسجع والجملة « وأخذهم الله بكفرهم » من قوله « فأخذهم الله بذنوبهم » وكذلك التعبير

بقضى نحبه ، تعبير قرآني « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » وهذا الانتظار أدى معناه بادئا ، فيمن كان يؤمل الفرار منهم ويرتجيه ، الى آخر ذلك القصد وقوله « ويلقونهم بأمر الله » بعد « يتناولون قتلهم » انما هو من قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم بأمره » .

ومن الاشعارجاء ببيت أبي تمام ، ثم قال : « لبسوا الناموس اثوابا ، وتدرعوا الرياء جلبابا » فهو من قول الشاعر فى فقهاء المرابطين .

اهل الرياء لبستم ناموسكم   كالذئب ادلج فى الظلام العاتم

ثم قوله « ولم تقطر كلومهم الا على الاعقاب » أخذه من قول الحماسى :

فلسنا على الاعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ومن التعابير العتيقة ، التى سارت مسرى الامثال ، قولهم « شد عقد الكرب » وهو الحبيل الموصول بالرشاء ، الملوى على خشبات الدلو المعروضة ، وقولهم « يتساقطون تساقط الذباب على الشراب » ، فمن هذا وجدنا فى الرسالة قوله « وملأ دلاء الأمل الى عقد الكرب » وقوله « وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب »

ومهما يكن فالرسالة لم تكن قد اتخذت طقسا بعينه فى هذه الدولة الناشئة ، بل كانت على النهج الذى سلكته الرسائل السلطانية للدولة المرابطية فى عهودها الأخيرة ، التى تولى فيها أبوجعفر واخوه مهمة الكتابة السلطانية ، ومع هذا فقد ظلت هذه الطريقة معمولا بها فى الدولة الموحدية ، ولم يضف اليها الا الديباجة الخاصة بألقاب المهدى المعلوم المعصوم .

وهذا طبعي ، بالنسبة الى عبد المومن خصوصا ، فانه لم يقبل على هذا الكاتب ويصطفيه من بين العسكر ، ليحله محل الوزارة والصدارة فى الكتابة ، الا بفضل تلك الطريقة المرابطية ، التى سحرته ، فجعلته ينتحى عن كاتب كان من بين الرجال المصطفين للمهدى ويتوجه بكليته الى هذا الكاتب المرابطي ، فيحله محله ، ثم يزيد فى حظوته ، وهو بعد ذلك ابن الكاتب جعفر ، الذى قتل بسيفه آنفا .

والرسالة المذكورة، لم يحتفظ الا بفصول منها ، ومع ذلك فهى من الطول

البالغ ، الذى لم يكن المقام يقتضيه ، ولا كان صاحبنا ابوجعفر يدركه ، فقال فيها « وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة » فهو كما يدعى اختصر ولم يطل ، وان كان عبد الواحد المراكشى — مثلا — يعتبرها من الطول بمكان ، فاقتصر على الفصول واعتذر بأنه لم يـــات بنصها كاملا ، لما فيها من الطول .

فهذا النص يسجل كون الرسائل السلطانية ، كانت قد جنحت الـى الطول ، فى العهد الأخير للدولة المرابطية ، بعد كانت فى أوائلها تقتصـر على ما يؤدى المعنى فى أسلوب يتسم بالبساطة غالبا ، فقد كان ابن القصيرة كاتب يوسف بن تاشفين ، على طريقة قدماء الكتاب ، من ايثار جزل الالفاظ وصحيح المعانى ، من غير التفات الى الاسجاع التى أحدثها متأخرو الكتاب ، الا ما جاء فى رسائله عفوا من غير استدعاء ، كما يقول عبد الواحد فى كتابه المعجـب .

فلما كان عهد ابنه علي ، وجدنا على راس كتابه محمد بن ابى الخصال، الذى كان آخر الكتاب — كما يقول عبد الواحد — واحد من انتهى اليـه علم الآداب ، فحصر طريقه بسياج من الاسجاع ، التى اقامها على جميع الحروف ، ولم يستثن حتى أثقلها جرجسا ، فوجدناه يكتب لصديقه ابن بسام « وصل من السيد المسترق ، والمالك المستحـق ، كتابه البليـغ ، واستدراجه المريغ »

فما أثقل حرف الغين فى هذا ، وما اشد الكلفة فى كلمة المريغ ، التى لم نألفها من غيره ، واستمر هذا التصنع ، موغـلا فى سبل متشعـبة ، لا تزيدها النجعة الا طولا على طول ، والحضارة تأخذ بيده وقد اسلم اليها القياد ، يستهديها فتهديه الى طريقها اللاحب .

لهذا فلا عجب ان نجد هذا الطول قد انتهى الى مداه ، وان الدولة التى ورثت هذه الحضارة ، قد سلكت طريقتها أمما دائما فالتطور الحضارى هو الذى أملى بهذا الطول ، وتنكب سبيل الايجاز ، وقد سبق له نظير فى الدولة الأموية التى كانت لاول أمرها تسلك نهج الايجاز ، ثم صارت تتجه نحـو الاطناب تدريجيا ، الى أن كان آخر كتابها ، عبد الحميد ، يطيل طولا يبالغ فى وصفه ، حتى قيل ان الرسالة التى وجهها عن مروان الجعدى الى ابى

مسلم الخراساني ، كانت لطولها تحمل على جمل »».

وبعد فهذه هي الفصول التي عنينا ، ناتي بها كلها ، على طولها ، مقتصرين عليها ، كنموذج من رسائل أبي جعفر للسلطان ، يقول بعد الديباجة التي لم نعثر عليها ، والغالب انها لم تكن مختلفة ، عما وجدناه فيما سطره من رسائل سلطانية فيما تلاهـا .

وهذا كتابنا اليكم ــ عرفكم الله من عوارف نعمه أفضل ما تتعرفون . وسقاكم من معين حكمته ما لا تصدعون عنه ولا تنزفون . وأولاكم من رحمته ما تحافظون على شكره وتعكفون . وجعل لكم بالايمان والعمل الصالح ودا لا تصدفون عن رعايته ، وحفظ غايته ، ولا تصرفـون . من حضرة مراكش ــ حرسها الله ــ ونحن نشكره سبحانه أن جعل الامر المبارك قطب المصالح . وملتقى الفواتح . ومرتقى المطامح . فالخيرات بمحيطه محصورة . والمسرات على عمده بسيطة مقصورة . والقوى في خدمـة مقاصده معضودة منصورة . وما تجريه الأقدار . ويأتي به الليل والنهار . فالى تمكينه يستبق ومن عجائب مكنونه ينطلق .

وقد كان في الامر الذي عرفناكم بثلجه ، وأطلعناكم على سـاره ومبهجه ، ما اجتليموه من مستوضح الفتح ومجتلاه ، ووعيتم من معجزاته ما أورده الحق وتلاه ، ورأى به الكافة أن عدو هذا الامر السعيد تولـى ما تولاه ، وتلقى سعى شره وتصلاه ، واستمر البحث بعد ذلك على أوليته ، واشرف الفحص على يقين المطلب وجليته ، وبكون ذلك المستطير من مخباه ، المستدير على مسقطه ومكباه ، الى جانب الموحدين انتسابه ، وعليه لا عليهم سعيه واكتسابه ، نشأت لهم بين الخجل والوجل حالة التناصح والتعاتب ، ووحشة التباحث والتطالب ، وان كانت موداتهم الوثيقـة موصولة الحبال ، مبنولة الفلال ، مجبولة على الالتحام والاتصال ، لها الوفاء والصفاء ، والقدبم الذى لا يلم به الدروس والعفاء .

تم يقول أبو جعفر في احدى رسائله التي كتبها عن عبد المومن الى طلبة سبتة . وهي من أولى رسائله في هذا العهد من أمير المومنين ــ أيده الله بنصره . وأمده بمعونته . الى الطلبة الذين بسبتة . وجميع من فيها من

الموحدين خاصة وعامة . — وفقهم الله وسددهم — سلام عليكم ورحمة الله وبركاتـــه .

أما بعد فالحمد لله مولى الرغائب . ومسني الآمال والمطالب . وقابل توبة التائب . نحمده بما يتعين من حمده الواجب . ونصلى على محمد نبيه العاقب . وعلى آله وصحبه أولي المفاخر السنية والمناقب . ونصل الرضى على الامام المعصوم . المهدى المعلوم . المحرز شرف المبادى والعواقب . المجلي بنوره الثاقب . حجب الظلام الواقب .

وكتبناه اليكم — كتب الله لكم شكرا موالى معادا . وتوبة تجعلونها قاعدة لأعمالكم وعمادا . وصلاحا لا يفارق بحمد الله نماء وازديادا . مـــن حضرة مراكش — حرسها الله — وقد وصلنا بحمد الله على أتم أحوال الظفر واليمن . وعدنا اليها تحت ظل السلامة التامة والامن . بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها . واطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها . والصاق أنوف الكفرة المرتدين برغامها . وقطع دابر القوم المجرمين فى هذه الجهة وما انتظم فى نظامها . ونال الغزاة فى هذه الحركة الميمونة من الأجور . والمغنم الموفور . والفضل الذى ينشر عليهم اجنحته يوم النشور . ما لا يتمكن لأحد من البشر وصفه على حال . ولا يتأتى لمخلوق نعته على استيفاء واكمال . فطوبى ثم طوبى لمن حضر فى سبيل الله فأحضر واخلص نيته فى غزوه الميمون بمبلغ ما استطاع وقدر . وتساعدت جوارحه فى تخليص ما اكتسب من هذه الفضائل وادخر وان النعمة — وفقكم الله — بهذه الفتوح العميمة العامة شاملـــة على من أخذ بهذا الامر العزيز ودان . وتزيا بحلته البهية فازدان . فهـــى الفتوح التى ظهر بها من آيات المهـــدى — رضى الله عنه — العجـــــب العجاب . وفاض فيها من بركاته الفيـــض المنساب . ودرت بهـــا الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب . الى آخر الرسالة وهى فى بشارتها لاهل سبتة تحمل اليهم تهديدا ضمنيا اذا ما عاودوا ثورتهم ضد الموحدين تلك الثورة التى كانوا قد ثاروها سنة ثلاث وأربعين فأخضعهم عبد المومن ولكنه لم يكن يطمئن اليهم . فكان يتخذ الخطات اللازمة من أن يعودوا مرة أخرى الى ثورتهم تلك . .

فهذا أسلوب يلتزم الفقرات القصار المسجعة ، وفيه من الاقتبـــاس

القرآني « قابل توبة التائب » واطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها » و « قطع دابر القوم » وفيه بعد ذلك و « توبوا الى الله جميعا » و « توبة نصوحا » و « التمسك بعصم الايمان » و « كفى به شيدا » « فان خير الزاد التقوى » « واتمروا بينكم بالمعروف »

ففى هذا نجد اقتباسا من أسلوب القرآن وكلماته ، ثم نجد الآتيان بنص الآى كما هو فى القرآن ، وهو النمط الذى سارت عليه رسائلــــه وهى تختلف طولا وقصرا ، فمنها ما يقع فى صفحتين ، ومنها ما يقع فى نحو العشر صفحات من القطع الصغيــر ، ولا تختلــف اسلوبا عن هـــذه وبعد تعرضنا لابى جعفر ابن عقبة ، ونماذج من رسائله ، نتناول نماذج لاخيه أبى عقيل فيما حبره من رسائله السلطانية .

وأبو عقيل الذى أخذ بجريرة أخيه ، لا يذكر الا ازاء هذا الاخ ، ولا يعرف عنه الا ازهاق روحه ، وهو حديث العهد بسلخ العقد الثانى من عمره ، وان كانت قد سجلت له رسائل سلطانية ، لا تقل كثيرا فى قيمتها الأدبية . عما هى عليه من رسائل أخيه أبى جعفر .

فمن هذه الرســائــل رسالة أمر بكتبهـا ، اثر فتح قسنطينــة ، وانابة يحيى بن عبد العزيز ، صاحب بجاية الى التوحيد وهى موجهـة الى طلبة تلمسان ، ومن فيها من الموحدين ، بدأها ــ كالعادة من كونهـا من أمير المومنين ، ثم الحمد لله والصلاة على نبيه وآله ، ثم الرضى عــن الامام المعصوم المهدى المعلوم ، ثم ذكر كون الكتاب صادرا من حاضرة بجاية ، والفتوح نطرد ، هكذا :

اما بعد فالحمد لله الذى وسعت رحمته كل شيء على العمـــوم والاطلاق . وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق . وتمت نعمته تماما على أبلغ وجوه الانتظام والاتساق . والصلاة على محمد نبيه المبتعث لتتميم مكارم الأخلاق وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازرين أولي البواء الى مرضاته والاستباق . والرضا عن الامام المعصوم . المهدى المعلوم علم الأعلام ، وذخيرة الايمان والاسلام . وبدر الكمال والتمام . الطالع بأشرف مطالع الاشراق . الفارع عند تطاول الرؤوس والاعناق . الجامع أشتات الفضل واجناسه على الاستيفاء والاستغراق .

وهذا كتابنا اليكم ــ كتب الله لكم فيما خولكم النماء والزيادة . ومكن فى تمكينكم واصلاح شؤونكم الانالة والافادة . وبسط فى أرجائكم اليمن والسعادة . من حضرة بجاية ــ حرسها الله ــ عن أحوال ترتب صلاحها على أفضل وجوده . وفتوح نتابع افتتاحها فى قريب المعمور وبعيده . وبشائر ينزه بشرها وسماحها عن الجرى على معتاد الداب المألوف ومعهوده . وآيات بينات أغنى تجليها واتضاحها عن كل برهان ووجوده . « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فى المستولية محصى العادة ومعدوده ، نسأل الله سبحانه وقد بهرت البواطن والظواهر ، وعمى الابصار والبصائر ، تعظيم ما نشاهد ونعاين عونا يعين وينهض ، وعملا يتخلص بشكر آلائه الباهرة ويمحض ، وقوة لا تنتكث بالعجز عن أداء حقوقه ولا تنقض.

وقد تقدم اعلامكم ــ وصل الله سروركم ، وضاعف شكوركم ، ــ بما كان من صنع الله تعالى فى فتح هذه البلاد التى يسر مرامها بحوله واقتداره ، ونور ظلامها بأضواء هذا الامر السعيد وأنواره ، وصير اباطحها وآكامها من مواطىء أوليائه وانصاره ، وكيف كانت صورة الحال فى درجها ، وتصرف الانتقال من محصبها الى عرجها ، أن أبا زكرياء يحيى بن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر وجميع اخوته ، وقرابته وخؤوله حين أتاهم الرائد الذى لا يكذب أهله ، وانتحاهم القائد المبيح وعر المنتحى وسهله ، لم يكن لهم بد عن التولى عن قرارهم ، والتخلى عن اقطارهم واوطانهم ، لامر قضى الله فيه لهذا الامر المبارك بخبر قضائه ، وشأن طوى الخيرة درج تضمنه واقتضائه ، فكان مأمهم الذى اعتقدوا منعه وحصانته ، واعتمدوا ثقته عليهم وأمانته ، بلد قسنطينة ــ عمره الله ــ لكونه بحيث لا ينال بقدرة مخلوق ، وأين يستعلى بامتناعه على كل ملحوظ بعين المحاربة أو مرموق ، وكانت جمل من عساكر الموحدين حين احتلال الجملة المذكورة فيه ، واعتدادهم فى عداد من يحويه ويؤويه ، بجهة القلعة ــ حرسها الله ــ على اثر فتحها الميسر ، ونيل أجرها على الوجه المتخير ، فأنهض منهم بعون الله الى تلك الجهة من رجى الخير فى انهاضه ، وحض على خدمة هذا الأمر وأغراضه ، فحين الم الناهضون المذكورون ــ وفقهم الله ــ بجهات قسنطينة ــ حرسها الله ــ فتح لهم الفتح الذى تقدم اليكم بيان القول فيه واعرابه ، وأورد عليكم ابداع القدر فى تقريبه واغرابه ، وعلمتم كيف انهزمت له جموع الضلال

وأحزابه ، وحل الموحدون هناك ـــ وفقهم الله ـــ بساحة ذلك القطر وذراه ، وغشية منهم ما غشيه وعراه ، وما ترك القطا به أن يقطم كراه . وكان التخييم الملاصق ، والتدويم المراهق، والحق يتجلى، والنصر يتولى، من اظهر الطائفة العزيزية ما يتولى ، الى أن صرف الله ألباب القوم المذكورين الى قبلــــة الاصابة ، وأراهم أن النجاة فى جانب هذه العصابة ، والحياة فى قرارها الذى هو مقر قرار اليمن والمثابة ، فاتفق رايهم ، على انفاذ جماعة منهم ، فيهم أخو أبى زكرياء وشيوخ صنهاجة وقسنطينة معتصمين بهذه العروة الوثقى ، مستسلمين للامر الذى لا يقابل بعناد ولا يلقى ، سائلين مــــن التامين والابقا ، ما يدوم خيره للمحق السائل ويبقى ، ووصلت الجماعة المذكورة ، الى هذه الحضرة المحروسة ، يسعى املها بين يديها ، ويعرف القصد عما لديها ، وانهت ما تحملته من المخاطبة ، وأملته لها ولمن وراءها من حسن العاقبة ، فمن الله على جميعهم ، بتيسير مطلبهم ، واجمال متقلبهم، وصدروا الى مرسلهم تتهلل اسرتهم ، وتتجمل بحلل العافية والنعمة الصائبة كرتهم ، فأتوا قومهم على تطلع الى بشراهم ، وتمتع بطيب ذكراهم ، واعلموهم بالصنع الذى عرفهم تعظيم صنع الله وادراهم ، فراوا اجمعين ان الله سبحانه سنى لهم بفضله غاية ما طلبوا ، ورزقهم من حيث لم يحتسبوا ، ووهبهم من ايواء الفضل وقبوله فوق ما استوهبوا ، حين لم يكن لهـــم منجى الا الذى نزحوا عنه وغربوا ، وفتحوا ابواب المدينة المذكورة عند تيقن الامر وتحققه ، وتعرف سنة هذا الامر المبارك وعظيم خلقه ، وخرجوا عن آخرهم مرحين بفضل الله ورحمته الواسعة ، مستظلين بظلال هذه الدعوة المحيطة الجامعة ، ودخل القطر من امناء الموحدين وغزاتهم ـــ وفقهم الله ـــ على أحسن حال ، واكرم اقبال .

واتم الله نعمته بهذا الفتح المحيط ، والصنع المبسوط ، اتماما بلغ الآمل غاية ماموله ، والسائل كافة مسئوله ، فذلك القطر هو الطــرف الاعلى ، والرابط الاحق الاولى ، ورأس الجسد الذى استتبع بعضــه بعضا واستتلى . وبه انعقدت روابط هذا الاقليم العظيم وقواعده ، وفقدت ضرر من كان ينوى الضرر فواقده ومعه متأتى جمع شمله وضمه ، وامساك شأنه كله وعزمه ، وبه ختم كتابه وكرم الكتاب ختمه .

والله نسأله بشكر هذه النعم المتظاهرة عونا ممدودا ، وحولا بمعاقد

المعونة الربانية معقودا ، وقوة تلقى من حمدها الى كل جديد منها جديدا ، بمنه والسلام عليكم ورحمة الله .

وكتب فى العاشر من شعبان سنة سبع وأربعين وخمسمائة

لقد تعمدنا الانيان بهذه الرسالة كلها ، لأنها تمثل لنا ما كان عليه أسلوب أبى عقيل ، وهو حديث عهد بانشاء الرسائل الديوانية كما أنه كان حديث العهد بالشباب الذى أطل عليه ، وهو فى هذه السن المبكرة ، التى لا تعدو سبع عشرة سنة .

والرسالة ، كما رأيناها ، يسيطر عليها تصنع الكتاب ، بصفة خانقة ، جعلها لا تتنفس الا بهذه الالفاظ المتكلفة أحيانا فى زنتها المعتمدة على قواعد الصرف والاشتقاق ، دون الالتفات الى مجريات الاستعمال للغة ، فهذا المبتعث ، بدل المبعوث الذى كان ينطلق من الحديث « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » وهذا « المتوازرين » بدل المتآزرين ، كما تقضى به الآية « آزره فاستغلظ فاستوى » ثم استعمال « أين » مرادفة « لحيث » مع أنها قد تخلصت الى الاستفهام فى الاستعمال ، وبذلك اعتبرت قراءة ابن مسعود « ولا يفلح الساحر أين أتى » شاذة فيه (1)

ففى هذا من الاقتباس القرآنى « وسعت رحمته كل شىء » « وان تعدونعمة الله لا تحصوها » و « غشيه منهم ما غشيه » فهو اقتباس من آيات ، واتيان باحداها على ما هى عليه ، كما أن قوله : « كتب الله لكم فيما خولكم النماء والزيادة » انما هو من قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » وغير هذا كثير (2) .

---

(1) ومنه « المراهق » اذا المالوف « المرهق » كما فى القرآن « ولا ترهقنى من أمرى » ويسوغ « الراهق » من رهق الثلاثى الوارد فى القرآن كذلك أما ما جعله يستعمله ، فهو مناسبته للملاحق ، مع ان المراهقة صارت فقهية وزيادة على هذا فهو يفرط فى استعمال المترادف ، مثل الاجتماع والاتفاق والانتظام والاتساق وغير هذه . وكذلك نجد تصنعه يستكره كلمات على الاستعمال مثل « المحوط » و « المتأتى » ، بفتح الميم ، وغير ذلك مما يواجهه الناشئون أولا . سوى هذا فألوان البديع متفشية بأوسع مفاهيم الكلمة .

(2) التضمين سائد فى نحو : « تمت نعمته تماما » و « آيات بينات » ، و « عمى الابصار والبصائر » و « معتصمين بالعروة الوثقى » و « عرفهم تعظيم صنع الله » و « رزقهم من حيث لم يحتسبوا » و « يسعى املها بين يديها » و « كرم الكتاب ختامه » فهو منبثق من « ختامه مسك » وكذلك ما تقدمه جله « قرآنى » .

بالاضافة الى الاقتباس القرآنى ، فهناك آخر من الحديث فى قوله : « المبتعث لتتميم مكارم الاخلاق » فلا شك أن الوصف من الحديث « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » ومنه « الرائد لا يكذب أهله » .

كما أن فيه من الأمثال العربية « وما ترك القطا به أن يقطم كراه » فهو من المثل « لو ترك لقطا لنام »

فأبو عقيل على يفاعة شبابه ، له استعمال متميز بعض الشيء عـــن استعمال أخيه ، كما رأينا ، فى هذين المثالين وبالجملة ، فاننا اذا استثنينا مسألة العصمة فى المهـــدى المعلوم ، نجـــد طريقة الاخويـــن فى الانشـــاء السلطانى ، قد شقت طريقها عبر التاريخ الذى قطعته الدول المتعاقبة على المغرب فيما بعد ، وخصوصا ما صدر عن أكابر كتابها وجهابذة منشيئها ومن الالفاظ التى عاشت فى مدلولها حتى يومنا ، لفظة « الحركة » فى عاميتنا ، فقد تقدم فى قول أبى جعفر « ونال الغزاة فى هذه الحركة الميمونة من الاجور ، والمغنم الموفور ، والفضل الذى ينشر عليهم أجنحته يوم النشور ، ما لا يتمكن لاحد من البشر وصفه على حال » ومن تلك الالفاظ كلمة التخييم ، فقد ورد فى رسالة أبى عقيل الآنفة ، قوله « وكان التخييم الملاصق ، والتدويـــم المراهق ، والحق يتجلى والنصر يتولى من اظهار الطائفة العزيزة ما يتولى »

وهذا نموذج آخر له : ولم نزل أعزكم الله منذ وادعنا تلك الجهات المذكورة بمقربة من أنسا ــ عمرها الله ــ نصل السير حتى انتهينا الى تينمل ــ كرمها الله ــ فعرفت النفوس المومنة مناها . وابصرت سناء العصمة وسناها . فى محلها المقدس ومغناها . ورأت فى متبواها المعظم ومثواها . شخص الكرامة ومغزاها . وشاهدت بين قبره المنعم ، ومسجده المكرم ، روضة الجنة يسحب ظلها ، ويقطف جناها . وتمت هذه الزيارة والحمد لله ، تماما على التى هى أحسن ، وانتهاء الى ما يعز من مرضاة الله ويتعين . واغتناما لما ينضح قصده الجميل ويتبين . وسار الموحدون أعزهم الله بعد الموادعة الكريمة . ونيل البركات العميمة . وقد تخلصت النفوس مــــن الشوب . واستقبلت بالتوبة النصوح قبل التوب . وتنقت من الذنوب والخطايا كما ينقى بالماء دنس النوب . واستمر السير ــ أعزكم الله ــ وقد أرسلت الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، ومسخرات بحكمه وحكمته . وجاءت

المزن الغوادى . كما تمشى البزل مثقلة الهوادى . فسحت فى الحــواضر والبوادى . وجادت على الربوة والوهدة والقنة والوادى ، ووصــــل الموحدون ــ أعزهم الله ــ الى هذه الحضرة ــ حرسها الله ــ وقد نشرت بساطها الأخضر ، ونمقت بسيطها الانضر ، ودخلوا ــ والحمد لله ــ على ما أملوه من السلامة ، والكرامة ، وأحلتهم تلك الأجور المنظمة ، والمقاصد المغتنمة ، محل الاقامة ، ودار المقامة ، وكان الوصول ــ أعزكم الله ــ فى الثامن والعشرين من شهر رمضان المعظم واختتمت السفرة باختتامه ، واشرقت الآمال والاعمال بلياليه المشرقة وأيامه ، وظهرت فى تلك المساعى الجميلة ، والمناحى الجزيلة ، بركة صيامه ، وقيامه .

وخاطبناكم أعزكم الله ــ بهذا الكتاب ، على جهة الاقتضاب والالماع بهذا العجب العجاب ، والفتوح التي هى محارة العقول والالباب ، والا فالاوصاف مقصرة عن نعتها ، والالسنة معبرة عن عظمتهــا بصمتها ، فاستبشروا بما بشرتم به من هذه المنح التى أنطقت الجماد ، وخرقت المعتاد والله يجعلكم ممن تنعم بنعماها ، وتعرض لنفحات رحماها ، وآتى نفسه تقواها وزكاها ، وهو خير من زكاها ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب فى الثامن من شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة (1) .

ورسالة أبى عقيل فيها نفحات من فن النثر ، وان لم تخل من الاتكاء على المترادف فى تزيين صورها ، ولكن السجع فيها لم يستكره على طغيانه، كما أن الاقتباس أصاب مكانه غالبا ، وان كان الضعف يطل من نحو قوله « وآتى نفسه تقواها وزكاها ، وهو خير من زكاها » وفيه من تلك المبالغات الموحدية فى تقديس صاحبها مثــل قوله : « وشاهدت بين قبره المنعــم ، ومسجده المكرم ، روضة من رياض الجنة » . فهذا مما اختص به الجناب النبوى ، كما فى الآثار ، وضمنه بلفظه هنا ، ويلاحظ فى الرسالتين ، تكرار فى العبارة مثل وتمت تماما على ابلغ وجوه الانتظام ، مع قوله : « وتمت تماما على التى هى أحسن ، وفى هذا اقتباس قرآنى . ونادرا ما يقتبس من غير القرآن والحديث . وعلى الجملة ، فقد كان منتظرا أن يصبح أبو عقبل من المع

(1) وهذا الفصل من رسائله الطوال يقع فى اثنتى عشرة صفحه من « مجموع رسائل موحدية » ذكرت فيها كثير من البقاع الجنوبية .

الكتاب ، لو لم تتخطفه يد الجلاد وهو فى سن الثالثة والعشرين رحمه الله .

وبعد فلم يعرف عن أبى عقيل الا نثره ، وفى الرسالات السلطانية خاصة ، أما اخوه أبو جعفر ، فقد عـرف بقرض الشعر ، الذى تقدمت أبيات فى محنته ، وكذلك عرف له فيها هذان البيتان ، المذكوران فى نفح الطيب وفى غيره :

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا ... فقد آن ان تنسى الذنوب وان تمحى
فها انا فى ليل مـن السخط حائـر ... ولا اهتدى حتى ارى للرضى صبحا

ويلاحظ أن للنابغة ريحا فيهما

ولابن شهيد نحو هذا فى قوله :

أنوح عـلى نـفسى واندب نبلها

ولأبي الوليد ابن زيدون :

ألـم يان أن يبكـي الغمام على مثلـي

ويقول صاحب روض القرطاس فى حقه « وله شعر رائق حسن » ثم وصل هذا بقصة مساجلة شعرية وقعت بينه وبين عبد المومن ، وهى أن فتاة أطلت من شباك ، باحدى دور مراكش ، وكان عبد المومن ومعه ابن عطية مارين بالطريق ، فقال عبد المومن :

(قدت فؤادى من الشباك اذ نظرت)

فأجاز ابن عطيـة :

(حوراء ترنو الـى العشاق بالمقل)

فقال عبد المومن :

(كأنما لحظها فى قلـب عاشقها)

فأجاز ابن عطيـة :

(سيف المؤيد عبد المومن بن علي)

ومن أوصافه الشعرية ، ما وردت فى هذه القصة — وان كانت نثرا —

مما يدل على قريحة قابلة مستجيبة

قال : كما نقل عبد الواحد عن حفيده عبد الرحمن بن محمد بن أبى جعفر دخلت على عبد المومن وهو فى بستان له قد أينعت ثماره ، ونفتحت أزهاره ، وتجاوبت على أغصانها أطياره ، وتكامل من كل جهة حسنه ، وهو قاعد فى قبة مشرفة على البستان ، فسلمت وجلست ، وجعلت انظر يمنة وشأمة ، متعجبا مما أرى من حسن ذلك البستان ، فقال لي يا أبا جعفر، اراك كثير النظر الى هذا البستان ، قلت يطيل الله بقاء أمير المومنين ، والله ان هذا لمنظر حسن ، فقال ، يأ أبا جعفر ، المنظر الحسن هذا ؟ قلت ، نعم ، فسكت عنى ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة ، أمر بعرض العسكر آخذى أسلحتهم وجلس فى مكان مطل ، وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة ، وكتيبة اثر كتيبة ، لا تمر كتيبة الا والتى بعدها أحسن منها ، جودة سلاح وفراهة خيل ، وظهور قوة ، فلما راى ذلك التفت الى وقال : يا أبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن ، لا ثمارك واشجارك .

وبعد ابنى عقيل نتناول التاليف الادبى ، وفى مقدمته ثلاثة كتب فى الجغرافية والتاريخ ، مع تفاوت فى التناول ، واولها كتاب الادريسى محمد الحمودى المولود 493 . وقد تلقى تعليمه من علماء سبتة التى كانت تطفح بهم على ذلك العهد كما تقدم ثم رحل الى الاندلس ولاشك أن كانت رحلتــه الى الاندلس فى طلب المزيد من العلم ويظهر أنه اقام زمنا طويلا بقرطبة لانه احتفل بوصفها أكثر من احتفاله بغيرها احتفالا خاصا فى كتابه الجغرافى ومن ثم استمر فى رحلته اتجاه الشمال حيث زار أقطارا من أوربا ، مثــل فرنسا واتكلترا ثم عاد الى الشمال الافريقى ومنه انتهى الى مصر فالشام والجزيرة العربية ، وعامة آسيا الصغرى . وأخيرا نراه ينتهى به المطاف الى جزيرة صقلية عند صاحبها الذى كان يهتم بالعلم روجيه النرمانــدى والذى الف له كتاب الجغرافى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . وبدهى من (اختراق الآفاق) أنه يعنى الوصف الجغرافى ، بقدر ما يعنى الرحلات ، الا انه لم يعتن خاصة الا بوصف الارض ومسالكها .

وللشريف الادريسى أيضا مؤلفات أخرى فى العقاقير والنباتات لكنها غير معروفة العين كما أن له ديوان شعر ولكنه أيضا ضاع ولا نعرف عنه

شيئا معرفة يقينية ، وان كان محمد رضى الشبيبى يذكر فى محاضرته التى القاها فى مصر سنة 1960 بالمعهد التابع للجامعة الغربية ما يفهم منه انه اطلع على هذا الديوان ، فهو يقول : ان من اطلع على ديوانه يعنى الشريف الادرسى يدرك مدى تأثر الشعر ببيئته الصقيلة ،، شأن شعر الادريسى فى ذلك شأن شعر (عبد الجبار) ابن حمديس وغيره من شعراء صقلية البارزين ، ومهما يكن فاننا نعرف عن الادريسى بعض أبيات قليلة من شعره فى ذلك قوله :

دعنى اجل ما بدت لى سفينة او مطية (1)
لابد يقطع سيرى امنية أو منية

وقوله :

ليت شعرى اين قبرى ضاع فى الغربة عمرى
لم ادع للنفس ما تشتاق فى بر وبحر
وخبرت الناس والار ض لدى خير وشر
لم اجد جارا ولا دا را كما فى طى صدرى
فكأنى لم اسر الا بميت او بقفر

وقوله :

ان عببا على المشارق أن ار جع عنها الى ذيول المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب بعد ما جاء فكره بالغرائب
ويقاسى الظما خلال اناس قسموا بينهم هدايا السحائب

ويقول فى قصيدة يمدح بها :

وليل كصدر اخى غمة قطعناه حتى بلغنا النجاح
وبدر السماء بدا فى النجوم كما لاح فى الناس بدر السماح

ويقول فى قصيدة اخرى فى المدح كذلك :

ومن قبل ان امشى على قدم المنى سعى قلمى فى المدح سعيا على الراس

هذه النماذج الشعرية ان وقفنا عندها فانها لا تدل دلالة واضحة

(1) الابيات مثبتة فى « الوافى بالوفيات » .

على موهبة شعرية ، تثبت أن الشاعر كان ذا عارضة قوية فى الشعر أما الأبيات الثلاثة الاخيرة فانها تدل على حبك للقول مطلقا وعلى الذكاء اكثر مما تدل على الشاعرية نفسها .

وبعد ما أتينا بنماذج من شعر الشريف الادريسى ، نتوجه الآن الى نثره . ونثره الفنى نلتمسه فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » ثم خلال أوصافه فى الكتاب . أما المقدمة فيقول فى ديباجها :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقي

الحمد لله ذى العظمة والسلطان ، والطول والامتنان ، والفضل والانعام ، والآلاء الجسام ، الذى قدر فحكم ، وراف فأنعم وقضى فأبرم ، ودبر فأتقن ، وذرا وبرا ، فأحسن ما صورا (1) ، فاتصلت بالعقول معرفته ، وقامت فى النفوس حجته ، ووضح للعيون برهانه ، وقهر الالباب قدرته وسلطانه ، الهادى الى سبيل حمده تفضلا وارشادا ، والدال على ارتباط النعم به تولا واعتقادا ، جاعلا عجائب مخلوقاته ، وبدائع مصنوعاته ، سبيلا الى معرفته ، وسلما الى علم قدمه وازليته ، وان فى بعض ما خلق لعبرة لاولى الابصار ، وذكرى لذوى الخواطر والافكار . فمن آياته خلق السماوات والارض ؛ فأما السماء فرفع سمكها ، ونظم سلكها ، وزينها بالنجوم ، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين يستضاء بهما فى الليل والنهار ، ليعلم بمجاريهما تعاقب الدهور والاعصار ، وأما الارض فبسط مهادها ، وارسى أطوادها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، واسكنها خلقهم فبواهم املاكها ، واجرى لهم افلاكها ، وعرفهم مسالكها ، وعلمهم منافعها ومضارها ، وهداهم الى السير فيها برا وبحرا ، وسهلا ووعرا ، كل ذلك منه جلت قدرته بحكمة وتدبير ، ومشيئة وتقدير ، فتعالى من هذا ملكه وسلطانه ، وصنعه وبرهانه .

فان أفضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ، ما سبق اليه الملك المعظم ، روجار المعتز بالله ، المقتدر بقدرته ، ملك صقلية ، وايطالية ، وانكبردة وقلورية ، امام رومية ، الناصر للملة

---

(1) زيدت الالف للاطلاق فى السجع ، كما فى القافية . ومنه « وتظنون بالله الظنونا » .

النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا ، وصرف الأمور على ارادته ابراما ونقضا ، ودان فى ملته بدين العدل ، واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل ، وقام بأسباب مملكته أحسن قيام ، وأجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل قوام ، وافتتح البلاد شرقا وغربا ، واذل رقاب الجبابرة من اهل ملته بعدا وقربا ، بما يحويه من جيوش متوفرة العدد والعدد ، واساطيل متكاثفة متناصرة المدد ، صدق فيها الخبر الخبر ، وتساوى فى معرفتها السمع والبصر ، فأى غرض بعيد لم يصل اليه ولم يخطر عليه ، واى مرام عسير يحظى به لم يتيسر لديه : اذ الاقدار جارية بوفق مبتغياته وارادته ، والسعادات خادمة له ومتصرفة على اختياره فى حركاته وسكناته ، فأولياؤه ابدا فى عز قعسرى شايع ، واعداؤه فى ذل وبوار متتابع ، فكم مراتب فخر شيد أركانها ، وكم مزايا همم اطلع اقمارها ، ونور اقطارها ، وصير حدائقها روضا زهيا ، وغرسا زكيا ، ثم جمع الى كرم الاخلاق ، طيب الاعراق ، والى جميل الافعال ، حسن الخلال ، مع شجاعة النفس وصفاء الذهن ، وغور العقل ، وفور الحلم ، وسداد الراى والتدبير ، والمعرفة بتصاريف الامور ، من نهاية الفهم الثاقب ، ومراميه كالسهم الصائب ، ومقفلات الخطوب مستفتحة لديه ، وجميع السياسات وقف عليه ونوماته يقظات الانام ، واحكامه اعدل الاحكام ، وعطاياه البحار الزواخر ، والغيوث المواطر .

اما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات ، فلا تدرك بعد ، ولا تحصر بحد ، لكونه قد اخذ من كل فن منها بالحظ الاوفر ، وضرب فيه بالقدح المعلى ، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة ، وابتدع من الابتداعات الغريبة، ما لم يسبقه احد من الملوك اليه ، ولا تفرد به ، وها هى ظاهرة للعيان ، واضحة الدليل والبرهان . ومسيرها فى الامصار ، وانتشار ذكرها فى جميع النواحى والاقطار ، اغنانا عن ذكرها مفصلة ومتنوعة ، والاتيان بها متفرقة لا مجتمعة . مع انا لو ذهبنا الى وصفها ، واعملنا الفكرة فى تسطيرها ورصفها لبهرتنا آياته المعجزة معانيها ، المتعززة مراميها ، ومن الذى يحصى عدد الحصى ، ويبلغ فيه الى الغرض الاقصى ؟

فمن بعض معارفه السنية ، ونزعانه الشريفة العلوية ، انه لما اتسعت اعمال مملكته ، وتزايدت همم اهل دولته ، واطاعته البلاد الرومية

ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه ، أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى أى اقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد والاقطار فى الاقاليم السبعة التىاتفق عليها المتكلمون ، واثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل اقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ، ويرجع اليه ، ويعد منه فطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله ، مثل كتاب العجائب للمسعودى ، وكتاب ابى نصر سعيد الجيهانى، وكتاب ابى القاسم عبيد الله ابن خرداذبه ، وكتاب احمد بن عمر العذرى ، وكتاب ابى القاسم محمد الحوقلى البغدادى ، وكتاب خاناخ بن خاقان الكيماوى ، وكتاب موسى بن قاسم القردى ، وكتاب احمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتاب اسحاق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطيموس الاقلودى ، وكتاب أرسيوس الانطاكى . .

فلم يجد ذلك فيها مشروحا مستوعبا مفصلا ، بل وجده مغفلا ، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه واخذ معهم فيه ، فلم يجد عندهم علما ، اكثر مما فى الكتب المذكورة . فلما رآهم على مثل هذه الحال ، بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها ، المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة ، جمعا وافرادا ، فما اتفق فيه قولهم ، وصح فى جمعه نقلهم ، أثبته وابقاه ، وما اختلفوا فيه الغاه واجازه . واقام فى ذلك نحوا من خمس عشرة سنة ، لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته ، الى ان تم له فيه ما يريده .

ثم اراد ان يستعلم ، يقينا ، صحة ما اتفق عليه القوم المشار اليهم فىذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها، فأحضر اليه لوح الترسيم، واقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئا فشيئا ، مع نظره فى الكتب المقدم ذكرها ، وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وامعن النظر فى جميعها ، حتى وقف على الحقيقة فيها . فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة ، دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم ، فى وزن اربع مائة رطل بالرومى ، فى كل رطل منها مائة درهم ، واثنا عشر درهما . فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الاقاليم السبعة ، ببلادها وأقطارها ، وسيفها وريفها ، وخلجانها وبحارها ،

ومجارى مياهها ، ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة ، والاميال المحدودة ، والمسافات المشهودة ، والمراسى المعروفة . على ما يخرج اليهم ، ممثلا فى لوح الترسيم، ولا يغادروا منه شيئا ، وياتون به على هيئته وشكله ، كما يرسم لهم فيه . وان يؤلفوا كتابا مطابقا لما فى اشكالها وصورها ، غير انه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والارضين فى خلقها وبقاعها ، وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ، وانهارها ومسافاتها ، ومزدرعاتها وغلاتها ، واجناس بنائها وحواصلها ، والاستعمالات التى تستعمل بها ، والصناعات التى تنفق بها ، والتجارات التى تجلب اليها ، وتحمل منها ، والعجائب التى تذكر عنها وتنسب اليها ، وحيث هى من الأقاليم السبعة ، مع ذكر احوال اهلها وهيآتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينتهم وملابسهم ولغاتهم ، وان يسمى هذا الكتاب .

« بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق »

وكان ذلك فى العشر الاول من يناير ، موافق لشهر شوال ، الكائن فى سنة ثمان واربعين وخمس مائة ، فامتثل فيه الامر ، وارتسم الرسم ...

واذن فهذا الكتاب يضم جميع انواع الجغرافية ، من طبيعية وتجارية ، وزراعية وصناعية وبشرية ، زيادات على معلومات اخرى اجتماعية وثقافية .

وهى دراسات بحق حافلة بالمعلومات جامعة لأشتات التفصيلات ، وقد ترجم الكتاب الى عدة لغات اوربية ، أما النسخة العربية الاصلية ، فقد بوشر أخيرا طبعه ، طبعة تمتاز بالتحقيق والتمام ، باهتمام المعاهد الجامعية الايطالية ، المخصصة للدراسات الشرقية ، وهو على وشك الانتهاء منه .

ويلاحظ على هذه المقدمة ان صاحبها لم يشفع الحمدلة بالصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، كما هو المعتاد فى ذلك العصر وما بعده من العصور الاسلامية ، وسبب ذلك واضح فى ان الكتاب الف لملك لا يومن بالرسالة المحمدية .

على أن المقدمة ضمنها بعض الآى القرآنية ، ولم يشر الى قرآنيتها

طبعا ، للسبب السالف ، مثل قوله : « لعبرة لاولي الابصار » « فمن آياته خلق السماوات والارض » « فرفع سمكها » « واخرج منها ماءها ومرعاها » فهذه واردة بألفاظها القرآنية ، الى جانب اخرى تصرف فيها ، مثل « وذكرى لذوى الخواطر والافكار » بدل « لذكرى لمن كان له قلب » ومثل « فأما الارض فبسط مهادها وارسى اطوادها » بدل « والارض دحاها ،،، والجبال ارساهـــا » .

والمقدمة فى فنها ، يسودها السجع ، وان لم يعمها كلها ، حيث نجدها تتخلص منه فى مثل « وذرا وبرا فأحسن ما صور » الا ان زدنا الفا بعـــد صور ، كما هو فى نحو قوله تعالى : « وتظنون بالله الظنونا » « فاضلون السبيلا » لهذا الغرض وهو مسموح به فى السجعات كالقوافى الشعريـــة وأسلوبها ، عموما ، أسلوب مشرق غير متكلف ، واضح ، يزيد فى وضوحه ، ما يستعمل من عطف تفسير ومرادفات خفيف المؤنة فى محسناته مقتصد فى جناسه وطباقه ، قصير الفقر مزدوجها غالبا ، لا يختلف فى هذا عن أسلوب عياض ، الا فى تجنب التوريات والاشارات الى احداث التاريخ ونحوها ، وكذا غريب اللغة والآثار ، والكلمة الغريبة هى « قعسرى » بمعنى الضخم انعظيم ولعلها كانت رائجة لعهده ، ويصح أن يعد فى اساليب العهد المرابطى ، فهو لا يصور العهد الموحدى وان ادركه ولعل الادريسى لم يعايش الموحدين فى وطنه ، وحتى لو كان ذلك ، فان من شأن هذه المقدمات عدم الانصياع لظروفها الزمنية ، اللهم الا ما كان من كتبها التى يكون لها مساس بالدولة وسياستهـــا .

وعلى كل حال ، فأسلوبه فى المقدمة ، كما ذكرنا ، وليس بيدنا بعدها ، الا ما ورد فى داخل الكتاب ، وهو غالبا ، منطلق كما سنرى .

فهذه نماذج من أوصافه للبلاد التى زارها ، من ذلك قوله فى مدينة القيـــروان :

أم أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم مدن المغرب قطرا ، واكثرها بشرا . **وأيسرها أموالا ، وأوسعها** احوالا ، واتقنها بناء وانفسها هممـا ، واربحها تجارة ، واكثرها جباية ، الى أن يقول : فسلط الله سبحانــــه وتعالى العرب عليها ، وتوالت الجوائح بها ، حتى لم يبق فيها الا اطلال

دارسة ، وآثار طامسة .

وبعد ما يصف طرابلس يقول :

« الا أن العرب اضرت بها وبما حولها ، من ذلك واجلت اهلها ، وأخلت بواديها وغيرت أحوالها ، وأبادت أشجارها ، وغورت مياههـا» .

ويقول فى وصف قرطبـة :

« ومدينة قرطبة **قاعدة بلاد الاندلس وأم مدنها** ، ودار الخلافـة الاسلامية بها وفضائل اهل قرطبة اكثر واشهر من أن تذكر ، ومناقبهم ابهر من أن تستتر ، واليهم الانتهاء فى السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، واعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الـزى فى الملابس والمراكب ، وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ، وجليل التخصيص فى المطاعم والمشارب . مع جميل الخلائق ، وحميد الطرائف ، ولم تخـل قرطبة قط من أعلام العلماء ، وسادة الفضلاء ، وتجارها **مياسير لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعـة** . ولهم مراكب سنية ، وهمم عليـة . وهـى فى ذاتها مدن يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينـة سور حاجـز . **وفى كل مدينة ما يكفيها من الاسواق والفنادق والحمامات ، وسائـر الصناعات : وفى طولها من غربيها الى شرقيها ثلاثة أميال الخ .**

ويقول فى وصف مدينة اغمـات :

مدينة يكنفها جبل (درن) ، فاذا كان زمن الشتاء تحللت الثلـوج النازلة بالجبل فسيل ذوبانها الى المدينة . وربما جمد به النهـر فى وسطها حتى يجتاز الاطفال عليه ، وهو جار فلا يتكسر لشدة جموده . وهذا شيء عاينناه بها غير ما مرة ،، الخ

ويقول فى وصف مراكـش :

ومدينة مراكش فى هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الاقصى لانهـا كانت دار اماره لمتونة ومدار ملكهم ، ومسلك جمعهم ، وكان بها اعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة ، وأزقتها واسعة ، ورحابها فسيحة، ومبانيها سامية ، وأسواقها مختلفة ، وسلعها نافقة . وكان بها جامع بناه

أميرها يوسف بن تاشفين فلما كان فى هذا الوقت وتغلب عليها المصامدة تركوا ذلك الجامع معطلا مغلق الابواب ولا يرون الصلاة فيه وبنوا لانفسهم مسجدا جامعا يصلون فيه بعد ان نهبوا الاموال وسفكوا الدماء واباحوا الحرم ، كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالا .

ويقول فى فـــاس :

وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور ، ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم ، وجميع آلاتهم . ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الأسعار جدا دون غيرها من البلاد القريبة منها . وفواكهها كثيرة وخصبها زائد . وبها فى كل مكان حمامات فيها عيون نابعة ومياه جارية وعليها قباب مبنية ودواميس محنية ونقوش وضروب الزينة . وبخارجها الماء مضطرد نابع من عيون غزيرة وجهاتها مخضرة مونقة وبساتينها عامرة وحدائقهـــا ملتفة وفى أهلها عزة ومنعة .

ويقول فى مدينة سبتة :

فأما مدينة سبتة ، فهى تقابل الجزيرة الخضراء ، وهى سبعة جبال صغار ، متصلة بعضها ببعض ، معمورة ، طولها من المغرب الى المشرق نحو ميل . ويتصل بها من جهة المغرب ، وعلى ميلين منها جبل موسى ، وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير ، وهو الذى كان على يديه افتتاح الاندلس فى صدر الاسلام . وتجاوره جنات وبساتين واشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر وأترج ، يتجهز به الى ما جاور سبتة ، من البلاد ، لكثرة الفواكه بها ، ويسمى هذا المكان بليونش . وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائـــد .

ويلى المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى جبل المينة . واعلاه سور بناه محمد بن أبى عامر ، عندما جاز اليها من الاندلس ، وأراد أن ينقل المدينة الى اعلى هذا الجبل ، فمات عند فراغه من بنيان اسوارها . وعجز أهل سبتة عن الانتقال الى هذه المدينة المسماة بالمينة ، فمكثوا فى مدينتهم ، وبقيت المينة خالية ، وأسوارها قائمة . وقد نبت خطب الشعراء فيها . وفى وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة ، لكنها لا نجف البتة . وهذه الاسوار التى تحيط بمدينة المينة تظهر من عدوة الاندلس لشـــــدة

بياضها . ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم ، لانها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها ، الا من ناحية المغرب ، فان البحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولا يبقى بينهما الا أقل من رمية سهم . والبحر الذى يليها شمالا ، يسمى بحر الزقاق والبحر الآخر الذى يليها فى جهة الجنوب ، يقال له بحر بسول ، وهو مرسى حسن ، يرسى به فيكن من كل ريح .

وبمدينة سبتة مصايد للحوت ، ولا يعدلها بلد فى اصابة الحوت وجلبه ، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى « التن » الكبير الكتير ، وصيدهم له يكون زرقا بالرماح ، وهذه الرماح لها فى اسنتها أجنحة بارزه ، تنشب فى الحوت ولا تخرج ، وفى أطراف عصيها شرائط القنب الطوال . ولهم فى ذلك دربة وحكمة ، سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك .

ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان ، الذى لا يعدله صنف المرجان المستخرج بجميع اقطار البحار . وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزا ونثبه وتنظيمه . ومنها يتجهز به الى سائر البلاد ، وأكثر ما يحمل الى غانة وجميع بلاد السودان ، لانه فى تلك البلاد يستعمل كثيرا .

ومن مدينة سبتة الى قصر مصمودة فى الغرب ، اثنا عشر ميلا ، وهو حصن كبير على ضفة البحر ، تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها الى بلاد الاندلس ، وهى على رأس المجاز الاقرب . الى ديار الاندلس ، ومن قصر مصمودة الى مدينة طنجة غربا عشرون ميلا .

ومدينة طنجة قديمة ازلية ، وأرضها منسوبة اليها ، وهى على جبل مطل على البحر ، وسكنى اهلها منه فى مسند الجبل الى صفة البحر ، وهى مدينة حسنة لها اسواق وصناع وفعلة ، وبها انشاء المراكب ، وبها اقلاع وحط . وهى على أرض متصلة بالبر ، فيها مزارع وغلات ، وسكانها برابر ينسبون الى صنهاجة .

ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط الاعظم ، آخذا فى جهة الجنوب الى أرض نشمس (1) . وتشمس كانت مدينة كبيرة ، ذات سور من

---

(1) حيث يوجد الآن خرائب « لكس » فى الضفه المواجهه لمدينة العرائش التى بنيت بعد ثلاثه قرون من هذا التاريخ .

حجارة ، تشرف على نهر سفدد ، وبينها وبين البحر نحو من ميل ، ولها قرى عامرة بأصناف من البربر ، وقد أفنتهم الفتنة ، وأبادتهم الحروب المتوالية عليهم .

ثم يقول متصلا بهذه المدينة الخربة :

ومن تشمس الى قصر عبد الكريم وهو على مقربة من البحر ، وبينه وبين طنجة يومان ، وقصر عبد الكريم مدينة صغيرة ، على ضفة نهر « لكس » ، وبها أسواق على قدرها ، يباع بها ويشترى ، والأرزاق بها كثيرة ، والرخاء بها شامل .

وبعد تعرضه للقصر الكبير هذا ، يتصل بمدينة أصيلا فيقول :

ومن مدينة طنجة الى مدينة ازيلا ، مرحلة خفيفة جدا ، وهى مدينة صغيرة ، وما بقى منها الآن الا نزر يسير ، وفى أرضها أسواق قريبة . وازيلا هذه ، ويقال اصيلا ، عليها سور ، وهى متعلقة على راس الخليج المسمى بالزقاق . وشرب اهلها من مياه الآبار .

وعلى مقربة منها فى طريق القصر مصب نهر سفدد ، وهو نهر كبير عذب ، تدخله المراكب ، ومنه يشرب أهل تشمس التى تقدم ذكرها . وهذا الوادى أصله من ماءين ، يخرج من بلد دنهاجة ، من جبلى البصرة ، والماء الثانى من بلد كتامة ، ثم يلتقيان ، فيكون منهما نهر كبير . وفى هذا النهر يركب أهل البصرة ، فى مراكبهم بأمتعتهم ، حتى يصلوا البحر ، فيسيروا فيه حيث شاءوا .

ومن هنا يتصل بمدينة البصرة فيقول :

وبين تشمس والبصرة دون المرحلة ، على الظهر . والبصرة كانت مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالحصين ، ولها قرى وعمارات وغلات ، واكثر غلاتها القطن والقمح ، وسائر الحبوب بها كثيرة . وهى عامرة الجهات ، وهواؤها معتدل ، وأهلها أعفاء ، ولهم جمال وحسن ادب .

وعلى نحو ثمانية عشر ميلا منها مدينة بابا قلام ، وهى من بناء عبد الله بن ادريس ، بين جبال وشعار متصلة ، والمدخل اليها من مكان واحد ، وبالجملة انها خصيبة كثيرة المياه والفواكه .

ثم يتصل بمدينة قرت (كرط) فيقول :

وعلى مقربة منها مدينة قرت ، وهى على سفح جبل منيع ، لا سور عليها ، ولها مياه كثيرة وعمارات متصلة ، واكثر زراعتهم القمح والشعير واصناف الحبوب ، وكل هذه البلاد منسوبة الى بلاد طنجة ومحسوبة منها (1) .

ويقول فى سلا :

ومدينة سلا الحديثة على ضفة البحر وكانت فى القديم من الزمن مدينة شلا على ميلين من البحر ، وموضعها على ضفة نهر اسمير الذى يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة ، وهناك قصبة فى البحر ، واما شالة القديمة فهى الآن خراب وبها بقايا بنيان قديم .

وسلا الحديثة على ضفة البحر منيعة لا يقدر احد من اهل المراكب على الوصول اليها من جهته وهى مدينة حسنة حصينة فى أرض رمل ولها اسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج ونصرف لاهلها ، وسعة اموال ، ونمو احوال . والطعام بها كثير ورخيص جدا ، وبها كروم وغلات وبساتين وحدائق ومزارع. ومراكب اهل اشبيلية وسائر المدن الساحلية من الاندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع ، واهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتم ، ويتجهزون منها بالطعام الى سائر بلاد الاندلس الساحلية ، ترسى المراكب بها فى الوادى الذى قدمنا ذكره وتجوز المراكب على فمه بدليل . . . .

يقول فى فضالة ترده المراكب من بلاد الاندلس وحائط البحر الجنوبى ، فتحمل منه أوساقها طعاما : حنطة وشعيرا وفولا وحمصا ، وتحمل منه أيضا الغنم والمعز والبقر . ومن فضالة الى مرسى آنفى 40 ميلا ، وهى مرسى مقصود تاتى اليه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير ...

ويقول فى لشبونة « ولشبونة على نحر البحر الاعظم وعلى ضفة النهر من جنوبه . وقبالة مدينة لشبونة حصن المعدن وسمى بذلك لانه عند هيجان

(1) هذا نص مفيد يحدد ما كان عليه اقليم طنجة من الاتساع لذلك العهد .

البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فاذا كان زمن الشتاء قصد الى هـذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذى به الى انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الارض ، وقد رأيناه عيانا ، ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه ، كما تقدم ذكرهم ، ولهم بمدينة لشبونة بموضع قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغررين الى آخر الابد .

وذلك انهم اجتمعوا ثلاثة رجال كلهم أبناء عم فأنشأوا مركبا حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيم لاشهـر ثم دخلوا البحـر فى أول طاروص الريح الشرقية فجروا بها نحوا من أحـد عشر يوما فوصلـوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليـل الضوء ، فأيقنـوا بالتلف فردوا قلاعهم فى اليد الاخرى وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوما فخرجوا الى جزيرة الغنم وفيها من الغنم ما لا باخذه عد ، ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر اليها ، فقصدوا الجزيـرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا مـن تلك الغنم فذبحوها،فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على اكلها فأخذوا من جلدها وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما الى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها الى عمارة وحرث فقصدوا اليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حـتى أحيط بهم فى زوارق هناك فأخذوا وحملوا فى مركبهم الى مدينة على ضفـة البحر ، فأنزلوا بها فى دار فرأوا رجالا شقرا زعرا ، شعور رؤسهم شعور سبطة وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا منها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربـى سألهم عن حالهم ، وفيما جاءوا ، وأين بلدهـم . فأخبروه بكل خبرهـم ، فوعدهم خيرا وأعلمهم انه ترجمان الملك

فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم ، أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان ، بالامس من أنهم اقتحموا البحر ، ليروا ما به من الاخبار والعجائب ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك بذلك ضحك وقال : للترجمان : خبر القوم أن أبـى أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر ، وانهم جروا فى عرضه شهرا ، الى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى .

ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيرا ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا الى موضع حبسهم ، الى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمر بهم زورق وعصبت أعينهم وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا انه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جىء بنا الى البر ، فأخرجنا وكتفنا الى خلف ، وتركنا بالساحل ، الى أن تصاحى النهار ، وطلعت الشمس ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الاكتاف ، حتى سمعنا ضوضـــاء ، وأصوات أناس ، فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم الينا ، فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلونا من وثاقنا وسألونا ، فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا احدهم : اتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : ان بينكم وبين بلدكـــم مسيرة شهريـــن ، فقـــال زعيم القوم : واأسفـــى ؟ فسمى المكان الى اليوم « أسفى » .

فهذه النماذج نراها تختلف قوة وضعفا فى استعمال الحلية البديعية ، فأكثرها استعمالا لها ما يتصل بالقيروان وطرابلس وقرطبة ، واقلهـــا ما يتصل بفاس وسلا ومراكش ، وما عدا هذه خال من تلك المحسنات تماما ، وهو ما يتصل بوصف اغمات وفضالة ولشبونة وما تضمنته من قصة خروج المغررين منها .

وهذه المحسنات لا تتعدى المحسنات اللفظية ، فليس فيها طباق مثلا بالمرة ، بل فيها سجع وفيها جناس ، كما فى قوله « غيرت أحوالها وغورت مياهها » و « أيسرها اموالا واوسعها احوالا » و « سعة اموال ونمو احوال » و « دارسة وطامســـة » و « وحسنـــة وحصينـــة » و « ودار ومـــدار » و « محنية ومبنية » .

على أن هذه الصنعة لم تكلف اسلوبه أية كلفة ، فهو كما قلنا سابقا اسلوب شدق مشرق ، واضح يستعين على وضوحه بما سلف من عطـــف تفسير ومترادف ، وغالبا ما يأتى بالتفصيل بعد الاجمال ، كقوله : « اضرت بها وبما حولها ، واجلت أهلها ، واخلت بواديها وغيرت أحوالها ، وأبادت اشجارها ، وغورت مياهها » و « نجارها مياسير ، لهم أموال كثيرة ، واحوال واسعة » وقوله : « فتحمل منه اوساقها طعاما : حنطة وشعيرا وفولا وحمصا » وبالرغم من انه يتعرض للاوصاف المتشابهة ، فانه يتحامى

فيها التكرار ، ويخالف بينها ، كقوله كما تقدم فى وصف القيروان « أم أمصار وقاعدة أقطار » مع قوله فى وصف قرطبة « قاعدة بلاد الاندلس وأم مدنها » ويقول واصفا سلا « سعة أموال ونمو أحوال » مع قوله فى القيروان «أيسرها أموالا وأوسعها احوالا» وقوله فى قرطبة «مياسير لهم أموال واسعة وقوله فى سلا « ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لاهلها » مع قوله فى مراكش « وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة » وقوله فيها وكان بها أعداد قصور ورحابها فسيحة ومبانيها سامية مع قوله فى فاس « ضياع ومعايش ومبان سامية ، ودور وقصور » سوى هذا فقصر الفقر حظ شائع بين هذه الالوان والتى سبقت فيما مضى بالمقدمة .

ويلاحظ عليه فى قصة المغررين ، أنها خالية من كل زينة ، وأنه استعمل فيها لفظتين عاميتين ، وان التمس لهما أصل فى الفصبح ، وهما « الطاروس والتروش » فالغالب انه انى بالقصة ، مروية بألفاظها الاولى ، وهو صنيع معروف فى كتب تواريخنا ، كما فى الكامل لابن الاثير والبيان المعرب لابن عذارى ، قديما ، ومحاضرات التاريخ الاسلامى ، للخضرى ، حديثا ، وبذلك نتوقف فى الاعتماد على أسلوب القصة هذه عند حكمنا على الشريف الادريسى .

بعد كتاب الادريسى يأتى كتاب آخر ، يختلف بعض الاختلاف عن الاول ، اذ فيه الجانب التاريخى قوى جدا ، بل انه فى قصد صاحبه يعد فى التآليف التاريخية ، بخلاف كتاب الادريسى ، فهو كتاب جغرافية وصفية ، على طريقة ما تقدمه من كتب المسالك كما أن الجانب التاريخى فيه أسطورى يدل على قلة البضاعة التى كانت لصاحبه ، وعلى عدم تبصر بناموس الكون والخليقة ، وكتابنا هذا تقويم للبلدان وخططها وما الى ذلك ، تقويما علميا فى اغلبه ، وان لم يخل من بعض الاساطير ، التى كانت مسلمة القبول لتلك العهود التى سلف ذكرها فيما قدمناه عنه .

لقد انتهى الادريسى من كتابه فى العقد السادس من السادس ، وتلاه عندنا مؤلف آخر من تأليفه فى العقد الثامن ، عند نهاينه ، من نفس القرن

وان كان الادريسى معروفا باسمه وموطنه ونسبه للناس ، فان هذا المؤلف لا يعرف عنه شيء ، والغالب انه كان من مراكش الف

كتابه ارضاء لوزير من وزراء الخليفة الموحدى الثالث ، ابى يوسف يعقوب المنصور ، الذى ردد ذكره كثيرا فى هذا الكتاب ، ودعا مرارا دعاء المقربين منه ، وأشاد بعمله أحيانا ، كذلك ، كما ندد بمن يناوئونه ، مما يدل على أنه كان من كتاب الدولة ورجالها المقربين ، وان لم يعرف عنه الا كتابه ، ولم يعرف عن هذا الوزير الا اسمه الذى ذكره هو ، ولم نر لغيره ذكرا له .

فالكتاب اذن ، كان بايعاز من هذا الوزير ، كما كان كتاب الادريسى بايعاز من ذلك الامير ، ولكنه يختلف عن كتاب الادريسى فى امور ، ان اسلوبه ، باستثناء المقدمة ، لا أثر فيه للسجع ولا لحلية بديعية اخرى ، وانه يخلله ببعض الابيات الشعرية القليلة ، كما يفعل البكرى ، الذى نقل عنه منها ، وانه يطيل فى ذكر القضايا التاريخية ، لدرجة أن ان القارىء يجد نفسه ، ينسى هدف الكتاب عندها ، بل ان المقدمة التى وضعها المؤلف نفسه ، تجعله يشعر بأنه مقبل على كتاب فى التاريخ ، وهذا وان كان البكرى ، قد سبقه اليه ، فوجدنا فى كتابه بعض التواريخ ، التى يعد كتابه مصدرها الاول ، الا انه لم يطل طول هذا المؤلف فى بعضها ، أما الادريسى فانه لا يقف عند التاريخ الا وقفات قصيرة جدا ، فيها اشارات وايماءات ، وليس فيها سرد لقصة ، الا ما كان منه ازاء الفتية المغررين

وهناك جهة اختلاف اخرى فى الموضوع ، فكتاب الادريسى يعد كتاب جغرافية لعالم ذلك الزمان ، فهو كتاب جغرافية للعالم قبل كل شىء أما كتابنا هذا ، فلا يتعدى افريقية الشمالية ، مضافا اليها ، مكة والمدينة ، اللتين زارهما ، حاجا كما يبدو ، فقد ابتدأ بهما ، ثم عرج بعد ذلك على مصر ، فأطال فى ذكر مدنها ، كما شغفها بتاريخها الفرعونى ، ومآثره ، التى على رأسها الاهرام ، وان لم يشاهدها عن كثب واستمر مغربا يذكر السواحل ، كما يذكر الدواخل والصحارى ، بمدنها ومحاصيلها واهاليها ، الى أن انتهى الى المغرب الاقصى فتجرد له ، واوغل فى جنوبه ، اذ انتقل من السوس الى السنغال ، ومن ثم الى غانة ، التى رجع القهقرى منها الى « افريقية » حيث القيروان وغبرها وفى هذا الجزء اعتنى بذكر المسافات ووصف الطرق الوعرة ، ولكنه فى ذلك كله كان ناقلا ، ولم يكن مشاهدا ، ولهذا وقع فى بعض الاخطاء التى لا تقرها الخريطة الجغرافية ، مثل ذكره لنيل مصر ، فى غربى القارة السوداء .

فما عنوان هذا الكتاب ؟ انه « كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار » الذى لم يتردد ذكره فى كتب تواريخنا الا نادرا ، كما نجد فى كتاب روض القرطاس لابن أبى زرع ...

وقبل أن ندخل الى صلبه ، لنعرض منها بعض النماذج ، نعرض مقدمته الواردة ، كما يلى :

الحمد لله عالم الاسرار ، غافر الاضرار ، الواحد القهار ، العزيز الجبار ، المنزه الذى لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار نحمده حمد معترف بوحدانيته ، ونشكره شكر مغترف من بحر نعمته ، متقلب فى ظل رحمته ، ونصلي على نبيه سيدنا محمد المبعوث بالآيات الباهرة ، والبينات القاهرة ، الآخذ عن النار بالحجزات ، الداعى الى سبيل ربه بالآيات البينات ، وعلى آله الاخيار ، واصحابه الابرار ، صلاة باقية الى يوم الدين ، ونرضى عن نجله الاطهر ، وسليله الابر ، الامام المهدى الذى جدد رسم الدين بعد البلى، وجاهد فى سبيل الله حق جهاده وابلى ، والى طريق الحق دعا النقرى والجفلى ، وعن الخلفاء الراشدين ، أيمة الهدى ، ومصابيح من رشد واهتدى ، ونوالى الدعاء لخليفتهم المبارك الاسعد ، سيدنا أمير المومنين يعقوب بنصر تتصل اسبابه بسعادته ، وفتح يسوقه القدر فوق ارادته .

وبعد لما كان العلم انفس ما يقتنى ، واشرف ما به يعتنى ، لم يزل ينقله خلف عن سلف ، ويحمله ذو شرف ، عن ذى شرف ، وجب أن يكون افضل ما يهديه مهدى ، أو يستهديه مهدى ، رغبة فى الاتسام برسمه ، والارتسام والدخول فى رعيته ، والاستئثار بحيازة مآثر من تواريخ الامم ، وسير العرب والعجم ، اذ كان المرء يقف منها على أخبار من غبر ، وآثار من ذهب ودثر ، ويشاهد ممالك ذهبت وبادت ، كأنها عادت الى الحياة او كادت .

لم يبق شىء من الدنيا اسر به	الا الدفاتر فيها الشعر والخبر
مات الذين لهم فضل ومكرمة	وفى الدفاتر من أخبارهم اثر

وقديما وضع الناس التواريخ ورتبوها ، ودونوا الاخبار وكونوها ، حرصا منهم على نظم فرائدها وتقييد شاردها ، وما زال واضعوه يتقلبون بين اقلال واكثار ، واسهاب واختصار ، وكلهم يجرى على طريقة الى غاية

يضيفها ويسطرها ، كثيرا وما خلد خدم العقلاء ملوك أزمنتهم بالتواريخ المؤلفة ، والتواليف المزخرفة ، تفننا لمسراتهم ، ونرضيا لمبراتهم ، ولولا ذلك لم يحصل الآخر على علم الاول ، ولا عرفت اخبار الملل والدول ، ولذلك رايت الشيخ الاجل المعظم الاغر الاسنى ، الامجد المكرم ، أبا عمران ابن الشيخ الارفع ، المرحوم ابى يحيى بن وقتين ، أدام الله علاهم ، ووصل مجدهم وسراهم ، قد أبر على الفضلاء فضلا ، وأربى على النبلاء نبلا ، وزاد على أهل زمانه فى العلم والحلم ، وغبطة بالعلم ووصل العلماء ، ومراضاة الفقهاء ، وكانت همته السامية الى طراف الاخبار ، وايثار اهل الآثار ، الى أن شادت بذلك الرفاق ، وامتلأت بحديثه الآفاق ، ونازعتنى الرغبة والتصدى لشكر النعمة الى أن أطرز باسمه كتابا يجمع بين الاخبار والصحائف ، ويأخذ بطرفى شرائد الطرائف ، متضمنا بذلك احسانه ، راجيا بذلك فضله وامتنانه ، بمنه حسبما أردته ، ولما اتفق وصفه على على ما اخترت ، سميته بكتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، بعد أن قصدت فى أكثره التحقيق ، واطرحت فى مستودعه التلفيق .

ننظر الى نسج المقدمة ، فنلاحظ هلهلة فى بعض أطرافها كما فى قوله : « المبعوث بالآيات الباهرة ، والبينات القاهرة ، الآخذ عن النار بالحجزات ، الداعى الى سبيل ربه بالآيات البينات » .

فنجد فى هذه الفقرة الآيات البينات تتكرر مرتين ، وان فرق أولا بين الموصوف وصفه بوصف آخر ، وهو قوله « الباهرة » ثم أقام هذه الصفة « البينات » مقام اسم موصوف بصفة أخرى ، وهى « القاهرة » وانتهى اخيرا الى وضعهما « بالآيات البينات » ولا خفاء ، فى ضعف الافتتاح بالحمد « لله على الاسرار ، غافر الاضرار » . فالحمد على الاسرار ، غامض الاغوار ، والوصف بغافر الاضرار ، بدل الذنوب انما اقتسره هذا السجع ، الذى امتد حبله بالراء فيما بعد ، وكان أحق بمكان « غافر » فى هذا ، كلمة « كاشف » هكذا « كاشف الاضرار » كما هو فى القرآن الكريم « كاشف الضر » أو « كشفنا عنه ضره » ، و « فكشفنا ما به من ضر » و « كشف الضر » مما تردد ذكره كثيرا فى كتاب الله الذى كان يحفظه المؤلف بلا ريب .

ثم أن الوصل بكون الله « لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار » فيه ما فيه من هذا السهاد القابض لليدين ليلا ونهارا ، فالكلمات لا ترتاح الى معانيها ، مجاورا بعضها بعضا ، أو متكئا بعضها على بعض ، كمعنى القبض على معنى السهاد ، واضافة هذا الى الليل ثم النهار ، فهو فى الليل معقول للناس ، حيث النوم والسبات فيه ، أما النهار ، فانما هو عندهم معاش ، كما فى القرآن كذلك ، فالسهاد الذى هو الارق ، لايتصور فى النهار عادة ، وان جعل بمعنى اليقظة فلا ينسجم مع الليل عادة للناس ، وقد جعل لهم لباسا وسكنا . وكان المؤلف فى هذا استند على كونه تعالى « لا تاخذه سنة ولا نوم » فتصرف هذا التصرف المربك ،،، كما راينا فى نفى القبض عن السهاد ومن هذه الجلهلة نجد كلمة « الدخول » فى قوله « رغبة فى الاتسام برسمه ، والارتسام والدخول فى رعيته » قد احدثت نفورا فى السياق ، فهى لم تات الا لتجلب الينا السجعة فى « رعيته » انسجاما مع كلمة « رسمه » السابقة ، وكان فى الامكان قبول ذلك عن صفاء خاطر ، ولكن الارتسام قبلها أزعجها ، ولا حاجة اليه ، الا ما فرضه الرغبة فى الجناس به مع « الاتسام » قبله ، ولولا ذلك ، لكان الكلام بدونه ، هكذا « رغبة فى الاتسام برسمه ، والدخول فى رعيته » لا ضيق فيه ولا عثر فى سيره .

هذا ما يتصل بالنسج ، اما الموضوع ، فواضح من المقدمة ، ان المؤلف هدف بها الى أن يبين قصده وهو التاريخ اساسا ، فبناه على البلدان ، بدل أن يبنيه على الدول وذكر ملوكها وتسجيل احداثها ، فذكر بعضا من ذلك فى سياق ذكره للبلاد . . . .

فأما تعرضه لمصر ، ففيه كثير من الخرافات التى كانت لعهده تحاك حول القديم ، نعنى الفرعونى منه بصفة خاصة وهو على كل حال لا يعنينا هنا .

واما تعرضه للمغرب ، فهو خال من هذه الخرافات ، لانه لم يتناول من قضاياه الا ما كان متصلا بتاريخه الاسلامى ، وهذا معروف مسجل تسجيلا دقيقا فى تواريخنا المغربية والمشرقية ، وفى مقدمة هذه كتاب الكامل لابن الأثير .

ففى هذا الجانب ، ناتى مثلا بقصة هجرة ادريس الى المغرب وتأسيس

دولته به ، ثم اغتياله من قبل العباسيين ،،، وهذه القصة قد اجمع عليها المؤرخون فى تفاصيلها ، وأقدم ما بيدنا فى تسجيلها ، كتاب مقاتل الطالبيين لآبى الفرج الاصبهانى صاحب الاغانى والمتوفى اواسط القرن الرابع ، فهى لا تختلف عن غيرها ، وعما ذكره صاحبنا الا فى جزئية أو اثنتين منها سنذكرها والقصة الواردة فى كتابنا ، هكذا ناقلا عن أبى الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى :

ان ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن ابى طالب ، رضى الله عنه انهزم فى وقيعة فخ سنة 169 (تسع وستين ومائـــة) فاستتر مدة ، والح السلطان فى طلبه ، وضاقت عليه المذاهب ، ورغب فى الهروب من بلد المشرق ، فخرج مع راشد ، وكان من موالى العلويين ، واصله من البربر ، ليثويه فى قومه ، ويامن من عدوه ، وكان راشد عاقلا شجاعـــا ايدا ، ذا فهم ولطف وحزم ، فخرج به فى غمار الحاج ، وغير زيه والبسه مدرعة من وحش الثياب ، وصيره كالغلام يخدمه ، وان أمره أو نهاه أسرع . فسار به مستخفيا من موضع الى موضع ، حتى قربا من بلاد افريقية ، فترك الدخول به فى بلاد افريقية ، وسار به الى بلاد البربر ، حتى انتهى الـــى بلاد فاس وطنجة ، فنزل به فى مدينة وليلى ، وكانت مدينة رومية قديمة ، بطرف جبل زرهون فى الغرب منه ، وتسمى الآن تيسرة ، فنزل بها على اسحاق بن عبد الحميد الاوربى ، وكانت أوربة آنذاك من أعظم قبائل بلاد المغرب ، وكانت لها مدن كثيرة ، منها مدينة سكوما ، وكانت على مقربـــة من فاس ، وكانت مدينة عظيمة لم يكن بالمغرب أعظم منها ، يقال ان موسى ابن نصير ، لما دخل بلاد المغرب ، نازل مدينة سكوما ، وحاصرها حتـــى افتتحها عنوة ، واخذ فيها سبيا كثيرا ، وكتب الى امير المومنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، يقول له : قد بعثت اليك بسبى مدينة سكوما وهو مائة الف راس . فكتب اليه الوليد بن عبد الملك : ويحك ، أظنها من بعض كذباتك ، فان كنت صادقا ، فهذا حشر الامـــم ..

وكذلك يقال ، انه قتل فيها ما لا يحصى له عد ، وكان اسحاق بن محمد الاوربى معتزلى المذهب ، فوافقه ادريس على مذهبه ، واقام عنده ، وامر اسحاق قبيلته بطاعته وتعظيمه ، وكان ذلك فى خلافة هارون الرشيد امير المومنين ، فوصله خبره ، فغمه ذلك ، فشكا ذلك الى يحيى بن خالد .

فقال له : أنا اكفيك خبره يا أمير المومنين ثم أرسل الى سليمان بن جرير الجزيرى ، وكان رجلا من ربيعة متكلما ، ممـــن يرى رأى اليزيديـــة ، متعصبا لآل أبى طالب ، وكان جلدا شجاعا ... الى أن قال : فارغبه يحيى بن خالد فى المال، ووعده عن نفسه وعن أمير المومنين بمواعد عظيمة، ودعاه الى قتل ادريس ، والتلطف فى امره ، فأجابه الى ذلك ، واعطاه مالا جزيلا ، ودفع اليه قارورة فيها غالية مسمومة ، ووجه معه رجلا من ثقاته ، فانطلق سليمان مع صاحبه ، فلم يزالا يتغلغلان فى البلاد ، حتى وصلا الى ادريس ، وكان ادريس عالما برياسة سليمان بالزيدية ، فلما وصل اليه قال ، انـــى جئتك بنفسى وحملتها ما حملتها عليه ، لمذهبى فيكم أهل البيت ، فجئتك لا فى حاجة اليك ، الا لانصرك بنفسى ، فسر ادريس بقبوله ، وقبله أحسن قبول ، فأحسن نزله ، واكرم مثواه ، وانس به ، فكان سليمان يجلس فى البربر ، ويظهر الدعاء الى ولد رسول الله طى الله عليه وسلم ، ويحتج لاهل البيت كاحتجاجه بالعراق ، فأعجب ذلك ادريس منه ، ومكث عنده مدة ، وهو يطلب الغرة فيه ويترصد الفرصة فى أمره ، فدخل عليه سليمان ، ومعه القارورة ، فلما انبسط اليه ادريس وأخلى له وجهه ، قال له سليمان : جعلنى الله ، فداك هذه القارورة فيها غالية رفيعة اوصلتها معى ، واعلم انه ليس ببلدك طيب ، فجئتك بها ، ووضعها بين يديه ، ففتحها ادريـــس ، وشمها وتخلق بها ، وقيل ، اخرج سكينا ، وقطع بـــه تفاحة ، واعطـــاه النصف الذى يلى الجهة المسمومة من السكين ، ثم انصرف سليمان الـــى صاحبه ، وقال له ، قـــم ، قد تم مرادنا ، وقد كان اعد فرسين فركباهما ، وخرجا يطلبان النجاة (الى آخر القصة) .

لقد أورد ابو الفرج ، ناقلا ذلك ، عن أحمد بن عبيد الله بن عمار ، وهذا عن نفس الرجل الذى نقل عنه بواسطة آخرين ، صاحبنا اعنى به علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، قال هذا : حدثنى أبى وغيره مـــن اهلى ، وحدثنى به أيضا علي بن ابراهيم العلوى ، قال : كتب الي محمد بن موسى يخبرنى ، عن محمد بن يوسف ، عن عبد الله بن عبد الرحيم بن عيسى (ثم ساق القصة) وفيها زيادة أن ادريس وصاحبه نزلا بمصر ، على رجل من موالي بنى العباس ، وان ادريس قد افضى اليه بأمرهما ، فهيأ لهما الرحلة الى آخر القصة ، وبلغ الرشيدة خبره ، قال الاصفهانى :

فقال النوفلي خاصة فى حديثه ، يعنى المروى ، وخالفه علي بن ابراهيـــم (الذى روى عنه سلفا) وغيره ، ثم انساق على نحو ما وجدناه فى مؤلفنا ، ولكنه لم يذكر ما ورد عن راشد ، من انه كان من موالى العلويين ، واصله من البربر وهذا الوصف مهم ، ولابد ان يكون ، كما ذكر مؤلفنا ، فالثقة فى الرجل ، الى هذا الحد ، وكونه بهذا الاخلاص ، كل ذلك يفترض أن يكون هذا الرجل من موالى البيت الفاطمى ، ثم الاتجاه الى البربر ، يفترض كذلك ان يكون الرجل منهم .

ولم يرد فى قصتنا الأخيرة ، ذكر لاسحاق الاوربى المعتزلى ، وهـــى قضية مذكورة فى غيرها ، ولها اهمية فى هذا الاعتزال الذى ذكر مؤلفنا ، ان ادريس انساق اليه هذا المذهب ، بسبب من اسحاق نفسه ، وان كان الواقع أن الزيدية والاعتزال بينهما وشائج قوية ، وأن عبد الله والد ادريس كان من رجال الاعتزال ، فلا شك ان ادريس كان معتزليا قبل أن يلقـــى اسحاق هذا ، فالمذهب اذن ربط بين الرجلين قبل لقائهما فى المغرب ، الذى كان قد انتشرت فيها الواصلية بدرجة قوية (1) .

كما انه لم يرد فى القصة الأخيرة ، أن ادريس كان على معرفة بسليمان الشماخ ورياسته فى الزيدية ، قبل أن يقدم عليه ، بل ذكر فيها أن سليمان مت الى ادريس بمذهبه ، وانه اى ادريس ، انس به بعد ذلك واجتباه .

هذا نموذج من الجانب التاريخى البحت الذى وجدناه فى الكتاب ، ويليه نموذج آخر فى قيام العبيديين بالمغرب ، لا يقل عن هذا ، كما أن فيه معلومات عن البرغواطيين وعن حاميم ، ذكرها البكرى فى كتابه الجغرافى ، بنصوصها الأدبية الشعرية ، مما يدل على أن صاحب الاستبصار تقـــصى البكرى ، تقصيا عظيما ، فى الموضوع ، وفى المنهج كذلك الذى خلط بكثير من قضايا التاريـــخ .

وبعد هذا نسوق نماذج من وصفه للاقطـــار ومدنها ، كما يلـــى :

مدينة تلمسان ، مدينة عظيمة قديمة ، فيها آثار كثيرة أزلية ، تنبىء انها كانت دار مملكة لأمم سالفة ، وهى فى سفح جبل اكثر شجره الجوز ،

---

(1) انظر ما كتبناه فى رسالة المغرب العدد 136 تحت عنوان « كيف أسس المولى ادريس مملكته» .

وكان لها ماء مجلوب من عمل الاوائل ، من عيون تسمى « بوريط » بينها وبين المدينة ستة أميال ،،، كانت تلمسان دار مملكة زناتة ، وحواليها قبائل كثيرة ، من زناتة وغيرهم من البربر ، وهي كثيرة الخصب رخيصة الاسعار ، كثيرة الخيرات والنعم ، ولها قرى كثيرة ، وعمائر متصلة . ومدن كثيرة ، ترجع الى نظرها .

وبعد ما يستمر فى وصف جهاتها وغلاتها ومياهها ، يقول :

ومدينة تلمسان ، مدينة علم وخير ، ولم تزل دار العلماء والمحدثين ، وكان هذا المغرب الاوسط قد تملكه العلويون من بني ادريس ، وأمرهم مشهور ، وتملكوا بلاد الاندلس وتسموا بالخلافة .

وهكذا نراه قد انهى هذا الوصف بملحمة تاريخية عن الادارسة .

ويقول فى مدينة فـــاس :

هى أعظم مدينة من مصر الى آخر بلاد المغرب ، ثم يقول فيها : ومدينة فاس مدينتان كبيرتان مفترقتان ، يشق بينهما نهر كبير يسمى بوادى فاس ، يدور عليهما سور عظيم ، وبين المدينتين قناطر كثيرة ، وتطرد فيها جداول ماء لا تحصى ، تخترق كلتى المدينتين تسمى بالسوانى ، لابد لكل دار من ديار المدينتين منها ، وفيها عيون كثيرة لا تحصى عددا ، وفيها من أرحية الماء نحو 360 (ستين وثلاثمائة) رحى ، وهى فى المزيد ، وربما وصلت 440 (أربعمائة) ، والنهر الذى يخترق مدينة فاس ، ينبعث من عين عظيمة لها منظر عجيب ، فيها نحو 60 (الستين) فوارة ، فى دائرة ، يجتر منها هذا النهر الكبير ، بينها وبين المدينة نحو 10 (عشرة) أميال ، فى بسيط من الارض ، يكاد لا يتبين جرى الماء فيه ، لاستواء أرضه .

ومدينة فاس محدثة ، اسست عدوة الاندلس فى سنة 192 (اثنتين وتسعين ومائة) وعدوة القرويين فى سنة 193 (ثلاث وتسعين ومائة) فى ولاية ادريس بن الفاطمى ، ومن ذريته بفاس الى اليوم ، ونحن فى سنة 587 (سبع وثمانين وخمسمائة) (1) .

---

(1) المؤلف يكتفى بالارقام . أما الكلمات الموضوعة بين هلالين فهى منا .

ومدينة فاس اليوم فى نهاية العمارة والصلاح ، قد بنيت اكثر جناتها الملاصقة لها دورا ، وأضيفت اليها ، وفيها اليوم 3 (ثلاثة) جوامــــع للخطبة ، جامع عدوة الاندلس ، وهو جامع كبير متقن البناء ، يقال ، ان ابن عامر زاد فيه ، وجامع عدوة القرويين ، جامع كبير ، أكبر من جامع الاندلس ، وزيد فى هذه المدة فى هذا الجامع باب كبير مشرف جميل المنظر .

وبعد ما يطيل فى وصف هذا الجامع ، وما زيد فيه من أبواب ، فى حدود سنة سبع وثمانين وخمسمائة يتصل بالجامع الثالث « بقصبة السلطان ، جامع شريف معظم فيه الخطبة ، وأحدثها فيه هذا الامر العزيز (يريد يعقـــوب المنصور) ـــ أدام الله اعتلاه ـــ . . . . وبعد ما يفيض فى ذكر محاصيل المدينة وغلانها وما تمتاز به كل عدوة عن الاخرى ، يقول فيها :

وهذه المدينة قصبة بلاد المغرب ، بل وبـــلاد المشرق والاندلـــس ، لا سيما فى هذا الامر العزيز ، أيد الله دوامه ، ومنها يتجهز الى بـــلاد السودان والى بلاد المشرق ، ومنها يحمل النحاس الاصفر الى جميـــع الآفـــاق .

قال الناظر ، هذه الدينة العظيمة ، لما كانت على هذا الوضع المتقدم ، وفاضت عليها بركة الواضع لها ، وهو ادريس بن ادريس العلوى الفاطمى رضى الله عنه ، ترتب على هذا اتساع مكاسب أهلها ،،، (واستمـــر واصفا لذلك) ثم نعرض للجانب التاريخى فقال :

وكان فيها من الولاة الملثمين ، رجال عظماء ، عقلاء فضلاء ، بادروا الى مخاطبة الخليفة ، أمير المومنين رضى الله عنه ، وتساعدوا مع الوالى المتصرف بها ، فأدخلوا الموحدين ، أعزهم الله ، يوم الاثنين فى العشر الاول من ذى الحجة سنة 540 (أربعين وخمسمائة) وسلمت أملاكهم وأموالهم ، وما زالت أحوالهم تنعم ، وأموالهم تتزايد ، مع الامن والدعة والسكون ، فى ظل هذا الامر العالى بهدى الله . . . . ثم قال وذكرنا أنه كان فى الدولـــة اللمتونية رجال فضلا علماء حلماء ، وشهرتهم فيها اغنت عن ذكرهم . وبعد كلام طويل استطرد فذكر وادى وانسيفر فقال : وهذا الوادى هو المعروف بأم الربيع ، وهو مثل وادى سبو ، ولو عاينه أولو الامر ، أدام الله نصرهم ، لاحدثوا عليه قنطرة ، على قوس واحد ، مثل قنطرة السيف المشهورة ،

وبمثل هذه الآثار تفتخر الملوك ، فهى من أعظم منافع البشر ، (وعاد الى فاس فقال) : وبالقرب منها أيضا قلعة يقال لها قلعة زيد ، فيها مسجد ، يقال ان عقبة بن نافع بناها ، وفى سياق هذا الذكر تعرض لبلاد تازا ، فقال :

وقد بنى ببلاد تازا فى هذه المدة ، مدينة الرباط ، يريد رباط تازا وهى المدينة المعروفة ، التى قال فيها :

واسست هذه المدينة من نحو 20 سنة ، فى حين توجه الخليفة ، الى فتح بلاد بنى الناصر (يريد بجاية) وشيدت سنة 568 مدينة الرباط على الطريق المار من بلاد المغرب الى بلاد المشرق ، وتسمى مكناسة تازا ، وانتهى الى ذكر جبال الريف ، فقال عن جبال فزار وفيه خشب الأرز العتيق

وبعد كتاب الاستبصار الذى لا نعرف مؤلفه حتى الآن ، نتوجه الى كتاب آخر ، معاصر وان تأخر عنه شيئا فى الجملة ، كما اختلف عنه فى المضمون ، لانه كتاب تاريخى أدبى فى عموده ، ثم انه جغرافى فى هامشه ،

وبعبارة ، انه كتاب يصح أن يوضع ضمن الكتب التى تكون « دليلا » للبلاد ، تتناولها من جميع نواحيها ، ثقافة واسعة عنها ، تضم التاريخ والجغرافية وتاريخ الرجال ، والمستوى العلمى والادبى الذى كان لعهدهم .

على أن المؤلف لم يكن مجرد عارض ، بل كان يتدخل بشخصه فى نقد بعض المواقف والآثار ، بل كان يبرز بنفسه فى ذلك الميدان وهو شخصية هامة فذة ،، يعتمد عليها فى فرع خاص من الأدب ، ذلك الفرع هو التاريخ ، اما هذه الشخصية فهى لابى محمد عبد الواحد ابن على التميمى المراكشى صاحب كتاب المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، والكتاب هذا هو اقدم مرجع لنا مغربى يعتمد عليه كل الاعتماد فى التاريخ العام لهذه البيئات التى تضم الشمال الافريقى عامة والاندلس ، فحتى الآن ليس بيدنا مرجع آخر فى تاريخنا السياسى اقدم من هذا المرجع الذى ضم الى جانب التاريخ جغرافية هذه البلاد وخططها فى كتابه الذى قال فى صاحبه المستشرق الروسى كراتشكوفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » انه العالم العربى الوحيد الذى اجتهد فى ان يفصل بين منهجى الجغرافيا والتاريخ ، ويكرر هذا فى حق **عبد الواحد المراكشى** الذى وهم فيه المستشرق

الاسبانى سيكودى لوثينا ، فاعتقده الشيخ عبد الواحد الذى نقل عنـه أبو الفدا والقلقشندى . حقيقة ان الناس اهتموا بالتآليف فى التاريخ قبـل عبد الواحد ، ولكن تآليفهم كانت لا تتجه الى التاريخ السياسى بل كانت تتجه غالبا للتراجم .

وعبد الواحد المراكشى هذا لا نعرف له الا هذا الكتـاب ولا نعـرف عن شخصيته الا ما ذكره هو نفسه عنها فى هذا الاثر الوحيد الذى بيدنـا فهو فى هذا الكتاب يقول حينما يتحدث عن مراكش فى القسم الجغرافى : (وبهذه المدينة اعنى مراكش مسقط راسى ، وهى أول أرض مس جلدى ترابها ، وكان مولدى بها لسبع خلت من ربيع الآخر سنة 581 (احدى وثمانين وخمس مائة) ، فى أيام ابى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي ، ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة أعوام الى مدينة فاس ، فلم ازل بها الى ان قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هنالك ، مبرزين فى علم القرآن والنحو ، ثم عدت الى مراكش فلم ازل مترددا بين هاتـين المدينتين ثم عبرت الى جزيرة الاندلس فى أول سنة 603 (ثلاث وست مائة) فأدركت بها جماعة من الفضلاء من اهل كل شان ، فلم احصل بحمد الله من ذلك كله الا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم ، وعلومهم ، انفردوا دونى بكل فضيلة ، ولا مانع لما اعطى الله ، ولا معطى لما منع ، يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم) .

وفى مكان آخر من كتابه ينص على أنه لازم بقرطبة عالما جليلا واديبا كبيرا نال منه الاعجاب والتقدير جدا ، ذلك الاستاذ هو ، الاديب والعالم الضليع أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميرى ، فلقد اتصل بـه عبد الواحد بقرطبة سنة ست وست مائة 606 وكان له اثره الفعال فيه ، فلازمه سنتين يستفيد من علمه الواسع وادبه الغزير ، وهو حينما يصفـه بكثير من الاعجاب والتقدير يقول : (وأعانه على ذلك طول عمره) اذ توفى عن ست وتسعين سنة كما ينص على انه فى هذه المرحلة كان — كما ورد فى قصة له مع ولده — من جملة ما قرئ عليه نسخة من ديوان المتنبى وكانت نسخة جيدة لاستاذه الحميرى . وفى زيارته هذه للاندلس ، اتصل بوالـى اشبلية ، الامير ابى اسحاق ابراهيم بن يعقوب وزير أخيه الناصر فكان هذا يخصه بكثير من الحظـوة ، وكثيرا مـا كان يتردد عليـه ، كمـا

كان يقول له : « والله انى لاشتاق لرؤياك » ، وفى أول مقابلته له انشده قصيدة مدح ذكر منها بعض الأبيات ستأتى لنا ، فيما بعد ، كما انه اتصل بأمراء آخرين من الموحدين مثل الامير يحيى بن يوسف بن عبد المومن ، ويوسف بن محمد الناصر الخليفة الذى حضر بيعته العامة بمراكش سنة عشر وست مائة ، فكان هذا يلقاه ويختلى به كما ذكر هو نفسه مؤرخا لذلك سنة احدى عشرة وست مائة ، وبالجملة فقد اتصل الرجل بالبلاط الموحدى وصار يهتم اهتماما زائدا ، بالسياسة وأحداثها ورجالها ، ولكننا نجده سنة أربع عشرة وست مائة يترك المملكة وكان بالاندلس فيتوجه الى الشرق بعد ما ودع صاحبه والى اشبلية السابق الذكر ، فركب البحر من الأندلس وتوجه الى تونس ، التى قد أقام بها مدة من الزمن ومنها ركب البحر الى الاسكندرية فوجدناه بمصر سنة 617 هـ ، ثم وجدناه بالحجاز سنة 620 حيث كان يؤدى فريضة الحج ثم اتجه الى بغداد فانقطع الى الدولة مرة أخرى حيث وجد بها وزيرا من وزراء بنى العباس حمله على تدوين أخبار المغرب وجغرافيته ووصف احواله وصفا مفيدا ، وبذلك ألف هذا الكتاب ، كما يقول ، غير مستعين فيه بغيره (الا من سبقوه بالتآليف فيما كان متصلا بالاندلس) ، وطبعا فانه أرخ للاندلس وأمرائها لان الاندلس فى ذلك الوقت كانت لما تزل معتبرة ، جزءا من المملكة المغربية . ويذكر المستشرق الروسى فى موضع آخر من كتابه أن المراكشى استقر بمصر ، وكان بها اثناء حملة الصليبيين على دمياط ولا يفوت المؤلف وهو بالمشرق أن يذكر عن نفسه انه لم يستفد شيئا من المعارف فى مقامه بهذه البلاد ، التى كانت آنذاك تعج بالاحداث ويقول هذا فى كتابه الذى انتهى منه سنة 621 هـ ولا ندرى بعد ذلك هل استفاد من المشرق أم لا ، كما يجهل تماما عنه كل شىء فيما بعد فلا ندرى بالضبط سنة وفاته ولا المكان الذى توفى به ، فنجد مثلا مرجعا واحدا يذكر انه توفى سنة نيف وعشرين وست مائة ، ثم نجد هذا المرجع نفسه فى طبعته الثانية يذكر انه توفى سنة نيف واربعين وست مائة هذا المرجع هو الاعلام لخير الدين الزركلى ناصا فى الاخير على اعتماده على ما ذكره اسماعيل باشا البغدادى من انه توفى عام 647 وهو حجة .

والكتاب بالرغم من كونه مرجعا هاما من مراجع التاريخ المغربى فان صاحبه يعلن فى صراحة انه لم يسبق له فيما قبله ان الف ، وانما كان

عمله هذا استجابة للرغبة التى ابداها الوزير ، فهو يقول فى آخر القسم التاريخى من كتابه :

(وهذا اصلحك الله منتهى ما بلغ من اخبار المغرب وسير ملوكه ووزرائهم وكتابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة ، وقد تقدم بسط القول عما يقع من التقصير أو الخلل ، مع أن أصغر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به ، وانما بعثته عليه الهمة الفخرية اعلى الله رتبها ، فما كان من احسان فالى تلك الهمة العلية ، نسبته وعنها منبعثه وما كان من غير ذلك فاغضاؤها يستره ومسامحتها تغمره ، وقد رسم مولانا حرس الله مجده ان يضاف الى هذا التصنيف ذكر اقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عددا ، من لدن برقة الى سوس الاقصى ، وذكر جزيرة الاندلس ، وما يملكه المسلمون من مدنها . . . .

وقد رأينا ان المؤلف انما الف هذا الكتاب استجابة لرغبة هذا الوزير وتعريفا ببلاده وتاريخها تعريفا يمكن أن يستفيد منه هذا الوزير ، وبذلك يقول فى مقدمته .

(وبعد ، أيها السيد الذى توالت على نعمه ، واخذ بضبعى من حضيض الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه ، وقضى احسانه الى ومحبته التى جبلت عليها ، بأن النزم من بره وطاعته ما انا ملتزمه ، فانك سألتنى بوأك الله اعلى الرتب ، كما عمر بك أندية الادب ، ومنحك من سعادة الدنيا والآخرة اوفر القسم كما جمع لك التدبير والقلم ، املاء اوراق تشتمل على بعض اخبار المغرب وهيئته وحدوده واقطاره ، وشىء من سير ملوكه وخصوصا ملوك المصامدة بنى عبد المومن ، من لدن ابتداء دولتهم الى وقتنا هذا ، وهو سنة احدى وعشرين وست مائة ، وأن ينضاف الى ذلك نبذة من ذكر من لقيته أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء وانواع اهل الفضل ، فلم أر بدا من اسعافك ، والمسارعة الى ما فيه رضاك ، اذ هى الغاية التى اجرى اليها والبغية التى أثابر ابدا عليها ، ولوجوب طاعتك على من وجوه يكثر تعدادها ، فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتنى اليه واستعنته واعتمدت فى كل ذلك عليه ، فهو الموئل والملجأ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، هذا مع انى اعتذر الى مولانا ، فسح الله فى مدته ، من

تقصير ان وقع بثلاثة أوجه من الاعتذار :

فأولها ضعف عبارة المملوك وغلبة العى على طباعه ، فمهما وقع في هذا الاملأ من فتور لفظ ، أو اخلال بسرد ، فهو خليق بذلك ، والوجه الثانى انه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شىء أعتمد عليه واجعله مستندا كما جرت عادة المصنفين ، وأما دولة المصامدة خصوصا فلم يقع الى لاحد منها تآليف أصلا خلا أنى سمعت أن بعض أصحبنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها . وهذا المجموع لا اعرفه الا سماعا . والوجه الثالث أن محفوظاتى في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت أوجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر ، وغيوم تستغرق الفكر . فرغبة المملوك الاصغر من اجراء مولانا اياه على جميل عادته ، وحميد خلقه من التسامح والتغاضى ، لازال مجده العالى يرفع الهمم ويعقد الذمم ويوصل النعم ويعمر ربوع الفضل والكرم) .

هذا اسلوب من نثره الفنى ، نستشف منه انه لم يكن يختلف كثيرا عن تلك الاساليب التى كانت موجودة عند المتأنقين من كتاب عهده ، فهو يلتزم السجع ، وقلما يتخلص منه ، ولكنه سجع مقبول ، وصنعة غير متقلة بتلك الزينة البديعية من تلاعب بالالفاظ الجوفاء ومن تورية واقتباس ومطابقة مثلا ، كما كان عليه الحال لعهده وخصوصا فى الشرق ، ثم انه مع ذلك يجعل اسلوبه — بالرغم من ذلك التأنق — خفيف الروح بالتزامه للجمل القصيرة وتوزيعه الفقرات ، وبذلك كان اسلوبه فى هذا الكتاب اسلوبا شائقا ، فريدا عند معاصريه . فهو يختلف كثيرا عما عهد فى كتب التاريخ فى الشرق ، فاذا قارنا بين هذا الكتاب وبين كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » للعماد الاصفهانى ، فاننا نجد البون شاسعا بين الاسلوبين ، على انه لم يلتزم حتى هذه الحلية البديعية بهذه الزينة الخفيفة البسيطة الا فى مثل هذه المقدمة وما يتبعها من أوصاف لبعض المدن المحببة لديه ، وما يطرى به بعض الرجال ، أما فيما عدا ذلك فانه يرسل كلامه ارسالا ويسرد الحوادث والتراجم سردا لا تعمد فيه ولا صنعة ، مع جودة رصف .

وبعد فان علينا لزاما أن نلقى نظرة جزئية على القسم التاريخى من كتاب المعجب ، فنرى أنه الى جانب التاريخ السياسى يتضمن تصوير الحالة الأدبية بالاندلس خاصة وبالبلاط الموحدى عامة ، وان كان فى اتيانه بالنصوص

الأدبية اقتصر أو كاد على ما صدر عن الاندلسيين ، ولم نجد للمغاربة الا ببيتين لابن حبوس وقطعة نثرية من مذكرة له كما سلف ، بالاضافة الـى قصيدة قالها رجل من بجاية وأنشدها على قبر ابن تومرت بمحضر مـن الموحدين ، أو أنشدت له ، ذكر استهلالها ، فى ستة وعشرين بيتا ، ثم علق عليها بقوله : « وهى طويلة ، هذا ما اخترت له منها ، ولم أوردها فى هذا الموضع ، لانها من مختار الشعر ، ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها وهو قول ابن تومرت لاصحابه « لا يزال الامر فيكم الى قيام الساعة » فأتى عبد الواحد بهذه الابيات وصفا للفكرة المذكورة .

كما أنه ساق بعض العبارات التى أثرت عن الخلفاء الموحدين فـى مناسبات شتى وسجل نموذجا من خطب جمعهم فيما سنرى قريبا .

والى جانب هذا كله ، فله نظرات صائبة فى النقد ، مثلا ، يقول فى الحصرى : كان هذا الرجل — أعنى الحصرى الاعمى — أسرع الناس فى الشعر خاطرا ، الا أنه كان قليل الجيد منه ، بعد ما وصفه بأنه كان « على سهولة الشعر خاطره وخفته عليه ». ويقول فى ابن حبوس : وكانت طريقته فى الشعر ، على نحو طريقة محمد بن هانىء الاندلسى ، فى قصد الالفاظ الرائعة والقعاقع المهولة ، وايثار التقعير ، الا ان محمد بن هانىء كان أجود منه طبعا ، واحلى مهيعا .

ويقول فى أبى الربيع سلمان الموحد « تفقدت شعر السيد أبى الربيع واختلف على كلامه ، ورأيت بخطه اشعارا نازلة عن رتبة الشعر جدا ، فعلمت أن ذاك الأول ليس من نسجه » يشير بالاول الى كونه من شعر كاتبه ابن عبد ربه ، الذى قال فيه سابقا : ولابى عبد الله هذا اتساع فى صناعة الشعـــر .

وعبد الواحد يتسم بالنزاهة فى ذكر حقائق التاريخ ، ولهذا فهو لا يغض من قدر المرابطين ، بل يصفهم بالتشبث برجال الادب وخصوصا منهم كتاب الاندلس ، الذى بجعل بلاط يوسف وابنه على يزخر بهم فيضاهون بنى العباس فى ذلك

وفى تطعيمه لحوادث التاريخ بالنوادر والفكاهات ، كان يشبه الى حد بعيد المسعودى فى كتابه مروج الذهب ، وزاد عليه انه تدخل بنفســه

فى هذا المرسح ، كما فعل فى تعرضه لشيخه أبى جعفر الحميرى ، وما كان ينشده اياه من أشعاره ، فيلهج بها ويشتد احسانه لها ، ثم يأتى بقصة ، انشاده بيتين من شعره ، وترسم ابنه عصام فى نظمه بيتين على غرارهما وتعليق الاستاذ على ذلك بما سنرى .

وفى الكتاب نجده ، يأتى بفصول قيمة جدا ، على ما فيها من اختصار ، تتصل بسير المصامدة واخبارهم ، وقبائلهم واحداثهم العامة .

ومن المفيد ان نذكر هنا ما اتى به فى اقامتهم للجمعة وفى الصيغة التى كانوا يلتزمونها فى خطبة الجمعة ووصف طقوسها بدقة ، فيقول :

فأما صفة احوالهم وخطبتهم فى جمعهم فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة فى القبلة ويخرج معه خواص حشمه ويركع ركعتين ثم يجلس فيقرأ قارئ قدر عشر آيات حسن القراءة حسن الصوت ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا النى يتوكأ عليها الخطيب فيقول قد فاء الفيء (تحول الظل) يا سيدنا أمير المومنين ، والحمد لله رب العالمين) يريد بهذا القول استئذانه فى صعود الخطيب المنبر ، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ثم يناوله ذلك الرجل العصا ، فاذا جلس الخطيب فوق المنبر اذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين ، أصواتهم فى نهاية الحسن ، قد انتخبوا لذلك من البلاد ، ثم يقوم الخطيب فيخطب ، فاول شيء يقول ، الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد ان محمدا عبده ورسوله ، ارسله بالحق بشيرا ونذيرا ، بين يدى الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فلا يضر الا نفسه ولا يضر الله شيئا ، أسأل الله ربنا ان يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه ، فانا نحن به وله ، ثم يتعوذ فيقرأ سورة (ق) من أولها الى آخرها ، ثم يجلس فاذا قام الى الخطبة الثانية قال : الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ونبرأ من الحول والقوة اليه ، ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله واصحابه الذين اتبعوه ففاتوا الانام جدا وعزما ، وانفدوا وسعهم فى نصره والصبر على ما أصابهم فيه وفاء وصدقا وحزما ، وعلى الامام المعصوم المهدى المعلوم ابى

عبد الله العربى القرشى الهاشمى الحسنى الفاطمى المحمدى الذى ايد بالعصمة فكان امره حتما ، واكتنف بالنور اللائح والعدل الواضح الذى يملأ البسيطة حتى لا يدع فيها ظلاما ولا ظلما ، وعلى وارث شرفه العميم قسيمه رضى الله عنه فى النسب الكريم المجتبى لوراثة مقامه العلى ، الخليفة الامام ابى محمد عبد المومن بن على ، وعلى أبى يعقوب ولى ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص ، اللهم وارض عن المجاهد فى سبيلك ، المحيى سنة رسولك الخليفة الامام ابى يوسف أمير المومنين ابن أمير المومنين ابن امير المومنين . وعلى الخليفة الامام ابى عبد الله ابن الخلفاء الراشدين . اللهم وانصر ولى عهدهم الطالع فى أفق سعدهم القائم بالامر من بعدهم الخليفة الامام أمير المومنين أبا يعقوب ابن أمير المومنين ابن أمير المومنين ابن أمير المومنين ابن أمير المومنين . اللهم كما شددت به عرا الاسلام وجمعت على طاعته قلوب الانام ونصرت به دين نبيك محمد فاقض له بالنصر المقرون بالكمال التام ، اللهم كما اجتبيته من الخلفاء الراشدين والائمة المهتدين ، فاجعله من المقتفين لآثارهم المهتدين بمنارهم المقتبسين من أنوارهم ، اللهم وايد الطائفة المنصورة والجماعة اخوان نبيك ، وطائفة مهديك الذين اخبرت عنهم فى صريح وحيك ، أنهم لا يزالون ظاهرين على أمرك الى قيام الساعة ، وأمدهم وكافة من انتظم فى سلوكهم من أنصار الدين وحزبك الموحدين بمواد النصر والتمكين والفتح المبين واجعل لهم من عضدك وتأييدك أعز ظهير ، وأكرم نصير . ثم يدعو وينزل فيصلى فاذا فرغ دعا الخليفة بنفسه ، وأمن الوزير على ما تقدم .. وهنا . تنتهى هذه الخطبة

فهذا الوصف مهم ، يتصل بالنشاط الأدبى بعد التاريخ والحضارة المغربية ، وفيه تفصيلات انبثقت عن معاصرته ومشاهدته قلما نعثر عليها أما الجانب الجغرافى الذى ذيل به الجانب التاريخى ، الذى يشمل الاندلس والمغرب ، بمعناه الواسع ، فيتناوله باختصار غالبا ، ومن النادر ما يفسح له صدر قلمه ، ومن هذا القبيل ، وصفه لمدينة فاس ، التى قضى فيها باكورة شبابه ، وهو عاكف على حلقات التعليم بها .

وهكذا نجده يقول فيها : (ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما

اضطرب امر القيروان كما ذكرنا بعيث العرب فيها واضطرب امر قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت ابى عامر وابنه محمد بن ابى عامر ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة ، فنزل اكثرهم مدينة فاس فهى اليوم على غاية الحضارة واهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم افصح اللغات فى ذلك الاقليم ، وما زلت اسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك ، فانه ليس بالمغرب شىء من انواع الظرف واللباقة فى كل معنى الا وهو منسوب اليها وموجود فيها وماخوذ عنها ، لا يدفع احد هذا القول من اهل المغرب . . . .

ويقول فى مدينتى تونس وقرطاجنة :

(ولم تكن تونس هذه فى قدم الدهر على أيام الافرنج مدينة وانما بنيت فى أول الاسلام ، بناها عقبة بن نافع الفهرى لمصلحة رآها وانما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قرطاجنة ، بينها وبين تونس نحو من اربع فراسخ . وهذه المدينة اعنى قرطاجنة هى كانت حاضرة افريقية أيام الروم ، ظهر فيها من قوتهم وشدة طاعة رعيتهم لهم وفرط جبروتهم ما يعجب منه من تامله ، ويعتبر فيه من وقف عليه . . . .

ويقول فى القيروان :

(وهى كانت — اعنى القيروان — دار المسلمين بافريقية منذ الفتح ، لم يزل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس يولون عليها الامراء من قبلهم الى ان اضطرب امر بنى العباس واستبد الاغالبة بملك افريقية بعض الاستبداد

وبعد ذلك يأتى بقصة عيث الاعراب بالقيروان سنة 444 ويذكر هجرة اهلها الى الاندلس والى المغرب ، وان عقبا منهم ما زال معروفا بفاس ، كما يذكر فى خراب القيروان بيتين لابى عبد الله محمد بن شرف القيروانى وهما :

ترى سيئات القيروان تعاظمت ... فجلت عن الغفران والله غافر !
تراها اصيبت بالكبائر وحدها ... الم تك قدما فى البلاد كبائر ؟

الى غير ذلك مما ورد فى هذه البلاد الافريقية والاندلسية ، التى عرف بها تعريفا شاملا لذلك الوزير الذى الف باسمه الكتاب .

واخيرا نتصل بشعره ، وهو كما بالكتاب المذكور ، فنجد من قصيدته التى مدح بها ابا اسحاق الموحدى ، هذه الابيات التى يقول مادحا اياه — وكان صديقا له — فيها :

لكم على هذا الورى التقديم ... وعليهم التفويض والتسليم
الله اعلاكم واعلى امره ... بكم ، وانف الحاسدين رغيم
احييتم المنصور فهو كأنه ... لم تفتقده معالم وعلوم
ومحابر ومنابر ومحارب ... وحمى يحاط وارمل ويتيم

وفيها أيضا يقول :

يذر الصليب صغيره وكبيره ... فيها جذاذا والعلوج جثوم

الى أن يقول :

فكأنما حمص جمالا سارة ... وكأن ابراهيم ابراهيم
وأرى طيلطلة كهاجر اثرها ... سيزفها الأذفونش وهو ذميم
ويحرق الاعداء فيما أضرمت ... ويجوب نار الحرب وهى جحيم

هذه الابيات لا تدل على مكانة عالية فى الشعر ، وليس فيها من خيال ولا من تعبيرات بلاغية بديعة ، كما أن ما حاوله من تأنق لم يسعفه بل اننا نجده فى البيت الرابع تستهويه أجراس الحروف فيتشبث بهذه الحاء التى يأتى بها فى المحابر فتسلمه الى المحارب فتسلمه هذه الى الحمى ومنها الى يحاط ، فتكررت الحاء أربع مرات كما تسلمه أوزان الكلمات فى ذلك البيت بالذات بعضها الى بعض فى المحابر والمنابر والمحارب ، وهو نفسه يشعر بهذه المنزلة المتوسطة فى شعره فيتعذر — بالرغم من اشادة استاذه — عنها فى تواضع وكما حصل ذلك فى هذين البيتين :

يا من له عن كناس ... من المتيم قلبه
ما انت كاسمك فسح ... وانما انت قلبه

فهذان البيان كذلك ، ان دلا على شيء ، فانما يدلان على بعض الذكاء فى استغلال هذا القلب ، الذى يصير فتحا حتفا كما نرى وهو شيء كان متعارفا جدا بين شعراء الاندلس على الخصوص كما عند ابن زيدون مثلا .

وقد ارتجل البيتين ، وهو بمجلس شيخه ، الذى كان يستدعى منه ذلك كعادته ، وكان فى المجلس زميل فى الطلب يدعى فنحا فلما انشد البيتين ، طرب الاستاذ لها ، والتفت الى ابنه — وكان يدعى عصاما — وقال له : هذا والله الشعر ، لا ما تصدعنى به طول نهارك ، ان كنت تقول مثل هذا والا فاسكت ، فلما كان من الغد — كما يقول — قال لي رحمه الله ، أعلمت ما صنع عصام امس ؟ قلت ، لا ، قال ، كان كما قالوا فى المثل « سكت الفا ،،، » لم يزل أمس يعمل فكرته ، فبعد الجهد الشديد ، اخذ معنى بيتك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه ، جملة ، فقال :

سبى فؤادى خشف ... فقوتى اليوم ضعف
سموه فتحا مجازا ... وفى الحقيقة حتف

ما زاد فيه اكثر من المجاز والحقيقة ، فقلت انا ، هذا والله احسن من شعرى ، فتغير لي وقال ، يا بنى ، دع عنك هذه العادة ، فان اسوا ما تخلق به الانسان ، الملق وتزيين الباطل ، سيما اذا اضاف الى ذلك الحلف الكاذب ، والله انك لتعلم أن هذا ليس بشىء والا فقد اختل ميزك ، وما أظن هذا هكذا . وبهذا يكون عبد الواحد على مستوى من الأدب لا يصل اليه لا الادريسى ولا صاحب الاستبصار .

وبعد فقد كان الادب فى المغرب ، قد استوفى خصائصه كلها ، بنهاية القرن السادس ، سواء فيها الشعر والنثر ، وقد ذكرنا فى المضارين رجالا عديدين ، وبقى علينا أن نذكر رجلا آخر ، كان فى النثر من المؤلفين فى التراجم ، ولكنها تراجم رجال لم يتسموا بالعلم ، كما فعل القاضى عياض ، ولا اتسموا بالأدب ، كما فعل بعض الاندلسيين ، وعلى راسهم ابن ادريس ، بل كانت لهم صفة خاصة ، قد تجامع بينهم وبين العلم او الأدب احيانا ، ولا تجامع بينهم أحيانا اخرى .

انهم رجال التصوف ، بصفة خاصة ، رجال التصوف فى السلوك ، اكثر منهم رجال تصوف فى الطقوس والسموت .

أما المؤلف فيهم ، فهو ابن الزيات والكتاب الذى يعنينا منه هو كتاب « التشوف الى رجال التصوف » .

وابن الزيات هذا ، هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي ، ترجم له احمد بابا التنبوكتي في كتابه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ناقلا في ترجمته هذه عن الحضرمي ، الذي حلاه بالشيخ الفقيه القاضي الأديب ، ثم ذكر بعد نبذة فيه ، أن كتابه التشوف ، حدث به الأستاذان الفاضلان ، ابو القاسم ابن الشاط ، وابن رشيد ، عن قاضي الجماعة ، ابي عبد الله محمد بن علي الشريف ، عنه اذنا .

وهذا الاهتمام يبرز ما كان لكتابه من شفوف ورواج في الوسط العلمي والأدبي ، لذلك العهد ، الذي كان المؤلف فيه ما زال حيا يرزق ، ياذن له ، في تلقينه للناس ، والتحديث لهم فيه ، على طريقة مثبتة تقليدية عرفت بين رجال الحديث ، بصفة خاصة ، ثم شاعت بين غيرهم .

ولا عجب من هذا فان الوسط المغربي ، منذ القاضي عياض ، الذي تعرض للمتصوفة ، في كتبه ، وكان يراسل بعضهم ، وبصفة خاصة ، كان له اتصال بالصوفي الأندلسي ، ابن العريف الالميري الصنهاجي (1) فكان يردد أصداء التصوف ورجاله خاصة ، والزهاد عامة .

وقد كان من هؤلاء الأخيرين ، أبو حفص الاغماتي ، وابو الربيع الموحدي ، بل جنح الى طريقهم حتى الجراوي الشاعر ، الذي نجده يخمس معلقة امرىء القيس ، موجها اياها ، الى مدح الرسول عليه السلام . وهي طريقة للمتصوفة ابتدعوها في عدة قصائد ؛ لأبي نواس وغيره .

بل ان الأمداح النبوية نفسها ، التي اعتنى بها الجراوي في حماسته اعتناء خاصا ، فجعلها في الواجهة الاولى منها ، والتي لم يختصر مما ورد فيها ، كما اختصر في غيرها ، ما انتعشت انتعاشا بالغا ، الا على يد المتصوفة . ويكفي في هذا المجال البوصيري سلطان الأمداح النبوية ، فيما بعد ، والذي ما مدح ببردته وهمزيته ، الا بعد أن تصوف ، ولزم عقر داره ، منكبا على أمداحه العظيمة .

وبعد فلنعد الى كتاب التشوف ، لنلقي عليه نظرة ، في نسجه وفي ترتيبه . لقد بدأ بالمقدمة التي نجده يقول فيها :

---

(1) كانت بينهما صحبة ومكاتبات ، كما في « تاريخ الفكر الاندلسي » لبالنثيا ترجمة مؤنس

فانه لم يخل زمان من ولي من أولياء الله تعالى ، يحفظ الله به البلاد والعباد ، وكانت طائفة منهم عظيمة بأقصى المغرب ، اهملت اخبارهم ، وجهلت آثارهم ، حتى ظن من لا علم له بهم ، أنه لم يكن منهم بأقصى المغرب أحد ، وانه استغرب أن يكون به ولي أو وتد .

وهيهات ، هيهات ، ليس الامر كذلك ، فاطلب تجد ، وكيف يكون ذلك كذلك ، وقد جاء فى الصحيح من فضل اهل المغرب ، ما لا يدفعه دافع ، ولا ينازع فى ثبوته منازع ، كمثل ما رويناه من طريق مسلم بن الحجاج ، بسنده الى سعد بن ابى وقاص ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة « (ثم ذكر رواية اخرى عن سعد كذلك) : لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق » و « لا تزال طائفة من امتى قائمين على الحق فى المغرب » ....

وذكر بعد سوقه للروايات المختلفة ، ان ابا بكر الطرطوشى نزيل الاسكندرية ، قال فى رسالته المشهورة التى بعثها الى السلطان بمراكش : والله لا اعلم ، هل ارادكم بذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أو اراد اهل المغرب ، لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة ، وطهارتهم من البدع والاحداث فى الدين ، والاقتداء لآثار من مضى من السلف الصالح ، رضى الله عنهم ، فشرفوا بهذه الآثار شرفا ، وشغفوا بهذه المفاخر شغفا » .

والرسالة التى اشار اليها ابن الزيات ، كانت موجهة الى يوسف ابن تاشفين ، كما يبدو، لانه الذى كانت له صلات قوية بالمشرق ، وكان له صيت ذائع فيه ، خصوصا بعد الظفر العظيم الذى ناله ، بمعركة الزلاقة . وقد توفى الطرطوشى عام عشرين وخمسمائة بعد يوسف بعشرين سنة .

وبعد ما يستطرد المؤلف ، بأشياء لا نهمنا ، يقول :

ولما خفي على كثير علم من كان بحضرة مراكش ، من الصالحين ومن قدمها من اكابر الفضلاء ، رايت أن أفرغ لذلك وقتا ، أجمع فيه طائفة أدون أخبارهم ، واضيف الى ذلك من كان من أعمالها ، وما اتصل بها

من اهل هذه العدوة الدنيا ، وربما ذكرت من قدم مراكش وما اتصل بها ، وان كان من غيرها ، اذا كان مماته بها ، وذكرت من هو من اهل هذه العدوة ، وان كان مماته بغيرها .

فالكتاب ، اذن ، زيادة على كونه خاصا بالمتصوفة ، يرتكز على أهل مراكش وأعمالها بالذات ، ويتناول غيرهم من الاندلسيين فى غير ذلك ، لكونهم توفوا بها وقد حلوا فيها (1) .

وأسلوب المقدمة ، اسلوب مشرق ، يجنح الى الجاحظ ، فى نحو قوله : « وكيف يكون ذلك كذلك » وقوله « أهملت أخبارهم وجهلت آثارهم » « وهيهات هيهات ، فاطلب تجد » .

وقبل أن يقف وقفة لغوية ، عند كلمة الصوفية ، افادنا بكون كتابه « مشتملا على اضراب من افاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين ، وغير ذلك من ضروب أهل الفضل ، فان اسم الصوفى يصدق على جميعهم » .

وهكذا نجده يعمم فى اطلاق كلمة الصوفى ، ولكننا نستغرب منه اهمال القاضى عياض فى كتابه ، ومع ذلك فان الرواية عنه وردت بالكتاب ، كما نجد فى ترجمة عبد العزيز التونسى .

وكذلك نستغرب منه أنه لم يذكر فيه ، شيخ المتصوفة بالمغرب آنذاك ، وشيخه بواسطة ، ابا العباس السبتى ، مع انه قد افرده بالتآليف الذى سماه « مناقب الشيخ ابى العباس أحمد السبتى » وفيه يقول : سمعنا من فقرائه واصحابه الذين شاهدوا بركته ..

وبعد فقد قال المؤلف :

صدرت هذا المجموع بسبعة أبواب لازمة ، هى كالمدخل اليه : الباب الاول فى صفة الاولياء ، الباب الثانى فى حفظ قلوبهم وترك النكير عليهم ، الباب الثالث فى محبتهم ، الباب الرابع فى زيارتهم ومجالستهم ، الباب الخامس فى حسن الثناء ووضع القبول لهم فى الارض ، الباب السادس فى

---

(1) كما وجدنا فيما بعد يفعل مؤرخها وقاضيها العباس بن ابراهيم ، رحمه الله .

اثبات أحوالهم ، الباب السابع فى اثبات كرامتهم ، ويشتمل على حملة فصول

هذا هو ترتيب الكتاب الذى قال فيه صاحبه :

قد شرعت فى تصنيف هذا الكتاب شهر شعبان المبارك من سنة سبع عشرة وستمائة ، ولم أتعرض فيه لأحد من الاحياء . واكبر من فى وقتنا هذا ، ممن هو حي الشيخ الصالح الصوفى ابو محمد صالح بن ينصارن ابن غفيان الدكالى ثم المجاجرى نزيل رباط آسفى ، وهو الآن لا يفتر عن الجهاد والمحافظة على المواصلة والاوراد ، ومن كلامه « الفقير ليس له نهاية الا الموت » فهذا أحد المغاربة ، الذين ورد ذكره عرضا ، وخارج تلك الابواب .

أما غيره من الذين ورد ذكرهم ضمن التراجم السبع والسبعين والمائتين ، فنذكر منهم بعض من اتسموا بالعلم خاصة ، مثل الشيخ أبى عمران الفاسى ، صاحب الشهرة العظيمة فى القيروان والأندلس ، بعد المغرب والذى يعود له الفضل فى تأسيس أعظم دولة مغربية ، فى القرن الخامس .

ومثل وجاج بن زلو اللمطى ، من اهل السوس الاقصى ، اخذ عن أبى عمران المذكور ، ثم عاد الى السوس ، فبنى دارا سماها بدار المرابطين ، لطلبة العلم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه .

ووجاج هذا هو الذى كتب اليه شيخه أبو عمران ، ليختار من تلاميذه من يبعثه مع ابراهيم بن يحيى بن ابراهيم الكدالى أمير صنهاجة الى الصحراء بهذا الكتاب :

أما بعد اذا وصلك حامل كتابى هذا ، وهو يحيى بن ابراهيم الكدالى ، فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم شرائع الاسلام ، ويفقههم فى دين الله ، ولك وله فى ذلك الثواب والاجر العظيم ، والله لا يضيع اجر من أحسن عملا .

فلما سلمه الأمير يحيى بن ابراهيم هذا الكتاب ، انتدب لذلك تلميذا له هو عبد الله بن ياسين الجزولى ، مؤسس الدولة المرابطية بعد .

ومثل ابى محمد صالح بن عبد الله ابن حرزهم الفاسى ، عم ابى الحسن علي المشهور ، كان ابو محمد قد رحل الى الشرق ولقي أبا حامد

الغزالي ، فأخذ عنه ، ثم عاد الى فاس .

ومثل أبى عثمان سعيد بن ميموناس الرجراجى ، جد ابى عبد الله محمد بن ياسين ، فقيه المصامدة لعهد المؤلف .

ومثل أبى الحسن على بن حرزهم ، السالف الذكر ، وهو ابن اسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن حرزهم الفاسى ، كان فقيها عالما حافظا ، قال : اعتكفت على قراءة احياء علوم الدين للغزالي ، فى بيت مدة من عام ، فجردت المسائل التى تنتقد عليه ، وعزمت على حرق الكتاب ثم بعد ذلك تأملت تلك المسائل ، فوجدتها موافقة للكتاب والسنة .

كان قدم مراكش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة ، للقراءة عليه والاخذ عنه ، فدخل عليه ابو الحسن وهو على سريره ، فجلس ابو الحسن تحته ، ثم قال للامير اهكذا كنت تفعل مع من كنت تتعلم منه ؟ قال : نعم ، فقال له ابو الحسن انزل الى مكانى وأكون أنا فى مكانك ، وهكذا ينبغى أن يكون المتعلم مع المعلم . فأجابه الامير الى ذلك ، فنزل عن سريره وجلس عليه ابو الحسن ، فلازمه واخذه بسلوك طريق الآخرة .. وساق المؤلف اخبارا عنه فى العلم والزهد وغيرهما .

ومثل ابى شعيب ايوب بن سعيد الصنهاجى ، من أهل بلد ازمور ، ومن اشياخ ابى يعزى المشهور ، كان فى ابتداء امره معلما للقرآن الكريم .

ومن اخباره التى رواها أبو موسى عيسى الجزولى النحوى ، أن والي ازمور اراد قتل جماعة من اهل بلده ، فجاءه أبوشعيب شفيعا فيهم ، وكان أسمر اللون ، فلما رآه الوالي انتهره ... وبعد محنة امتحن بها ، أمر أن يرد علبه ، فلما جاءه شفعه فى قومه .

وساق له اخبارا كثيرة ، وهو المعروف ضريحه بمدينة أزمور ، حتى عهدنا هذا ، بمولاى بوشعيب .

ومثل ابى يعزى يلنور بن ميمون ، كان قطب عصره واعجوبة دهره والف الناس فى مناقبه ، روى عن ابى علي الصواف ، انه قال : رايت اخبار الصالحين ، من زمان أويس القرنى ، الى زمننا هذا فما رأيت أعجب من اخبار ابى يعزى وشيوخه كثيرون ، مذكور بعضهم فى هذا الكتاب .

ومن ولده ابو علي يعزى الذى يكنى به ابوه ، خلف اباه فى مكانه ، ولحق بالأولياء ، فكانت لـــه شهرة تدانى شهـــرة ابيه .. ودون هؤلاء فى الشهرة كثيرون ، مثل ابى عبد الله مالك بن مروان اللجوسى الايلانى ، وابى محمد يرزجان الجزولى الفقيه المالكى اخذ عنه ابو عبد الله محمد بن ياسين ، فقيه المصامدة لعهده ، وابى عبد الله محمد بن اسماعيل الهوارى ، من اغمات وريكة ، كان على سنن أهل الفضل والدين ، نسخ كتـــــاب الاحياء ، فعمل به ، وابى عبد الله البيغى الكماد ، من سبتة ، وأهل الفضل والدين ، وابى عبد الله التاودى ، من أهل فاس ، كان معلما من أصحاب أبى يعزى ، وابى الربيع سليمان الصنهاجى ، المعروف بالتلمسانى ، شيخ ابى بكر المعروف بالمواق وابى العباس أحمد المعروف بالحصار ، وكان وثاقا بمدينة سلا ، وابى علي سالم بن سلامة السوسى أطه من تارودنت ، درس الفقه بفاس وبأغمات ، واستقر بسجلماسة . وابى على يغمور بن خالد اليرصجى ، تلميذ أبى عبد الله محمد بن ياسين الفقيه ، وكـــان مدرسا للفقه ، ثم اعتزل الناس ، وابى عبد الله محمد ابن الأمان الجزولى المعلم ، من مراكش ، وابى محمد وين يوفن ، تلميذ الفقيه يغمور بن خالد ، وابى بكر يحيى بن محمد بن وزرج ، اخذ عن ابى بكر بن العربى ، وهو شيخ ابى الحسين ، المعروف بابن الصائغ ، كان من أهل العلم والعمل ، وابى عمران موسى بن اسحاق الوريكى المعلم ، من أهل مراكش ، صحب ابا العباس بن الجباب وغيره ، وأبى يعقوب يوسف بن عبد الله المعلم ، أصله من داى من بلاد تادلا ، وأبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن مومن المـــرادى ، من أهـــل اغمات وريكـــة ، امـــام الفريضـــة بجامعهـــا ، وأبى العباس أحمد بن عبد السلام الدكالى ، من أهل العلم والعمل . وأبى العباس أحمد بن عبد الصمد الصنهاجى الجباب ، كان من اهـــل المعرفة بعلوم الاعتقادات ، وأبى محمد عبد الرزاق الجزولى ، كان من كبار المشايخ ، وابى عبد الله محمد بن علي الفندلاوى ، المعروف بابن الكتانى ، من أهل فاس ، وكان آخر أئمة المغرب ، كما يقول المؤلف ، فيما اخذه من علوم الاعتقاد ، عن أبى عمرو الاصولى ، وأبى محمد يسكر بن موسى الجراوى الغفجومى، من تادلا، ثم نزل فاس، تفقه على ابى خزر، ومثل ابى ابراهيم اسماعيل ابن وجماتن الرجراجى، كان من أكابر العلماء، وأبى على عمر بن عمران السمائلى، كان فقيها، وأبى الحسين بحيى بن محمد الانصارى،

عرف بابن الصائغ ، من اهل سبتة ، وأبى تونارت ولجوط الهنتيفى ، كان فقيها فاضلا ، وأبى وجاج عفان بن اسماعيل المطماطى ، كان من ائمة العلم بالقرآن ، وأبى الصبر أيوب السبتى ، وأبى علي وتبير بن يرزيجن الرجراجي ، تلميذ أبى عبد الله محمد بن ياسين الفقيه ، وأبى محمد عبد الله بن عثمان الزرهونى ، كان من العلماء بطريق التصوف ، حافظا لاخبار الصالحين ، وأبى الحسن على بن محمد المعروف بابن العطار ، من اهل فاس ، كان عارفا بعلوم الاعتقاد ، وأبى عبد الله اللخمي المعروف بابـــن الحجام ، الواعـــظ .

سوى هذه التراجم ، له سماعات من المغاربة ، مثل أبى مـــوسى عيسى الجزولى النحوى ، وأبى العباس أحمد بن ابراهيم بن محمد الازدى البسطي ، وعن هذا تلقى كثيرا من الاخبار .

ومما يسترعي النظر فى هذا الكتاب انه لم تخل فيه مدينة من مدن المغرب وقراه الا ذكر منها رجال ، احتفظوا بمكانتهم العلمية وغيرها فمن سبتة الى طنجة الى القصر الكبير الى مكناس ، الى سلا وفضالة الى أزمور وتادلا وبها « داى » الى أغمات ايلان ووريكة ، الى تارودنت وأدوز بالسوس .. وغير هذه من المدن والقرى ، بلـــه العاصمتين فـــاس ومراكش ، اللتين نردد ذكرهما فى كثير من رجالهما ، مما يطول ذكره لو تتبعناه .

ويلاحظ على المؤلف ، انه كان على حصيلة عظيمة من حفظ الشعر ، فقلما يأتى بترجمة ، لم يتمثل فيها بأبيات ، ومقطوعات وقصائد ، جلهـــا ما كان لشعراء اسلاميين غالبا . ولا غرو فى هذا الاطلاع ، فقد كان الرجل على ضلع وافرة فى اللغة وآدابها ، أهلته ، لأن يشرح مقامات الحريرى ، قبل ان يشرحها ، الشريشى الاندلسى . فمثل هذا العمل العظيم لا يتأتى الا للفطاحل من الأدباء وكبار اللغويين بصفة خاصة .

ولعل السبب فى كون ابن الزيات التادلاوى لم يذكر ضمن الرجـــــال الذين ترجمهم القاضى عياضا ، مع انه أقام بتادلا قاضيا عليها وكان من رجال التصوف لا محالـــة أن القاضى عياضا لم يكن من أولئك الزهـــــاد الذين اهتم بزهدهم ابن الزيات ، اكثر من اهتمامه بالتصوف الذى كانوا

عليه ، فالزهد هو السلوك الذى يكون عليه المتصوف ، وهو الذى رعاه ابن الزيات ، لم يراع التصوف كطريقة لها معالمها العلمية والأدبية ، وهذا ما كان عليه عياض ، ولم يكن يلبس مرقعة المتصوفة ويزهد فى الحياة (1) .

ومهما يكن فقد شاهد العهد الموحدى ، بشدة ادب الزهاد والمتصوفة ، حتى فى أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم ، فجنحوا اليه بل مارسوا التصوف أدبا وسلوكا عرفه الاندلس من أمد بعيد ، فالزهديات قد عرفت فى تلك القصائد التى نظمها ابن عبد ربه وسماها المحصات لما سبق منه من غيرها كما عرف التصوف عند ابن مسرة ، وكلا الرجلين عاش فى القرن الثالث وأوائل الرابع ، وكلاهما أيضا كانت له صلة بالشرق . وغالبا ما كانت تلك الصلة عن طريق القيروان ، ويعتقد بعض البحاث ان التصوف فى الاندلس كان يتستر فى جلبابه كثير من المبادىء المستهجنة والمذاهب المتطرفة ، التى كانت لا تروق الدولة ، ولا الراى العام ، وذلك مثل الخارجية والتشيع والاعتزال ، وقد ظهر بهذا كله وبقوة ابن مسرة كما قلنا فى أواخر القرن الثالث واوائل الرابع ، وكون له مدرسة ظل اتباعه حافظين على مبادئها وعرفوا بالانتساب اليها (2) وكان كأبيه معتزلى المذهب ، ومعلوم ان الاعتزال كان مضطهدا فى الاندلس ، اما المغرب فقد عرف الاعتزال فى فى فجر تاريخه الاسلامى وفى القرن الثانى ، بل عرف دولا اعتزالية فى هذا القرن ، ثم اختفى هذا المذهب فيما بعد (ولا ننسى ان تاريخنا يسجل أن الذى تنازل للمولى ادريس عن مملكته كان معتزليا) وعلى كل فان المغرب لم يعرف التصوف على ذلك العهد المتقدم الذكر الذى عرف به فى الاندلس ، حتى اتصل المغرب به اتصالا وثيقا وقد رسبت به رواسب التصوف والزهد ، ومن بين الاندلسيين اللاحقين لأولئك الذين ظهرت الزهديات فى شعرهم

---

(1) وفى ترجمة عياض بفهرس الفهارس نجد تنبيها نقل فيه عن « كتاب المجد الطارف والتالد » لمحمد الامين الصحراوى ورد فيه قوله : « ولا يضر منصبه كون صاحب التشوف لم يذكره من رجال التصوف ، مع أنه أقدم وفاة من جميع من ذكر فيه ووجه العذر أنه التزم فيه ذكر الزهاد العباد أى الذين انقطعوا لذلك »
وكذلك نستغرب منه عدم ذكره فى الكتاب لأبى العباس السبتى شيخه ، ولكنه وان لم يذكره فيه فقد أفرده بالتاليف الذى سماه « مناقب الشيخ ابى العباس احمد السبتى » وفيه يقول : « سمعنا من فقرائه واصحابه الذين شاهدوا بركته (نسخه بالخزانة الرباط رقم 396 وبخزانة القرويين رقم 313 ، وقد ذكره صاحب الاعلام فى الجزء الاول ، كما نص عليه ابن سودة فى دليله) كذا وكذا ...

(2) سبق من رجال المغرب فى الفصل الاول من كانوا من تلاميذ ابن مسرة .

على هذا العهد عبد الله بن السيد البطليوسى ، شيخ القاضى ابى الفضل عياض وقد تأثر به القاضى به بل انه انتحى فى كتابه بعض المناحى الصوفية ، كما نجد ذلك فى رسالته التى كتبها وبعث الحاج القاصدين بها الى المقام النبوى ، فهى من تقاليد المتصوفة .

وعموما ظهر اثر الزهديات والتصوف فى المغرب فيما خلفه ادباؤنا لهذا العصر من شعر ونثر ، وسنرى ضمن من سنذكرهم بعد أن أبا حفـــص عمر السلمى كان بين هؤلاء المتصوفة ، ويتحدث تلميذه التجيبى عنه بانه طلب منه ان يجمع فى كتاب يؤلفه له اخبار العباد والزهاد اما الزهاد من رجال الاندلس ومن المتصوفة الذين وفدوا على المغرب فكان منهم غير من شهروا بالاندلس عبد القادر التبى والاستاذ المتصوف على بن محمد بن خليل ، الذى كان يدرس التصوف فى مدارس المغرب لذلك العهد الموحدى بالذات . وهذه نقطة مهمة ، لان المتزهد أو المتصوف قد يكون سلوكه كذلك من غير ان تكون له فكرة التصوف الذى كما نعلم فى مدروسنا انه يقوم على مبادىء معروفة وقواعد معينة ، وهو ما يهمنا هنا فى الأدب حينما نجد له اثرافيه ، وعلى ذلك فكون هذا العالم الاندلسى على بن محمد بن خليل كان يدرس بمدارس المغرب التصوف ، مما يعد شيئا له اهميته فى هذا العصر .

ولا شك انه كون أتباعا فكان من تلاميذ هذا الاستاذ الادباء المغاربة مثل ابن الملجوم والسلالجى ثم الخطابى على حين كان هناك اساتيذ غيرهم يلقنون مبادىء التصوف ورجال آخرون من المغاربة انفسهم مثل عبد الله الفخار السبتى وتلميذه أبى العباس السبتى وكان هذا الاخير يعيش بالمغرب فى اواخر هذا القرن واوائل السابع) ويكفى لنبرهن على شيوع الزهد والتصوف فى الاوساط المغربية بين الخاصة والعامة فى ذلك الحين ان الناس صاروا يعتقدون فى يعقوب المنصور انه تصوف وزهد فى الملك وانقطع

كان ابن الزيات من رجال القرن السادس وأوائل السابع ، اذ توفى عام 627 أو 628 ، وهو من رجال الفقه والقضاء والتصوف والأدب وكتابه المذكور يضم رجالا من المغرب عموما والأندلس ، ويهمنا منهم الاول الذين نجد من بينهم من عاصروا العهد المرابطى بل حتى من تقدم هذا العهد ، كأبى عمران الفاسى ، وآخرين كانوا من العهد الموحدى ، عايش بعضهم

المؤلف ونقل عنهم روايات وحكايات . والكتاب يضم كثيرا من الأشعار ، الا انها ليست كلها مغربية ، كثير منها شرقى من الجاهلية والاسلام ، من السموال الى المتنبى مثلا وقليل منها للأندلسيين أو المغاربة الناشئين بالاندلس وغيرهم ، وأقل هذه جميعا ابيات للافريقيين التونسيين ، وقد نسب كثيرا من الاشعار غير المشرقية لأصحابها ، أما غيرها فاكتفى بذكرها ، على سبيل الاستشهاد الصوفى الذى يحول الكلام الى مقاصده .

وبالرغم من أن الكتاب ، لقاض من قضاة الموحدين ، فهو لا يذكر منهم احدا ، على حين يذكر من المرابطين مثل على بن يوسف ، وابنه تاشفين ، يقول فى حكاية ينقلها ، تتصل بهذا الملك « لما خرج تاشفين بن على من مراكش الى وهران كان يمشى بجيوشه فى سند الجبل ، فلما قرب من بلاد تادلا قال لخاصته : لأرينكم رجلا صالحا ، فتقدم بهم الى مكان أبى زكرياء (الجراوى) فدخلوا عليه متلثمين ، لا يعرف من هو السلطان ، فرفع بصره بديهة الى تاشفين ، وقال له : أنت هو ؟ فالى أين تذهب بهذا الخلق ؟ تهلك عباد الله ؟ فقال له : لم يدعنا هؤلاء القوم ، تم سلم عليه وخرج عنه ، فقال ابو زكرياء : سبحان الله ، هذا الرجل لا يرجع الى هذه البلاد ، قد انقرضت دولته .

ولا يهمل حتى بعض العوام الذين شهروا بالتصوف مثل عبد السلام العزفى المراكشى .

وعلى كل حال ، فهذه الاقليمية فى تراجم رجالنا ، تعد من أقدم ما عثرنا عليه بكتابنا هذا ، الذى لم يكن وحده لابن الزيات ، بل ألف غيره ، مثل شرح مقامات الحريرى الذى وصف بأنه « نبيل جدا » ، كما أن « له تآليف فى صلحاء المغرب » .

والمؤلف ، تثقف فى بلاده فهو « لم يدخل الأندلس وقد صحب ابـــا العباس السبتى ولقى ابن حوط الله السلالجى .

وقبل أن نودع كتاب التشوف ، نريد ان ننعطف بنظرنا الى رجال ، كانوا من متصوفة القرن السادس وأوائل السابع ، ذكرت اشعار فى تراجمهم ، غير منسوبة ولكنها فى مصادر اخرى نسبت اليهم ، وهؤلاء هم ، أبو جبل يعلى الفاسى ، وعثمان السلالجى الفاسى ، ثم عتمان بن منغفاد السجلماسى .

والحق أن أبا جبل يعد من رجال القرن الخامس ، فانه كما في روض القرطاس ، توفى سنة ثلاث وخمس مائة وهو ما فى الكتاب السالف الذكر وما فى جذوة الاقتباس لابن القاضى .

أما الشعر الذى عنينا فهو هذه الابيات :

سافر لتكسب فى الأسفار فائدة	فرب فائدة تلفى مع السفر
ولا تقم بمكان لا تصيب به	دينا وان كنت بين الظل والزهر
فان موسى كليم الله أعوزه	علم تكسبه في لقيه الخضر

فهذا شعر — ان صح له — لا يقل فى مستواه ، عما حفظ للقاضى عياض فى نفس المعنى ، ان لم يفقه فى صياغته ، ويمكن أن يعد ضمن النماذج الجيدة ، التى تمثل الشعر فى القرن الخامس ، الذى اشتدت فيه الرحلة الى الشرق ، ونال منها هذا المتصوف الذى لقى بمصر ، أبا الفضل عبد الله بن حسن الجوهرى الواعظ ، كما بالجذوة ، فحضر فى حلقة درسه بجامع مصر ، وهو على منبره .

والشعر الذى ذكر للسلالجى ، هو هذه القصيدة :

اذا العلم لا تغشى غرائسه قلبى
ولا شاقنى منه الى المنهل العذب
ولا أنا ممن جاوز الدرب ناهضا
اليه ولا أرضى مقامى من رب
ولا كان حظى منه الا حكاية
على الناس أتلوها فحسبى اذن حسبى
اليس عجيبا أن نفسى حقيقتى
وما سلمها سلمى ولا حربها حربى
تمر بنا الأيام تحت لجاجة
وما ينقضي يومي عليها ولا عتبي
أيا ذات نفسي فارفقى بي فانها
لطائف تستولى فتنبي بما تنبي
هى العروة الوثقى هى السنة التي
يمر عليها مقتفى اثر الركب

ولا تـــرض بالحظ الخسيـــس سفاهـــة
فمثلك مـــن قد حل فى المنـــزل الرحـــب
تجافوا عن الدار التى اصبحوا بهـــا
على غربة واستوطنوا حضـــرة القـــرب
وان كـــان لا ينجيـــك الا ركوبهـــا
فماذا التجافـــي عـــن مجـــاورة الـــرب

أشار الى مضمونها ابن حبوس فى داليته ، وبعدهما نجد منها نفحة فى قول الفخر :

نهايـــة اقـــدام العقـــول عقـــال ... واكثر سعـــي العالمـــين ضـــلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصـــل دنيانـــا أذى ووبـــال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيـــه قيل وقالوا
وكم من رجال قد رأينا ودولـــة ... فبادوا جميعـــا مسرعين وزالـــوا
وكم من رجال قد علت شرفاتهـــا ... رجـــال فمانـــوا والجبال جبـــال

وكان السلالجى له مكانة تقربه من مثل هذا العالم المعقولي ، اذ كان منكبا على كتاب الارشاد فى علم الاعتقاد لامام الحرمين الجوينى ثم لما اتقنه لخصه فى كتابه « المقدمة البرهانية » وكان لامام الحرمين فى عهده شأن عظيم ، يشير اليه ابن حبوس فى قوله :

وبصرت بالطوسى يفهـــق حوضـــه ... وأبـــى المعالـــى مجملا ومفصـــلا

يريد بالطوسى الغزالى ، وبأبى المعالى الجوينى النيسابورى المعروف بامام الحرمين ، والبيت من قصيدة فى مدح عبد المومن الموحدى وهى بكتاب نظم الجمان ، لابن القطان ، يقول فى مطلعها :

بخليفـــة المهـــدى سيدنـــا اغتدى ... نهـــج العلـــوم معبـــدا ومذلـــلا

ومن شعر السلالجى قوله مخاطبا قومه من فاس :

خذوا ضماني أن لا تفلحوا ابـــدا ... ولو شربتم مـــداد الكتب بالصحف
انتـــم صغـــار كبـــار عند انفسكم ... هل يستوى من يقيس الدر بالصدف

فالبيتان ينبئان عن شاعرية فى صاحبهما ، ولذلك لا يستبعد أن تصدر

عنه تلك القصيدة السالفة توفى السلالجى عام اربعة وسبعين وخمسمائة .
ومن تلاميذه كثيرون عرفوا بفاس وغيرها ، بل كان منهم رجال الاندلس

واخيرا نجد قصيدة عثمان بن منغفاد السجلماسى هكذا :

طيب بذكر الله فاك فانه	لاجل ما فاهت به الافواه
طفئت مصابيح العقول فكلنا	يمسي ويصبح فى ظلام هواه
كم مدع علما لو استخبرته	لو جدت اكثر علمه دعواه
ما للفتى لا يرعوى وصباحه	ومساؤه يعظانه بسواه
تلقاه نياها على من دونه	ولسوف يعطشه الذى أرواه
سبحان من لم يعتصم من أمره	من عاقل مستعذب بلواه
والعيش بلوى عاقل فتعجبوا	من عاقل مستعذب بلواه
ان زيد يوم واحد فى عمره	نقضت على مقدار ذاك قواه
وكأنه والموت سدد سهمه	فأصاب مقتله وما اخطاه
والمرء ينشر كالرداء الى مدى	فاذا انتفى جاء الردى فطواه

وهذا البيت الأخير منبثق من قول الشاعر :

والمرء يبليه بلاء السربال	تعاقب الاهلال بعد الاهلال

فالابيات الأولى نسبها اليه ، ابن ابى زرع فى كتابه « روض القرطاس »
والأبيات الثانية ، نسبها اليه المديونى فى شرحه للمقدمة البرهانية ،
والأبيات الاخيرة نسبت اليه ، فى كتاب الذخيرة السنية .

وجميعها لم ترد فى التشوف منسوبة الى قائلها ، وقد اعتمد صاحبا روض القرطاس ، والذخيرة السنية ، على كتاب التشوف ، وهو لا يأتى بترجمة الا شفعها بأبيات ، لا يذكر قائلها ، فلو كانت لاولئك المترجمين ، لكانوا كلهم شعراء ، ولوضعنا يدنا على ذخيرة غنية من شعر المتصوفة ، فى القرنين الخامس والسادس ، وهذا — كما نرى — بعيد كل البعد ، فان من هؤلاء كثيرين لم يعرف عنهم نظم البتة ، وفيهم من كان اميا لا صلة له بالتعلم ، فبالاحرى ان ينظم الشعر الرائق .

على أن غيرهم عرفوا ببعض النظم ، وذكر فى ترجمتهم ، شعرا ، لم ينسبه كذلك ، مثل عبد الله بن حريز ، المعروف بابن تخميست ، والشعر

الذى ذكره هـو :

ولما ركبت البحر نحوك قاصدا ولم أر غير الله مالا ولا أهلا
دعوتك بالاخلاص والموج طامح بصدق وداد لم يكن قبل معتلا
أيا منقذ الغرقى ويا ملهم التقى ويا صمدا يبقى اذا أذهب الكلا
لوجهك ذل البر والبحر خاضع وحق لهذا الخلق أن يألف الذلا

فقد عرف لابن تاخميست نظم مثل قوله :

اخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يظن من الأحياء وهو عديم

توفى ابن تاخمست بمدينته فاس عام ثمان وست مائة .

اما أبو جبل يعلى الفاسى، فقد ذكر أنه كان جزارا، فيستبعد — عادة — أن تصدر عنه تلك الابيات ، وقلنا « عادة » لانه لا مانع فى واقع الامر ، أن يكون مثله شاعرا ، خصوصا ان كان من رجال التصوف ، الذين لا يتورعون عن مثل هذه الحرف ، بل كان من غيرهم فى مصر الشاعر الجزار ، كما كان بالاندلس كذلك ، وأعرف بالمغرب من كان له ضلع فى الادب ، من الدباغين ، وما زال فى عصرنا هذا من المثقفين البارزين ، من يتولى حرفة الخياطة للبذل .

فالمغرب كالاندلس ومصر فيما مضى ، لم يكن يضيق عطنه بالادباء والعلماء يزاولون حرفا مختلفة ، وان كانت لا تتناسب مع منصبهم ، كالدباغة والخرازة مثلا ، وهنا تذكرت بعض الادباء المعاصرين والعلماء ، كانوا يحترفون الخرازة ، منهم من قضى نحبه ، رحمه الله ، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة ، حفظه الله ، وجميع هؤلاء ليسوا من المتصوفة ، الذين لا تعنيهم الدنيا بقدر ما تعنيهم الآخرة ، والكسب الحلال الذى كانوا يتحرونه ، ومنهم أبو جبل المذكور

فتصوفهم هذا كان مدعاة لأن يزاولوا هذه المهن ، التى تعد عند المجتمع الارستقراطى ، مهنا متواضعة ان لم تكن وضيعة فى نظر أولئك المشمخرين المتكبرين ، وخصوصا فى المدن التى كانت مساجدها وجوامعها تقوم بمهمة التعليم للجميع ، فلا تفصل الناس بعضهم عن بعض ، ولا تحول مجالسها

بينها وبين أى انسان يحضرها او يستمع اليها ، وبقدر ما كانت تلك الجوامع على رتبة عالية فى تعليمها ، بقدر ما كان الذين يحضرونها أو يستمعون اليها ، من مطلق الناس ، على رتب عالية متفاوتة فى ثقافتهم (1) .

ومهما يكن فان العصر الموحدى الذى استبحر فيه الادب بشتى الوانه واغراضه لابد من ان نلاحظ ملاحظات عامة على هذا العصر فنرى ان الادب فيه قد تعرض الى انقلاب عظيم واحداث خطيرة تناولت المجتمع فى كيانه ونظمه وعقلياته وفى وجدانه أيضا ، تناولت كل ذلك تناولا قويا وهزته هزة عنيفة فوجدنا له اثرا فى الادب نظمه ونثره ، فى رسائله وفى تآليفه ، فلقد طرات على المجتمع المغربى مرحلة سياسية شاهد فيها مصرع دولة فتية قوية كانت تتصف بالبساطة فى كل شىء ، وكانت تتعلق بالشرق تعلقا رمزيا ، فتخطب لخليفة بغداد وتثبت اسمه على سكتها وتلتزم السواد فى الويتها ، ويرتدى ملوكها الاردية التى يبعث بها ملوك العباسيين ، ثـم لا تفتا ان تنطوى صفحتها من الوجود وان تحل محلها دولة أخرى على العكس منها تماما ، معقدة فى كل شىء ومختلفة عنها فى كل شىء ، فهـى معقدة فى تفكيرها وفى عقيدتها الاشعرية التى تواجه التوحيد ، وتعالـج مسائله بفلسفة افلوطينية وترمى المرابطين الذين كانوا سلفيين بالتجسيد ، ، وتسمهم فى رسائلها بالمجوسية وتخص نفسها بالتوحيد ، فهى الفئـة الموحدة ، ودولتها هى دولة الموحدين ، وتعمل جاهدة على تعميم التوحيد بتلك الطريقة وكما تعتقده بكل الوسائل وتسطر فيه صفحات بالعربية حينا وبالبربرية حينا آخر ، كما تتناول مسألة الخلافة والامامة بعقلية ما كانت تعرفها سالفتها ولا سولت لها نفسها ان تخوض فيها ، ولكن هذه

---

(1) وأبرز مثال لذلك مدينة فاس ، وجامع القرويين منها ، فقد كان هذا الجامع ، حينما كان التعليم به ، يقوم بدور معال فى تثقيف الشعب ، فكان من الدباغين ، مثلا ، العلامة محمد ابن ركرى الماسى ، الذى كان يتردد على مجالس العلم بالقرويين (كما هو مذكور فى محاضراتنا فى تاريخ التشريع الاسلامى ص 110) .
وبهدا كان حامع القرويين ، لا يقوم بمهمة تثقيف الشعـب ، ويقرب الشقة بينه وبين العلماء محسب ، بل قد يرتفع سعضهم الى مستوى العلماء ، الذين قال لى أحدهم ـ رحمه الله ـ انه كان يبيع السناع « الايقاما » وكان يعد من العلماء الكبار والادباء الشعراء ، درست عليه ، وشاهدته يكتب الشعر ارتجالا على بلاط الزليـج .
أما فى غيرها ، فقد كان بقال ، بتطوان يقفل دكانه ، حينما يحضر طلبته الكبار ، فيلقى عليهم دروسه ، بالمسحد الذى كان يؤذن به رحمه الله ؛ لا يريد من دلك جزاء ولا شكورا ، كما كان بها معلم « فران » يدرس للطلبة المرشد المعين ، وحدادان أصبحا من العلماء الاعـلام .

تتناول هذه المسألة بشيء من تفكير الاعتزال وكثير من تفكير التشيع ، ذلك المذهب الذى كان يلفظ نفسه بالمشرق على ان يبعث فى المغرب ، لكن بعثه هذا كان منقطع النظير ، فهو لم يبعث كما كان حيا ، وانما بعث على صفة اخرى تمايزه فى كثير من الملامح ، بعث حيا قويا متطرفا لا يقول بها الشيعة ، ولكنه يقول بالجهر بالفكرة والمخاطرة بالعمل لدرجة ان اضيف اليه مذهب الخارجية ، كما ذكر ذلك المؤرخون .

نظر الموحدون الى المشرق فوجدوا الفاطميين يلفظون نفسهم الاخير ، كما وجدوا الدولة العباسية العوبة تتارجح فى بغداد ، وهى فى الواقع لا تختلف فى مصيرها عن ذلك المصير الذى كان الفاطميون يواجهونه لهذا قطع الموحدون صلتهم سياسيا بالمشرق فلم يعترفوا بالخلافة فيه كما كان يفعل المرابطون ، وانما قالوا نحن خلفاء للمؤمنين ونحن وجدنا الموصوفون بصفة الائمة المعصومين ، كما نظروا الى تلك البساطة التى كان يخلد اليها المرابطون فى شخصية فقهائهم الخامدة ، فراوا ان لابد من القضاء عليها ، وان يعملوا فكرهم فى أصول الدين مباشرة ، فامروا باحراق كتب الفروع ولجاوا الى الاصول او بالاحرى لجاوا الى الكتاب والسنة ، مباشرة وتركوا ما عداهما ، وبذلك رفعوا تلك الفكرة التى كان ينادى بها الامام ابن حزم الاندلسى ، لان الظاهرية فى الحقيقة كان معناها عنده هو الاجتهاد، فلم يكن ابن حزم مقلدا فى الحقيقة لداود الظاهرى وانما كان مجتهدا يدعو غيره الى هذا الاجتهاد ، ولا يريد ان يتقيد فيه ، وعلى هذا سواء اقلنا ان الموحدين دعوا الى الاجتهاد ام انهم قالوا بالظاهرية ، فهم على كل حال قد نبذوا كتب الفروع ونشروا فى المغرب راية الاجتهاد التى كانت قد انتكست على عهدهم بالمشرق .

أما ما حدث للمجتمع المغربى فى كيانه فقد وجدناه ينضاف اليه بعد الاندلسيين هؤلاء العرب الذين كانوا قد اتجهوا الى المغرب أواخر القرن الخامس ، الا انهم لم يصلوا اليه ولم ينحشروا فيه الا فى هذا القرن ، وكانت الدولة نفسها تستميلهم بشعرائها وكتابها وتستعملهم فى جيشها ، وفى بعض الاحيان كانوا فرقا خاصة بهم ، بل انهم ظلوا عمدة الدولة ، وسنرى فيما بعد ان المامون سيأتى بهم من اشبيلية ، محاولا ان يقضى بهم القضاء المبرم على اشياخ الموحدين .

هؤلاء العرب بالرغم مما كانوا موصوفين به من بداوة وجفوة فانهم حملوا معهم الى المغرب ادبا شعبيا معظمه ، وكان هؤلاء لابد لهم ان يؤثروا فى خيالات المغاربة ولابد ان يعملوا عملهم فى تقويم اللهجات العامية بل كان منهم من هو على حظ من الفصحى خصوصا الرؤوس ، ومنهم الذين كانوا يخاطبون بتلك الرسائل ويستمالون بتلك القصائد التى كانت تفد عليهم من الموحدين ، فكان لا محالة ان يحسب لهؤلاء حسابهم فى المحيط الشعبى .

ومن مخاطباتهم بالفصحى ، قصيدة ليعقوب المنصور ، سجلها السرخسى فى رحلته ، وساقها المقرى فى نفح الطيب ، هكذا :

(يا ايها الراكب المزجي مطيته)	على عذافرة تشقى بها الأكم
بلغ سليمى على بعد الديار بها	بينى وبينكم الرحمن والرحم
يا قومنا لا تشبوا الحرب ان خمدت	واستمسكوا بعرى الايمان واعتصموا
كم جرب الحرب من قد كان قبلكم	من القرون فبادت دونها الأمم
حاشى الأعارب ان نرضى بمنقصة	يا ليت شعرى هل تراهم علموا
يقودهم أرمنى لا خلاق له	كأنه بينهم من جهلهم علم (1)
الله يعلم انى ما دعوتكم	دعاء ذى قوة يوما فينتقم
ولا لجأت لأمر يستعان به	من الأمور وهذا الخلق قد علموا
لكن لأجزى رسول الله عن نسب	ينمى اليه وترعى تلكم الذمم
فان انيتم فحبل الوصل متصل	وان ابيتم فعند السيف نحتكم

وقد راينا ما صدر عن الجراوى فى استمالتهم وكذلك هناك قصائد اخرى نظمها ابن الطفيل على لسان أبى يعقوب فى هذا الصدد .

وبعد فهذه حصيلة الدور الاول بشعرائها وكتابها ومؤلفيها وبعد ذلك يأتى الدور الثانى وهو الذى يمثل عهد الانحلال وضعف الدولة .

الفصل الثانى :

لقد حل القرن السابع فحمل الينا بوادر الانحلال الذى أصاب هذه الدولة . وكانت اول تلك البوادر ، ما مني به المغرب من كارثة ساحقة ، فى

(1) يريد تراقوش .

تلك الوقعة المشئومة ، وقعة العقاب ــ كما تقدم ــ ، ثم تلا ذلك استبداد الأشياخ بخلفاء الموحدين ، وضرب رؤس بعضهم ببعض ، وتحريض أولئك الامراء على الانتزاء بالاطراف ، ثم قيام الأندلسيين انفسهم على الدولة والثورة على أمرائها ، ثم ما انتهو اليه اخيرا من طرد الموحدين من بلادهم بالجملة ، واستنصار هؤلاء الامراء بملوك النصارى القشتاليين ، الذين استولوا على بعض المدن الهامة كقرطبة ، وما تلا هذا كله من حصولهم على امتيازات بداخل المغرب نفسه ، مقابل مساعدات قدموها للأمير فالخليفة المامون ، كل هذه العوامل ، عجلت بسقوط دولة الموحدين الذين لم يعرفوا الاطمئنان فيما بينهم منذ قيامهم .

وهكذا فقد بدا الانحلال داخل البيت الموحدى الذى وجدنا لاوائل هذا القرن خليفته المامون يعلن على الملأ لعن مهديهم محمد بن تومرت ، فيقول وهو يخطب على منابر مراكش :

« لا تدعوه بالمهدى المعصوم وادعوه بالغوى المذموم » الا لا مهدى الا عيسى وانا قد نبذنا أمره النحس وتبع هذا احداث جسام ظهر خلالها اديب عمل فى ركاب الدولة ، وامتدت به الحياة ، الى اواسط القرن السابع وقد ظهر الزهد والتصوف فى ادبه ، ظهروا بينا طافحا وهو ميمون الخطابى الفاسى ، الذى درس علم التصوف ــ فيما درس ــ واخذ من العلماء بطريق الآخرة ، كما يقول ، يعنى علماء الصوفية .

لقد شاهد هذا الاديب أحداثا دامية مرت بالمغرب ، وكان مشاركا فى بعضها ، ولكنه تفهت الدنيا فى عينيه ، فتركها وانقطع الى الله الذى باعه نفسه وماله ، ولجأ الى الامداح النبوية ، بدل أن يتجه بها الى الامراء والملوك ، والوزراء والكبراء ، كما كان يفعل فيما قبل .

نعم ، شاهد موقعة العقاب ، التى منى بها المغرب ، فانهزم ماديا ومعنويا ، وشاهد الملوك بعدها العوبة فى ايدى الاشياخ من الموحدين وشاهد اقتطاع المغرب الشرقى ، من الدولة الكبيرة العظيمة ، وشاهد الاندلس تتحفز للانفصال عن هذه الدولة ، وتتدخل فى شؤونها الدولة النصرانية ، فتضرب رؤوس أمرائها بعضها ببعض ، بل تنقل جيوشها الجحافل الى المغرب ، وقد استنصر بها خليفة موحدى على

خصومه ، كما أن النصارى من غير الاندلس ، صاروا يمدون اعناقهم الينا ، وقد استضعفونا فهاجموا مدينة سبتة ، وكادوا يحتلونها .

كان ذلك الخليفة ، هو ادريس الملقب بالمامون ، الذى كان منقطعا اليه ، ميمون الخطابى ، وهو أمير باشبيلية ، ولازمه وهو خليفة بعد فقال شعرا فى جانبه السياسى ، منافحا عنه مهاجما لغيره ، وكان المامون ، وهو قاصد الى المغرب من الاندلس ، يتضرم قلبه حنقا على اشياخ الموحدين ، وعلى شيخهم الاكبر ، محمد بن تومرت ، فجاء الى العاصمة ، وفتك بهم فتكته الكبرى ، وسفه احلامهم ولعن مهديهم على المنابر ، فقال ، انه المهدى المزعوم ، لا المهدى المعصوم ، واوعز الى ميمون ، أن يناله بالقذف والنكير ، فقال :

وجـد النبـوة حلـة مطويـة ... لا يستطيع الخلـق نسج مثالهـا
فأسر حسـوا فى ارتغـاء يبتغـي ... بمحاله نسجـا علـى منوالهـا

ثم اشتبك المامون مع ابن اخيه ، يحيى ابن الناصر ، الذى بويع فى نفس السنة التى بويع فيها ، فجرت معارك كان فيها يحيى ، قد ضربت عليه قبته الحمراء ، فسقطت تلك القبة ، وهرع اليها العرب الذين كانوا فى صفوف المامون ، فقال ، ميمون فى الحادثة ، موجها الخطاب الى يحيى :

انظر الى القبة الحمراء ساقطـة ... لما رات مضر الحمراء عن كثـب
من كان أولى بها ان كنت ذا بصر ... العجم أو معدن العليا من العرب
وانما سجدت لما سهت وغـدت ... فوق التراب فكانت اعجب العجب

هكذا كان الخطابى ، فى جانب المامون ، ولكن الاحداث ، كانت تنخر فى كيانه ، وتجعل موقفه من سيده ينهار ، فى النهاية ، وبعد موته حسرة وقبل ان نتصل بأدب الخطابى ، وهو متزهد متصوف ، نلتفت الى قصيدة ، كان قد رثى بها ابنا لوزير ، واستهلها بقوله :

ارجة الصعق يوم النفخ فى الصور ... ام دكة الطود يوم الصعق فى الطور
ام هذه الارض اظهارا لما زجرت ... به الخليقة مـن ايقـاع محـذور
ام الكواكـب فى آفاقهـا انتشـرت ... وباتت الشمس فى طـي وتكويـر
ما للنهار تعـرى من ثياب سنـا ... وشابه الليـل فى اثواب ديجـور

قد كان للصبح طـرف زانه فلـق — مقسم الخلـق بين الدجـن والنور
فما الملـم الـذى غشى بدهمتـه — اديمـه عنبـرا مـن بعد كافـور
أصـخ لتسمـع من انبائهـا نبـأ — يطوى من الانس فيها كل منشـور
وانظر فان بني عدنان ما حشروا — الا لرزء عظيـم القـدر مشهـور
وافى مع العيد لا عادت مضاضته — فشاب سلساله الاصفى بتكديـر

يلاحظ على هذا الاستهلال ، ان الابيات الثلاثة الاولى مستاقة بحداء القرآن ، فالاول منها ، فيه من قوله تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الارض » وقوله : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » والثانى من قوله « اذا رجت الارض رجا وبست الجبال فكانت هباء منبثا » والثالث من قوله « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت » وقوله « اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت » وبعد هـذا تأتى الأبيات المتكلفة بتهويلاتها ، تكلف الشاعر فى اظهار الفجيعة المفتعلة منه ، ولا شىء فيها يسترعى النظر ، الا التصنع الذى يسود جميعها ، ومنه البيت الرابع ، الذى تأنق فيه ، بعد ما استغل قول مهلهل :

وصـار الليـل مشتمـلا علينـا — كـأن الليـل ليـس لـه نهـار

فقال هو :

ما للنهار تعرى من ثيـاب سنـا — وشابه الليـل فى اثـواب ديجـور

ثم استعان فى البيت الخامس ، بصنيع قول ابن عبد ربه :

غـــزال زانـــه حـــور

أو قول غيره :

قمـر قـد زانـه حـور

فقال هو :

قد كان للصبح طـرف زانه فلـق — مقسم الخلق بين الدجن والنـور

ولا ندرك قيمة لتقسيم خلقه بين الدجن والنور ، الا ان يكون الشاعر اقحم فيه قول طرفة :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

فتحول التقصير الى التقسيم ، واوتى بالنور ليقابل الدجن ، مـــن ناحية ، ولتعتمد عليه القافية من ناحية أخرى .

أما البيت السادس :

فما الملـــم الـــذى غشى بدهمتـــه	اديمـــه عنبـــرا من بعـــد كافـــور

فان صرخة المصيبة فى المصراع الاول ، تتحول الى قهقهة مرح ، فى المصراع الثانى ، الذى نجد فيه الظلام مشبها بالعنبر بعد ما كان الضوء مشبها بالكافور ، فهذا التشبيه لا مقام له هنا فى تصوير الفاجعة ، التـــى عم فيها الظلام واختفى النور من الوجود ثم بعد ذلك نجد الأنس كـــان منشورا فطواه الحزن بأساه ، وأن هذا النبأ العظيم قد انحشر له عرب عدنان ، فانقلب العيد الى مأتم فظيع ، لا اعاده الله علينا بمضاضته ، التى كدرته ، فجعلت سلساله الاصفى عكرا آجنا .

ومن ناحية أخرى فان صياغة الالفاظ ، تحكم على الشاعر بأنـــه ما كان صناعا فيها ، فقد لاحظنا تكرار الصعق فى البيت الاول :

ارجة الصعق يوم النفخ فى الصور	أم دكة الطود يوم الصعق فى الطور

وسنرى نحوا من هذا فى ديباجة وثيقته النثرية ، بعد ما نتعـــرض لشعره ، حينما تزهد ، وهو تلك القصيدة الطويلة التى تنيف على المائة بنيف وثلاثين ، يستهلها بقوله :

حقيـــق علبنا ان نجيـــب المعاليـــا	لنفني فى مـــدح الحبيب المعانيـــا
ونجمع أشتات الأعاريض حسبـــة	ونحشر فى ذات الالـــه القوافيـــا
ونقتـــاد للأشعـــار كـــل كتيبـــة	لنصر الهدى والدين تردى الأعاديا
فألسن أربـــاب البيـــان صـــوارم	مضاربها تنسى السيوف المواضيـــا
لنطلع مـــن امـــداح احمد انجمـــا	تلوح فتجلو من سنـــاه الدياجيـــا
كواكـــب ايمـــان تلـــوح فيهتـــدى	بأنوارهـــا مـــن بات يدلج ساريـــا
سهوت بمدح الخلق دهرا وهـــذه	سجود لجبرى كل ما كنت ساهيـــا
فـــلا مـــدح الا للـــذى بمديحـــه	تطيع اذا ما كنـــت بالمدح عاصيـــا

ففى هذه الأبيات الثمانية ، وجدنا فعل « تلوح » يأتى فى المصراع الثانى بالبيت الخامس ، ثم فى المصراع الاول بالبيت السادس وهذا من

قبيل الضعف الذى اومانا اليه ، فى أول بيت من مرثيته ، فلا يشفع لهذا كون الاول فى « انجما تلوح » والثانى فى « كواكب تلوح » وتلك « تجلو الدياجيا » وهذه « يهتدى بانوارها من بات يدلج ساريا » .

وعلى العموم ، فالابيات الاربعة الاولى يطبعها الطابع الحربى ، باجابة صريح المعالى ، وافناء جيش المعانى ، وجميع اشتات الاعاريض وحشر انفار القوافى ، وقود كتائب الاشعار ، لنصر الهدى وارداء العدى ، بالسن البيان التى هى سيوف صوارم ، دونها فى الفتك مواضى السيوف فى مضاربها ، وبعد البيتين اللذين وقع فيهما التكرار الذى اشرنا اليه ، يأتى البيت السابع ، الذى استغل فيه ما يعرف بسجود السهو فى الصلاة لجبرها ، حيث قال :

سهوت بمدح الخلق دهرا وهذه   سجود لجبرى كل ما كنت ساهيا

وقد تقدم هذا الاستغلال فى قوله سلفا :

وانما سجدت لما سهت وغدت   فوق التراب فكانت أعجب العجب

وهذا ان دل على شىء فانما يدل على فقر الخيال الذى كان عليه الشاعر ، وانه لا يتعدى معلومات أولية يعرفها المصلون ، وتعبيرات فى جلها قرآنية ، يستحضرها الحافظون ، وما كان أكثرهم لعهده وعهدنا .

وأخيرا نجد البيت الاخير دليلا على كونه ، اقلع عن مدح الملوك ، وانه كفر بمدح النبى عن ذلك الذى اعتبره معصية ، فاناب الى الله

وبقية الابيات فى القصيدة عبارة عن سرد شمائل النبى عليه الصلاة والسلام ، ما كان منها قبل النبوة وما كان بعدها ، وما عرفت له من معجزات ، بعضها قاطع بالكتاب والسنة ، وبعضها ليس كذلك ، وهو مذكور فى كتب القصاص والسيرة النبوية عندهم فيقول فى الاولى :

واعظمها الوحي الذى خصه به   فبلغ عنه آمرا فبه ناهيا
تحدى به أهل البيان بأسرهم   فكلهم الفاه بالعجز وانيا
وجاء به وحيا صريحا يزيده   مرور الليالى جدة وتعاليا
تضمن أحكام الوجود بأسرها   وحكم القضاء متبنا فيه نافيا
وأخبر عما كان أو هو كائن   يرى ماضيا أو ما يرى بعد آتيا

ووافق أخبار النبيين كلهم   وتمم بالغايات منها المباديا
وما كتبت يمناه قط صحيفة   ولا رئ يوما للصحائف تاليا
عليه سلام الله لا زال رائحا   عليه مدى الأيام منا وغاديا

فهذه الاوصاف من القرآن الكريم بعضها ، وجلها مما ورد فى الشفاء للقاضي عياض ، وهى على كل حال مرصوفة ، لا يتخلله الا نحو تكرار « باسرهم » فى البيت الثانى ، مع اسرها » فى البيت الرابع ، وبنفس الموضع من البيتين ، ولا شك انه ينؤ به البيت الاخير ، فى قوله :

علبه سلام الله لا زال رائحا   عليه مدى الأيام منا وغاديا

فهذا الجار والمجرور ، المتكرر فى « عليه » نشعر جميعا بقلقه فى الصياغة وان كان المعنى سليما حيث ان عليه الثانية متعلقة برائحا والاولى بسلام .

امـا الوثيقة التى اشرنا اليها ، فهى عبارة عن عقدة بيع ، باع نفسه وجوارحه لله تعالى ، فقال فى مقدمتها (كما فى جذوة الاقتباس) :

يقول العبد الذى اعترف بما اقترف لمولاه ، واقر له بما اضاعه ، لا بما اطاعه ، على ما منحه من النعم وأولاه ، الميمون بن علي الخطابى :

جبر الله بالتقوى كسره ، وفك من حبائل الدنيا أسره : لم ازل مدة أيام ، بل عدة اعوام ، اخالل كل مخل بدينى ، واستظل من اطالة البطالة بكل مضل يردينى ،واخالف كل صالح،واحالف كل طالح غير مفلح،واجر اذيال المجون على أرض الراحة ، واطلق عنان مهر الغفلة فى ميدان النسيان فيطيل جماحه ومراحه ، راكبا مطايا التسويف دون اهمال ، مستوطئا فرش الكسل والانهماك فى الشهوات والانهمال ، مستوطنا ربع التصابى بقلة الاعمال ، وكثرة الآمال ، سالكا سبيل الهزل وطريقه ، تاركا قبيل الجد وفريقه ، لا اتنى عنانى الى ما يعنينى ، ولا أزال أعانى ما يعيينى ، ولطائف الله عز وجل النى يضيق عن حمل اصغرها الامكنة الفسيحة ، ولا يطيق بلوغ شكرها الالسنة الفصيحة ، صافية الورود ، ضافية البرود ، وقد طنبت على قبابها وأرواقها ، وخلعت بعنقى ثيابها واطواقها ، واطردت بماء النعمة مذانبها وانهارها ، وتساوى فى القدوم بالكرم ليلها ونهارها ، وأنا مع ذلك

لا أزيد الا غفلة عن القصد السوى وسهوا ، ولا استزيد الا اشتغالا عن المقصود السنى ولهوا ، الى أن أجرى الله عادة احسانه وجوده ، وارادت مراداته السائقة السابقة اخراج العبد المذكور من عدم الغفلة ، الى ظهور الالهام ووجوده ، فسلط رعد الخوف على سحائب سمائى ، فكشفها وجلاها ، وحل بساحة أرضها سكر السلو ، فسكرها من سواه وخلاها ، وسل من سويداء قلبه محبة غيره ، فنزهها عنه وسلاها ، فلاح اصباح النجاح ، وآذن ليل الغفلة بالصباح ، ونادى منادى الوطلة بمنار العزلة « حي على الفلاح » وصاح كالىء صبح النجح بالسفر المعرسين « شدوا المطى فقد سال نهر النهار » ومال جرف الليل وانهار ، وانفجر عمود الفجر بنوره الوضاح فلاح ، فأفاق العبد المذكور من نوم الركون الى السكون والكرى ، وشمر للسير ذبوله ، وضمر للسبق خيوله ، اذ سمع « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

هذا نموذج من نثره الفنى ، وهو كما نرى لا يعتمد أولا الا على التلاعب بالالفاظ والقرابة الصوتية فيما بينها كما فى : « اعترف بما اقترف » « بما أضاعه لا بما أطاعه » و « كسره « مع » أسره » « اخالل كل مخل « واستظل من اطالة البطالة بكل ظل مظل » « واخالف كل صالح مصلح وأحالف كل طالح غير مفلح » « لا اثنى عنانى الى ما يعنينى « ولا أزال أعانى ما يعيينى » « صافية الورود ضافية البرود « وأوراقها « مع « أطواقها » لا أزيد الا غفلة عن القصد السوى وسهوا ، ولا اسنزيد الا اشتغالا عن المقصود السنى ولهوا و « أرادت مراداته السائقة السابقة » و « سكر السلو فسكرها « بعد « جلالها مع خلاها » ثم « وسل من سويداء قلبه » « فلاح اصباح النجاح » و « سال نهر النهار » « وانفجر عمود الفجر بنوره الوضاح فلاح و « من نوم الركون الى السكون والكرى » وشمر للسير ذيوله وضمر للسبق خيوله » .

هذا من ناحية الصياغة اللفظية أما من ناحية المعانى التى تضمنتها تلك الصور التى لا تخلو من جمال فقد وفق فيها الى حد بعيد ونسقها أحسن تنسيق . وقد عملت فيها شاعريته وخياله فتشارك فيها نظمه ونثره ، كما أشرنا الى ذلك فيما سلف .

وكان يعاصره أديب عظيم كاتب شاعر هو محمد بن عبدون بن قاسم

المكناسى ، الذى كان ضمن الذين أدركوا أواخر الموحدين وأوائل المرينيين الذين توفى بعد ولاية عاهلهم يعقوب المنصور ، بسنتين او ثلاث اعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة أو تسع وخمسين على الخلاف فى ذلك .

اذن فقد عاش هذا الاديب فى العهد المضطرب ، بالنسبة لمكناس ، خاصة ، وكان اضطرابها هذا قد جنح بها الى مبايعة الحفصيين والانسلاخ من الدولة الموحدية ، كما فعلت مثل هذا سبتة ، وطنجة والقصر الكبير وسجلماسة بالمغرب واشبيلية بالاندلس ففى هذا العصر كان قاضيها أبو المطرف أحمد بن عميرة ، يكتب بيعة اهلها لابى زكريا الحفصى ، وقد تعرضت لهجمات بنى مرين وعجز الموحدون عن الدفاع عنها ، وكان ذلك اثر وفاة الرشيد الموحدى ، حيث انه فى عهد السعيد الموحدى قامت بعد ثلاث سنوات من تلك الوفاة ثورة عارمة بمكناس ، تزعمها ابو الحسن علي من بنى العافية ، وهم من بيوتات مكناس القديمة ، ينتمون الى موسى بن أبى العافية الشهير فى عهد امتداد سلطان الفاطميين والأمويين على ساحة المغرب ، فكان شأنهم عظيما بهذه المدينة ، وقال فيهم ابن عمير :

كناس مكناسة بيض الظبا	ظباؤه محمرة عادية
وساحة الانس بها اصبحت	عافية لولا بنو العافية

ومهما يكن ففى خضم هذه الأحداث التى شهدتها مكناس ، وفى هذه الانقلابات السياسية التى جمعت بين مكناس واشبيلية كان اديبنا ابن عبدون يصدح بشعره ، ويتأنق بنثره ، ويجول ويصول بعلمه ، كما نجد له فيما وصفه به صاحب الذخيرة السنية ، اذ قال « تولى بمكناسة الفقيه الاستاذ المقرىء الكاتب البارع ، محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجى ، أديب وقته ، وشاعر عصره » .

وعلى هذا فقد تولى الأديب الكتابة السلطانية ، أخذا من الوصف بالكاتب البارع ، وكذلك من وصف ابن غازى له ، بأنه « حائز قصب السبق فى الشعر والكتابة « فالغالب انه كان كاتبا لبعض أمراء الموحدين ، وبعيد ان يتولى الكتابة لذلك الثائر الذى لم يطل عهده ، ولا لاولئك المرينيين ، الذين لم يعش فى ظلهم الممتد الى مدينته ، الا بضع سنوات قلال ، وهو شيخ على شفا القبر .

كان ابن عبدون يتردد على فاس للأخذ عن شيوخها والارتواء من معين العلم والأدب بها ، وقد جمعت بينه وبين علماء وأدباء جلة ، كان منهم مالك بن المرحل المالقى الميلاد والسبتى الاستيطان ، ففى « جنى زهر الآس فى بناء مدينة فاس » ان الاستاذ المزياتى كان جالسا تحت الثريا الكبيرة بالقرويين ، ومعه ابن عبدون الاديب ومالك بن المرحل ، ومحمد بن خلف ، فأنشد الاستاذ ارتجالا :

انظر الى ثرية نورها ‏ ‏ يصدع باللألاء سجف الغسق

فقال ابن عبدون :

كأنها فى شكلها ربوة ‏ ‏ انتظم النور بها فاتسق

ثم قال ابن المرحل :

أعيذها من شر ما يتقى ‏ ‏ وفجأة العين برب الفلق

ثم قال ابن خلف :

باهى بها الاسلام ما أشرقت ‏ ‏ كاساتها عند مغيب الشفق

وبهذا ونحوه كان ابن عبدون قابضا على ناصية النظم ، اما النثر الفنى الذى كان به كاتبا ، فسنرى بعض نماذجه بعد الفراغ من عرض نماذج — وان كانت كذلك قليلة بيدنا — من شعره .

فمنها قوله فى مدينته مكناس :

ان تفتخر فاس بما فى طيها ‏ ‏ وبأنها فى زيها حسناء
يكفيك من مكناسة ارجاؤها ‏ ‏ والاطيبان هواؤها والماء

فهذه مناظرة بين مدينتين ، سنرى بعد من يوسع نطاقها ، كما فعل ابن الخطيب الذى علق على البيتين ، بالتنويه بصاحبهما فقال ، لما ذكرهما فى كتابه « نفاضة الجراب : « لله دره » ....

وكأنى بابن عبدون على قدرة فى الوصف ، الذى قلت فيه بضاعتنا ، اذ نجده يبرع فيه بقطع عديدة ، كأن يقول فى مصباح :

تلألأ مصباحنا فاكتسى ‏ ‏ بهيم الدجا من سناه نحول

كـــأن الذبالــــــة نـــــوارة	ومن حولها الدهـن ماء يجـول
اذا رويــــت نعمــــت نـــضرة	وان ظمئـت اخـذت فى الذبـول

ويقول فى المشيـب :

لمـــا نراعت للمشيب بمفرقــــى	شهب أغرن على شبابي الأدهـم
أبدى التهجم مـــن احب امـــا درى	أن الليالــى حسنهـا بالأنجـم

ويقول فى نهر قذفت فيه مصابيح :

انظر الى النهر يحكى الافق اذ قذفت	فيه مصابيح ذادت عنه احـلاكا
جالت بــه سرج شبهتهـــا شهبـــا	عـلى قواعد قد حاكـين افلاكـا

ويقول فى نهر ايضا ، وردته عصابة طير :

امـــا تـــرى النهـــر فى انصبابـــه	كأنـــه الصـــل فى انسيابـــه
قـــد انتحتـــه ظمـــاء طـــير	مقتحمـــات عـــلى جنابـــه
تنقـــع مـــن مائـــه أوامـــا	وتلقـط الحـب مـن حبابـه

وهو وصف قد استهوى بعضهم ، بتشبيه انصباب النهر بانسيـاب الصل ، فقال فيه « انه غريب » ولكن لابدع ولا غرابة فيه فقد تقـدم ابن زنباع شاعرنا بما يربو على قرنين من الزمان ، فشبه تشبيها ادق واوفى ، اذ قال :

وتصوبـت فيها فـروع جـداول	تتصاعـد الابصـار فى تصويبهـا
تطفو وترسب فى أصول ثمارهـا	والحسن بين طفوهـا ورسوبهـا
فكأنما هـى موجسـات أسـاود	تنسـاب مـن انقابهـا للصوبهـا

فكان الابداع هنا فى المشبه الـذى هو فروع جداول ، لا النهـر فى انصبابه ، ثم ركب فيها بأن جعلها تطفو وترسب فى اصول الثمار ، وكذلك جعل المشبه به حيات موجسة خائفة ، فهى تنساب من انقابها ، فتبدو لتخفى فى مضايق الجبال والوديان ، وهى اللصاب ، فكان هذا التشبيـه التمثيلى قد استجمع شرائطه من الجمال فى صوره .

وبعد ذلك التشبيه ، نجد فى المصراع الاخير ، استعارة لابأس بها ، ولكن لابدع فيها ، بالتقاط الحب من حباب ماء النهر وقد تقدم له تشبيـه

الثريا الكبرى فى جامع القرويين ، بربوة انتظم فيها النور واتسق ، وهو جميل ، يوحى به عظم تلك الثريا وكثرة ما يوقد بها من مصابيح ، على اتساق نظيم .

ومن غزلياته هذه الأبيات :

يا جيرتى ومن استجرت بهم	من جور عزهم على ذلى
عوضتمونى بالوداد قلى	وأبدلتم الانصاف بالمطل
وشغلتم بالي بهجركم	ووباله عن كل ما شغل
ما هكذا فعل الكرام بمن	منهم تعود اجمل الفعل
علقت حبل محبتي بكم	بحياتكم لا تقطعوا حبلي
ما كان اندى ظل عيشتنا	اذ كان منتظما بكم شملي
اذ نجتني ثمر المنى ذللا	فى روض انس وارف الظل
نجلو الهموم بحث صافية	مزجت بخمر الاعين النجل
وعرى العقول متى تحل بها	احداهما آلت الى الحل
عودوا الى عادات وصلكم	لا تحرمونى لذة الوصل
حاشاكم والفضل شيمتكم	ان تعقبوا الاخصاب بالمحل
واذا ابيتم غير جوركم	فالجور منكم غاية العدل
ان شئتم قتلى فها انذا	لا تحذروا من طالبي ذحلي

ففى هذه نجد الخمر تذكر بعد ابى الربيع ، كما نجد غزلا مذكرا ، وهو نادر شاذ جدا فى الشعر المغربى ، قبل العصر العلوى وقد استغل فى قوله « نجتنى ثمر المنى ذللا » قوله تعالى : « كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا » وهو تجاوز فذللا وصف للسبل لا الثمر ومن ناحية الصنعة ، لا شىء به ، الا هذه الاستجارة من جور العز على الذل ، والبيت الأخير نظر فيه الى قول صريع الغوانى :

أديرا على الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي

والى قول ابن عبد ربه فى معارضته :

أطلاب ذحلى ليس بى غير شاذن بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلي

ولا شك انه استفاد منهما معا ، وربط شراب الراح الوارد فى الاول ،

بسحر العيون الوارد فى الثانى ، ولكنه جعله خمر الأعين بدل سحرها ، وهو لا جديد فيه ، فمن قبل بستة قرون قال ذو الرمة البدوى :

وعينـــان قـــال الله كونا فكانتـــا   فعولان بالالبـــاب ما تفعل الخمـــر

وقد لمحت « الباب » غيلان ، لشاعرنا فقال :

وعرى العقول متـــى تحل بهـــا   احداهمـــا آلـــت الـــى الحـــل

ومن اخوانيات ابن عبدون ، قوله ، مجيبا صديقا له من اشبيليـــة قال ابياتا ، جاء فيها :

يا سيدى قـــد سرت عـــن غربكم   مشرقـــا ابكـــي علـــى غربتـــي

فأجابه اديبنا :

مللـــت دنيـــاى لبـــين دنـــا   مـــن صاحـــب ملتـــه ملتـــي
فرقـــت اذ جـــدت بـــه فرقـــة   حلـــت عـــرى صبـــرى اذ حلـــت
وكنـــت انسيـــت بانســـي بـــه   نوائـــب الدهـــر التـــى جلـــت
لا احمـــد الحـــال اذا كنـــت يـــا   احمـــــد عنـــي نائـــي الحلـــة
وكيـــف يسلو عنـــه ذو روعـــــة   عليـــه اسيـــاف الهـــوى سلـــت
لا اهـــل بالبـــــين ولا مرحبـــــا   فادمعـــــي مـــن اجلـــه انهلـــت
كم شـت من شمـــل وكم ثل مـــن   عـــرش وكـــم فـــرق مـــن ثلـــة
ان غبت أو اغببـــت زورا ففـــى   طيفـــك ما يطفـــىء مـــن غلتـــى

ففى هذه الابيات نجده يركن الى التلاعب بالالفاظ ، وقلما يركن الى المعانى فى استلالها ، بعد ما ورد فى المصراع الاول من دنو البين ، وهـــو لا جديد فيه ، فكثيرا ما نسمع ازف البين ، وازمع البين ، ونحو ذلك ، أما التلاعب بالالفاظ ، ففى التفريق حين جدت الفرقة ، وحل العرى اذ حلت ، و « انسيت بانسى » و « لا احمد الحال يا احمد » و « يسلو ذو روعة عليه اسياف الهوى سلت » و « لا اهل بالبين » انهلت به الادمع و « شت مـــن شمل وثل من ثلة » و « غبت او اغببت » و « طيفك يطفىء » .

فابن عبدون ، استنادا على هذه النماذج ، كان شاعرا متأنقا ،

أكثر منه شاعرا ، شاعرا بوجدانه ، منطلقا على عواهنه ، وهى كلها بجذوة الاقتباس (1) .

هذا ما يصل بشعره ، أما نثره فلا نعرف منه الا ما ياتى .

كان ابن عبدون لسان بلديه ، ولهذا نجده يكتب الى المامون لما هاجم اهل زرهون مكناس ، رسالة يقول فيها :

فالعبيد أيدكم الله هالكون لا محالة ، وحياتهم فى حيز الاستحالة ، الا ان يتدارك الله تعالى بلطفه ، ويتلافى الجميع بجزيل عطفه ، ومعروف أن هذا القطر حماه الله قفل الغرب ، والبلاد معتمدة عليه اعتماد الحسام على الضرب ، فإغاثته واجبة ، فالعجل العجل ، قبل بلوغ الاجل ، والغياث الغياث ، قبل تمكن الفساد والاعباث ،،،

ثم وصل الرسالة بشعر فى المعنى طويل ، كما يقول ابن عذارى ، فمنـــه :

امام الهدى سمعا لدعوة شـــاك	ثـــوى بين هلاك رهـــين هـــلاك
واوشك ان يغتال مكناسة الردى	ونبكى على مـــن نحتويه بواكـــي
احاطت بها الاعداء من كل جانـــب	فقـــد قعـــدت منها بكل شـــراك
وقد زارها من اهل زرهون هونها	وبثوا لها التطليـــق بعد مـــلاك
وابنـــاء فازاز لهـــــا مستفـــــزة	فها هى تشكو كـــل أروع شـــاك

كما نجده فيما بعد يجدد بيعة أهل مكناســـة للسعيد أبى الحســـن المعتضد بالله على بن أبى العلاء المامون الموحد ، وهى هكذا :

الحمد لله مقدر الأمور ، ومصرف المقدور ، ومخرج عباده من الظلمات الى النور ، عالم السرائر ، ومنور البصائر ، ورافع الدرجات ، وواضع الخطيئات ، « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » وسع كل عاص حلمه ، وأحاط بكل شىء علمه ، ونفذ فى كل موجود حكمـــه ، لا راد لما به حكم وامر ، ولا ناقض لما أحكم وأمر ، قدر الاشياء واتقن الانشاء، واتى ملكه من شاء ، واسس بالامامة مبانى الديانة ، واوصل بها للرعايا

(1) لابـــن القاضـــى

أسباب الرعاية ، وأمد من أهله لوراثة مقامه الاسمى ، واختاره لأمانته العظمى ، بالانجاد والاعانة .

ومنها بعد تمام الدعاء والصلاة والرضى ، كما بالبيـــان (1) .

اللهم ارض خليفتك فى عبادك ، المرتسم فى ديوان اوليائك وعبادك ، الامام المؤيد ، والحسام المهند ، الاتقى الاطهر الاعلى المعتضد بالله امير المومنين ابو الحسن ابن سيدنا الخليفة الامام المامون امير المومنين ابن الخلفاء الراشدين ، رضى يبلغه امله فى الدنيا والدين ، ويحكم لدولته السعيدة ، ومدته الحميدة ، بالتمهيد والتمكين ، ويجعل كلمته الباقية الى يوم الدين ، اللهم كما انتقيته من اكرم جرثومة ، وسددته لاقامة حدود الله المرسومة ، فضاعف اللهم فى قلوب رعاياه حبه ، وايد بالملائكة والروح عصابته وحزبه ،،،

ومنها ايضا :

ومن شكرت فى الخدمة آثاره ، فحقيق أن تغفر زلته وتمحى آثاره ، وان العبيد من اهل مكناسة قد اجتمعوا ووقفوا موقف الاستكانة والمذلة ، وقرعوا سن الندم عما صدر عنهم من زلة ، واستشعروا لباس الانابة ، وبادروا لهذه الدولة المعتضدية بالاجابة ، واتفقوا جميعا على ان جددوا بيعتهم لسيدنا ومولانا الخليفة الامام المعتضد بالله امير المومنين ، أبــى الحسن ابن الايمة الراشدين ، اعلى الله يده ، ونصره وايده ، حسبمــــا تقدم مستوعبه الشروط ، مستوفاة العقود والربوط ، لم يستثنوا فيهـــا فصلا ، ولا اغفلوا من عقودها فرعا ولا أصلا ، بنفوس مغتبطة ، ونيات على الوفاء بما التزموه من عقودها مرتبطة ، واشهدوا الله وملائكته على انفسهم بذلك وهم به عالمون ، « ومن يتعد حـــدود الله فأولئـــك هـــم الظالمون » وقيدوا عليه شهادتهم فى تاسع عشر شهر ذى الحجة من عام ثلاثة واربعين وست مائـــة .

فهذه نماذج من ادب ابن عبدون شعرية ونثرية فائقة بليغة .

وقد انتهيا فيما مضى من تصوير الادب العربى عندنا ، وما تسلط عليه

---

(1) لابـــن عـــذارى .

من تلك التيارات الاجتماعية والفكرية والسياسية (1) فجعله كل ذلك يجنح الى نوع من الخواطر المستسلمة ، التى اتسمت بطابع الزهد ثم التصوف ، وكان لهذا انعكاس تجلى فى الامداح النبوية والتوسلات بالمقام الشريف .

والحق أن هذا لم يكن وليدا لتلك الهزات العنيفة ، التى اضطرب لها المغرب ، على أوائل القرن السابع بل اننا وجدنا فى القرن السادس نفسه ، علائم للتصوف ، كانت مستوردة من الأندلس ، التى كانت قد انتهت الى ما انتهى اليه المغرب فى القرن السابع ، مع اختلاف فى طبيعة هذا الانتهاء ، فالقاضى عياض ، يصح أن يعد من المتصوفة ، وقد كان شيخه فى ذلك ابن

---

(1) واهمها هذه الانقلابات المحزنة كانت أفتك من تلك الانقلابات التى ثلت عرش المرابطين : لان هؤلاء ما انهاروا حتى كانت دولة الموحدين تسيطر على الموقف وسرعان ماأقامت دولة أحرى أقوى نفوذا وأشمل عظمة. اما مصيرها فكان محزنا؛الاندلس استنسر بغاثها ثم صار ملوك الطوائف بها أضعف مما كانوا عليه أيام المرابطين الذين لموا شمل البلاد متحدين . ولم تستطع دولة المرينيين أن تضم اليها بتواطئها مع بنى الاحمر الا جبل طارق والرندة والجزيرة الخضراء فى بعض الاحيان ، هذا ما انتهى اليه الاندلس الذى كان أيام الرشيد وهو عاشرهم تتمزق أشلاؤه فكان الاسبان يحتلون مدنا عظيمة بشرق الاندلس ، فهاجر منها مهاجرون كثيرون الى المغرب ، من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وغيرها ، وطلبوا من الرشيد أن يمنحهم مكانا خاصا بهم ، على عادة الاندلسيين معين لهم مدينة « الرباط » ليعمروها ، وكتب لهم بذلك ظهيرا ، من انشاء كاتبه أبى المطرف ابن عميرة ، جاء فيه : هدا ظهير كريم للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ، ، ومن حرى من سائر بلاد الشرق مجراهم ،،،، حين أنهى ذو الوزارتين ،،،، أبو على ابن ،،، خلاص (كان آنذاك على سبتة) ما أصابهم من الجلاء ،،،، ويلتمس لهم مكانا للقرار ،،،، وعند ذلك أذن لهم ، اعلى الله تعالى اذنه ،،،،، فى النقلة الى رباط الفتح ،،،، وان يتخذوا مساكنه وارضه بدلا من مساكنهم وارضهم ،،،،، وان يتوسعوا فى الحرث ،،،، على عادتهم ببلادهم كتب فى الحادى والعشرين لشعبان المكرم من سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وبهذا نرى أن هجرة أندلسية قوية ، كان لها خطرها فى عمارة مدينة ، كما كان لها لا محالة أثرها فى الحركة الادبية ، بعد ما كان من ابرز رجالها ، أبو على ابن حلاص وابن عميرة ، وان كان هذا الحو المضطرم بالفتنة ، جعل هذين الرجلين يضطربان ولا يستقران على حال ، وسرعان ما نجدهما يميلان الى الحفصيين ، ويكتب أحدهما وثيقة بيعة المكناسيين لهم ويبعث الآخر ببيعة السبتيين اليهم ثم توجه الاسبان الى الغرب فاحتلوا اشبيلية التى هاجر منها الى سبتة ابن أبى الربيع استاذ ابن رشيد الدى تحدث عنه فى رحلته (توفى عام 688) فقال وهو فى حلقة ابن النحاس بمسجد مصر الأعظم وقد سأله الشيخ . من أين قدومك ؟ قال ، قلت من المغرب ، قال من الاسكندرية قلت من ابعد ، قال ، أمن تونس ؟ قلت من ابعد ، فقال ، اذن « حوى » المغرب ، قلت نعم ، فقال ، من أى بلاده ؟ فقلت من سبتة ، فكان أول ما ماتحنى به ان قال ، ايعيش سيدنا أبو الحسين ابن ابى الربيع ؟ قلت نعم ، فقال ، ذاك شيخنا ، افادة بوصول كتابه اليتيم ، يريد شرحه لكتاب ايضاح الفارسى ،، ثم قال لى ، اقرأت عليه ؟ قلت نعم ،،، الجمل والايضاح والكتاب ، فلما ذكرت الكتاب ، قال : فاعبر الى آخر القصة التى وقعت له يوم الاحد 7 رجب 684 .

السيد البطليوسي، كما سلف، كان يسترفد من الصوفي الالمري ابن العريف ومع هذا فاننا ان قسناه بزهاد أوائل القرن السابع ومتصوفاتها ، كان هذا منا قياسا مع وجود الفارق ، فعياض لم يتخل عن الدنيا ، وهو القاضي الذي يمارس شئون الناس ، ويتزعمهم ويثور على الدولة بهم وان كانت لــه قصائد في الامداح النبوية ، فانها كانت منبثقة عن كتابه الشفا ، مستاقــة من السيرة النبوية الصحيحة ، التي تختلف جدا عما جاء في امداح ميمون الخطابي ، فتصوفه ما كان عبارة عن تجرد الانسان وانقطاعه عن عالم الكائنات ، انقطاعا كليا الى الله .

كلا فلم يكن منه ولا من غيره ، هذا الجانب السلبي ، الذي طفح في الشرق بشطحات المتصوفة ، لدرجة ان صار اصحابه لا يفهمون ولا يفهمون ، فصاروا ضحايا الظاهر ، وحقت عقوبة الموت على بعضهم ، كالحلاج ، لقد كان تصوفا رشيدا واعيا ممتثلا لأوامر الله ، متجنبا لنواهيه ، في أحرج الاوقات واعوص الظروف .

لقد وجدنا ــ غير الامداح والتوسلات ــ للقاضي عياض ، خطبة ، يحض فيها الناس على التوكل المطلق والالتجاء الى الله والاتكال عليه في كل الأمور ، ولكن هذا ان كان منطلقا للصوفي ، فالامتداد فيه لا ينتهي عند الانتهاء الصوفي ، انه معنى المسلم الحق ، الذي يسلم نفسه لله ، الذي وعده فقال : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا » والذي قال : « بلى من اسلم وجهه لله وهو محســن فله اجره عند ربه » فهذا الاستسلام ، كــان مبعثا للايجابية في المسلــم ، لا العكس « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانــا وعلى اللـــه فليتوكل المومنــون » .

فلو جعلنا هذا النوع من التوكل تصوفا ، لقلنا ان كل مسلم متصوف ، ولهذا لا نستغرب ان يكون من أبطال الحروب متصوفة المغرب ، الذيــن فهموا التصوف بهذا المعنى الايجابي ، كابن الصبر ايوب السبتي ، الــذي استشهد في موقعة العقاب .

أما التصوف السلبي الذي نعنيه في القرن السابع ، فهو الــذي تمثله وثيقة الشاعر الخطابي ، الذي تقدم ذكره ، وشعره في مدح الرسول ،

فهو تصوف بمعنى الاستغراق والتجرد المطلق والفناء في الذات القدسية ، فناء لا حراك به ، الا أن يكون التعبد والتهجد .

ولقد تخطت الامداح النبوية ، مرحلة اخرى فاتصلت بالنعال ومدحها والتوسل بها ، وشاعت شيوعا خلقت أدبا نسميه أدب النعال وقد كان هذا الادب مجلوبا الينا من الاندلس كذلك ، كما جلب منه الزهد والتصوف ، فقد اشتهر في الاندلس به ، أبو الربيع الكلاعي المتوفى أوائل القرن السابع ، وهو صاحب « الاكتفا في سيرة المصطفى » كأنه حذا به كتاب الشفا ، ولكنه زاد فيه هذا العنصر الجديد ، ثم قلده ابن فرج السبتي ، فنظم على حروف المعجم منظومات التزم فيها لزوم ما لا يلزم ، كما فعل المعري، ولكن منظوماته كانت « القطع المخمسة في مدح النعال المقدسة » الى أن بلغ الاوج بمالك بن المرحل (1) .

فمدح النعال المقدسة ظهر في المغرب بسبتة ، بعد ما كان قد ظهر في الاندلس بقرطبة ، على يد ابن القطاع منها في القرن الخامس ، فلعل هذا كان منبعثا ، عما شاهده هذا الناظم فيها ، من مسيحيي الاسبان في الاحتفال بالمنديق الذى اعتقدوا فيه صورة المسيح ، قد انطبعت عليه ، لما مسح به وجهه ، ولا عجب في هذا فسنرى العزفي يتأثر بهذا الصنيع ، ويؤلف كتابه الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، كما سياتي في موضعه بعد ، وعند منتصف هذا القرن بالذات .

واذا كانت سبتة بطبيعتها من الرباط ، صاحبة الفضل الاول ، بالمغرب ، في تناول الجناب النبوى ، بالكتابة في السيرة ، ثم بالنظم في الامداح النبوية ثم النعال ، فانها ستستمر في هذا الطريق الشريف ، بامداح مالك ابن المرحل ، المالقي المولد والسبتي الموطن ، يصاحبه العزفي السبتي بمولدياته التي سنذكرها .

لقد ولد مالك ابن المرحل عام اربعة وستمائة ، وتوفى عام تسع وتسعين وستمائة ، فهو خير من يمثل المرحلة الادبية التي كانت قد انتهت بوفاة ميمون الخطابي سنة سبع وثلاثين وستمائة .

---

(1) نعم يعتبر مالك بن المرحل من العصر المريني ، وان كان قد عاش أواخر العصر الموحدى ونحن نعده من هذا العصر الاخير لا محالة .

كان ابن المرحل ، يفوق الخطابى ، بأدبه وعلمه الواسع ، مؤلفا فى العلوم وناظما فيها ، منظومات يربو بعضها على الالف بيت مشاركا فى شتى العلوم ، كما كان متناولا بشعره شتى الاغراض ، وفيها الهجاء ، الذى عرف بين الاشخاص فى المغرب لاول مرة بسبب ما كان بينه وبين ابن ابى على ابن رشيق المرسى نزيل سبتة كما كانت مشادة نحوية مع ابن ابى الربيع الاشبيلى نزيلها أيضا وعالمها النحوى فى العصر الذى كان ابن مالك الجيانى بالمشرق نحويه كذلك .

والذى يهمنا من ابن المرحل ، اشعاره فى الامداح ، وعلى راسها « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها فى الدنيا والاخرى » وهى التى رتبها على حروف المعجم ، والتزم افتتاح أبيانها كلها ، بحروف الروى ، على ان يحمل كل حرف منها عشرين بيتا .

وله منظومات اخرى ، وهى المعشرات النبوية ، التى يضم كل حرف منها — بعده حرفان زيادة على النمط السابق — عشرة أبيات الى جانب الامداح النبوية فله العشريات الزهدية ، على نمط ما تقدم أولا ، وله اخرى عشرونية فى الموضوع ، على نفس النمط الاول كذلك .

فمن الوسيلة الكبرى قوله ، فى حرف الهمزة :

الى المصطفى اهديت غر ثنائي ... فياطيب اهدائي وحسن هدائي
ازاهير روض نجتنى لعطارة ... واسلاك در تصطفى لصفاء
اكاليل من مدح النبي محمد ... بها حازت الآداب كل بهاء
اضفت الى ميلاده غزواته ... وما عن لي من آية وإيماء
اردت رضى ربى بها فهو ارتجى ... وربى كريم لا يضيع رجائى
احق البرايا بالثناء مضاعفا ... نبي له فى الوحي كل ثناء
امام هدى صلى النبيون خلفه ... وصلى عليه اهل كل سماء
امين على الوحي الكريم وانما ... هو السر لم يودع سوى الأمناء
اضاءت به الدنيا فمن وجهه سرى ... الى الشمس والاقمار كل ضياء
اسرته تهدى السرور وكفه ... تكف من الاعداء كل عداء
اتانا بقرآن كريم مفصل ... جلا صدا الاذهان اى جلاء

امـــان يعـــم المومنـــين ومنـــــة	وحظ جسيـــم من سنـــى وسنــــاء
ايا عتقـــاء المصطفـــى ان حقـــه	عظيـــم فكونـــوا اكـــرم العتقـــاء
اما كنتم مـــن قبلـــه فى شقـــاوة	فلولاه هـــل كنتم مـــن السعداء ؟
اترجـــون فى يـــوم القيامة غيـــره	اذا قيل هل للناس من شفعاء ؟
الم تعلموا عذر النبيـــين فى غـــد	وقولهـــم لسنـــا مـــن الاثـــــراء
اليه يشيـــر ابن البتـــول اذا راى	ضجيـــج الورى فى حيرة وعنــــاء

فهذا مدح اشبه بأن يكون من المولديات التى تلقى على عامة الناس ، فالطابع الخطابى فيها اقوى من الطابع الشعرى ، خصوصا فى اواخرها . وجمالها الفنى ، لا يعدو أن يكون فى هذه الجناسات ، مع التشبيهات التى اكل عليها الدهر وشرب ، فمن التحلى بالحلية اللفظية « اهدائى وهدائى » و « تصطفـــى لصفـــاء » و « آية وايائى » و « أسرتـــه والســـرور » و « كفـــه تكـــف » و « الاعـــداء وعـــداء » و « سنـــى وسنـــــاء »

وهذا الاخير وجدناه عند معاصره البوصيرى فى همزيته بالبيت :

لم يساروك فى عـــلاك وقد حـــا	ل سنـــى منـــك دونهم وسنـــاء

ومن التشبيهـــات :

ازاهيـــر روض تجتنـــى لعطـــارة	واســـلاك در تصطفـــى لصفـــاء
اضاءت به الدنيا فمن وجهه سرى	الى الشمس والاقمار كل ضيـــاء

وان كان هذا الأخير يدعيه المتصوفة الحقيقة المجردة ، التى لا تقترن بتشبيه ولا استعارة فيه .

وبعد هذا تبقى القصيدة كأنها نظم ، يقول فيه صاحبه :

اضفـــت الى ميـــلاده غـــزواتـــه	ومـــا عن لـــي من آيـــة وايـــاء
أردت رضى ربي بها فهو أرتجـــى	وربـــي كريم لا يضيـــع رجائـــي

واخيرا يتوجه الى السامعين بقوله :

ايا عتقـــاء المصطفـــى ان حقـــه	عظيـــم فكونوا اكـــرم العتقـــــاء

ويستمر فى الأبيات الاربعة الباقية ، يخاطبهم بذلك الخطاب الذى اشرنا اليه .

هذا من ناحية التناول ، أما من ناحية المحتوى ، فهى لا تخرج عن شمائل النبى ، والتذكير ، بما ورد فى القرآن عنه ، فى نحو « وانك لعلى خلق عظيم » وهو الذى يعنيه بقوله « نبى له فى الوحى كل ثناء » وهذا هو ما سيعنيه بعد ابن الخطيب فى قوله :

ايـروم مخلـوق ثناءك بعد مـا اثنـى عـلى أخلاقـك الخـلاق

ومن معشراته قوله فى نفس الحرف :

امالـي الـى قبر النبـي مبلـغ ثناء فقـد أفنـى الزمان ذمائـي
امانة مشتاق حمى الدمع جفنـه فما طاف طيف النوم خوف جمائي
امانـي كانـت لـي زيارة قبـره وأرضى روض يانـع وسمائـي
أمال قناتـي بعد حسن اعتدالهـا زمان أرانـي النقص بعد نمائـي
امـات قـوى الاعضاء الا اقلهـا واعطش روضي حين أنضب مائـي
أمارى مشيبي فى سني وقد رمـى فؤادى عـلى نوسى فكيف رمائـي
امامي الروى لو أبلغتني ناقتـى فلم تبقنـي ظمـآن بـين ظمـاء
امـام جميـع المسلمـين محمـد واكـرم مبعـوث من الكرمـاء
امان الورى مما يخافون حبـه فيا حب شعشـع أدمعي بدمـاء
اماه الاسى عينى وسعر اضلعـي فخـذ بيـدى ياراحـم الرحمـاء

فهذه الأبيات ، كغيرها من فيئتها ، بلغت الغاية فى تصنعها ، فكل بيت منها ، يبتدى بحرفين ، وينتهى بهما ، على غير الترتيب الاول وبينهما الألف ، وبذلك تكون البداية بثلاثة أحرف ، تكون بها النهاية كما قلنا فيها ، ففى البيت الاول مثلا بدايته « أما » ونهاينه « مائى » .

والابيات ، من حيث المضمون ، فيها تشوق الى قبر النبى ، وفيها ذكر الهرم الذى ادركه ، على اشتياقه للمقام النبوى الشريف ، واخيرا يذكر النبى بالصفات التى تقدمت ضمن ما ذكر فى الابيات قبلها ، وهى فى فنها على كل حال أجمل من سابقتها ، ولاشك أن هذه صدرت عن الشاعـر بعد ان قطع اشواطا فى مدحه عليه السلام ، وهذه المعشرات عرف بهـا ابن الغماد ، المتوفى عام سبعة وعشرين وستمائه ، بعد الكلاعى بثلاث سنوات ، مما يظهرنا على أن الأندلس ، كانت نصطخب بهذه الالوان مـن الأمداح ، سواء منها ما اتجه الى النبى مباشرة وما كان الى النعـال

ومن العشرينية ، قوله فى حرف الباء ، الذى تبتدى وتنتهى به الابيات :

بـأى لسـان أم بـأى طبيـب ... يداوى عذار من بيـاض مشيـب
بياض كما لاحـت كواكـب سحرة ... تريـك طلوعـا موذنـا بغـروب
بشيرا نذيرا لاح كالفجر صادقـا ... على كاذب حلـو اللسان خلـوب
بني ابك لي ان البكا يبعث البكـا ... وليس جوابي منـك غير وجيـب
بحـارا ركبناهـا بغيـر سفائـن ... غرورا فـان نهلك فغيـر عجيـب
برتنـي يومـا آيـة فى بـراءة ... فان ضحكت سني فضحـك مريب
بنيت لها قلبي على كرة الأسـى ... فلـم تتغيـر لاختـلاف خطـوب
بكى صاحبي حتى اذا مال فى الترى ... وسالـت مآقيـه كمثل غـروب
بسطـت لـه كفي وقبلـت كفـه ... وقلـت له هـذا مقـام كئيـب
بحقك لا تبـرح اطارحك لوعتـى ... عـلى نغـم من انـة ونحيـب

فهذه أبيات كذلك على مستوى من الجمال الذى لمحناه فى الابيـات التى قبلها ، وفيها اقتباس من امرئ القيـس والخنسـاء وغيرهـا

ومن قوله فى النعال :

ومما دعانـي والدواعـي كثيـرة ... الى الشوق أن الشوق مما اكاتمه
مثال لنعلي مـن أحب حذيتـه ... فها انا فى ليلـي ويومى لاثمـه
اجر على راسى ووجهى اديمـه ... والثمـه طـورا وطـورا الازمـه

وهكذا يستمر فى هذه القصيدة وغيرها مبجلا للنعال النبوية ، مفرقا فى اكبارها ، كمـا فعل ابن فـرج السبتى وغيـره ، فيما بعد عندنـا فاذا قلنا ان القرن السابع عصر الامداح النبوية والنعال الشريفة والمولديات، فان هذا صادق الى اقصى ما يكون الصدق وقد تحقق هذا لأول الامر بمدينة سبتة ، التى كانت على اتصال وثيق بالاندلس ، كما نقدم فكان حامل الأمداح النبوية فيها شاعرنا مالك ابن المرحل ، الذى اتينا بنماذج مختلفة مـن أمداحه تلك ، وكان يعاصره الفقيه أبو العباس أحمد العزفى الذى الف فى المولد النبوى كتابه « الدر المنظم فى مولد النبى المعظم » .

ولم يكن هذا التوجه الى الجنـاب النبوى الكريم ، قاصرا عـلى الشعب ، بل وجدنا حتى الخليفة الموحدى المرتضى عمر بن أبى ابراهيم بن

يوسف بن عبد المومن ، قد تزهد وتصوف ، وصار ينظم فى الموالد ، فيقول :

وافى ربيع قد تعطر نفحه ... اذكى من المسك العتيق نسيما
بولادة المختار احمد قد بدا ... يزهو به فخرا وحاز عظيما
بشرى بشهر فيه مولده الذى ... ملأ الزمان علاؤه تعظيما
ضاءت به شرق البلاد وغربها ... وتألقت ارجاؤها تنعيما
فاعتز أمر الله يوم طلوعه ... وغدا به دين الاله قويما
فاعرف لهذا الشهر حقا قدره ... فلقد غدا بين الشهور كريما
شهر كريم جاء فيه محمد ... صلوا عليه وسلموا تسليما

وله شعر فى الزهد وفى رثاء نفسه والتهوين من خلافته ، نجده بالبيان المعرب .

نعود الى مالك بن المرحل ، فنجده ، وقد تكالب النصارى على المسلمين بالاندلس ، ينظم قصيدة ، يستنفر فيها المجاهدين المغاربة .

استنصر الدين بكم فاستقدموا ... فانكم ان تسلموه يسلم
لا تسلموا الاسلام يا اخواننا ... واسرجوا لنصره والجموا
لاذت بكم اندلس ناشدة ... برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها انه ... لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ما هى الا قطعة من ارضكم ... واهلها منكم وانتم منهم
لكنها حدت بكل كافر ... فالبحر من حدودها والعجم
لهفا على اندلس من جنة ... دارت بها من العدا جهنم
استخلص الكفار منها مدنا ... لكل ذى دين عليها ندم
قرطبة هى التى تبكى لها ... مكة حزنا والصفا وزمزم
وحمص وهى اخت بغداد وما ... ايامها الا الصبا والحلم
استخلصوها موضعا فموضعا ... واقتدروا واحتكموا وانتقموا
وقتلوا ومثلوا واسروا ... واحتملوا وايتموا وايموا
أيام كان الخوف من اعوانهم ... والجوع والفتنة وهى اعظم
حتى اذا لم يبق من حيانها ... الاذماء تدعيه الذمم
دعوا العهود واعدوا وما دروا ... بانها بحبلكم تعتصم
ظنوا وكان الظن منهم كاذبا ... ان ليس لله جنود تقدم

ما صدقوا ان وراء البحر من … يغضب للاسلام حين يظلم
ولا دروا ان لديكم حرمة … يحفظها شبابكم والهرم
لو عرفوا قبائل العدوة ما … عدوا على جيرانهم واجترموا
اليوم يدرى كل شيطان بها … ان قد رمتهم بالشعاع الانجم
تقدمت نحوهم طليعة … من نحوكم احظاهم التقدم
فانتصفوا للدين من اعدائه … واقترعوا عليهم واقتسموا
وامتلأت ايديهم من السبا … واحبستهم نعم ونعم
يا أهل هذى الارض ما اخركم … عنهم وانتم فى الامور احزم
تسابق الناس الى مواطن … الأجر فيها وافر والمغنم
تعزز الكفار فى ديارهم … وعزموا ان يهزموا فهزموا
فمن سيوف فى رؤوس تنحنى … ومن رماح فى ذرى تحطم
وقامت الحرب على ساق فما … زلت لاهل الصدق منهم قدم
باعوا من الله الكريم انفسا … كريمة ففاض منها الحكم
اخرجه من بيته ايمانه … وحبه فى فعل ما يقدم
ما همه الا قتال امة … يكبر عيسى قولهم ومريم
تشرك بالله وتدعو معه … خلقا يصح جسمه ويسقم
وتدعى ان له صاحبة … وابنا ولا صاحبة ولا ابنم
لم يثنه عن عزمه اهل ولا … مال ولا خوف نعيم يعدم
كيف وعدن تحت ظل سيفه … والحور عن يمينه تسلم
والله راض عنه والخلق له … يدعون مهما كبروا واحرموا
اخواننا ماذا القعود بعدهم … افى ضمان الله ما يتهم
هل هى الا جنة مضمونة … او عودة صاحبها مكرم
خذوا السلاح وانفروا وسارعوا … الى الذى من ربكم وعدتم
ان امام البحر من اخوانكم … خلقا لهم تلفت اليكم
ونحوكم أعينهم ناظرة … لا تطعم النوم وكيف تطعم
والروم قد همت بهم وما لهم … سواكم ردء فأين الهمم
كلهم ينظر فى اطفاله … ودمعه من الحذار يسجم
أين المفر لا مفر انما … هو الغياث أو اسار أو دم
يا رب وفقنا والهمنا لما … فيه لنا الخير فانت الملهم
يا رب اصلح حالنا وبالنا … انت بما فيه الصلاح اعلم

يا ربنا مـــا داؤنا شيء ســـــوى ذنوبنـــا فارحـــم فأنـــــت ترحـــم

فهذه أول قصيدة نراها تتوجه الى مخاطبة الشعب وابتنفاره عـــلى أعداء الاسلام ، وهي في أسلوبها نراها تنزل عن مستوى الأسلوب الذى عرف لمالك بن المرحل ، لانها قصيدة نظمت للشعب فهو كلام موجه الــى العامة واشباه العامة ، من المجاهدين الذين يحملون السلاح ولا يحملون الاقلام ، وقد ما قال البلاغيون ، عند تعريفهم للبلاغة « هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال » ومن مقضيات الحال مراعـــاة المخاطبين ، ولهذا قالـــوا « خاطب الناس على قدر ما يفهمون » فالحكم على الأديب بما لـــه مـــن انتاج ، لابد ان يدخل في الحساب والتقدير ، ملابسات عديدة ، فيها الزمان والمكان والافراد او الجماعات ، الذين لهم اتصال بذلك الانتاج ، من قريـــب او بعيد ، زيادة على أحوال الأديب نفسه ، وما كان يعتوره عند انتاجه ذاك من عوامل نفسية واجتماعية وغيرها ، قد تكون قاسية عليـــه ، أو منتعشة له ، خانقة له او منطلقة به في الفضاء .

ففى هذه القصيدة ، يذكر المجاهدة المغاربة ، بكون الدين يستنصرهم من وراء البحار ، فلا يجمل بهم ان يسلموه الى اعدائه يذكرهم بالاخـــوة الاسلامية ، التى تلزمهم ان يهرعوا للدفاع عنها ، وشد ازرها ، في الاندلس التى لاذت بهم تناشدهم برحم الدين فعليهم أن يرحموا من يسترحمهم ، لان الرحمن لا يرحم من لا يرحم ، كما في الاثر « الراحمون يرحمهم الرحمن » فأخذ الشاعر بالمفهوم ، كما أخذ به محمـــد ابن الهبارية في « الصـــــادح والباغم » اذ قال :

وقـــد علمـــت واللبيـــب يعلـــم بالطبـــع لا يرحـــم مـــن لا يرحـــم

ويركز الشاعر على هذه االاخوة المشترك ، بأننا منهم وهم منـــــا وارضهم ما هى الا قطعة من ارضنا ، لكن الكفار احدقوا بها ، والبحر مـــن ورائها ، فوالهفة على الاندلس من جنة أحاطت بها جهنم ، واستخلص الكفر منها مدنا يعض المسلم عليها الانامل ندما ، فهذه قرطبة تبكى لمحنتها مكة والصفا وزمزم ، وهذه اشبيلية اخت بغداد ، قد سقطت تحت اقـــــدام النصارى ، فانتهبوها وقتلوا اهلها ومثلوا بهم ، وأينموا الأطفال وأيمـــوا النساء ، قد اعانهم على هذا الخوف والفتنة والمجاعة ، فاستنزفهم ذلك ،

وعندئذ لوح لهم العدو بالعهود فوثقوا بها ، ولكنه سرعان ما خانها وفتك بهم فتكته الكبرى ، كأن العدو ما علم أن وراء البحار رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، يغضبون لهم ويقتحمون البحار والاخطار لنصرتهم ، وقد حفظ شبابهم حرمة الجوار فى هذه العدوة ، التى لو حسب الاعداء حسابها لما عدوا عليهم لقد آن اليوم الذى تقذف فيه الشياطين بالشهب ، التى تتقدم بها طلائع الرحمن فى أولئك الرجال ، الذين ينتصفون من أعداء الحق فتمتلىء أيديهم بالسبايا والغنائم ، فيا أهل العدوة ، ما أخركم عن نصرتهم وقتال أعدائهم وانتم أحزم فى الامور ، فقد تسابق من قبلكم الى مواطن الجهاد الذى يتضاعف فيه الاجر والمغنم ، وقد تعزز الكفار فى ديارهم وعزموا أن يهزموا ، ولكنهم كأن قد هزموا ، وقطفت رؤسهم سيوف الابطال وقصعتهم رماحها ، وقامت الحرب على سوقها ، وثبتت اقدام المجاهدين ، لانهم باعوا الله أنفسهم واموالهم ، لما دعاهم الى رحمته ، فكان حيهم يقدم المجاهد بين يديه ، فيضرب بسيفه ليرضى ربه ، أما ميتهم ، فهم فى رضوان من الله ورحمته ، وقد ازدحموا ببابه ، بعد ما خرج من بيته بدافع الايمان ، ورغبته فى تقديم ما يجد عند الله جزاءه الأجر والثواب ، وهكذا نجد هذه القصيدة الخطابية تستحث الناس وتحضهم بخلاف القصيدة التى أجاب بها ابن الأحمر عن يعقوب ، المرينى ، فهى فى فنها الراقى ، لا نسبة لها بتلك ، يقول فيها :

شهد الاله وانت يا أرض اشهدى	انا أجبنا صرخة المستنجد
لما دعا الداعى وردد معلنا	قمنا لنصرته ولم نتردد
نسرى له باسنة قد جردت	من غضبها والصبح لم يتجرد
لولا الاسنة والسنابك ما درى	احد بسير خيولنا فى الفرقد
والخيل تشكونا ولا ذنب سوى	أنا نروح بها وأنا نغتدى
لو انها علمت بنا فى قصدنا	كانت تطير بنا ولم تتردد
الله يعلم اننا لم نعتقد	الا الجهاد ونصر دين محمد
ثم اعترضنا البحر وهو كانه	ملك تقدم فى الجيوش لمرصد
فترامت الخيل العطاش لورده	هيهات ما الماء الأجاج بمورد
يا خيل ان وراءنا ماء روى	ومشارب ومزارع لم تحصد
واحبة بين الفواقد اصبحوا	يتوقعون الموت ان لم ننجد

من مطلق العبرات الا انه — تجرى دموع جفونه لمقيد

ومفجع لا يستلذ بمطعم — ومروع لا يستقر بمرقد

اخواننا فى ديننا ووداننا — ولهم مزيد تحبب وتودد

نسرى بأجنحة البزاة الى العدا — مثل الحمام الحائمات الورد

واستقبلت بحر الزقاق بعصبة — نفذت عزائمها ولم تتعدد

فاستبشروا فى أفقهم بطلوعنا — كالشمس يوم طلوعها للأسعد

حتى بغتنا القوم فى أوطانهم — ان الحوادث لا تجىء بموعد

ثم التقينا بالذين استصرخوا — منا بكل مؤيد ومسدد

حتى اذا جئنا وجاءوا نحونا — ودنا المزاز وقيل للبعد ابعد

ازور جانبهم واشهد بعد ما — بسطوا لنا الآمال بسط ممهد

أو ما رأونا قد تركنا أرضنا — ولنا بها ملك رصين المحتد

وأطاعنا قوم كثير أسرعوا — فمزود منهم وغير مزود

أترون ان عادوا الى اوطانهم — يبقى لكم فى الارض موضع مسجد

ام تحسبون بوارقا نشأت لكم — لمثالنا فى جوكم لم تعهد

برماحكم نفحت وعنها أمطرت — بل كان ذا منا وان لم نشهد

انا أردنا أن رغبنا قومنا — فيكم فيرجع من مضى بتزيد

حتى ترون بلادكم معمورة — ويكون يومكم يقصر عن غد

فاليوم قد اوحشتمونا وحشة — ان لم تمد حبالها فكأن قد

يا ليت شعرى ما بدا منا لكم — حتى ابتديتم بالمكان الابعد

تالله لولا ودنا فيكم وما — ادراك من ود قديم متلد

ومخافنا أن يستطيل عدوكم — ويصول بعد تذلل وتعبد

لخرجت من هذا البلاد بمن معى — وتركتها لكم ولم أتعهد

أو ما علمتم اننا ايد لكم — دون العدا والله خير مؤيد

لولا رجال من مرين رفعوا — منكم لكنتم بالحضيض الأوهد

الى آخر القصيدة التى تفوق سابقتها كثيرا ، لأن هذه صادرة بلسان ملك ، فى خدمته شاعرنا ، وتلك كانت تلقى على الشعب فى جامع القرويين ، فتتأثر لها المستمعون وببكون ، ويهرع منهم للتطوع فى صفوف المجاهدين ، على اثر سماعها .

ولابن المرحل اغراض عديدة طرقها فى شعره ، فالى مدح النبى

مدح المرينيين ، الذين كان احد كتابهم ، كما هجا ، والغز ونسب ووصف وافتخر ، وخاطب الاخوان ، بنحو ما خاطبهم عياض فيما سلف ، وكان الشعر يسلس له فى كل ما يريد ، فنظمه للعلوم ، نجده مشرقا ، على غير ما نجد عليه عند الناظمين فيها ، بل اننا نجده يعقد صداقا بشعره بذلك الاشراق ، كأن يقول فيه :

وبعد هـذا الذى قدمت من كلم ... ارجو به النجح فى ورد وفى صدر
فان عالمنا الاهدا وفاضلنا الـ ... ـأتقى ووالينا الموعود بالظفر

(وبعد ثمانية أبيات من الاشادة بالاوصاف الحميدة يقول)

لما رأى نجله الندب السرى ابا الـ ... ـوفاء بلغ ما يبغيه من وطر
قد نال رتبة آباء له كرموا ... فى عنفوان الشباب الناضر الخضر

(وبعد بيتين يقول) :

دعاه دعوة من يرجو المزيد له ... وان يراه من الآبناء فى نفر
الى الألى حفظوا أحسابهم وحموا ... منه العلا من بطاح طيب الأزر
فقال أمرك يا مولاى املك لى ... فالعبد فى كبر كالعبد فى صغر

(وبعد بيت يقول) :

فاختار صهرا كريما واستخار له ... مولى متى يستخره عبده يخر
فى خطبة خطبت فيها السعود على ... منابر العز فى حفل وفى حضر

(وبعد ستة أبيات يقول) :

كريمة من بنى حجاج اصطفيت ... منهم كما تصطفى الاعلاق من درر

(وبعد بيتين) :

فأحمد الله بالوفيق بينهما ... عقد النكاح فأضحى موثق المرر
على الكتاب الذى بالحق أنزله ... الاهنا وبتيسير لمدكر

(وبعد بيتين كذلك) :

على صداق دنانير وجملتها ... من المائين ثلاث صرفها عشر
النقد من ذاك ثلثاه وقد برئت ... من ذاك ذمته بالدفع فهو برى

الى ثلاث امـــاء فاثنتان مـــن الــ	ســوادان من وسط العالى من الصور
تتلوهما من بنات الـــروم واحدة	ليست الى صغر تعـــزى ولا كبـــر
وصار ذلك فى قبض المصونة ام الــ	ــزوجة الحرة المرضيـــة السيـــر
بنت الكرام التى عـــزت بمنصبها	فى آل خلدون عـــزا خالد الاثـــر

(وبعد ثلاثة ابيات يقول) :

وذاك عن اذن قاضينا الاجل ابى	عبيد الله اخـــى فهر بنـــى النضر

(وبعد بيتين يقول عن العروس) :

وان تكـــون لديـــه بالامانة والمـــأ	خوذ عهدا على الازواج فى السيـــر
وذاك معـــروف امساك لمسكتـــه	مـــرت والا فتسريـــح بلا غيـــر
وحسن صحبتها حـــق عليه لمـــا	اليه مـــن ذاك من أمـــر لمؤتمـــر

الى آخر القصيدة التى تناهز التسعين بيتا .

هؤلاء الذين تقدموا ، كلهم او جلهم كانوا فى ركاب الدولة ، او على اتصال بها ، فى السياسة او فى الحكم ، ومنهم القضاة كما راينا ، ولهذا تردد ذكرهم فى كتب التواريخ ، السياسية غالبا ، اما غيرهم فقليلا ما نظفر بآحادهم ، ومن هؤلاء الآحاد ومن القضاة ايضا محمد بن حسن بن عمر الفهرى السبتى المعروف بابن المحلى ، كان من تلاميذ ابن خروف وابن الشلوبين وابـــى الصبر ايوب ، وغيرهم من كبار علماء العربية بسبتة ، فخرج اديبا بارعا كاتبا بليغا ، ناظما ناثرا ، نحويا ماهرا ، حسن القيام على تفسير القرآن ، عاقدا للشروط مبرزا فى العدالة ، وغير هذا يشهد بتفوقه تولى قضـــاء سبتة ، بعد الشريف ابى الحسن بن ابى الشريف ، واستمر حتى وفاتـــه سنة أحدى وستين وستمائة ، وولادته عام 582 . ومن قبل القضاء ، كتـــب عن أبى عبد الرحمن يعقوب بن أبى حفص بن عبد المومن ، أيام ولايتـــه حاضرة فاس ، ثم صحبه الى مراكش ومن شعره :

تعشـــق قلبـــا انـــت مطلبـــه	او يذهب الشوق روحا انت مذهبه
(ما رام صرف) هوى خلق ليغلبه	الا وحبـــك يدعـــوه فيغلبـــه
وكيف يرجو وصالا مـــن تبعـــده	أو كيف يخشى بعادا من تقربـــه
وكيف يخـــرب ربـــع انت تعمره	بل كيـــف يعمر مسكون تخربـــه

وقال اهل الهوى شأن الهوى عجب   فقلت ان سلوى عنك أعجبه
والعتب فى سلوة الاحباب موقعه   عذب ولكن عتاب السر أعذبه
وكل حال الهوى صعب مسالكه   على المحب وسمع العذل أصعبه
يا من أناجيه والاشواق توهمني   نيل الوصال كأن الشوق يوجبه
كم طيبة لك بالالطاف توجبها   عند اللقا ومنائي منك أطيبه
فارحم تقلب قلبي فهو شيمته   حتى تكون بما ترضى تقلبه
رفقا به فهو فى حالي مناقضة   فالقبض يحزنه والبسط يطربه
ومنة الجود تدنيه فتؤنسه   وخشية الرد تقصيه فتحجبه
مناى أنت وحسبي أن تكون منى   ياواهبا رغباتي قبل أرغبه
كن كيف شئت فمالي عنك منصرف   فما لعبد سوى مولاه مطلبه (1)

هذه القصيدة فيها ريح من قصيدة ابن زريق البغدادى :

لا تعذليه فان العذل يولعه   قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

والغالب أن موضوع قصيدتنا كان المدح لأمير من أمراء الموحدين ، ولعله المذكور قبل ، ينم عن هذا البيت الثالث قبل الاخير .

ومنة الجود تدنيه فتؤنسه   وخشية الرد تقصيه فتحجبه

وقد أقامها على هذا النقيض الذى احسن وصفه تمام الاحسان ، وقد أسفر عن هذا النقيض البيت :

ففى هذا الاعتذار الوارد فى البيت قبل السابق :

رفقا به فهو فى حالى مناقضة   فالقبض يحزنه والبسط يطربه

وعلى كل حال فالابيات فى نفسها رقيقة شفافة ، على غموضها فى مقصدها ، وربما تكون من قبيل المناجاة الالهية :

يامن أناجيه والاشواق توهمني   نيل الوصال كأن الشوق يوجبه
كم طيبة لك بالالطاف توجدها   عند اللقا ومناى منك اطيبه
فارحم تقلب قلبي فهو شيمته   حتى يكون بما ترضى تقلبه (2)

---

(1) الاعلام للعباس ابن ابراهيم ، وما بين هلالين فى هذه وفيما بعدها فهو منا استظهارا .
(2) لعله يومىء الى الحديث « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » وحينئذ فهى مناجاة الهية .

ومن هذا النسيب — ان كان — الرقيق قوله من قصيدة :

ابوح بما القاه فهو مباح   فقبلي ارباب المحبة باحوا
اذا باح من قبلي ولم يلق بعض ما   لقيت فاني ما علي جناح
احبابنا لا تحسبوا الصبر بعدكم   سخيا ولا أن الدموع شحاح
وان فنيت اجسادنا وقلوبنا   فتلك العهود السالفات صحاح
سمحت لكم بالنفس كي اربح الرضى   على ثقة ان السماح رباح
فؤادى منقاد اليكم مذلل   فمالي اذا لج العذول جماح
وهى من سبيل ان اطير اليكم   وقد حص بي ريش وقص جناح
تغير وقتي بعدكم فكأنما   صباحي مساء والمساء صباح
واوحشتم فالكل فى الاذن نائح   لدى وآفاق الوجود (صياح)
وما تفضل الأيام اخرى بذاتها   ولكن ايام الملاح ملاح
خرست عن الشكوى اليكم مهابة   والسن حالي بالغرام فصاح
تمتع لحظى سنة فى جمالكم   فان لاحظ الاغيار فهو سفاح
وياعجبا اني اسير وانني   اناشدكم أن لا يتاح سراح
اذا هز ارباب السماع تواجد   فحظي منه زفرة وصياح
فها أنا عند الباب منوا او اطردوا   فما لي عنه كيف كان براح

وهو نسيب يمكن أن يكون فى الذات الالهية كذلك ، فيه انسياب ماء الجمال الشعرى ، ولا ينبو فيه الا « الكل » فى البيت :

واوحشتم فالكل فى الاذن نائح

أما « الأغيار » فى البيت :

فان لاحظ الاغيار فهو سفاح

فيشفع لها كونها اصبحت من تعابير المتصوفة ، الذين ربما كان منهم هذا الأديب ، على أن « الكل » نفسها ، صارت من استعمالهم وكذلك يعد من هذا القبيل نونية :

غرامـــي دعاني والعذول نهانـــي ... فوجـــد وعـــذل كيـــف يجتمعـــان
أما علما اني على الشحط والنوى ... مقيـم وانـــي والهـــوى أخـــوان
يقولون لي من ذا دعاك لما نـــرى ... فقلـــت دعانـــي حبـــه فدعانـــي
ضمان على قلبي الاسى بعد بعدهم ... اذا لم يكن يـــوم اللقا بضمـــان
أعلـــل نفســـي بالسلـــو تعلـــلا ... وتلـــك أمـــان ما بهـــن امـــان
اذا خفق البـــرق اليمان بأفقكـــم ... اقابـــل ذاك الخفـــق بالخفقـــان
وان همات مزن السحاب بأرضكم ... يغالبهـــا دمعي عـــلى الهمـــلان
رعى الله جيران العذيب وأهلـــه ... وان أترعونى من هـــوى وهـــوان
هم وعدوا بالغـــور ثم تراوغـــوا ... وهم عنفـــوا بالعنـــف من بـــدلان
وصدوا على صدى وبالخيف خوفوا ... وبانوا ببذات البين صوب أبـــان
لئن حجبوا عـــن ناظرى فكأنهـــم ... لقلبـــي يراهم فيـــه رأى عيـــان
وان عميت انباؤهم حيث يممـــوا ... فـــسرى يراعيهـــم بكـــل مكـــان
وعندى ما لا يمكن الشرح لفظـــه ... وان كنت وان (والفصيح) بيان (1)
أورى بسلـــع والعذيـــب وحاجر ... وتلـــك مغـــان ما لهـــن معـــان
أليس قبيحـــا من نفوس نفائـــس ... بأيـــدى الغوانى المصبيات عـــوان
واذكـــر سكان العذيـــب تستـــرا ... وما ذكر سكـــان العذيب بشانـــي
(أسر بقلبي) من هو القلب كله ... ومـــن ذكره فى خاطـــرى ولساني
(ومن هو ان) لاحظت لم أر غيره ... عـــلى أنـــه اذ لا أراه يرانـــي
(واني لا) ستحييه ان اشكو الهوى ... وما لي بمـــا حملت منـــه يـــدان
ومن فضله وجدى بـــه وتوليهـــي ... ومن جوده مـــا اشتكى واعانـــي
ظهـــرت عـــلى حبي له فكأنمـــا ... يراني لمعنى الحـــب حين يرانـــي

والابيات الاربعة الاخيرة من هذه ، واضحة فى كونه يعنى الـــذات الالهية ، ويسود هذه القصيدة التلاعب بالالفاظ ، الذى ولع به المتصوفة ، كما نجد فى أساليب المتصوفة ، من العرب والفرس خاصة ، فمن أولئك ابن الفارض ، مثلا ، ومن هؤلاء عبد الله الانصارى والسبب فى هذا النوله بها والرمز فيها ، وهم أهل رمز منذ القديم ، وفيهم الحلاج ، الذى قال :

(1) بالاصل « والفصل » ولا يستقيم ولا يتزن الا بنحو « الفصيح » والكلمه قبله مصحفة لم يستبن لى صواب فيها . وقد رجعنا الى « الذيل والتكملة » الذى نقل عنه ابن ابراهيم فلم نجد به صاحب الترجمة ولا شعره . كما أن هذا التصحيف حوفظ عليه فى الطبعه التى أخرجها الاستاذ بن منصور .

أرى قدمـــــي أراق دمـــــي

وكانت سبتة قد أصبحت موطن المتصوفة ، وفيها قبل ذلك العهد ، مثل أبى العباس السبتى وعلى المسفر ، الذى ترنم بقصيدة ، قالها مـــن سبقوه ، من المتصوفة واحتفظ بها فى جيبه ، حتى اطلع عليها بعد الوفاة ، فاعتقد انها له ، ووقع فى هذا الخطأ الحاتمى ، وتبعه بعضهم ، فوقع فيما وقع فيه ، ولو اطلع على ما صدر عن هؤلاء الاقدمين ، وعلى مرأى ومسمع من الحاضرين ، لما وقع فيما وقع .

والقصيدة التى نعنيها هى النونية :

قــل لاخــوان رأونـــي ميتـــا	فبكوتــــي اذ راونـــي حزنـــا

ذكرها ابن العربى فى محاضرات الابرار ، وقد اكتشفنا فكشفنا خطأه فيما نشرناه ، منذ خمس عشرة سنة أو يزيد وفيها نعنى المحاضرات ، ذكر أبيات أخرى له ، وهى :

يا أيهـــا المبتلـــى بذمـــي	قـد علـم اللــه مـا تقـــول
فالقــول ان خـف فى لسانـــي	اخانـنـــي وزنـــه الثقيــــل
وحافــــظ كاتـــب شهيــــد	يكتـب عنـي الـــذى اقـــول
من حاســب النفــس كل حــين	لــم يتهـــاون بمـــا يقـــول

ومن الادباء المغمورين عثمان بن سعيد بن تولو القرشى التينملى ، المولد ، والمتوفى بمصر عام 605 ، وهو القائل فيها :

يا أهـــل مصر رأيت أيديكـــم	عــن بسطها بالنــوال منقبضـــة
فمــذ عدمــت الغــذاء عندكـم	اكلــت كتبـي كأننـي قرضـــة

ومنهم محمد بن على السلالقى ، توفى كذلك فى نفس التاريخ ، ويقال انه كانت له شهرة بمراكش ، ومن شعره :

أتــرى يجمــع شملــي بكـــم	ابــدا يا اهــل نعمـــان الأراك
كــل يــوم انـــا شـــاك منكـم	وعليكـم انا طــول الدهر بـــاك

وبعد فان الدولة كانت تختلف عن سابقتها بأنها قامت على اكتـــاف العلم والأدب ، ولم تقم على اساس الرباط والجهاد المجرد ، فكان مـــن

ملوكها وأمرائها ادباء سبق ذكرهم ، وعلى راسهم عبد المومن ، الذى ورث بنيه وأحفاده أدبا ثريا .

فمن البنين ، ابوعمران ، ومن الاحفاد أبو الربيع ، ثم من جاء بعده من بيت الخلافة ، الى ان لفظت انفاسها الأخيرة .

ويذكر ابن عذارى فى بيانه ، بعض القطع الشعرية لابى عمران ، بعد ما وصفه بأنه من الأدباء والخطباء الشعراء . كتب اليه قاضى مراكش ، عند تغيبه ببيتين تعمد فيهما — لا محالة — قافية عويصة ، لاعتمادها على الثاء ، فأجابه بديهة بقوله :

اتتنـــا منكـــم درر فحلـــت	محـــلا اوجبـــت منـــا انبعاثـــا
ولـــولا العذر مـــن سبب قـــوى	لصرنـــا نحوكـــم حثـــا حثاثـــا
ولاكنـــا نســـير بحـــال ود	اليكـــم مصبحـــا يـــوم الثلاثـــا

وقال وقد انحبس المطر عن مراكش التى كان بها ، ثم أمطرت السماء :

وغيث همى فـــوق متن الربـــى	فشبهته جـــود اهـــل السيـــاده
اتانـــا علـــى رغبـــة فانثنـــى	وقـــد بلـــغ الكـــل منـــا مـــراده

وكتب الى أخيه الأديب أبى زكريا ، صاحب بجاية بالابيات :

من ساد وهو صغير كيف تحسبه	يبقيه ربى اذا ما كان فى الكبـــر
ومـــن يقول امـــير المومنين ابـــى	فتلكم الغاية القصوى لمفتخـــر
أضحت بجاية فى التمثيل هالتـــه	وظل يطلع فيهـــا مشبه القمـــر
بدر بـــلا كلـــف در بـــلا صـــدف	ماء بـــلا كـــدر نـــار بلا شـــرر

وأجمل ما فيها البيت الأخير .

هذا ما كان فى أوائل الدولة ، أما فى أواخرها ، وهى تلفظ نفسها الأخير ، فقد تقدم من ذلك بعض ما قاله الخليفة المرتضى ، فى ربيع الاول شهر المولد النبوى . وفى أيامه الاخيرة ، نجده يرثى نفسه ، وقد مثل لعينيه مصيره المفجع الذى سرعان ما انتهى بقتله ، فى قصيدة خماسية ، يقول فيها :

تهـــر المنية تحت الترب اسكننـــى	وما أخذت من الدنيا سوى كفنى
فيابنـــى ويا الفـــى وياسكنـــى	تالله لو كان لـــى حكم على زمنى

يومـــا مـــن الدهـــر ما فارقتكـــم أبـــــدا

تركتهم بـــين تشتيـــت ومجتمـــع وبـــين باك مـــن اللذات ممتنـــع

ونسوة بالفنا يبكـــين من جـــزع البست من بعد عرى أهون الخلع

ومـــا مـــددت لهـــم يـــوم الـــوداع يـــدا

أنا الغريب بأرض ضاق مسلكـــه مـــع البنـــين ولكن كنـــت أملكه

ما كان ظنى صغيـــر القوم اتركـــه فى حجر مرضعة يحبو فتمسكـــه

بالرغـــم منـــى تركـــت المـــال والولـــدا

طمعت فى الروح أن يبقى معى فأبى لمـــا تحقـــق أن الأمر قد وجبـــا

ونـــال صرف زمانـــى كل ما طلبا وصرت مستوحشا من جملة الغربا

وعنـــد قطـــع رجائـــى لـــم اجـــد أحـــدا

عـــين الزمان أصابتنـــى بنظرتها واذهبت عزتـــى فى طول مدتهـــا

عجبت من بطئها عنى وسرعتهـــا وكيف مازجنى تلوين صبغتهـــــا

فى حـــين فـــارق منـــى روحـــى الجســـدا

وقد ذكر له ابن عذارى غير هذا ، وقال انه وقف له على سفر مجلد مـــن شعـــره .

ولنقف عند هذا الحد نحدد به خطوط الأدب المغربى فنجد فيه أدبا يشمل الشعر والنثر كما يضم اليه حركة التاليف التى ظهرت فيه بمظهـــر قوى وبنشاط يصوره المغرب نفسه . بعد ما كان عالة على غيره أو منتجا فى غير أرضه او متجليا فى انتاج غير المغاربة فى قطره . وقد لاحظنا ان هـــذا الأدب بدأ يتخذ لنفسه كيانا يتميز به ـــ بعض الشىء ـــ عما كان عليـــه من تقليد محض للاندلسيين ، وانه صار يشق لنفسه طريقا وسطا علـــى

احد جانبيه الاندلس وعلى الآخر الشرق الذى كان قد حمل منه — بعد الاندلس — كثيرا من ثقافاته مباشرة وذلك بواسطة جماعة من الأدباء كان منهم محمد بن تومرت اذ اننا فى هذه المرحلة بالذات وجدنا الاتجاه الى الشرق يقوى فى رجال المغرب .

انتهى الجزء الاول

ويليــه الجزء الثاني

فهرس الموضوعات

الصفحة

دار الثقافة
الدار البيضاء

صــدر عــن :

روضة التعريف بالحب الشريف 1 – 2	تحقيق د. محمد الكتاني
محمد اقبال مفكرا اسلاميا	د. محمد الكتاني
الخوارج في بلاد المغرب	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
سوسيولوجية الفكر الاسلامي 1 – 2	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
تأملات في الأدب المعاصر	د. ابراهيم السولامي
كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة	الحسن المرادي : تحقيق د. علي سامي النشار
الأصول : دراسة ابيتسيمولوجية	د. تمام حسان
مناهج البحث في اللغة	د. تمام حسان
اللغة العربية مبناها ومعناها	د. تمام حسان
اللغة العربية بين المعيارية والوصفية	د. تمام حسان
المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين	د. محمد نجيب البهبيتي
المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ 1 – 2	د. محمد نجيب البهبيتي
تاريخ الشعر العربي	د. محمد نجيب البهبيتي
أبو تمام الطائي	د. محمد نجيب البهبيتي
أحاديث عن الأدب المغربي	العلامة عبد الله كنون
تفسير سور المفصل من القرآن الكريم	العلامة عبد الله كنون
رسائل ابن علي الحسن اليوسي 1 – 2	تحقيق الأستاذة فاطمة خليل
زهر الأكم في الامثال والحكم 1 – 3 لأبي علي الحسن اليوسي	تحقيق د. محمد حجي و د. محمد الأخضر
وقعة وادي المخازن	د. ابراهيم شحاتة حسن
فلسفة بيكون	د. الحبيب الشاروني
تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية	الدكتور لبيب يونان رزق
عالم شاعر الحمراء .	الأستاذ عبد الكريم غلاب
دفنا الماضي	الأستاذ عبد الكريم غلاب
الأدب السياسي عند عبد الكريم غلاب	الاستاذ أحمد فطري

رقم الايداع بالخزانة العامة 384 / 1981

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الثمــن : 30.00 درهما